عوائق الديمقراطية
من منظور نفسي تحليلي

– دراسة –

المحللة النفسية
د. مرسلينا شعبان حسن

اســـم الكتـاب: **عوائق الديمقراطية من منظور نفسي تحليلي / دراسة.**

اســـم المــؤلف: **د. مرسلينا شعبان حسن.**

الترقيـم الـدولي: **ISBN: 978-9933-567-26-2**

النـــاشــــــــــر: **دار عقل للنشر والدراسات والترجمة.**

سنـة الطبـاعــة: **2019.**

جميع الحقوق محفوظة لدار عقل

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار عقل للنشر والدراسات والترجمة

سوريا - دمشق - جرمانا - ص.ب: 249 جرمانا

هاتف: 00963115618956

00963115637060

خلوي: 00963932832010

aklpublishing@gmail.com

إهداء

إلى روح البروفيسور عدنان حب الله..

حاضراً لم يغبْ..

وفاءً وشكراً لن ينقطعا أبداً..

لنبل ما أعطى وروعة ما خط من نبوغات لم تخبْ يوماً..

باكورة منشوراتي في الفكر النفسي السياسي

من منظور نفسي تحليلي..

استمراراً للعطاء ورد العطاء..

مرسلينا

تقديم الكتاب

بقلم البروفسور: عادل عقل
دكتور في الطّب النّفسي والتّحليل النّفسي
المركز العربي للأبحاث النفسية والتّحليلية

كثُرت الأسئلة وتنوعت الأجوبة عن أوضاع الجماعات الإنسانية، وطرق عيشها وكيفية تنظيم السلطة فيما بينها.

في هذا الكتاب نتعرف على مقاربة نفسية اجتماعية حاكتها السّيدة مرسلينا شعبان بعد مطالعات وخبرات عيادية أنارت الكثير من جوانب الحراك في مجتمعاتنا.

نتعرف بوساطة علم النّفس على الفوارق في الشّخصيات، وتنافر أو تناسق الطّباع فيما بينها. ومن هنا تحتاج كل جماعة أو "دولة" إلى التّوافق على نمط أو إطار للحكم حسب ما يجمعه المفكرون أو الفلاسفة أو الأحزاب أو العقائديات أو الجيوش أو الأديان.

تنمو المجتمعات بنمو الأفراد عامة، أو ببعض من الطبقة الحاكمة التي تحقق مجال التّطور العام، وذلك بالمساعدة على تحصيل المعرفة، وتوازن الطّلبات والحاجات بأنماط متعددة.

ويبقى أن فكرة الأب المثالي الذي يخلق الرّابط بين الإنسان وطفولته تكون مستوى العلاقة بين الناس، والحاكم أو نوعية الحاكم.

هذا يستوجب نوعاً من التوافق على حقيقة ما للتّعامل، تمثل نقطة التلاقي والقبول كالقوانين التي ترعى مسار الناس فيما بينهم، وبين الناس وأولياء الأمر في المجتمع.

كل تحرك فردي أو جماعي لا محالة تحركه عوامل نفسيّة خاصة ومتعددة، من الحب والغضب والبغض والحقد والعدوانية والملاطفة إلى ما هنالك من مشاعر، تحرك الفرد والجماعة إلى سلوكيات عديدة، حيناً متضاربة ومتناسقة حيناً آخر.

منذ نشأة الطّفل يوجد عنده تفاعل مع الذات المفكّكة وهو يحتاج إلى لم شملها بصورة الآخر كما عرضه Lacan في "Stade du miroir" وهذا يخلق عنده العدوانية، عدوانية تجاه الذات وتجاه الآخر، وبعدها نشهد عودة المكبوتات عند الفرد وهذا يؤدّي إلى قتل الآخر مع ما يجتمع عنده من مبررات لذلك (كتاب مرسلينا). وفي النّهاية ستكون الكلمة الأخيرة لنزعة الموت التي تعمل دائماً في الخفاء على غير علم من صاحبها.

لقد قاربت د. مرسلينا شعبان حسن الكثير من الأفكار والنّظريات المتعلقة بطبيعة الإنسان عامة، لما لها من التّمرس في الحقل النّفسي وخاصة لما تعيشه في جو المجتمع العربي مؤخراً بما فيها من التّفككات والتّقلبات والصّراعات.

لقد تطرقت لنشوء الأنا والتأثيرات اللاشعورية، والأفعال الإرادية واللاإرادية، ومفهوم الأنا المثالي ومثال الأنا. وللسّيدة مرسلينا إضاءة على ثقافة نفسية تربوية جديدة في ظل الحراك الشّعبي العربي، وهذا فصل مهم في تعليم الأجيال ونشأتها مع منهجيات تربوية جديدة. وهنا نستعيد مقولة Freud خلال محاضرة لسيدة تسأله ما الطّريقة الفضلى لتربية النشء على أحسن ما يرام ومن دون أخطاء؟ فكان جوابه: «مهما تفعلين من حسن رعاية فإنك ستخطئين».

ونحن اليوم بصدد التّعرف إلى الموضوع العلمي والبعد عن الأساطير، لكن هذه النقلة لها كلفة التّضحية (بين الأضاحي والمقدس).

وبعد السّرد للسّيدة مرسلينا نراها تطرح موضوع الوجود عند الإنسان أين وجد وأين كان، وكيفية تعاطيه مع الإنسان الآخر فرداً أم جماعةً. وهنا نرجع إلى مواضيع عدة طرحت مع Huntington وFukuyama عن صراع الحضارات ونهاية التاريخ. ورغم تعدد الأفكار وصراعات التاريخ لا بد من وجود حوار إن كان على مستوى

الأفراد أو على مستوى الجماعات والحضارات ومن الممكن أن يوصلنا الحوار إلى مأزق وإلى صراعات وحروب. وهنا يبرز مفهوم الدّيمقراطية والليبرالية وحرية التّبادل. ولكن وجود الفقر والجهل والتّخلف، يعمق الفوارق بين الجماعات، ويؤدي إلى فرض المواقف، والأفكار تحت تسمية شعارات تطغى على جماعات وتقودها إلى الصّراعات والحروب. وهذا كان في سياق التاريخ على مدى العصور والأزمنة.

نعيش الآن صراع التّيارات الدّينية السّماوية، وهذا ما يجعلنا عرضة للتّجاذبات والتّناقضات، وكأنّ الإنسان باقٍ في صراع ذاتي داخلي بين المعرفة والمتخيل. هنا تبرز مقاربة السّيدة مرسلينا بالسّعي إلى التّعليم وتنمية الذات، والانفتاح على الآخر للتّقارب وليس للتّحارب. فوجب الإسراع بوضع المنهجيات التّربوية من منطلق مفهوم الحريّة العامّة والحريّة الشخصية، ومفاهيم الحياة العصرية خاصة وحقوق الإنسان ومنطق الحوار.

إذاً علينا التّنبه والحؤول دون الوقوع في شباك التّعاليم الغربية المعلبة، وخاصة مفهوم الاستهلاك، والأمل بالماديات، والاكتشافات بما تعطي من رفاهية وسعادة، وهنا نستعيد ما كان يقوله "جاك لاكان": «ما تمنحك إياه الحداثة تأخذه منك في مكان آخر». علينا أن نستعيد أمل التّحاور بين الحضارات والجماعات، ما يوجب وجود ساسة وقادة فكر طامحين إلى التّلاقي والتّقارب والتّعايش بمقومات "إنسانية" و"متعددة" سواء في اللغة أو العرق أو الدين أو اللون حتى لا تطغى الرّوح العدوانية النفسية الموجودة عند الكثير من الأفراد والمسؤولين. فالأفراد والجماعات العربية عليها كما يظهر الآن، السّعي إلى الدّيمقراطية الحقة وحقوق الإنسان ومساواة المرأة بالرّجل.

هذه مرحلة أزمات، تضيء فيها "الدكتورة مرسلينا" بخبرتها وتكوينها في التحليل النفسي بإشراف أكاديمي ومنهجي رصين معبر عن التلمذة والإشراف من قبل المرحوم البروفسور عدنان حب الله مؤسس المركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية، تضيء على العديد من صعوبات مجتمعنا العربي، ويبقى الأمل في همم الشّعوب.

مقدمــة الكتــاب

بقلم المؤلفة

نختبر في كلّ حين أهمية الحوار والتواصل من خلال الانفتاح على الآخر، إذ إنَّ الحوار والتواصل آليتان نفسيتان لهما فعاليتهما في البناء الاجتماعي، كما يعدّان درعاً واقياً للدّيمقراطية الحقّة في مواجهة مخاطر العنف والانفجار اللّذين يعقبان فترات الاستبداد والتّسلط، ويقابلهما ردّات فعل من السّلبية والاستسلام في المجتمع المتغير، فبعد أن فاض الكيل في تردي الحال في واقع حياتنا اليوم في هذه البلاد العربية التي عايشت أزمات حادة في مسيرتها نحو التّبدلات القائمة في الحياة السياسية، التي أرخت بظلها الخانق على الحياة الاجتماعية لمواطنيها، أعقب ذلك فترة ذهبية من العمل الجاد للوصول إلى عيش التشاركية والانفتاح على الطاقات المختلفة كلها في تلك البلاد، إذ إنّ في كل بلد عايش أحداث شارعه وصخبه لوحظ بعدها أنّ الدّيمقراطية والحريّة تعاش فيه، بِبُعد جغرافي محدد وخصوصية في المحيط الاجتماعي، إذ ليس ببعيد عن أحد قبول حقيقة أن لكلّ بلد خصوصيته البالغة.

هناك أمم كثيرة اختبرت، وما زالت تختبر عملية سلب حريّة الفرد أو الجماعة، وبالتّالي حراك الشّعب في أية أمّة يتجه سعيه لهدف وهو تهديم عام لمنظومة الحكم السائد التي جعلت الشارع يتململ ويثور على الرتابة والاستبداد، في سبيل نيل حريّة الإنسان على أراضي هذه الأمم، وعيش العدالة الاجتماعية في مناخات من مشاركة الآخر في القول والفعل، لكون الحريّة والدّيمقراطية، هما أبهى وجه للوجود الإنساني بصورة عامة، على اعتبار أنّهما يمثّلان التّحقق والتّجسد الصّحي للإنسان، في سياق التواصل الإنساني الفعّال مع الآخرين.

ولما كان وجود الإنسان بمفرده هو "وجود ناقص" كونه وجوداً غير قابل

للتّحقق والاستمرار، كما أنه لا يمكن لأي فرد مهما علا شأنه أن يبدع وحده وأن يبتكر بمفرده، فلكي تتفجر ما لديه من مواهب وقدرات، لا بدّ من حضور الآخر في مخيلته، حيث إن الآخر هو مرآة الذات التي يكتشف من خلالها نفسه والتي لا تتألق بدونها نفس، وليكون له رأي وفكرٌ وموهبة، من كون الرّغبة في الآخر هي المحرض للإرادة في السّعي إلى الوجود الحق...

لعيش الحريّة مؤشرات على وجود الفرد المنسجم لا المأسور في الحياة العامة سواء المهنية منها أو الاجتماعية، وبتعبير أدق وصول الفرد الواعي لوجوده في هذه الجماعة.

ولمّا كان التّحليل النّفسي ووفقاً "لجاك لاكان" هو العلم المعني بدراسة الذات الإنسانية، وفقاً لأسس الخطاب العلمي المتمثل بـ"خطاب ديكارت" والذي لخصته عبارته الشّهيرة "أنا أفكر إذن أنا موجود" هذه العبارة بمضمونها تعدّ تكريساً لفصل الدّين عن الفكر، من خلال حصر الوجود الإنساني وفقاً لـ "ديكارت" بالذات المفكرة، فتم بذلك قطع الصلة ما بين الموجود وعلم الغيب، وهذا ما يفسّر غياب التّحليل النّفسي عن بلدان العالم الثّالث، وأيضاً غياب الدّيمقراطية من حيث إن الدّيمقراطية تقتضي وجود المنطق العلمي عبر قبول المختلف، وهذا ما حدا بالعديد من رجال الدّين إلى استغلال ذلك لأقصى حدود الاستغلال في بلادنا العربية، وذلك كله عبر توظيفات متراكمة لعقود، بل لقرون رعتها السّلطات الحاكمة، ليكون بذلك الموت السّيكولوجي المحقق ما بين "الأنا وحدية" وفقاً لما يراه "فتحي بن سلامة" المحلل النّفسي الجزائري المعروف، والذي استخدمها بمعنى الأنا المنعزلة المتفردة بذاتها، وما بين ظاهرة العبرية والتّوصيف لابن سلامة أيضاً، والذي يوضح معنى "العبرية": بمعنى الإقبال على الآخر والسّعي إلى الوصول إليه، حيث يظل الفرد أسير حالة عبور في الآخرين، يغوص فيها أكثر ليفهم ذاته، وليكون صمت الشّخص، وكلامه حالات انعكاس لظاهرة بداية الوعي الاجتماعي، الذي تشكل في أحضان العصر الوسيط، قبل الثّورة المعرفية في أوروبا، تلك الحقبة التي كانت شعوب أوروبا فيها

عاجزة عن المواجهة الصّحية السّليمة لإشكاليات الانتقال للعصر الحديث، من خلال عيش الدّيمقراطية، فكثيراً ما سمعنا من خلال ما قيل ويقال: إنّه ليس هناك حاكم متسلط مستبد، دون جماعة مستسلمة. ليكون ثابت القول هنا: إنّ العلاقة بين الفرد والجماعة، هي ملخّص لتاريخ الإنسان بمراحله كافة ودورة حياته المختلفة من الاعتمادية إلى الاستقلالية الجزئية والبدء بتحقيق معطيات لإدراك الأنا الشّخصي والأنا الاجتماعي ضمن فضاء رحب للذّات منسجم مع معايير قيم المجتمع، المتمثلة وفقاً لمفردات التّحليل النّفسي "بالأنا الأعلى" المعبرة عن ضمير المجتمع في السّمو والرّفعة.

لقد غُيّبت الدّيمقراطية في البلاد العربية وصُودرت حقوق الإنسان، تحت مبررات التنمية وتحرير الأرض، وفقد بذلك المجتمع العربي بنيته القديمة بمختلف معاييرها الأخلاقية، كما أُغلقت أبواب المؤسسات الليبرالية ومُنعت النقابات والانتخابات أن تسير بأسسها المفترضة لهذا المفهوم، وبذلك كانت النتائج مدمرة على مستوى التّنمية التي لم تفشل فحسب، إنّما ربطت الاقتصاديات الوطنية بشكل كلي في عجلة التّبعية للرّأسمال العالمي، وتمّ تغييب الجماهير عن دورها، وغيبت الحقوق والحريّات، وأصبحت الدّساتير نصوصاً جامدة، لا تقدّم ولا تؤخّر، وتفاقم القمع إلى درجة ما عادت هناك فئة اجتماعية قادرة على رفع صوتها، أو التعبير عن رأيها بما يحدث، وانشغلت النّخب الثّورية إثر الحقب النّفطية بعد حرب تشرين 1973 بإشباع نزعتها للاستهلاك، والبحث عن الكماليات، أو بامتهان صيغة المعارضة السياسية للحصول على دعم من الأعداء، كما استمرت مهمة اللجوء السياسي، وإصدار البيانات البكائية تارةً أو التي تحمل التّهديد، والوعيد للنّظام تارةً أخرى، ولكن يتم ذلك كله خارج الوطن. (قيس خزعل جواد، 1986).

ولكون التّعددية تعبر عن مركبات مهمة في الدّيمقراطية: من كون مبدأ التّعددية: يقوم على الاختلاف والتّنوع بين الأفراد والجماعات التي يتكون منها المجتمع وتعني أيضاً حق كل مجموعة في التعبير عن اختلافها عن باقي المجموعات والسّعي من أجل تحقيق أهدافها ومصالحها، كما يمكن للاختلاف بين

الأفراد والجماعات أن يكون على أساس اقتصادي، واجتماعي، وثقافي، وسياسي ومؤسساتي.

فالاعتراف بحق التّنوع بين البشر وبين المجموعات المختلفين بطبيعتهم عن بعضهم البعض في الحاجات، والمصالح ووجهات النظر هو مبدأ للتعايش المجتمعي ينعكس غنىً ودافعاً للتّنمية والتّطوير بكل أشكالها ومقاييسها وذلك عبر:

- توزيع القوة في المجتمع وخلق توازن بين سلطات الحكم المختلفة من جهة وبين منظمات ذات مصالح مختلفة بَلْ ومتضاربة.
- إعطاء شرعية لصراعات النّفوذ والقوة بين الأحزاب والمنظمات المختلفة عن بعضها البعض من حيث الأهداف والمصالح.
- مشاركة المواطنين في الحياة السياسية بحسب مبدأ حكم الشّعب.
- وجود منافسة حرة بين مختلف المجموعات وفق معايير وقوانين ناظمة تمنع التّعدي.

تُرى: هل سيكون قريب المنال يوماً ما، إدراكنا للعمل وفق مقتضيات التّنوع والمشاركة؟؟

ليعطي ضماناً أساسياً لعيش الدّيمقراطية وتخطي عوائقها، سؤال برسم جميع من تصلهم كلماتي..

مع رجاء الإسهام كل من موقعه في العمل على هذا المشروع الجديد لنمط حياة جديدة، نلمح من بعيد لتجارب العالم المتقدم، أنّ في ذلك الحل والعقد، كشكل أنسب لتاريخه في أسلوب الحكم والعيش بما ينعكس على الأفراد أو المؤسسات...

في كتابي هذا وعلى متن فصوله الاثني عشر حاولت أن أعالج الأبعاد الحياتية المجتمعية والسياسية من خلال رؤيتي النفسية بصورة عامة وإسقاطات علم النفس التحليلي بصورة خاصة على الأمور التي وجدتها هي العوائق للديمقراطية في وجودها الحالي والمكرس له من عقود بعيدة في هذه الأرض المباركة على امتداد عالمنا العربي في جغرافيته ووجوده القائم منذ منتصف القرن الماضي وحتى إنْ كنّا نتوخّى دقة التأريخ يعود ذلك إلى بدايات الحرب العالمية الأولى.

فصل تمهيدي للدّراسة

1- نحو أفكار نفسيّة إيجابيّة لزمن عصيب

إنّ حراك الشّارع العربي الّذي وضحت أهدافه، كان يرمي ظاهرياً إلى إشادة دولة مدنية تُعاش بها الحياة، وفق مبدأ العدالة الاجتماعية الذي يحفظه القانون بعيداً عن سمّ الطّائفية والإثنيات المختلفة، ولكن ما خفي واتضحت معالمه كان غير أصيل في جوانب عدة، وبكيفيات وممارسات للمعارضة السياسية في أكثر من بلد عربي، وأخص منها على وجه التحديد بلدي سوريا.. ومن القراءة الواقعية لعيش الديمقراطية والتطوير الثقافي في عالمنا العربي، لا بدّ من دفع ضريبة باهظة لهذه الحداثة على ما يبدو ما زالت بلداننا يتعذر دفع استحقاقاتها والمرور بمخاضها العسير بسبب التموضعات الشاذة للمفاهيم الحديثة التي مازالت غير ناضجة في فكر الدعاة لها قبل أن نتكلم عن وضوحها لدى العامة، فضريبة الفكر الديمقراطي والانفتاح السياسي وتحييد الدّين عن السياسة ما زال غير مكتمل الطرح بما يحقق مقاربات تطبيقية صحيحة لذلك، كما حصل في تاريخ الشعوب التي سبقتنا إلى هذا المناخ السياسي والفكري العام، ودفعت لذلك ثمناً كبيراً وضحايا كَثُر عددهم..

يترافق الحديث عن الحضارة بالحديث المرتبط بالحديث عن الجمال والنّظافة والنّظام دائماً، وهي جميعها عناصر تحتل موقعاً متميزاً في شروط أيّة حضارة عاشتها البشرية، فإلى جانب عناصر الحضارة الثّلاثة التي ذكرت، يشير "فرويد" مؤسس علم النّفس التّحليلي، إلى بعد العلاقات الاجتماعية التي تتضمن وفقاً لما عرضه "فرويد" ما يلي:

1- العدالة بما تتضمنه من حقوق وواجبات.

2- الحريّة الفردية التي تتعارض مع النّتاج الثّقافي.

3- التّطـور الحضـاري الـذي يفـرض علـى الحريّـة الشخصـية الكثيـر مـن الضّوابط والتّضييق.

وبذلك فإنّ التّمادي في التّضييق على الحريّة الفرديّة، يؤدي إلى بناء طباع شرجيّة (طباع سادو مازوشية) على اللائحة العيادية، وذلك من جراء تأثير ضربات الأنا الأعلى العاملة وفقاً لمبدأ الواقع.. حيث إنّ المرجع والموجه الكامن والحاسم لعملية القمع، يسمى بالأنا الأعلى، والمتمثل بالضّمير أو الوعي الجماعي الذي يتأتى من مصدر القمع الذي يطال العدوانية على الآخر، هذه العدوانية التي تخضع للكثير من وسائل القمع المتنوعة والمتعددة.

إن الآلية التّطورية تؤدي حتماً إلى التّسامي في تطويع الغرائز: غرائز التّدمير، وغرائز الحياة لنمو ثقافي يؤدي لإطلاق العنان للأنشطة الذّهنية والنّفسانية الأبرز، والأكثر سمواً وجماعية مثل الأنشطة العلمية والفنية والأيديولوجية وهي أنشطة تقوم بأدوار فاعلة ودافعة في حياة الأفراد "المتحضرين".

فحياة البشر تحكمها قواعد تنطلق من الحاجة والرّغبة، ودافع الحاجة كما تعلمون إلزامي وضروري، أمّا دافع الرّغبة فتحكمه قوة الحب، حيث إنّ العلاقة بين الحبّ والرغبة في الحياة كمؤشر على حضارة السلوك الإنساني، تظهر على نحو ما بمعادلة يؤثر كل منهما على الآخر، فالحبّ يقاتل أهداف الحضارة القائمة على كف الحبّ وصدّه، وتهدد الحضارة الحبَّ باختصار، واختزال وتضييق مؤلم للمتعة واللذة، وهنا تكمن معركة الشّخص مع رغباته ومآلاتها...

علم النّفس التّحليلي متمثلاً "بفرويد" له وجهة نظر خاصة حول التّبادلات الخفية والعلنية ما بين الحضارة والعدوانية وطاقة الحب، وذلك من خلال الرؤية القائلة: إنّ الحضارة تعمل جهدها لكي تحصر العدوانية الإنسانية، "فرويد" يرى أن هناك جدلية بالغة التّعقيد بين الحبّ والمجتمع، فالحضارة تفرض تضحيات كبرى وقاسية على الإنسان مشيراً إلى القتل، والاضطهاد والتّعذيب، ووجهة نظر "فرويد" انطلقت من كون الحضارة تعمل جهدها، لكي تحصر العدوانية الإنسانية وتحرض

طاقات الحب لتعطي ثمارها في التراث الحضاري للشعوب، بحيث إنّه وتبعاً لـ "فرويد": إنّ التّضحيات الكبرى التي تفرضها الحضارة، لا تطال فقط الحياة الجنسية والعاطفية عند الفرد، وإنّما تطال اتجاهه للتّعبير، حتى عن العدوانية والصّراع مع الآخر، ومن تطبيقات هذا الصّراع صراع بين الأغلبية والأقلية.

بمعنى أنّ الأغلبية تشكل ناموس الجماعة، وضميرها الأخلاقي والأقلية تمثل المنتمي الأصغر لقانون الجماعة، وهذا الصراع يتجلى بشكل قياسي في الصّراع بين الولد وقانون الأب.

الأب بإرثه القديم الممتد والابن بحداثته، وتمرده واختصاره للمراحل، في عيش المتعة.

هذا السّعي من الابن الذي يريد أن يعيش رغبته، بدون مراعاةٍ لقانون الأب.. من هنا وبربط المسائل بجزئياتها نجد أنّ تقدم الحضارة الإنسانية بشكل عام يؤدي إلى السّيطرة على الإحباطات الضاغطة على الحياة الاجتماعية، وبالمقاربة النفسية للواقع يمكن تفسير ذلك، بفهم آلية سيطرة النّزوات الإنسانية العدوانية على الآخر، وبوساطة نزوات التّدمير الذاتي حيث يتولد الصّراع القائم على التّدمير، إذ يبرز العارض المرضي في بنية الجهاز النّفسي تبعاً لذلك متمثلاً بلغة الكبت وفشل الكبت، وعودة المكبوت بالفعل وبالرمز، وذلك من خلال التّقاطع في العمق ما بين النّزوة والواقع على مستوى التّبادلات الوجودية، والوجدانية اليوميّة...

إن دينامية العمق في الإحساس الإنساني محكومة بحركة المكان وحركة الزّمان، وما بينهما من فراغ وغياب أو بعد.

والفراغ إذا ما وجد لا بدّ أن يتم ملؤه بالهوامات، والرّموز والتّعابير السّوية أو المرضية على أنواعها، فالفراغ هو غياب المعرفة، ولذلك لا بدّ أن يملأ إما بالمعرفة أو بالتّصورات عنها. حيث إن الفراغ في اللاوعي هو غيره في الوعيّ، الذي يشهد حركة امتلاء نسبية، والوعي هو حصيلة التّطور للحركة وللمسار الجماعي والفردي.

والفراغ بذلك يكون على علاقة بمدى وبصدى، وبرجيع الانفجار للكبت الطّويل، إذ لا شيء يخلق من عدم، ولا شيء يضيع، كل شيء يتحول حسب "لافوازييه"..

ولما كان ذكاء الإنسان غالباً ما يوضع في خدمة العاطفة كعملية دفاعية، وآلية تشكيلية للعارض النّفسي المرضي، فإنّ مفاهيم التّحليل النّفسي على سبيل المثال محكومة إلى حدّ بعيد بمنطق، ومفاهيم الفيزياء والكيمياء وثوابتها وحيثياتها وحتى العلوم الاقتصادية...

ومن هنا كانت عظمة التّحليل النّفسي كتقنية نفسية علاجية، أسهمت ممّا لا لبس فيه، لتطور علم النّفس الحديث، وتمكينه حتى أصبح علماً أساسياً من ضمن صنوف العلوم الحديثة، التي لا يمكن للبشرية اليوم العيش بدونها.

وأخيراً، وبالمقاربة النّفسية السياسية لواقع الحال في بلدنا سوريا، أجد أنّ سوريا الحديثة التي أستبصرها إحساساً قبل أن يعمل التفكير العقلاني عمله، لا بدّ أنْ تأخذ بمسار العلم لتنتعش، وتوظف القانون الطّبيعي الذي يحكم الإنسان بالفطرة، إلى القانون المدني الذي يخطه الإنسان بما يتلاءم وقانون الفرد وعلاقته بالجماعة.

هذا هو قانون المواءمة ما بين الأنا والآخر المتمثل بالمعنى النفسي السياسي بمفهوم المواطنة.. الآخر في سبيل الآخرين، هذا الآخر الذي يعمل ويخضع للضّوابط التي تلائم الأغلبية بدون ضياع حقوق الأقلية، بأن يصبح الواحد في خدمة المجموع، والمجموع في مصلحة الفرد...

حينها فقط سيأخذ علم النّفس مكانه المسؤول، وتعاش الرؤى النفسية التّحليلية إبداعاً، ونماءً بتفكيكها للعقد المتراكمة من جراء كبت الرّغبات، وعدم المصالحة مع قانون الأب بقبول الخصاء أي بقبول حدودنا، وعدم التّعدي على حدود الآخر الكبير...

فكمْ يزداد التّوق لعيش المنطق الحضاري في حياتنا اليومية الاجتماعية والمهنية، بعد هذا المد العنيف الذي عشناه في السنوات الأخيرة، وما زلنا نعيشه...

2 – الأنا المثالي (الشّفقة والنظرة الدّونية للآخر)

بعيداً عن نظرية المؤامرة والأخذ بالأسباب، يكون التّفهم لفهم الأحداث، فكل منّا له موقعه ومعطياته المنطقية والواقعية، وبطرح موضوع هذه الدراسة وفقاً لمبدأ الحتمية النفسية للتّنشئة أجد أنّ..

الشّخص المثالي: هو «الذي يعيش منذ طفولته حالة من الحذر والخوف ضمن نسق من القناعات والمفاهيم البعيدة عن الواقع، دائم القلق من الخطأ، حتى لا تنكسر هذه الصّورة المثالية التي أحاط بها نفسه نتيجة لبؤس متشدد للتّربية من قبل أسرته ومحيطه الاجتماعي».

والأنا المثالي أو الأنا الأعلى كما وصفها "فرويد": إنّها شخصية المرء في صورتها الأكثر تحفظاً وعقلانية، حيث لا تتحكم في أفعاله سوى القيم الأخلاقية، والمجتمعية والمبادئ مع البعد الكامل عن جميع الأفعال الشّهوانية أو الغرائزية.

فالأنا الأعلى تبعاً "لفرويد": «يمثل الضّمير الذي يتكون ممّا يتعلمه الطّفل من معايير أخلاقية من والديه ومجتمعه، فهو لذلك مثالي وليس واقعياً، يتّجه الكمال فيه ليس إلى اللذة بل إلى التّسامي» (معجم المصطلحات النفسية والتحليلية، 111).

فإن استطاع الأنا أن يوازن بين (الهو والأنا الأعلى والواقع) عاش الفرد متوافقاً، أمّا إذا تغلّب الهو أو الأنا الأعلى على الشّخصية أدّى ذلك إلى اضطرابها، ولما كانت أنظمة الشخصية الثّلاث: (الهو والأنا والأنا الأعلى) مستقلة عن بعضها، إذ يمكن وصف الهو بأنّه: الجانب البيولوجي للشخصية، والأنا: الجانب السيكولوجي للشّخصية، والأنا الأعلى: الجانب السيسولوجي للشّخصية (عباس، 16).

من حيث إن الجزء المتراكم من القيم الاجتماعية المستمدة من الأسرة والمجتمع بأسره، هو الضّمير الضّابط الخلقي للفرد، وفي وجوده تحترم اللباقة الاجتماعية، ودوام الكرامة الإنسانية، وفي غيابه تهان.

هناك عبارة شهيرة "لفرويد" يقول فيها: «عندما يقتل الإنسان في مقاومة "الهو" هنا تتشكل شخصية المنحرف، والمعتدي على حقوق الآخرين، الذي يسعى فقط لإشباع غرائزه، وعندما يتكون لديه قدر جيد من سمات الأنا، تتشكل شخصيّة كإنسان عادي متوافق مع مجتمعه المقاوم لرغباته بعنف، وعندما ينجح هذا الإنسان في تكوين الأنا الأعلى هنا: تظهر شخصية الرّاهب»، ويقول "فرويد" أيضاً: «أو تتشكل شخصية المؤمن المفكر العابد». مما لا شك فيه أن عمر الإنسان، هو حصيلة تناوب اللحظات في سيطرة أحد أبعاد الشخصية علينا كبشر، وتحكمنا في الحقيقة هذه السيطرة لنوازع الأنا في حياتنا اليومية، فنعيش تناوباً وتكاملاً بين كل مستوى من منظومة الشخصية من وقت لآخر، إذ هذا هو النسق الذي يفرض إيقاعه على مسيرة حياتنا الآنية وتطلعاتنا للمستقبل وفق جدلية عيش الرغبة أو كبت جماحها من جراء الخوف وضوابط المجتمع المتمثلة بالأنا الأعلى.

من هنا يأتي السّؤال الذي يستدعى طرحه، أين سيذهب هذا المخزون من الكبت عند الشّخص الذي ينشأ على الخوف؟ فيأتي الجواب وبدون تأخر: من خلال محاولتنا تفسير حالة الكبت التي نشأ عليها مثل هذا الشّخص، فلما كانت تربيتنا العربية متشكلة على الإعلاء والتّسامي والابتعاد عن المحظورات والمحرمات، والتي يلزم أن تعاش وفق جو من الطّمأنينة والثقة مع المربين ابتداءً من الأبوين إلى المعلمين في المدارس إلى الشيوخ والقساوسة في الجوامع والكنائس، وصولاً إلى النّواميس والقوانين المجتمعية عامة، في هذا الحال تبدو خطورة الكبت أخف، ولكن في حال لم تتم التربية على مبدأي التّسامي، وعيش الابتعاد عن المحرمات لأجل مبدأ سامٍ كالتّدين مثلاً، أو في أحوال أخرى لأجل قيم العائلة، فإن الشّخص الذي تمارس عليه تربية الممنوع من دون إعلاء قيمة عليا، تكون أفعاله في وقت لاحق خطيرة عليه قبل أن تنعكس على الآخرين، ولكن لما كان الإنسان دائماً وبشكل غريزي وفطري يعيش سلوكاً بدائياً، بتحكم غريزة البقاء

قبل أن يعيش بالعقل والوجدان، لذلك تظهر كل الدّفاعات لديه ليحمي نفسه، ولو كان ذلك على حساب أقرب المقربين له..

من هذه المحاكاة أصل إلى أنّ: الكبت لا طريق له للتّنفيس عن حمولته الثّقيلة على الشّخص، إلّا بأمرين:

- أولاً: إمّا المرض النّفسي، العُصاب في أحسن الحالات، أو الذُّهان في الحالات الأشد والأخطر.

- ثانياً: الجنوح إلى تشويه صورة الآخرين بإسقاط مكبوتاته عليهم، فنراه يجد نفسه فقط هو الشّخص الجيد، وكل من حوله هم من الخطأة والأشرار، وبالتّالي إسقاط الشّر الموجود داخله على الآخرين، كي يحفظ أناه المثالي في اللاوعي من التّشوه، فهو يأبى عدم الاعتراف بهذه الحقيقة، فيغدو سلوكه المثالي حالة دفاعية من درجة عالية تودي إلى عدائية الآخر وإلغائه، فالآخر غير موجود في حياته، بل الموجود هو الأنا المثالي فقط، فهنا تبدأ مسيرته من خلال التّباهي بالأنا المثالي، ثم كبت كلّ ما هو غير مثالي، وإسقاط هذا المكبوت على الآخر. (عباس، 124).

لذلك عندما يعامل الأنا كأنّه الموضوع المهجور، فيكابد كل ضروب الانتقام والعدوان الموجهة لهذا الموضوع، والتّقمص النّرجسي والتّناقض الوجداني، وتكوين الأنا والعناصر التي تدخل في بنائه، "فالأنا ملكة أو قوة تراقب وتنقد وتوازن على الدوام" (المرجع السابق، 14)، فهي بهذا تناهض الجانب الآخر من الأنا الأعلى، حيث إنّ خلق الأنا المثالي يحصل ليستعيد الشّخص الصّورة عن نفسه، هذا الرّضا الذي كان لصيقاً بالنّرجسية الأولى، السلطة الرّاصدة النّاقدة للأنا هي ما تعرف بالضّمير، وهي تعمل حتى في النّوم وترصد الأحلام، وتفرض الكبت على الرّغبات المرفوضة اجتماعياً تبعاً للتّربية الأسريّة والتّنشئة الاجتماعية.

مثل هؤلاء الأشخاص، كيف نساعدهم، في حال تّعديهم، وخرقهم للمحظورات الاجتماعية؟

فـإذا تصـرفنا معهـم بعنـف، ورفضـنا مثـاليتهم، فهـم يعـودون إلـى أنفسـهم الضّعيفة المرفوضة من قبل الناس، ويستنتجون بمفردهم، ومن خلال هواماته أنهم مرفوضون من الناس.

وفـي حـال تعاملنـا مـع شخص كهذا بقبول وبصورة طبيعيـة، فسلوكنا لـيس مقبولاً أيضاً، وتقع علينا مسؤولية توضيح الأمور، ووضعها في نصابها الصّحيح، إذ لا بدّ في البدء من عدم المهاجمة الفورية، والحكم على هكذا أشخاص فقط من سلوكهم الخارجي. إذ لا بدّ من التفهم، لأنّنا في حال التّهجم والنّقد، لا نستطيع أن نضعهم موضع تساؤل.

أولاً: مع النّفس.

وثانياً: أمام القانون.

وثالثـاً: الشّفقة لـيس حـلاً، لأننـا حين نشفق علـى شخص لا نـرى إلّا نقصـه وألمـه، ولا نـراه كـآخر نـدّ لـه وجود وحاجـات ورغبـات واتجاهـات مثلنـا، علـى رغم اختلافها عن اتجاهاتنا.

وهنـا أجد أنّ خطـاب المحبـة، لا بدّ أن نوقظـه فـي تعاملاتنـا، بـأن نجد فـي المختلـف عنـا الضّـعف والقـوة بـآن واحـد، لا أن نجـده مفككـاً متجـزأً، لأنّ المحبـة تجعلنـا، نـرى الضـعف ونتقبّلـه ونسـامحه، وفـي سلوكنا هـذا مـع هـؤلاء الأشـخاص المغرقين في المثالية، نعيش الرّحمة المطعّمة بالمحبة.

بحيث إنّ الشخص الّذي يضع نفسه في موقع عيش المثاليـة، هو شخص يعيش منذ طفولته هواجس الخوف، خوف من أن يخطـئ، لأنّـه يدرك أنّـه في حال الخطأ تنكسر الصّورة المثاليـة التـي يحيط بها نفسه، أو يعنونها كرداء واقٍ لعقد نفسية مختلفة.

مثل هذا الشّخص، لا بدّ أن نـؤطره ضـمن واقعـه، رحمـةً بنـا وبـه مـن أثـار أخطائه المؤذية للمحيطين به، ولنفسه أيضاً.

إذ إن صورة الذات لديه غير ناضجة، وغير متحققة، لكون التّوجيه التربوي

الناقص في طفولته، تتطلب منه هذه المثالية من خلال رفض المحيط لأخطائه، فنشأ وهو بأمسّ الحاجة إلى الحبّ والرّحمة. هذه هي الاعتبارات الأساس للنضج النفسي السليم والمسالم، إذ بالتنشئة على المحبة، لا خوف من الاعتراف بالخطأ وتحمُّل مسؤوليته وبالتالي تجاوزه، فعندما نقبل أخطاءنا كما هي، ونحب ما هو جميل عندنا، لكون الاعتراف بالخطأ، ولادة للشّخص من جديد.

رابعاً: الشّخص المثالي ليس له ذات، أي لا يوجد اهتمام بقيمة الذات لديه، وبالتّالي لا توجد ثقة بالنّفس، فكيف يستطيع هذا الشّخص، أن يجد لذاته مبررات لسلوكه، فلا يجد لذاته صدى في خطابه للآخر إلّا من خلال الإلقاء بالتهم والمذمة على هذا الآخر المقابل له.

خامساً: الشّخص المثالي لا يحسّ بقيمته فقط، عندما يصغي أحد ما إلى كلامه، بل يجب أن يتعلم كيف يصمت ويصغي إلى كلام الآخرين، الولادة من جديد أو التّحرر من الضّغوط، لا تكون فقط بالإصغاء والكلام وحسب، بل من خلال العمل.

سادساً: التّعلق بالآخر يجب أن لا يصل للحد الذي يجعلنا نذوب أو نندمج في الآخر، ونلغي شخصيتنا، فلكل منّا شخصيته المستقلة، وبإمكانه محاولة العيش من دون الاندماج بالآخر حتى لو كان محبوبه، أو أحد المعجبين به.

إنّ العلاقة مع الآخر هي علاقة تفاعلية بين طرفين، علاقة يُعاش فيها الخطأ والصّواب، ولكن هدف هذه العلاقة في النّهاية هو عيش السّلوك الصّحيح والمستقل والمناسب لكلا الطّرفين، أما في حال ظلّ الشّخص المثالي متمسكاً بقناعاته، مقدما نفسه بصّورة مشوهة غير واقعية من خلال تفاعله مع الآخرين، فإن لم يقدر على اكتشاف خطئه، وسؤال نفسه هل هناك من يقبل خطئي أم لا؟ سيظل يلقى تبعات هذا السلوك على سواه كلما تقدم به الزمن.

إن المعرفة بخصائص الشّخص الذي يغدق نفسه بالمثاليات، تضعنا في خانة سلوك معين، لنجد الشّخص وفقها مولعاً بنفسه كثيراً وغارقاً بها، وهنا تجدر

الإشارة إلى أن ملامح الشخصية المثالية ملازمة للبنية النّرجسية للشّخصية، وأبرز ما يميزها شدة الإعجاب بالنّفس من خلال النظرة المتعالية للأنا.

وهنا بالمعنى النّفسي الاجتماعي نجد أنّ الضّعف لدى الشّخص النّرجسي يتمثل: بضعف الرّؤية له من خلال تثبيت ما يراه في نفسه، وإحاطة نفسه بهذه الهالة، التي تجعله يغرق بها، ويجد فيها منتهاه والتلذذ فقط بصورة نفسه في المرآة المسطحة، وليس صورة نفسه بعيون الآخرين، وهذا ما قصدته من أنّ سلوكه هذا يستوجب منا التّفهم والرّحمة لهؤلاء الأشخاص، لأنّنا لا نستطيع أن نكتشف ضعفهم، وهم لم يكتشفوا قوة سواهم، فسلوك الرّحمة الواجب علينا تجاههم يعني التقبل لهم، في حين سلوك الشّفقة يعني النّظر إليهم بدونية ورفض، ممّا يحرض طاقات الغضب والعدوان لديهم، لتغدو هذه السّمات، بما لاشك فيه تعيق العيش الاجتماعي المشترك، وفق معايير ومبادئ النّظام الدّيمقراطي ومنطق العدالة الاجتماعية من خلال مبدأي المواطنة والانتماء.

سابعاً: من خلال معرفتنا بالآخر هناك أشياء نعرفها عنه مرات، وهو لا يعرفها عن نفسه سواء كانت صفات إيجابية: كالكرم على سبيل المثال، أم سلبية من خلال تكراره لكلمات عفوية، أو زلات لسان، أو حركات متكرّرة، بشكل ملفت يقولها لا شعورياً، دون وعي منه، وفي المقابل أضع نفسي محل هذا الآخر، بحيث يمكن أن يعرفني هو، أكثر من معرفتي لنفسي.

ودور اللاوعي يكمن جلياً من خلال الأمور اللاإرادية المكبوتة لديه، والتي تعدّ مجهولة في تعامله مع الآخر، لأجل ذلك قد يكون تكرار الإسقاط من حيث هو معرفة لا واعية عن النّفس تنصب على الآخر، بحيث يتم الإسقاط عليه أموراً غير موجودة فيه، ونفترض أنّها موجودة، كما أنّه يمكن أن يتم إسقاط أي أمر على الآخر دون أن يعرف، وعندما يعرف يجد هذا الأمر غير موجود لديه، وهنا يحصل رد الفعل الرّافض والمتّسم بالسلوك العنيف تجاه مصدر الاتهام، أو بالأحرى الإسقاط.

ثامناً: إن التّفاعل مع الآخرين لا شك نعيش فيه الألم والكدر أحياناً، حيث لا وجود للحقيقة بدون عيش ألم، ويجب أن نتذكر ذلك حتى لا نصاب بخيبة أمل في علاقتنا بالآخرين من حولنا، إذ بإسقاطنا صفات معينة عليهم نصطدم بغرابة استجاباتهم، وذلك في الحالات التي لا يتحقق ما أسقطناه عليهم من تصورات، وأيضاً عندما لا يكون الآخر على قدر حلمنا وطموحنا فيه، نجدنا نصاب بالحزن، لذا لا بدّ أن نذهب أبعد من الحزن، ونبحث عن الحقيقة بالآخر بمعرفتنا لقدراته وسماته الشخصية، والحديث عن التربية الإسقاطية التي نجدها تغزو تفكيرنا في المرحلة الأخيرة من عمر بلادنا، أو عهد الانقلابات الثورية العربية الحالية، تلك التربية الإسقاطية المبنية على التقمص الإسقاطي وفق ما تجده "ميلاني كلاين" إذ ومنذ العام (1946) كتبت "ميلاني كلاين" كثيراً عن موضوع التّقمص، ومما ذكرته، وأجد ذكره، هنا، يعيننا على توضيح الفكرة التي أسعى لإبرازها من خلال اكتمال الإحاطة بها بالفهم والاستيعاب لخفايا سلوك التنشئة وملابساته المختلفة، تبعاً للظّروف المجتمعية المحيطة بالأسرة. تقول "كلاين": «إن التّقمص الإسقاطي يرّسخ النّموذج الأول للعلاقة العدوانية مع الموضوع الذي يظهر في حالة الخوف، بحيث يمكن أن نجد الفرد ينقل الجوانب السّيئة من ذاته، ويسقطها على الموضوع مما يشكّل لديه قلقاً، كلما حضر الموضوع أو تم تخيله.. والتّقمص الإسقاطي هو نقل لكل الصّفات المرفوض وجودها في الذات إلى الخارج، وإسقاطها على مواضيع الحبّ الخارجية بهدف التّحكم فيها، ومحاولة تحطيمها لأنّها تشكل منبع قلق شديد للذّات...».

تاسعاً: لا بدّ أن ننطلق من الواقع للبحث عن حياة تحكمها المثل والقيم العليا، وليس العكس، أن ننطلق من المثالي إلى الواقعي. إذ المطالبة بعيش المثاليات تجعلنا نغرق ونتقوقع بهوامات، تبعدنا عن التّفاعل السّليم مع الآخرين...

عاشراً: إنّ الصّورة المثالية التي يحاط بها الشّخص عندما يطمئن لقبول الآخرين له تتكسر من خلال الربط، بين المؤثرات التّربوية لهذا الشّخص، والمعايير

المتصلة بالتّنشئة الشخصية السّليمة، فهو لا شكّ إنسان فاقد للمحبة، ونجده بأمس الحاجة إلى الحبّ المتقبل غير النّاقد الرافض، الحبّ الذي يحتوي الآخر، ومن ثم يساعده هذا الشعور على اكتشاف مثله العليا واكتشافه بالمقابل لأخطائه.

فمثل هذا الشّخص باقترابنا منه نجد حاجته الماسة للمحبة، ونجده يكره الآخرين وبالتّالي نجده يلجأ للمثالية، لأنّه يكبت عدم مثاليته بداخله، وأزمته الحقيقية تنحصر في كونه غير مقبولٍ به كشخص، بل نجد تنشئته كانت منصبة دوماً على قبوله من خلال سلوكه السليم، وفي حال أخطأ فهو مرفوض، وهذه الجدّلية التي يجب أن نركز عليها في التّنشئة للأطفال، التّنشئة التي عمادها التّركيز على قبول الشّخص بضعفه وبشاعته، بقوته ومرضه، لأننا بذلك نقبل إنسانيتنا، ومن هنا تكون البداية للعمل على السّلوك الاجتماعي المتحرر من العقد المتراكمة، المبني على تعديل أي سلوك خاطئ بدون تخويف أو ترهيب، إذ بقبول السّلوك الخاطئ، والاعتراف به من خلال الوعي به، تكون بذلك البداية التي لا بدّ منها لمحو هذا السّلوك، وإحلال سلوك بديل عنه أكثر قبولاً وإنتاجية عوضاً عن السلوك الأول، إذ من خلال هذا الانفتاح على ضعف الآخر في حياتنا نعيش الرّحمة والتراحم، وتكون الانطلاقة لمساعدة الشّخص ذي السّلوك الشّاذ على بناء أناه الفاعلة في حياته المجتمعية.

أحد عشر: إنّ الشّخص المثالي لا يهتم بقيمة الذات الواقعية، فهو يعيش في دائرة مظللة تحجب عنه رؤية ذاته في مرأة عاكسة بعيون المحيطين به، وبالتّالي فإن هذه الذات المتشكلة لديه في ظل هذه القناعات لا قيمة لها على الصّعيد الإنساني فينشأ أجوفاً وجدانياً.

إنّنا نحسّ بقيمة ذاتنا عندما نحس أن كلامنا وأفعالنا تلقى صدى عند الآخرين، وهنا تكمن عظمة اللغة التي تميزنا نحن البشر، وفي حين كان كلامنا لا يلقى القبول عند الآخر، عندها ينبغي أن المشكلة التي لدينا أولاً وقبل أن ينعكس كلامنا على منظور الآخر عبر تلقيه الخاص لهذا الكلام...

فبتكلّم الشّخص مع ذاته بحوار داخلي متصل نتيجة المبادلات الوجدانية والفكرية مع الآخرين بدءاً من والديه وإخوانه إلى المدى الأبعد فالأبعد، ومن ثم تكلمه العلني مع غيره إن وجد من يصغي إليه، بهذه الآلية يحس بقيمته الإنسانية، وبهذه الآلية تكون البداية المكونة للشّخصية الإنسانية السّوية، من خلال هذه "الصّورة المرآوية"، وتبعاً (لجاك لاكان) تعاش انعكاسية ردود الأفعال، بانعكاس كلامنا في سمع الآخرين.

وانعكاس صورتنا في عين الآخرين كما هي، ليكون لسلوكنا انعكاسه المؤثر في حياة الآخرين...

اثنا عشر: إنّ عيشنا حالة المثاليات يقتل الجمال فينا، لأن الفهم المثالي يبقى في الذّهن، وما يعاش يكون في الواقع، هذا هو المحك للتّماهي بالآخر من دون ذوبان أو إلغاء، فلكل منّا شخصيته واستقلالية صورة ذاته، كما للآخر ذلك...

فحتى لو كان الآخر مقرباً جداً كابن أو زوج، وهنا أورد مثالاً على ذلك: الزّوجة التي تهتم بنفسها لإرضاء زوجها، وتنسى رضاها عن ذاتها، نجدها تغدو معذبة وحزينة، كذلك الأم التي تفكر أنّها تربي أولادها وفق قواعد مرسومة صارمة، فتهتم مثلاً: بطعامهم بحزم، وبحمامهم بحزم، وبمواعيد نومهم بحزم، دون أن تجد مساحة لإيجاد صدى لتعبيراتهم...

مثل هذه التربية يحكمها التّعب، فالأم التي تقصّر قليلاً في أداء هذه المهمات لأبنائها، تجد نفسها غير مكتملة، ويحكمها شعور الذنب، لنجد أن عيش شعور الذّنب يعمم الإحساس به عند أبنائنا، كذلك فيما بعد كونهم لم يرضوا بالصورة المثالية للابن لدى أمهاتهم، مثل هذا الحب عند هكذا أمهات هو حبّ تملكي وبالتّالي مرضي، لذا علينا كأمهات عيش المحبة مع أبنائنا برحمة، أي بقبول الخطأ عندهم، والنّظر إليهم كأشخاص آخرين منفصلين عنا، لهم حواسهم ومشاعرهم وتفكيرهم، ونحن كأمهات واجبنا الأخذ بيدهم، وليس بتلويح العصا وبحرمانهم من الحب ليعيشوا مشاعر ذنب، لمجرد أنهم لم يكونوا مثلما نريدهم،

فلندع أطفالنا يكونون ما يريدون ونوجههم لما هم مهيؤون له، لا لِمَا نجده نحن مناسباً لهم.

فقد نجد الكثير من الأمهات في بلادنا، هن من يخترن العروس لأبنائهن الذّكور على سبيل المثال، بحيث تختار مثل هذه الأمهات العروس لتكون ابنة لها قبل أن تكون عروساً لابنها، وهكذا تسيطر الأم على هذه الزّوجة، ومن ثم على الأحفاد، وتكون متيقنة من أنّ زوجة الابن لن تبعده عنها، طالما تسمع كلامها وتخضع لأوامرها، وجميعنا يستطيع إيراد العدد الكبير من الأمثلة التي تظهر هذه الحالات في حياتنا اليومية.

وهنا لا بدّ من التّأكيد على الصّعوبة التي يعيشها الابن، من كون والدته تستمد قيمتها منه، فنجده لا يستطيع العيش بحريّة في علاقته الزّوجية، لأنّه نشأ بدون قيمة لشخصيته، إلّا من خلال ما تمنحه والدته إياه من قيمة، فيعمل وفقاً للأمور التي تريدها هي. مثل هذا الولد نشأ على أنّه يستمد قيمته من والدته وحسب، وفق مثل أعلى "رضى الوالدين من رضاء الله" من دون التّفكر بمعنى هذا المثل، وبذلك نجده يعيش بدون قيمة وبدون ثقة، لأنّ الثقة بالنّفس تعوزه على تحقيق أهدافه الشخصية في الحياة، ومن هنا يعيش مثل هؤلاء الشّباب صراعات عدة، ونجدهم متعددي الزّوجات بحثاً عن قيمة للأنا، ونجدهم مترددين في قراراتهم وأعمالهم، لا يستطيعون أن يبادروا إلى أي تصرف، أو قرار دون العودة إلى الأم.

وإليكم المثال التّالي علّه يوضّح ما سبق: رجل كان والداً لطفل (توحد) سجل لدينا في مركز التّأهيل النّفسي الخاص بي في العاصمة دمشق، وهذا الولد سجل لدينا منذ أكثر من خمس سنوات، ولكنه انقطع خلال هذه الفترة أكثر من سبع مرات، ومن ثم كان يعود، وكان سبب ذلك هو قرار جدته المتحكمة بقرار والده، ولم يكن لوالدة هذا الطفل أي حقّ في إبداء رأيها في ذلك رغم أن الأم، كانت خريجة علم نفس من جامعة دمشق، وتسكن في حي راقٍ، ومن أسرة مقتدرة مادياً، وكم من

مـرة اتصـلت بـي هـذه الأم، وهـي منهـارة مـن البكـاء، لعـدم مقـدرتها أن تتـابع الملاحظات التي نرسلها لها، وعندما تحتج لوالده كان ينهال عليها بالضّرب، وفي أحد المرات وبعد أن ضربها ضرباً مؤذياً، قالت له بانفعالٍ وقهر، أنت لست رجلاً وأنت عبدٌ لوالدتك، وهمجي ونتيجة هذا الكلام ما كان منه إلّا أن طلّقها، وبعد أقل من شهرين تزوج زوجة أخرى، والزّوجة الجديدة جلست في بيت الزّوجة الأولى، وعلى أغراضها كما أخبرتني أم الطّفل طبعاً، وقد حرمها الأب من ابنها وولديها الاثنين البنت والولد الطّبيعيين، أما الأب حين حاولت الاستفسار منه عن أوضاع البيت التي يعيش فيها ولده (الولد) المسجل لدينا في مركز الأوائل للتّأهيل النّفسي، ما كان منه إلّا أن أوقف تسجيله، لمدة ثلاثة أشهر وبعدها أعاده، وهنا لم أقبل بتسجيله إلّا بعد رؤية الجدة (والدة أب الطفل) والتّعرف منها عن رؤيتها لمشاكل الولد وما تجده مناسباً للعمل معه، وقد كانت متحمسة ومتباهية في التفاني، وكانت أحياناً تمدح عملنا في المركز ولكن بصيغة رشوة وليس إعجاباً واقتناعاً حقيقيين، وبناء على كلامها تقول: هي سوف تبقيه مسجّلاً معنا، ومن خلال الثقة التي وصلت للجدة من عملنا، استطعنا أن نجعلها بالتّدريج تسحب قبضتها عن الولد وأبيه وأشركنا الأم في برنامج التّأهيل المعمول به مع الطّفل، وتوصلنا إلى نظام يساعد الولد في حياته الأسرية بأن يبقى في رعاية جدته كامل أيام الأسبوع ما عدا أيام العطلة حيث يذهب لوالدته، وبحيث يذهب كل يوم لرؤيته الأب، والاهتمام به والعيش معه قليلاً من الخصوصية، بأخذه في نزهة أو اللعب معه كرة سلة حيث كان الولد يحب ذلك، والذهاب مع والده من وقت لآخر للمسبح، وأيضاً هذا النّشاط كان يحبه، حتى استقر واقع الحال عند هذه الأسرة، وبذلك نؤكد أن نمو استعدادات الأطفال تتفتح، وتنمو في الإطار السّليم المستقر، من خلال السّياق الاجتماعي والثّقافي، الذي يتفاعل معه الطّفل ضمن أسرته ومحيطه الاجتماعي.

من الجدير ذكره أن هذه الجدّة، كانت تكثر الشّكوى المرضية على ولدها والد الطّفل التّوحدي المسجل لدينا، مُظهِرَةَ تفانيها في سبيل راحة ابنها وأولاده، فهي

تعيش مبالغة في التّعلق الأمومي، تمرض بشكل لا واعي، وقد تكرر هذا السّلوك المرضي لديها حتى كاد أن يصبح سلوكاً مزمناً، وكل التّحاليل والفحوصات تنفي الحالة المرضية...

مثل هذه الأم عاجزة عن العيش، انطلاقاً من نفسها وليس انطلاقاً من أي إنسان آخر، سواء كان ابناً أم زوجاً أم حتى ابن الابن...

والجدير قوله هنا، إذا المرأة في بلادنا لا تستطع أن تعيش بدون الرجل، فهي لن تستطيع أن تعيش إلّا معه، هذا هو اختبار قيمة الذات... لأنّ في ذلك رفضاً للآخرين، ودوام التّأكيد على أن الشخص موجود باستحواذه على كامل مشهد الحياة المشتركة.

فالمرأة التي تعيش وراء شخصيّة هذا الرّجل المتغطرسة، تبدأ بكره ذاتها، وبالتّالي تسقط عدم حبها لذاتها على زوجها، فنجدها لذلك تلاحقه، فالعلاقات البشرية اللاسوية، أو لنقول السّلبية هنا، قد تنطلق من عدم الشعور بالقيمة، فتعلق الأم بابنها هو تعلق سلبي مرضي، كون الأم المستلبة حرّيتها لا يمكنها أن تحس بقيمتها إلّا من خلال ابنها، وبالتّالي تعيش من خلال موتها فيه، بأن تجعله هو يموت فيها كذلك... فهي أم تؤدي وظيفة أمومية غير فعالة، بل يحكمها القهر والضّيق، من هنا ولأجل الاهتمام بالتّهيئة للأمومة الجيدة المسؤولة، ومن المهم أن نلقي الضّوء على تنشئة الفتيات في كثير من البيئات الشّعبية في عالمنا العربي، حيث تتلقى تربية دون أن تشعر بقيمتها في عائلتها كأنثى، فالأم تراها بنتاً همومها كثيرة، وأخوها لا يراها إلّا كشخص قاصر حتى لو كانت أكبر منه، وحتى لو كان تعليمها الأكاديمي أفضل بكثير من أخوتها الذّكور...

أذكر مثالاً لتوضيح ذلك، حالة سيّدة أتتني بعد ثلاثة أسابيع من زواجها تشكو أنها مهددة بالطّلاق، وزوجها أخبر أخاها بذلك من دون أن يقول لها أولاً، رغم أن هذه الزّوجة متعلمة فهي مهندسة وزوجها مهندس أيضاً، ولكنهم ما زالوا اجتماعياً يعيشون في ظل علاقات قبلية تحكم حياتهم، وكم كانت هذه الزّوجة

محبطة، ولا تعرف كيف تنقذ حياتها الزّوجية إذ إن الطّلاق المبكر هذا بعد أقل من شهر من زواجها، هو فضيحة اجتماعية كبيرة تضعها في الدّرك الأسفل، في تصنيف بنات القبيلة، رغم كونها متعلمة فهذا لا يشفع لها، وبعد تبيني للخلل الحاصل بينها، وبين الزوج عريس الهنا في الفترة القصيرة التي جمعتهما معاً كزوجين، وجدت أن هذا الزوج بارد جنسياً لا يستطع إكمال العملية الجنسيّة بسبب العنانة التي هو عليها، ولا يريد أن يعترف، بل يعمد ليغطي حالته هذه بالقسوة على زوجته، وعندما اقترحت الزوجة عليه أن يستشيرا أحد الأطباء حول هذه المشكلة، فما كان من زوجها إلّا أن أهملها وقام بإخبار أخيها، بأنها امرأة وقحة لا تخجل، ومن الحلول التي اقترحتها هذه الزّوجة على زوجها، أن تسكت ولا تطالبه بحقوقها الزّوجية، إذا هو سكت وامتنع عن الطلاق، فهي مستعدة أن تضحي بمستقبلها العاطفي بكل تجلياته في الحياة الزّوجية، مقابل عدم الطّلاق الذي سوف يسبب لها فضيحة اجتماعية، ورغم ذلك لم يوافق الزوج، ولذلك وجدتها عندي في العيادة لا حول لها ولا قوة، ضائعة حائرة، عاجزة، هذه السيدة وكثيرات من السّيدات نجدهنّ يعشنَ مع أنفسهن من وراء شخصية الزوج أو الأب، وبالتّالي يسقطن حبهن لأزواجهن، وهذا العيش بخوف وتهديد، ما هو إلّا ردة فعل انفعالية على خطر ما سواء كان خارج الذات أم داخلها.

وللخوف كما تعلمون عدة أسباب فهناك الخوف السيكولوجي الذي يمثل ردة فعل انفعالية على خطر ما، سواء من خارج الإنسان أم من داخله.

أخيراً ومن خلال ما تقدم أصل إلى أنّ الشّخص المثالي نجده مرة بارداً ومرةً لامبالياً بمعطيات الواقع، ولاسيما حين يكون التعامل مع الأطفال وترك أمورهم للقدر أو لأمهاتهم، ولكن بالمقابل نجده يحسن الاهتمام بالآخرين وفقاً لأغراضه، للحصول على الاهتمام منهم، فهو يغذي حاجة نفسية تمنحه الشعور بالأمل والثقة، وتعمق الروابط مع المحيط، وحين يغيب الاهتمام يقوده ذلك إلى برودة المشاعر والجمود واللامبالاة، التي تؤدي لأشكال من الأمراض النفسية والجنوح.

وبشكل خاص الأطفال يحتاجون لمثل هذا النوع من العطف والحنان الذي يشتمل على اللمسات الجسدية، وهم عندما يحصلون على وجبتهم اليوميّة من اللمسات والكلمات الطّيبة، ينمون انفعالياً بشكل أفضل. ولعلها تشكل أكبر التّأثيرات اللامبالية في تربية الأبناء من كونها تحولهم إلى عدوانيين، وهائجين، فيخربون ليحصلوا على الاهتمام، حتى لو كان ذلك بالعقاب الذي هو شكل من أشكال الاهتمام الذي يطلبونه أحياناً، فهذه التّنشئة تصيب هؤلاء الأطفال باليأس، فيتحولون إلى باردين انفعالياً، ولا يقدرون على رؤية الأمور بواقعية بل دائماً في تطرف، ويميلون للمثالية كسلوك وقائي ودفاعي بآن معاً، وإلى سلوك اللامبالاة كحماية لذاواتهم أيضاً...

كتبت ذلك للتّأمّل معاً كيف هو الحال إذا قُدِّرَ لطفل ما من بلادي أُنشئ بمثل هذه التّنشئة أن يحكم بلداً، أو يكون له أتباع، عافانا وعافاكم الله، إذ إنّ كِلا أسلوبي التربية المثالية، والتربية المتمثلة بالشّفقة يمكن أن تشكلا أكبر تحديات الوصول للأنظمة الدّيمقراطية، وعيش الديمقراطية كأسلوب حياة عصرية في بلادنا.

الفصل الأول

تأملات حول الحريّة والدّيمقراطية

الانعكاسات النفسيّة للحريّة والدّيمقراطية

ليس مصادفة أن تتلازم الاخفاقات في مجالات الحياة جميعها، من (تكنولوجية وعلمية وسياسية..) في بلادنا العربية، وليس مصادفة أن ترتبط إنجازات التّكنولوجيا، والصناعة بإنجازات الإيديولوجيا والإنتاج والإبداع بعيش الدّيمقراطية، وإثبات الفردية ضمن وجود الفرد الفاعل في الحركات الاجتماعية في بلدان العالم المتمدن، تتمثّل سمات العالم الثّالث المتخلف:

"بأن الكل يتكلم، ولا أحد يسمع" من هنا يمكننا الإشارة إلى إرهاصات الصّراع الأولية، الملحوظة على مستوى وجود الفرد في الاسرة، وآليات التّفاعل ضمنها.

ولما كان قانون الوجود هو الصّراع، ومحرك الحياة والقوة الدّافعة لاستمرارها، ليكون الصّراع بذلك محرك الوجود، فهذا الصّراع يعاش اليوم بأشكاله كافة أمام ناظرينا، صراع بين البنى القديمة والجديدة. صراع بين الأجيال حول النّظرة للحياة بين الشّباب الثّائر، والأهل الخائفين من التّغيير، وصراع بين الأحزاب في إقامة استحقاق النّظم الدّيمقراطية المناسبة، والتّحول من هيمنة الدّولة على سوق العمل، إلى فتح المبادرات الفردية والخاصة لأسواق جديدة للعمل والعمالة، وكذلك الانتقال من الشّمولية السياسية إلى الدّيمقراطية السياسية...

فهذا الصّراع الدّموي، حصل نتيجة تعطل العقل النّقدي، وتوقف الحوارات العقلانية مع تبدلات الحدث، بحيث لم يعدّ يصبح فيه حق الوجود والحياة إلّا للذات المفردة المنغلقة حول نفسها وحول جلدها، حتى لا تجد الذات اليوم في غيرها، إلّا عدواً وخصماً وشراً لا مخرج من خطره، إلّا بتدميره والإجهاز عليه.

من هذه المظاهر وغيرها يكون العنف الذي استشرى في بلادنا خير شاهد ومؤكد، لهذا الطّرح الذي أتيت على إيضاحه بكلامي السابق، هذا العنف الذي من جرائه، وجدنا أن من لم يمت في سعير الموت بقي شاهداً على الارتداد لما حققته الإنسانية، من منجزات مشينة في العمل السياسي لقضايا عديدة تتصل بالبلاد العربية.

ويبقى التّساؤل الذي لم ينقطع لديّ، والذي يمكنني حصره بعديد من الاستفهامات من مثل: هل نحن في محنة مؤسسات السلطة؟ أم هل هي محنة الإدارة للأزمة كما ظلوا يرددون؟ هل هي محنة الأجهزة الأمنية؟ أم هي محنة الدّولة في كل مفاصلها؟ ومحنة فشلنا عن اللحاق بركب العصر؟ أم محنة الفشل في مواجهة الواقع؟ محنة تبرير الفشل؟ ونكرانه وحرفه عن مساره من خلال إلقاء التّهم والمسؤولية على عاتق الآخرين بوصفهم بعبارات خاصة حتى في أوساط المثقفين.

من هنا أجد أنّ مسيرة الأمم في التّقدم، تتشابه مع مسيرة الأفراد الطّامحين، بحيث إنّنا نجد الشّخص الطّموح مهما أحبط، يحاول إعادة المحاولة من جديد من خلال تجديد السّعي ليصل إلى مراميه، دافعه لذلك ثقته بقدرته وبصيرته، وبأهمية سعيه نحو ما يرمي إليه.

وإن كان للباطل جولة عبر مسيرة الأفراد، فإنّ للحق جولات في مسيرة الشّعوب ومساعيها... فإرادة الحياة وحريّة الإرادة، هما خاصيتان تتطوران مع الإنسان في سياق التّطور التاريخي للإنسانية، حريّة الإرادة التي تمثل القدرة على اتخاذ القرارات المصيرية مع الوعيّ بمسببات مقاومتها، والوعي بآثار عيشها الإيجابية على البلاد التي أخذت طريقها للتحقق، فاستناداً "لأنجلز" العالم الماركسي الشّهير، الذي يؤكد على أنّ التّحكم في الطّبيعة كما التّحكم في الذات هما من صفّ واحد، كونهما لا يقهران، فحرية الإرادة فيما يتعلق بهذا وذاك هي بالنسبة له كما بالنسبة "لهيغل" بمثابة "فهم الضّرورة".

بينما يرى "هيغل" أن الحرية تقوم بشكل أساسي على معرفة ضرورات الطّبيعة: "Naturnot Wendigkeitien" والسّيطرة على أنفسنا وعلى الطّبيعة الخارجية.

ولذا فإنها تعدّ نتاجاً ضرورياً للتّطور التاريخي الذي يعود لحقيقة تاريخية كون الناس الأوّلين الذين انفصلوا عن مملكة العيش كمجموعات منغلقة، من قبائل وتكتلات صغيرة كمجموعات الصّيد والرّعي حيث كانوا في جوهر الحياة الاجتماعية غير أحرار، ولكن بانتعاش العمل الزّراعي ومن ثم الصّناعي بخاصة، كان التّطور نحو التّطور الذّهني لتطوير المبادلات والعلاقات بين البشر، بحيث كل خطوة إلى الأمام على طريق الثّقافة كانت تعدّ خطوة نحو الحريّة، وفقاً لمفهوم الحريّة والسّيطرة على الذات الذي طوره "سبينوزا" في مؤلفه الشّهير (الأخلاق).

الخوف من التغيير

في التاريخ الإنساني كان الخوف دائماً من التّغيير المباشر يشكل أزمة اجتماعية مع الذات كما مع الآخرين، لأنّ صراع الأنا والأنا الأعلى قصة وجودية تميز التاريخ البشري، ولا وعيهم الجمعي.

وفقاً لجدلية (الأنا والآخر) يتم طرح التّساؤلات العديدة.

هل الحل أن تُلغى الأنا، وبذلك نلتقي مع الأنا الجماعية؟ وهنا تضيع الخصوصية؟

هل مقولة حقوق الإنسان تركز على الأنا الفرد، أم على الأنا ككائن بشري ممثل لنوعه؟ وما يصح على الجزء يصح على المجتمع ككل.

وهل تعدّ الأنا والآخر كمصطلحات نفسيّة هي نفسها عندما نسقطها على السياسيين؟

إنّ مفهوم الأنا مكروه في الثّقافة الاسلامية، فعلى سبيل المثال لا الحصر، يقال: في الخطاب الشّعبي اليومي متلازمة اسمها "أعوذ بالله من كلمة أنا" عند كثيرين كلما نطق أحدهم لفظة "الأنا".

وفي سورة (طه) التي يخاطب بها الله تعالى موسى [إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا] (سورة طه، الآية 14) ومنذ بداية الإسلام جعل الناس يعتذرون عن نسبة ضمير المتكلم إليهم بقولهم: «أعوذ بالله من كلمة أنا» من هنا نجد المآل الذي آل إليه الحلاج بقوله: «أنا الحق والحق أنا» التي عُدّت في أحسن حالاتها من الشّطح ومن أنّها كفراً استحق قائلها القتل.

إلاّ أنّ المتصوفة فيما بعد أولوا مقولة الحلاج أي أرجعوها إلى المعنى الأولي الأصلي، أي إلى تجربة الحب الإلهي حيث تكمن المحبة فيها، ومؤرخو التّصوف يتفقون على أنّه لا تصلح المحبة بين الاثنين حتى يقول الواحد للآخر: يا أنا.

وقد شاع التعبير الشّهير لابن عربي: أنا من أهوى ومن أهوى أنا...

أما عالم النّفس الإسلامي الشّهير "ابن سينا" فقد كرّس مكانة الأنا وهبوطها من العالم العلوي والطّهري من خلال تعبيره عن ذلك في البيت الشّعري التالي:

هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ المَحَلِّ الأَرْفَعِ وَرْقَاءُ ذَاتُ تَعَزُّزٍ وَتَمَنُّعِ

لنصل إلى (بوليير ولاكان) حيث الأنا هو الآخر، ليقودنا كل ذلك إلى أنّ حِرَاك الأنا لِتأخذ موقعها باستقلالية من خلال اتحادها بالآخر، كان دائما ينمُّ عن صراع يشتد ويشتد، وتكون نتيجته المحتمة تنامي سلوك العدوانية في حياة الناس.

وأجد هنا أنّ الإشارة إلى السّلوك الأصيل عند الإنسان يستهدف أمرين:

1- حشد الطاقات بأسباب البقاء، لتصبح العدوانية بمنزلة قوة تدفعنا إلى العمل والكفاح للحفاظ على التّوازن بين الرّغبات والواقع.

2- عدوانية تدفع الإنسان إلى الموت، وإلى الاستسلام لهدوء الموت.

هاتان القوتان المتعارضتان والمتواطئتان معاً، هما في أصل الازدواجية العاطفية التي تلازم النّفس البشرية.

بحيث يتبدى لنا، بأن إرادة الحياة عدوان يتبدى ذلك كفتح لا يكتمل إلّا بإفناء المعتدي نهائياً بالموت، أو إضعافه ليفقد جوهر الوجود الحيوي وهنا فحوى غريزة

الموت، أو قبوله شريكاً لتعاش غريزة الحياة كبعد حضاري على الدّوام، لكون نزوة الموت قد تدفعنا إلى إنزال الموت بأنفسنا من توجيه العدوان ضدّ أنفسنا، وكأنّنا نتجنب الآلام النابعة من رغباتنا اللاعقلانية، وميولها المتناقضة تجاه حفظ الذات، والتّدمير على حدّ سواء، هذا الصّراع هو المضمون الجوهري للحياة، ومعركة الجنس البشري في إرساء الحدود والضّوابط في مواقف الحياة المختلفة والتّجاوب مع حتميتها السّببية..

هناك مقولة تأملتها مراراً: "إنّ الخوف من الثّعابين أمر منطقي، لأنّها تلدغ، أمّا الخوف من التّحدث على الملأ فهو ما يجب أن نتغلب عليه".

هذا القول: أعتقد أنّه معبّر عن خلاصة عملية لثقافة الدّيمقراطية، وتفعيل آليات التّحالف والتّنسيق للعمل الجماعي الخلاق...

فقد شكّل الخوف من الآخر صفة الأنظمة القمعية كلها التي مرت على الشعوب كافة، وبالتّالي كان العمل الدّيمقراطي المبني على النّدية مع الآخر والنّدية تتضمن اعترافاً واحتراماً وتنافساً لقوام العمل المبني على أجندات فكرية سياسية ناضجة، وهذا ما نرنو إليه اليوم وسنبقى نرنو إليه في المستقبل، العمل الأفضل برؤية منهجية في الفكر والسّلوك...

العمل السياسي هو عمل فكري هو "تواصل" عنوانه: الاهتمام بالآخر القرين، والآخر الصّغير، إلى الآخر الكبير الذي يصلنا إلى أبعد رمزية وقيمة معنوية /الآخر الكبير= المثال الأعلى أو مثال الأنا / المعادل الطموح للمجد والسّمو...

فالآخر ليس عدواً، بل شريكاً، الآخر ليس سلطة بل قيمة معنوية نمتثل لها باحترام ومحبة... ومن خلال هذا الفهم يمكننا العمل بخلق فرصٍ أوسع، وكذلك بعيش اجتماعي أرحب، وأجد أنه كي نحقق أهدافنا من تفاعلنا مع الآخر، يغدو لِزام علينا السّير بخطوات عدة، من أهمها أمران:

1- الإنجاز الواسع لما نعمل له.

2- العيش الرغيد الرحب.

ولتحقيق هذين المحورين، لا بدّ من نواظم نمتثل إليها، لتكون مرجعيّتنا مرآة نعكس عليها رؤانا في عيون الآخر المحبّ، وليس الآخر المدّمر، مرآتنا في عيون الآخر النّاقد لا الحاسد...

ولا أجد أحرى من أن تكون لنا ضوابط عمل وميثاق شرف اجتماعي للعمل الدّيمقراطي في بلادنا العربية، ولبلدي سوريا على وجه الخصوص، سوريا الحديثة، تتمثل بإيضاح بعدين أساسيين:

- الهدف. - التّنظيم.

وتجدر الإشارة هنا إلى دلالات عدة من مثل:

1- عند وضوح الهدف يسهل الوصول إليه، حتى لو كان يلزمه جهدٌ كبيرٌ، ولما كانت الدّوافع للعمل معقودة على شعاع النور الذي يبرق لنا لنبصر الهدف، حينها يصبح لزوماً علينا أن نضع الأمل والثقة بالآخر نصب أعيننا، إن أردنا لأهدافنا أن تأخذ طريقها للحياة، وتأخذ فرصها عبر برامج التّنمية البشرية للإنسان المعاصر.

2- "في علم النّفس العام هناك فهم واقعي لآلية عمل الدوافع، من حيث إن كل سلوك لا بدّ له أن يكون مدفوعاً بدافع" ولذا دوافعنا للعمل ستكون الأهداف الخيّرة السّامية برفعة إنساننا العربي، عبر امتثالنا لمنظومة قيمنا الرّوحية والثّقافية، بكل تلويناتها الرّوحية والفكرية والعرقية والجغرافية التي تمتد رحابتها في العمق.

3- التّنظيم الجيد ليس أمراً معقداً مثل جراحة الأعصاب والمخ مثلاً، ولكنّه كمقاربة طبية أشبه بإزالة الزّائدة الدّودية، كونه يصبح أمراً سهلاً وروتينياً بمجرد أن نتعرف على كيفية عمله من خلال الانتظام بتكرار اعمالنا، ليكون إنجازنا مثمراً من دون معاناة، ومن دون تعرق زائد كعلامة للتّوتر...

ولتحقيق الأهداف عبر التّنظيم، قد يلزمنا البحث عن التّوافق ما بين أهدافنا وأهداف سوانا، والالتفات إلى المعطيات التاريخية المتمثلة بالسّلوكيات التي أظهرها الناس النّاجين ممن كان لهم السبق في مسيرة الدّيمقراطية والتّغيير، وممن امتثلوا

للعمل بالفكر الدّيمقراطي، مما يستدعي فتح قنواتنا الإدراكية بصورة مستمرة على شرائح المجتمع كلها، الأثرياء والفقراء والكسالى منهم والجادين، المنظمين منهم والعشوائيين، المخادعين والمرحين.

فمعرفة جمهورنا الواثق بنا، له أبعد الأثر في المعرفة المناسبة لصوغ الأهداف المبتغاة، بحيث يكون المعيار هنا: تجربة الأداء باعتبارها المؤشر على صحة ما نفكر به، وما وضعناه من أهداف، وبذلك يكون تقبل النّقد أداة مرنة في حياتنا اليومية كمجموعات بشرية مختلفة الأعراف والانتماءات الضيقة، ليس لأية فئة أو جماعة بشرية اليقين بطروحاتها ومعتقداتها، والكل بانفتاحهم على ثقافة المختلف عنهم يصبحون أقوى وأنضج، ومن خلال تحكيم العقل الموضوعي عبر أدوات النّقد الفعال نصبح بعيدين عن الطروحات المثالية التي لا يمكن تحقيقها، كون من يعمل بجدّ ضمن هذه الذّهنية، يبقى واثقاً عندما يتحدث وفقاً لشعار معروف "عملنا يُحدّث عنا"، وتبقى الدّيمقراطية كفكر وعمل محفزة للجميع بتجديد يليق ويواكب تطلعات الأبناء، ومن ثم الأحفاد.

على اعتبار أنّ الدّيمقراطية في النّهاية، هي ثقافة ومنظومة أخلاقية قبل أن تكون صندوق اقتراع وانتخاب.

فما بين الرّغبة بقبول الآخر والتّفوق عليه، تبقى الرّغبة بالمساواة مع الآخر هي العقدة في تحقيق العدالة الاجتماعية والانتقالية في بلدنا، الرّغبة التي هي العنصر الذي يميّز الإنسان عن باقي الكائنات، هذه الرّغبة التي منطلقها الآخر دائماً، المتمثل بجوهر الفهم للإنسان باعتباره كائناً اجتماعياً، وفقاً للمنظور "اللاكاني" في التّحليل النّفسي نسبة لـ (عالم النفس الشّهير لاكان J. Lacan) الذي يقول: "إن كل آمال النّفس، ورغباتها هي رغبات الآخرين" إذ يقصد أنّك لا تنظر إلى هوية رغباتك، بل تنظر إلى شكل ما من الرّغبات يكون نابعاً من سواك، ومن أي شخص إلاك! إنّ عالمنا اللاشعوري ومن خلال مخاضات التواصل مع الآخرين يستلب منّا هوية الرّغبة الذّاتية، ونجد أنّنا نوطّن هويّة جديدة لرغبات مستعارة من الآخرين.

فمن بين مفهومي: (الميغالوتيما بمعنى الاعتراف بالآخر، ورديفتها "الإيزوتيما أي الرّغبة في المساواة مع الآخرين) إشكالية تبقى مفتوحة على مرّ الأزمان بين تحقيق الذات واحترام الآخر.

حيث الرّغبة في تأكيد الذات وحدها دون إحكام العقل كانت تأتي دائماً في قاعدة العنف الفردي والجماعي، وكان نتاجها مبدأ القوّة العارية، تلك القوة التي حاول الكتّاب والمفكّرون الإمبرياليون عقلنة الحرب والعنصرية من خلال كشفهم لتفاصيلها وأبعادها، وقد كانت عبارة "فوكوياما" الشّهيرة (نهاية التاريخ)، هي: دلالة بأعلى تركيب لغوي تراكمي لفلسفة التّمييز، والإقصاء التي حكمت المشروع الثّقافي الغربي، ذلك الجزء الرّاغب من النّفس، والطّامح إلى تأكيد الذات، وانتزاع اعتراف الآخرين بها...

من المعروف فيزيولوجياً أن غدة التّيموس هي: غدة صعترية حجمها حوالي (5غرامات) عند الطّفل الصّغير حتى عمر سنتين، بينما في الكبر تصل إلى (2.5غرام)، دورها الأساسي في السّنتين الأوليتين من العمر أنّها خط مناعي، وليس صدفة أن تكون المقاربة النفسية للتّيموس، من أنّها تعبر عن رغبة بالآخر بدءًا من عمر 16 شهراً، حيث يبدأ عمر نمو الأنا، وتكريس مبدأ التّمركز على الذات، حيث هذا العمر الذي يمثل هذا العمر قبل تشكل الأنا، أو ما تعرف بالمرحلة النّرجسية.

التّيموس كرغبة، والرّغبة هي جوهر الكائن البشري حسب تعبير "سبينوزا"، فالتاريخ عند "فوكوياما" خط حركي، والأحداث تتلاحق فيه بحيث تبدو، وكأنّها تصنع كمالاً ما، وهذا الكمال سيعني نهاية التاريخ، المحرك الأساسي للأحداث عند "فوكوياما" يعتقد أنّه التّيموس... كيف لا والرّغبة هي خاصية الإنسان الذي يتميز بوجوده عن الحيوان، من كون الرّغبة هي وليدة اللغة تنشأ من بقية باقية بعد إشباع الطّلب، على اعتبار أنّ تحقيق موضوع الطّلب، لا يفي باكتفاء الإنسان، فهذه البقية تصبح نقصاناً يتمم وجوده، وبذلك تنطلق الرّغبة من وجود نقصان دائم، وهذا

النّقصان ناجم عن غياب موضوع الطّلب، ليدخل الدال عبر اللغة فيقطع الطّريق على نموه الطّبيعي، سواء في الفطام عندما يقتطع الثّدي معه، أو النّظافة عندما يطلب منه الانفصال عن الغائط، أو في المرحلة الجنسية عندما يطلب التّخلي عن لذة القضيب باتجاه الأم.

من هنا تكون القاعدة النفسية تبعاً لمصطفى صفوان "إنّ اللجوء إلى الآخر ضرورة لتفريغ الرّغبات التّدميرية التي ترافق العمل الجنسي، وإلاّ كان الشّخص عصبياً مازوشياً، يركن إلى العادة السّرية التي تؤجج دوافعه العدوانية"... ليكون الإنسان بذلك من دون رغبات، إنسان غير قادر على الحياة، فحتى العبد المستعبد يحافظ على وجوده وعلى استمراريته في الحياة، من خلال فقط رغبة عنده بانتظار ساعة موت سيده...

والشّيء المميّز عند الإنسان أنّ مرجعيته لا تتقيد بالواقع البيولوجي، إنّما برغبة الآخر، لما يطلب منه ويتلقى الجواب، جواب الطلب لموضوع الرّغبة.

إنّ أوّل من تحدّث عن التّيموس بمعنى الرّغبة هو "أفلاطون" من خلال اقتراحه لنموذج أخلاقي يعبر عن كمال الإنسان، وبذلك يكون تحقيق الذات يتم من خلال اكتشاف البعد الأخلاقي في الطّبيعة البشرية، التّيموس هو الإحساس الدّاخلي الذي يوجه الإنسان نحو تحقيق العدالة والخير للآخرين، بمعنى هو توجّه الإنسان نحو الآخر، والتفكير فيه بشكل يعاكس الفردية والأنانية، وبمقاربة التّيموس البيولوجي مع التّيموس النّفسي يتحول الإنسان إلى موقف جبري يدفع به إلى مسايرة مبادئ السلطة الحاكمة، في الحالة الفيزيولوجية زيادة المناعة يعني الحصن والقوة من المفاجأت، وبالمعنى النّفسي يكون الموقف الجبري بالنعي للشّعارات، وللاقتراب من رؤية الآخر المختلف، هذه الشّعارات حتى وإن لم يكن يؤمن شخصياً بها، أو يقبل بمبادئها الأخلاقية وأبعادها الفكرية، حيث تحول الاهتمام الأخلاقي بالآخر في الزمن المعاصر إلى مسايرة وخضوع.

في الغرب نقرأ أنّ مفكري الدّيمقراطية في العصر الحديث، أمثال "لوك وهوبز"

عرّفا المجتمع المدني: بأنّه مجموعة التعاضدات التي تتيح للأفراد حرية التّملك وخصوصية العيش التي تحمي الفرد من تدخل الآخرين بحياته، ووصايتهم عليه، في حين "هيجل" وجهته تقول: إنّ المجتمع المدني الذي يصبو إليه الإنسان هو المجتمع الذي يعترف فيه كل إنسان بوجود الآخر وتفرده، فمركز اهتمام "نيتشه" الأساسي هو مستقبل رغبة الاعتراف، وقدرة الإنسان على إضفاء قيمة على الأشياء في نفسه، هذه الرّغبة التي يرى أنّها بالمعنى التاريخي للإنسان وبانتشار الديمقراطية، وهكذا بدلاً من أن يكون "التّيموس" أحد أقسام الكائن الإنساني الثّلاثة، فإنّه يصبح عند "نيتشه " كلية الإنسان، وبالتالي ووفقاً "لنيتشه" أيضاً فإنّ السّبب الأساسي لنشوب الحرب بين الدّول هو "التّيموس" وليس غريزة البقاء، فكما بدأ التاريخ البشري بالصّراع الدّموي من أجل النّفوذ وهنا الإشارة إلى الصّراع الإنساني الأوّل المتمثّل بين هابيل وقابيل، فإنّ الصّراع الدّولي يبدأ بالنّزاع من أجل الاعتراف المتبادل بين الدّول، وهو المصدر الأصلي للإمبريالية، الدّيمقراطية بين الدّول وهو المصدر الأصلي للإمبريالية.

وبالعودة للمعنى العقلي لنموذج صراع العبد والسّيد، وفقاً لجدلية هيجل الشّهيرة، من حيث إنّ هذه الجدلية التاريخية هي في منظومة الحياة وليست في الفقر، بل في العبودية، وليست في فقدان الرضا المادي، بل في فقدان الرّضا الذاتي.

إن رغبة الاعتراف عند العبد هي التي تدفع التاريخ إلى الأمام... والعبد هو التّرجمة الفعلية للشّخص الذي يأخذ بها كما يجدها المحلل النفسي الجزائري "فتحي بن سلامة". لقيمته الذاتية وكرامته بمعنى مجازي يصبح لديه معنىً لقيمته الإنسانية والوجودية.

وعلى اعتبار أن المحرك الأساسي للأحداث في التاريخ الإنساني، كان الصّراع من أجل الاعتراف، بدءاً من Thimos، هذا الجزء الراغب من النّفس، والطّامح إلى تأكيد الذات وانتزاع اعتراف الآخرين بها...

أمّا الصّراع من أجل الاعتراف كمفهوم، فهو قديم قِدَم الفلسفة السياسية، وهو الهم الأساس لكل المعارضات السياسية، ومن الإيجابي هنا أن نذكر مفهوم "هيجل"

للطبيعة الإنسانية، بأن الإنسان: هو كائن حرّ غير محدّد، فهو إذاً قادر على خلق طبيعته الخاصة خلال العصور التاريخية عبر الصّراع، فالإنسان الأول عند "هيجل" يرغب ليس فقط بأشياء حقيقية ملموسة، بل أيضاً يرغب بما يرغبه النّاس الآخرون، أي يرغب أن يعترف هؤلاء النّاس به، إذ لا يمكن للفرد أن يعي نفسه، وهويته الإنسانية المتميّزة دون أن يعترف به الآخرون، ومبدأ هيجل هذا هو قاعدة نفسية نعمل عليها، تتمثل في أن نظرة الإنسان لذاته تأتي من نظرة الآخرين له، وفق معايير علم النّفس الاجتماعي ونمو الأنا والآخر المقابل، تبعاً لمراحل النّمو النفسية في النّظرية النفسية التّحليلية، هذه المرآة الاجتماعية كانت عماد إبداع نظرية "جاك لاكان" المطوّرة لمنهجية التّحليل النّفسي الفرويدي...

يقول "هيجل" إن التقاء الإنسان الأولي، مع غيره من الناس الآخرين يؤدي إلى صراع عنيف، يسعى فيه كل مقاتل إلى أن يعترف به الآخرون على أنه يخاطر بحياته، فالإنسان هو في الأساس إنسان اجتماعي يتجه نحو الآخر، إلّا أن اجتماعيته تقوده نحو صراع مميت، من أجل الهيبة والاعتبار.

فالمعركة الأولية هي توتر أساسي ما بين كبرياء الإنسان، ورغبته في أن يُعترف به، تدفعه إلى المخاطرة بحياته في معركته من أجل ردّ الاعتبار من جهة، وخوفه من الموت العنيف.

وهناك الكثير من الرغبات الهادفة إلى الحصول ليس على المرغوب فيه، بل الحصول على حب الآخرين، أو الاعتراف منهم، من حيث إنّ رغباتنا لاشعورياً، تحاول أن تجعلنا نقول إنّنا مثل الآخرين، ولا نختلف عنهم، ثم يأتي شكل آخر هنا، من أشكال بناء هوية الذات على المستوى اللاشعوري، وهو ما تنتجه "عقد التّناقض" فتكون رغباتي عكس ما ترغب فيه أنت.

إنّ الذي يدفع للخضوع، وقبول حياة العبودية مقابل حصول الإنسان على السّلام والأمن من جهة، والقبول بخطر الموت في معركة من أجل الاعتبار فقط، هو الذي يجعل الإنسان إنسانياً، وهو الرّكيزة بالذات للحريّة الإنسانية، ولكن إذا كان هذا

الصّراع من أجل الاعتراف هو: الفعل الأول للإنسان، فإنّه لن يكون الفعل الأخير، فالصّراع سينتهي وفقاً للعلاقة الهيجيلية "السّيد والعبد"، التي لن تكون مُرضية، لا بالنسبة للسيد، ولا بالنسبة للعبد، حيث إنّ المعركة الدّامية بين الناس الأوائل ليست سوى نقطة انطلاق للديالكتيك، والصّراع من أجل الاعتراف يعود بأصوله إلى الجانب "التّيموسي"، وفي النّفس أي إلى النّفس الرّاغبة، فيبدو أن رغبة الاعتراف هي المحرك الأوّل للتّاريخ الإنساني، فبدءاً تعدّ كتابات أفلاطون، أولى الكتابات التي وصلتنا في الحديث عن النّفس والإنسان، فقد تحدث عن التّيموس (ماكيافيلي) كما (أفلاطون) بالإشارة إليها من خلال حديثه عن رغبة المجد لدى الإنسان، كما أن "هوبز" تحدث عن الاعتزاز والكبرياء، و"روسو" تحدث عن حب الذات، و"نيتشه" تحدث عن أن الإنسان الحيوان ذو الوجنتين الحمراوين، أي الإنسان ذو الانفعال.

وفي ثقافتنا العربية صفة الإيثار صفة ملازمة للعربي الأصيل، ما يعني من كل تلك المعاني والتّعابير السابقة عند كل الشعوب، أنّ الإنسان الذي يشعر بالحاجة إلى منح قيمة لكل شيء من الجانب الخاص لشخصيته يعتبر أن المعاني هي المصدر الرّئيسي لانفعالات الفخر والغضب والخجل، وهو لا يمكن أن يتحول إلى ذُل الرغبة من جهة، ولا إلى العقل من جهة.

فالطّريقة لتأكيد هوية الاستقلال، والمغايرة عن الآخر، نقوم بتكوين رغباتنا ليس وفق احتياجاتنا بل على قاعدة المغايرة وليس المسايرة.

وبالعودة "لتيموس" أفلاطون نجد أنّ: المفهوم عنده مرتبط بالقيمة التي نضعها في ذاتنا، هذا هو تأكيد الذات بالمعنى النّفسي، "تيموس أفلاطون" هو المركز النّفساني للرغبة الهيجيلية رغبة الاعتراف، فالسّيد يندفع إلى المعركة الدامية، بفعل الرغبة في أن يقدره الآخرون، فمن كون "التّيموس الأفلاطوني" هو المقر النّفسي لجميع الفضائل الشّريفة، فهو يقدم ركيزة انفعالية قوية لعملية التّقويم، والتّقييم ويمكّن الإنسان من الانتصار على غرائزه من أجل حبّ ما يعتقده حقاً وعدلاً، أردت من خلال كل هذه الأمثلة المختلفة عن "التّيموس"، التي أوردتها إلى

توضيح أنّها كلها تهدف إلى الرّهان على أنّ كل نشاط اقتصادي، يمكن أن يتحول إلى رغبة الاعتراف، حيث إنّ هذه الطاقة الذاتية هي مجهود، ومردود الجهد دائماً، هو المرتكز الأول لكل اقتصاد، ليبقى العقل والرّغبة جزأين من النّفس متميزين عن "التّيموس" من خلال إدراكنا لكثير من تقنيات نمو الذات في شخصية الإنسان، وتشكلها في المراحل الأولية من العمر، ثم سلوكها ورغباتها في المراحل العمرية المتقدمة، التي ستعطينا فرصة أفضل، لفهم أنفسنا وللتّوافق معها، وفق رغباتنا نحن، وبعيداً عن تشوهات الذات المحاكية أو المناقضة للآخر...

الإنسان "التّيموس" هو إنسان الغضب الذي يغار على كرامته الذاتية، وعلى كرامة مواطنيه، هو الإنسان الذي يفهم أنّ قيمته تتكون من شيء يفوق مجمل الرغبات المعقدة التي تشكل وجوده المادي، ويدرك معنى الكرامة الشخصية عند غيره من النّاس، مطلبه في أن يعترف به الآخر الإنساني.

التّيموس هو مصدر للفضائل الشّريفة، لاختيار الدّيمقراطية الليبرالية في عالمنا المعاصر، وبذلك أجد أنّه ليس غريباً أن يسود في ثقافتنا الشّعبية تكريس الفهم لدى الغالبية من أن رغباتنا قاتلة لنا، كون الرّغبة هي أصل الشّر الرئيس، فهي مكرسة كالوسواس الخناس.

وبالعودة إلى "فوكوياما" الذي يجد فيها أن المحرك الأساسي للتّاريخ هو الجانب "التّيموسي" النّفسي للفرد والجماعة، أي هذا الجزء الخاص بالإنسان الراغب، والرغبة قاعدة النفس الطامحة إلى تأكيد انتزاع اعتراف الآخرين بها، هو ماهية ثابتة للإنسان، من كونها مبدأ الصّراع الفردي والجماعي من أجل الاعتراف وتأكيد الذات...

أما فيما يتصل بالشّق السياسي للتّيموسية، فهي العامل النّفسي المحرك التي أسقطته الأنظمة الكليانية / الشّمولية على شعوبها نفسياً، وصاحبه عند هذه الشّعوب أن لا ترى في أنظمتها مجالاً لتحقيق طموحاتها، ولهذا كان التّيموس أهم من العوامل الاقتصادية والسياسية.

التّيموس الذي يشير إلى الرغبة بأن يُعترف بنا كمتوافقين من كل الأطراف، والتي تبرز عند الطاغية من أجل أن يعترف بسلطته، أما (الإيزوتيما Isothymia) فهي الرّغبة في أن يُعترف بنا كمساويين للآخرين، وكلا الرغبتين تشكلان مظهرين لرغبة الاعتراف، وتُمكّنان من فهم الانتقال التاريخي نحو الحداثة، "التّيموس" الذي ولد في الشّكل المتواضع كاحترام للذّات، يمكنه أن يبدو، كرغبة في السّيطرة أو السّعي وراء المجموعة، فقد كان "ميكافيلي" يعتقد أن الإنسان يمكن أن يصبح سيد مصيره، إذا استوحى من الشكل الذي يعيشه.

من الأفضل أن يكون الإنسان موهوباً على أن يكون محبوباً، أو يجب ألّا نعي بوعدنا إلّا إذا كان ذلك مهماً (فالميغولتيما) من حيث هي اعتراف بتفوق الآخر "فهي حين تتخذ شكل الرّغبة في المجد، تكون المحرك النّفسي الأساسي للطموح، إن رغبة المجد خاصية شمولية لبني الإنسان، فجوهر الإنسان الحقيقي ليست حاجاته، ولا عقله، وإنّما التّيموس الخاص به، فالإنسان فوق كل شيء هو مخلوق يقوم بالتقييم، إذ هو وفقاً "لنيتشه" ذلك الحيوان صاحب الوجنتين الحمراوين الذي وجد سبب عيشه، في لفظ كلمتي الخير والشّر عبر التّقييم السّلبي والإيجابي للأمور وانفعالات الوجه المصاحبة...

في العصر الحديث تبرز الرّغبة في الاعتراف جيداً في الموضع النّفسي لشعورين شديدي القوة في تكوين الإنسان، هما الدّين والقومية، أي أن تجذر هذين الشعورين في (التّيموس) هو الذي يعطيهما هذا القدر من القوة، فالانفعالات (التّيموسية) كالتّعصب الدّيني، والشعور القومي هي التي جعلت التاريخ يتقدم وسط الحروب، ونتيجة لذلك كانت الصراعات خلال عدة قرون، الأصول (التّيموسية) للدّين والقومية، تفسر السّبب الذي جعل الصّراعات حول القيم، يمكنها أن تغدو قاتلة أكثر من كل الصّراعات حول المكاسب المادية، أو الثروة، ومن هنا خطورة المخاوف التي تدور في النّفوس عند مجموع النّسيج السّوري مثلاً نتيجة الأحداث الدامية من جراء العنف العقائدي بكل تطبيقاته... وبذلك الحل والمخرج لا بدّ أن

يكون عبر مبادئ الدّيمقراطية التي تمثل نصراً غير مشروط للإنسان السوري بعد هذه الحرب العبثية بوجوده مؤخراً، كما أن مبدأ الديمقراطية هي حل شعوب المنطقة جميعهم لتكريس الانتماء وإغناء وجود الذات بحق الاعتراف بكل الممارسات الإنسانية التي ينشدها الإنسان المعاصر أينما وجد.

إن الإنسان الدّيمقراطي هو إنسان مركب من الرّغبة والعقل وماهر في توفير حيل جديدة لإشباع جملة من الرغبات بفضل حسابات الأنوية /الأنا الذاتية/ بعيدة المدى، لكنه يفتقر كلياً إلى كل رغبة بالاعتزاز الأنوي، راضياً بسعادته الدنيئة كونه غير قادر على النهوض فوق رغباته، وعلى اعتبار كلام "نيتشه" مؤثراً في تحفيز ذهنيتي، أجد نفسي دائماً أعود إليه، "نيتشه" الذي يعتقد أن الحرية الحقيقية أو الإبداعية لا يمكن أن تولد إلّا من رغبة العظمة للأنا /العظمة الأنوية ميغالوتيما) أي من رغبة الاعتراف بالتفوق على الآخرين، إنّ الرغبة بأن يعترف المرء كشخص متفوق ضرورية، إذا ما شاء أن يتفوق على ذاته، فتلك الرغبة هي الشرط المسبق لخلق شيء مادي له قيمته في كل الميادين...

لا يمكن للدّيمقراطية أن تدخل بسرعة في حيز التّطبيق عند الدّول الليبرالية، ففي بعض جوانبها ينبغي أن تنبثق من القرار السّياسي المصرح به لإيصال تأسيسها. بمعنى أدق يجب أن تنبع من قرار سياسي واعٍ ومقصود بتأسيس الديمقراطية وفقاً "لفوكوياما" في مؤلفه الشّهير "نهاية التاريخ والإنسان الأخير"، نهاية التّاريخ التي يشير إليها فوكوياما تتضمن بالضّرورة نهاية الأيديولوجيا، فمن أبرز الأفكار التي يتأسس عليها خطاب العولمة الشّعار الرّائج الذي تترجمه مقولة "نهاية الأيديولوجيات" التي سادت بعد سقوط الفاشية بانتهاء الحرب العالمية الثّانية، والماركسية التي ضعفت بانتهاء الحرب الباردة.

والمعروف أنّ "فوكوياما" كان من أوائل الذين بشروا بنهاية الإيديولوجيات في كتابه الذائع الصيت هذا، ليمكّن للدّيمقراطية الليبرالية أن تشكل خاتمة التّطور الإيديولوجي للإنسانية، والشّكل النّهائي لأي حكم إنساني، بمعنى آخر الدّيمقراطية

الليبرالية تشكل نهاية التّاريخ وفق هذا المنظور...

وأيضاً وفقاً لتطور مفهوم العولمة كحدث كوني له بعده الوجودي، لتشكل ظاهرة عالمية جديدة خلقت واقعاً تغير معه العالم، عما كان عليه بإمكاناته وآفاقه المحتملة التي كانت سائدة في حياة الشّعوب، ولكن ضرورات العصر تقتضي الانفتاح الفردي والمجتمعي... فهل يكون لنا ترتيب مُرضي في سلم الوجود الحضاري المعاصر؟ حيث لا يمكن لنا أن نقفل بابنا؛ حيث الباب بات مخلوعاً.

لذا أجد أنه لم يبقَ لدينا إلّا تحصين ذواتنا بحمايتها من الآخر المختلف، وإعطائه الأمان منها، حينها: ننام في العراء ونبدع وننتج، نختبر حينها طعم السّلام الدّاخلي، وعظمة الدّيمقراطية كخلاصة لأرقى أشكال الحكم التي عرفها الإنسان سابقاً.

ظاهرة المعايشة التجاوزية

هي ظاهرة معروفة عند الأطفال، السّمات العامة لهذه الظاهرة، تشابه سمات نفسية مماثلة لدى ما هو قائم في البلدان المتخلفة عبر مسيرتها نحو التّطور الإنساني في تراكماته المعرفية المختلفة العلمية والأدبية، وما إليها من تطور في عمل المجموعات والمؤسسات، وهذه السمات لظاهرة المعايشة التّجاوزية تتلخص في كونها:

1- تقوم على عدم التّمييز الواضح، بين أين ينتهي مجالي، أي حدود الأنا الخاص بي، وبين الأنا الآخر الشّبيه لي في كل الحقوق والواجبات... حيث يرى من لديه هذه الخاصية نفسه في شبيهه كأنّه يراه في مرآة، ويرى نفسه من هذا الجانب في المرآة.

2- عند الأطفال هذه الظّاهرة، تتجلى بظاهرة العدوى، فعندما يبكي طفل نجد أن الأطفال المحيطين به، يبكون بدون أن يكون هناك سببٌ لبكائهم، إلّا بكاء هذا الطفل، هذه الحالة نجدها عند الأطفال قبل عمر السّنة، وبالأخص قبل الشّهر الثّامن أي قبل عمر نمو الأنا، وراقبوها إن أحببتم، قبل أن يعرف الطّفل وجهه في المرآة عن وجه أمه ليتطور بعدها الاحساس بالأنا إلى حدّ أن الطّفل عندما يبدأ

بإدراك أناه يتمركز حولها، ولا يستطيع إدراك شيء مختلف عنها، بل الإسقاط لكل المؤثرات المحيطة اجتماعياً به تكون عليها.

3- وفي الدّراسات النفسية التّحليلية هناك مثال مشهور يوضح ذلك ومثال ذلك "هنري فالون" عالم نفس النّمو، حول طفلة كانت تنظر بحقد إلى قرينتها، وهي تأكل قطعة حلوى ثم أدّى بها هذا الشعور الحاقد إلى أن وجهت لها لكمة موجعة، فلما سئلت الطّفلة لماذا ضربتها؟ أجابت الطفلة الغاضبة: لأنّها ضربتني.

هل نقول إن الطّفلة تكذب؟

حقيقة الأطفال لا يكذبون كما هو شائع، ولكن الأطفال تختلط عليهم المفاهيم بحكم عثرات النّمو، وخصائصها المعرفية والوجدانية، فلنعد إلى الطفلة التي ضربت الطفلة التي تأكل أمامها، من حيث هي رأت فيها قرينتها كصورة شبيهة لها، تساوت مع علاقتها مع صورتها نفسها، فبدت لها الضّربة الصّادرة عنها، كأنها ضربة موجهة إليها.

بمعنى آخر أسقطت رغبتها، بأن تضرب الطفلة، على ذاتها كحل دفاعي عن ممتلكاتها، في سيكولوجية الجشتالت، يبدو الأمر أكثر وضوحاً عند هذه المدرسة النفسية العلاجية، التي كان من أهم إبداعاتها ما تم دراسته حول الإدراك الحسي، وامتداد أحكام هذا الإدراك إلى علوم الحياة، حيث تعدّت ملاحظاتهم عن صورة الشّبيه أو الصّورة النّوعية على بعض الحيوانات كالحمام، أو الجراد في التّأثير العضوي من نمو الكائن الحي نفسه.

الباحث النّفسي الشّهير "شيلدر" قام بدراسة حول الصّورة الباطنية للجسم عند الفرد ومدى تأثير الصّورة المرآوية، أو الصّورة الخارجية الآتية من المحيط في توجيه سلوكه الخاص...

وبالعودة للأصل دائماً، وأقصد هنا المنهج النّفسي التّحليلي، الذي هو الأصل في تكويني المعرفي، بدءًا من "فرويد" الذي عرّف الأنا باعتبارها الوظيفة الخاصة بإدراك الواقع، والتعامل معه.

غير أن "فرويد" ما لبث أن تبيّن له أن هذا الأنا، ليس موضوعاً فحسب بل هو موضوع يجتذب قدراً من العشق، وهو ما أطلق على تسميته بالنّرجسية، نسبة إلى أسطورة "نرسيس" المشهورة في التاريخ اليوناني، والتي عبر عن هذه الحقيقة الفلسفية، بكل عمق تفاصيلها، الفيلسوف اليوناني الغني عن الشّهرة "أفلاطون" في محاوراته العديدة، لاسيما محاوراته "فيدورس" حيث تعلم أن العاشق يرى نفسه في معشوقه، كأنه يراه في مرآة من حيث أن النّزوع إلى التّماهي أو التّوحد بالموضوع، هو أمر معروف منذ القدم، وتشهد عليها بصورة أوضح كل التّغيرات اللغوية في مختلف المجتمعات عند المهتمين والباحثين، وإشارة إلى البحوث حول اللغة، ولاسيما بحوث اللغة وفق المدرسة البنيوية، فقد أضاف "فرويد" من خلال قراءاته للتاريخ ما رآه من تماهي الأنا لا بصورة الشبيه فحسب، بل بصورة الشّبيه من حيث يبدو له شبيهه أو قرينه، متصفاً بصفات من الكمال تنقصه هو.

وبذلك يمكننا القول إن الأنا في جوهره هو الأنا المثالي، أي صورتنا عن الأنا الفردية الخاصة بنا دائماً، يعتريها عدم الموضوعية، فنصف أنفسنا أو ننظر لأنفسنا بنظرتنا لمن نعجب بهم، أي المثال الأعلى الذي يأسرنا، هذا هو المعنى المقصود بالأنا المثالي..

في تطور النّظرة النفسية التّحليلية، لموضوع الأنا وفهم أبعاده، يأتي ما توصل إليه "جاك لاكان" كأنه فتح كبير على فهم الإنسان بمعانٍ واقعية، واضحة الحدود من حيث إن "جاك لاكان" المحلل النّفسي المجدد لنهج فرويد كون "لاكان" نظر إلى مرضاه نظرته إلى موضوع يدرسه من خلال تفاصيل عدة للسّلوك، والمعتقدات عدَّ أن ذات المريض ذات تتميز بطريقتها في التعامل مع العالم الخارجي بسبب الاضطراب الحاصل الخارجي، أي مع الناس الآخرين لها، وبذلك استند "لاكان" إلى تحليلات "هيجل" حول ما يسمى النّفس المزهوة أي النّفس التي تنعي على العالم فساده، وترفض أن تدرك مدى إسهامها في هذا الفساد.

إن تماهي الطّفلة في المثال المذكور سابقاً بغريمتها التي كانت تقوم عندها،

وإن أنكرت مقام الأنا المثالي الخاص بها، عبر علاقة خيالية ملؤها التّوتر، والانقباض مما أدى بها إلى فعل طعن الغريمة فعلاً كما حصل بالمثال، الذي أوردته حول طفلة "فالون" حيث إن ما قامت به الطّفلة الضاربة، هو فعل لا يخلو من البحث عن الرّغبة في العقاب، وبذلك كان ابداع "جاك لاكان" الثّري حول "مرحلة المرآة" كمرحلة مهمة في النّمو النّفسي للإنسان من حيث إن:

الشعور بالذات يرتبط ارتباطاً أساسياً بظهور صورة الجسم بعيداً عن الجسم نفسه، كيف يكون ذلك بمعنى ثنائية النّفس والجسد في الحضور الإنساني.

ففي النّمو الأولي الطّفلي يبدو أن هذه الثنائية متطابقة، بمعنى تقدير الذات لا يأتي إلّا عبر العنصر الحسي المادي، كون النّمو المعرفي عند الإنسان يتدرج من المعرفة الحسية إلى المعرفة شبه الحسية إلى المعرفة المجردة، وهذا يتبع تطور المحاكمات المنطقية عبر الاستعدادات العقلية، وما تراكمه الخبرة الحياتية لنا من خلال استغلال وتوظيف كل إدراكاتنا الحسية...

لتكون وفقاً لهذا المنظور التّكوينات النّرجسية البارانوية للدكتاتورين تنهل سعادتها على حساب سعادة الآخر كون هذه الشّخصيات المريضة لا تجد مكاناً لمشاركة الآخرين سعادتها، لأن الأنا عندهم مغرقة في التّضخم والانغلاق على محورها، فكلما ارتد حبّ المرء لنفسه انعكس مزيداً من البغضاء للآخرين، وهذا ما نجده جلياً لدى الساسة عبر العصور والأزمنة التاريخية، إدراكاً منهم أن البغضاء والحقد يمكن توظيفهما لأهداف معينة راحوا ينشئون العداوات تدعيماً لوفاقهما الداخلي مع نزعاتهم النرجسية.

مما سبق يمكن القول: إن إدراك الأنا أو الشيء، في سياقات متعددة وعلاقات متنوعة يعطي لكل سياق ولكل علاقة أداءً مغايراً ومفهوماً مغايراً، بحيث يجعل الشيء أشياء قد تناقض بعضها، وذلك مكمن الخطورة، ومكمن أهمية الوعي الذي نسعى لتحقيقه، ولنا أن نضيف (الوعي) مع تلك التّعددية السّياقية إلى مالا نهاية له، بحيث يتعدد مدلوله عبر سياقات معينة بتعدد الإضافات أو الصّفات.

فنقول: وعـي دينـي، وسياسـي واجتمـاعي وفكـري، ...إلـخ وهنـا نسـتعيد كلمـة (وعـي) بعـد وعـي مـدلولها، لا مـن خـلال مادتهـا اللغويـة فحسـب، وإنمـا مـن خـلال سياقات تصـورية أو افتراضـية، أو من خـلال استقرار المصـطلح فـي ذاكرتنـا، وعلـى هذا الأساس (فالوعي) ليس مجرد إدراك الدّلالـة اللغويـة المباشرة للشّـيء مفصولاً من سياقه، ومن علاقاته ومن نتائج هذه العلاقات، ومن التّحولات الدّلالية عبر الزمن، وهنا تقترب مقاصدنا (بالوعي) من التّحرر والتّميز، بحيث يكون مصطلحاً لا يفارق الدلالـة الوضـعية، وإنّما ينطلـق منها متناميـاً مـع الأنمـاط، والسّياقات والعلاقات التـي تشكل النّسيج الاجتمـاعي، وبالتـالي محاولـة الوقـوف عند الـوعي فـي ضـوء سياقاته المتعددة، أي في سلسلة الدلالات، حيث أصبحت هذه التّداعيات والتّداخلات إشكالية ذهنية أنتجتها إشكاليات العصر المعقدة من خلال تسارع إيقاع الأحداث في محيط وعجـز الإدراك الـواعي عـن الإحاطـة بهـا، حيـث إنّنـا نلاحـظ أن الـذين ينظـرون إلـى الأمـور بصـورة مسـتقلة ومجـزأة أو مجـردة عـن ظروفهـا وأنمـاط واقعهـا، ولا يضـعون حساباً للعلاقات، سوف يكون حليفهم الاخفاق، والإحباط، فالوعي المراد في بحثنا هذا وفيما يشاكله يعني: إدراك الأنا عبر الآخر، أو علاقة المفاهيم بغيرها وما تنشئه تلك العلاقات من متغيرات، التـي هي في الأصل ليست علـى وتيرة واحدة، لتبيان الفرق بين خصائص الشيء مجرداً، أمّا رؤيـة المسائل الاجتماعية علـى المستوى المعنوي، فهذا الأمر يقتضـي منّا رؤيـة أعمق مما نتصور ظاهرياً للحدث، وبذلك يكون العمل المنتج مـا هـو إلّا وليد تفاعـل الأشياء مـع متلازماتهـا، وهنـا اسـتعير المثـال الشّـهير حول العربة والقيادة: من حيث إن شروط قيادة السّيارة علم، وممارساتها مهارة وفن، والطّريـق مضـمار لممارسـة القيـادة، وعلاقـة المركبـة هنـا متصـلة مـع عـدة عناصـر، ولـيس فقط رؤيـة المركبـة والطّريق، إنّمـا الأمـر يقتضـي منـا شـيء آخـر مـن صـنيعة الوعي بالعلاقة بين الطّريق والمركبة وسمات كل منهما، ومميزاته وظروفه الطّارئة أو ملازمـة الـوعي الـذي يكـاد يكـون غائبـاً عـن الكثيـرين، ممـن يتصـورون أنهـم أوعـى مـن غيرهم، وهنا تكمن الخطورة في غياب مثل هذا النوع من الوعي، حيث يغدو الأمر

مؤسفاً عندما يكون هذا الارتباك وسوء التّقدير، والرؤية المحدودة واقعاً بين أوساط النخبة، متمكناً من المثقفين، وأصحاب الخطاب المتعدد الانتماءات، هذا الوعي الذي أجد من المهم السّعي الحثيث لتأكيده، وتنميته عبر مزيج من قدرات وملكات متعددة، أهمها القدرات الاستيعابية للأحداث بعيداً عن التصنيفات، وبغياب للقدرات التّحليلية، والاكتفاء بالقدرات الاستنتاجية الظاهرة للحكم على الأحداث التي تُنغص حياتنا، ما أجده مهماً أيضاً، أن تكون إرادتنا الاعتماد على قدرات تفاعلية لا انفعالية وقدرات ابتكارية لا استلابية، وقدرات عملية منتجة، وقدرات معرفية لا قدرات نقلية يرددها الآخرون لنتبناها بكليتها بدون استبصار، وأعمال المحاكمات لتطبيقاتها المختلفة.

من هنا تأتي ممارسة الفعل على ضوء معرفة متعددة المستويات، وليس المعرفة من باب العلم بالشّيء فقط... حيث إن أعمال القدرة على انتقاء البديل الأمثل في مواجهة الطوارئ، من كونه التّصرف الأكثر دقةً، وانضباطاً في المواقف المفاجئة والحرجة والمتداخلة، هنا يكمن الفعل الحضاري التّجاوزي القصدي التّأسيسي الذي يعمق صلتنا بالواقع ويبرز أصالة انتمائنا، وكل ذلك لن يكون إلّا بمقدار القدرة على التّحكم بالذات، وامتلاك المشاعر وترشيد العواطف في كل المواقف الذاتية، والغيرية، وضبط النّفس، إنّه المبادرة واتخاذ القرار في أحلك الظروف، إنه حوار الحضارات دونما تشنج أو صدام، ودونما خنوع أو استسلام، تمثلاً بقول الأجداد، ومنهم أذكر معاوية بن أبي سفيان الذي يقول: «ما دخلت في شيء إلّا أحسنت الخروج منه»، إلى قول عمرو بن العاص: «ما دخلت في شيء إلّا وقد عرفت من قبل كيف أخرج منه»، كما القادة العسكريون المهرة، الذين يضعون خططاً في حال الاضطرار للهزيمة، كما هو الحال في الخطط لنيل الانتصار، فهم يضعون في حساباتهم عدة احتمالات قبل خوض معاركهم، بحيث لا تفاجئهم الأحداث، وصدقَ من قال: «من أراد السّلام فليستعد للحرب» فحربنا التي أجدها طويلة هنا، هي ليست حرب الآلات العسكرية، فالحرب حصلت وللأسف، وقد شملت نتائجها من مظاهر الدّمار الكثير.

وكم من مشاريع مصيرية باءت بالفشل لمجرد أنها جاءت في غير وقتها، أو نفذت في غير مكانها الطبيعي، سواء أكانت بيئة ذهنية أم اجتماعية أم جغرافية، أو ما شئتم من المؤثرات المباشرة أو غير المباشرة، وكم قيل: جاء فلان سابقاً لوقته، لقد مُنيت كثير من دول العالم وأحزابه بنكسات موجعة بسبب طموحات فقدت التّوقيت والتقدير: تقدير الذات، وتقدير الآخر... وأدواتنا في مسعانا هذا لن يكون إلّا عبر الوعي والإدراك الواعي. يقول عباس محمود العقاد في مجموعته الفلسفية: (الوعي والعقل لا يتناقضان، وإن كان الوعي أعم من العقل في إدراكه، لأنّه مستمد من كيان الإنسان كله، ومن ظاهره وباطنه وما يعيه هو وما لا يعيه، ولكنه يقوم به قياماً مجملاً محتاجاً إلى التّفصيل والتّفسير)...

فكأن العقل يعطي المواصفات، والوعي يحدد الاختيارات، ومن ثم لا قيام لأحدهما بغياب الآخر، وجل الأمر يتحقق بتكامل عمل العقل والنّفس، كأن يكون الإنسان حافظاً للقرآن الكريم مقيماً لحروفه، وما يقدر عليه من حدوده، ولكنه لا يكون واعياً لمدلوله، مُدركاً لأهدافه، مستفيداً من غناه اللغوي والجمالي والدّلالي في ممارساته الكتابية والكلامية.

هكذا أقدم رؤيتي لوعي الذات والآخر في طريق الفاعلية والتّفاعلية وليس عبر الإلغاء، أو الاندماج أو التّجاوز، وهنا بيت القصيد حول المشكلة في تخطي الحدود.

فالحدّ في النّهاية حرفٌ نقف عنده، بعد أن نفك رموزه ومدلولاته عبر سياقاته المختلفة مفرداً، أو مركباً مع أحرف أخرى ونهايات...

الفصل الثّاني

مفهوم الهويّة

وإشكاليات الانتماء والمواطنة

تمهيد

ارتبط سؤال الهويّة بظاهرة التّغيير التي شهدتها بعض الدول في عالمنا العربي بشكل واسع وحاد، وقد شكّل هاجس الهويّة واحداً من المخاوف والأسئلة والأحكام التي ارتبطت بظاهرة العولمة وتأثيراتها، وهذا ما سوف أبحثه هنا، منذ بدء تكوّن الهويّة الجنسيّة ونمو الأنا عند الأطفال، وكذلك تطور نمو الأنا في مرحلة الشّباب ولاسيما الأنا الاجتماعي الأطفال والشّباب باعتبارهم أكثر الفئات في المجتمع معاناة، وتأثراً بنتائج التّغيرات والتّحولات الاجتماعية، والاقتصادية والثّقافية التي يمر بها المجتمع. ففي السّنوات الأخيرة وجدنا أنّ العديد من علماء النّفس والاجتماع العرب اهتموا بالحديث عن موضوع الانتماء فمنهم من يرى مثلاً: إنّ التّقدم التّكنولوجي الهائل الذي يعيشه العالم خاصة في مجالات الاتصالات، يعني قدرة بعض النّظم والدّول على التّأثير الفكري والثّقافي لدى الناشئة والشّباب في الدّول الأخرى، والظّاهر للجميع أن الاتجاه العالمي اليوم نحو الدّيمقراطية، له ترويج إعلامي كبير، وهذا يفرض على الدّول الاهتمام بتربية الشّباب، ويعتبر موضوع الانتماء من أبرز الموضوعات التي تبرز للمواءمة مع عيش الدّيمقراطية وشعور الانتماء بدون لبس أو تشويه.

من هنا يبرز الاهتمام بموضوع الدّيمقراطية في مجال العمل السياسي في بلادنا ممزوجاً بشيء من القلق، حيث إن الوعيّ العام يتجه إلى القناعة بأن الصّراع

بين الدّول لم يعد صراعاً مسلحاً، بقدر ما أصبح صراعاً حضارياً وثقافياً وسياسياً، وهنا يأتي الاستقطاب الثّقافي والفكري والسّياسي في مقدمة هذا الصّراع، ولأجل هذا المسعى اهتمت الدّول بتحصين شبابها، وتأهيلهم سياسياً ضد محاولات الغزو والاستقطاب الخارجي، وكذلك تأكيداً للهويّة الوطنية وتعميقاً للانتماء والولاء.

فالتّغيرات السّريعة وغير المسبوقة في المجتمعات المعاصرة، أحدثت بعض المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في مجتمعاتنا خاصة، والتّغيرات التي حدثت ومازال تحدث لم تكن متوازنة ومتدرجة من ناحية، ولم يكن بعضها مخططاً له التخطيط الدقيق من ناحية أخرى، وكان لذلك كله آثاره السّلبية على الأطفال والشّباب بصفة خاصة، تمثلت في زعزعة الانتماء للوطن، وإضعافه لدى بعض النّاشئة من شرائح المجتمع المختلفة، ففي قراءة المشهد السياسي الحاضر أمامنا، الذي يشغل بال عامة الناس في بلادنا العربية، نجد أنّ مشكلة العنف هي الهاجس الأبرز، وذلك لأنّها باتت ظاهرة معممة في أغلب البلدان العربية، نتيجة لحراك الشّارع العربي نحو التّغيير ونداء الحقوق الذي تصدح أصواته في كل ركن من بلادنا، سواء أكان عاماً أم خاصاً بدءاً من الأسرة إلى السّاحات العامة، ومؤسسات البلاد الرّسمية.

بوصلة الانتماء

من جراء هذا العنف الذي استشرى في جسد الأمة العربية، باتت قضية الانتماء في مجتمعنا العربي، والمجتمع السّوري على سبيل المثال، تُجابه بأقصى الأساليب والصّور سواء أكان ذلك مع الذات أم مع الآخر، وذلك عبر السّؤال المطروح اليوم أمام الجميع: هل الانتماء للوطن هو ما يجمعنا؟ أم الانتماء للطائفة؟ أم عدم الانتماء لا لهذا، ولا لذاك؟.. ونظراً لأن موضوع الانتماء مرتبط بمفهوم الهويّة، فمن الملاحظ اليوم أنّ أبرز الأسئلة ضمن الثّقافة العربية السّائدة هو: سؤال الهويّة، حيث تتداخل تساؤلات الهوية ضمن حالة الوعي الجمعي، لذلك

لا بدّ للبحث في هذه الإشكالية الكبيرة أن نبحث منهجياً عن مؤثرات مفهوم الهويّة، إنّ الطّرح اليوم بقوة وفق المنظور النّفسي السياسي تحديداً هو الانتماء للعالم، وذلك كتسويق لمشروع اقتصادي أكثر منه ثقافي أو بنيوي للوجود والوعي بهذا الوجود، وهنا حديث آخر حول مشكلة العولمة وتداعياتها...

في كل الحالات النّموذج الحضاري للإنسان المعاصر، بات يُنظر إليه اليوم من حيث كم الاستهلاك، والاستفادة بأكبر قدر من معطيات التّكنولوجيا الصناعية لهذا العصر، لذلك تنمو باستمرار العولمة العنيفة، وهناك عولمة (mondialisation) وكذلك تشابه "Homogeneisation" بمعنى أوضح هناك عولمة وتوحيد بالتّشابه للاستمتاع بتوحيد أشكاله، وهو الشّكل الأمريكي بالغالب، للعولمة، لأنّ المنافسة في العالم كانت من قبل بين الماركسية، وما بين أمريكا "Representant way in life"، وهذه الأخيرة التي تنشد سياسة عامة نحو الاستمتاع بالحياة وفق ما يلي:

توضيح الأبعاد للمفاهيم موضوع الدّراسة

عملت هذه التّروية بهدف إيجاد سياق لطرح المفاهيم، التي سوف أعمل عليها حول موضوع الهويّة شائك الأبعاد.

وسوف أنطلق في تناول مفهوم "الهويّة" من خلال بعدين أساسين يكمل أحدهما الآخر كمدخل في التّعرف على مفهوم الهويّة، ومن بعدها نتكلم عن الانتماء كمفهوم تالٍ لنمو الأنا "الهوية":

1- نمو الذات هو اللبنة الأولى للتّكيف مع الواقع والبيئة المحيطة، و"معيار التّكيف" يعدّ أحد أهم المعطيات للصّحة النفسية والعقلية .

2- الانتماء لحقبة زمنية ما، من حيث أن المعاش المعاصر مبني على عدة انتماءات للماضي والمستقبل.

فمفهوم البيئة المحيطة اختلف اليوم، وبات غير قابل للحصر بفعل الانفتاح

العالمي الدّولي، هذا الانفتاح المجتمعي الدّولي، على الحدود والاتجاهات كلّها، يعدّ اليوم معياراً للتّكيف مع العصر الحديث، وعدم العزلة عن التاريخ، ويكون التّساؤل المطروح لكلّ منا: هل الانتماء لبلد ما، أم للكوكبية الأرضية، والجواب يكون دائماً جدلياً غير نهائي من حيث أن تطّور الحضارة ونشوئها لامست الإنسان في اكتشافه لنفسه ولغيره، ولا يمكن حصرها بشعب واحد، بل هي نتاج لكل ثقافات الشّعوب.

إن العولمة اليوم تهدد الهويات، كونها تطال ثقافة الشّعوب وتقاليدها، التي كانت إلى عهد قريب عوالم تكتنفها القداسة والخصوصية.

عرّف المفكر الفرنسي "أليكس ميكشيللى"، الهويّة بأنها: منظومة متكاملة من المعطيات المادية والنفسية والمعنوية والاجتماعية، تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفي، وتتميز بوحدتها التي تتجسد في الرّوح الداخلية، التي تنطوي على خاصية الإحساس بالهويّة والشعور بها، فالهويّة هي وحدة من المشاعر الداخلية التي تتمثل في الشعور بالاستمرارية، والتّمايز والدّيمومة والجهد المركزي.

وهذا يعنى أن الهويّة هي وحدة من العناصر المادية والنفسية المتكاملة التي تجعل الشّخص يتمايز عما سواه ويشعر بوحدته الذاتية (الهوية، أليكس ميكشيللى: ترجمة علي وطفة، ص: 15).

ففي أوروبا والعالم الثّالث اختلط المفهوم الثّقافي بالمفهوم الحضاري ردحاً من الزمن، من حيث إن الحضارة لها بُعد مادي، والثّقافة لها بُعد استناري، وتهذيب للذّوق وتقوية ملكة النّقد والمعايير النّقدية التي تحتوي على المعارف والمعتقدات والأخلاق في مجتمع ما، بالإضافة إلى هذا الفرز لمفهومي (الثّقافة والحضارة) التي صنعهما في النّهاية الإنسان.

مما تقدم يتضح أنه يلزمنا لتوضيح مفهوم الهوية الإنسانية، الرّجوع إلى الأنثروبولوجيا، والخوض فيما توصلت إليه البيولوجيا، وفي هذا السّياق تأتي النّظرية النّشوئية، التي طالت الإنسان في تيارين يتحكمان في تطّوره وتقدمه...

الأول: التاريخ شاهد على تطورات هائلة للإنسان، والمجتمع من حيث اعتناق الأديان والمبادئ الأخلاقية، التي نقلت الإنسان من الظّلام إلى النّور ومن الجهل إلى العلم، ومن الهمجية إلى الإنسانية، ومن الأنانية إلى التّعاونية، هكذا طوّر الإنسان مفاهيمه وقيمه ومعتقداته بتراث تاريخي دون توقف.

الثّاني: علم حديث يعتمد على التّحوليّة، والتّغير في ضوء المكتشفات العلمية (النّباتية والحيوانية) وعلم الفلك والتّيار البيولوجي "علم نشوء الإنسان والأحياء" إلى علم الاستنساخ اليوم، فهذا التّطور في المجال البيولوجي، يأتي جواباً على التّغيرات، التي يمكن أن تطرأ على الكائن الحي دائماً.

الفلسفة النّشوئية، تمثل خلاصة التّيارات العلم نفسية، والخضوع لمبدأ الارتباط كل ذلك ضمن علم الأعصاب وعالم النّفس (سبنسر) يشابه بين نشوء الإنسان، وبين نشوء المجتمع، إذ يرى: أن هناك تأثيراً مستمراً ما بين النّفسي والاجتماعي، فتطور المجتمع لا يأتي إلّا بتطور المفاهيم النفسية، وهنا أوضح ووفقاً لرأي "سبنسر" بأن الصّراعات ما بين الاجتماعي والفردي، تكون على صعيد الميول والغرائز، والكف عن أسبابها في سبيل الحفاظ على صور الجماعة.

قد تعددت آليات النّظر إلى المستقبل والانتماء، ووظّف العلم كماً وكيفاً بهدف إبراز ثقافة أمة ما عن ثقافة أمة أخرى، مثل الأمة الفرنسية أو الألمانية، ولكن هناك موضوعية تدفع جميع المجتمعات المعاصرة إلى إعادة هيكلية متعددة الأبعاد والمستويات، والوثائق لقيمها وهياكلها ونظمها وقوانينها ومؤسساتها، حيث غيّرت ديناميكيتها مضامين مفاهيم ومسلمات كثيرة موروثة عن قرون النّهضة الصناعية، وعملية التّحديث الموروثة عن عهد الأنوار الأوروبية، ومسلمات الدّول القومية الحديثة مثل مفاهيم الدّولة والهوية والدّيمقراطية، والحدود والسّيادة والاقتصاد والعمل والقيمة.

وعلى الرغم من الغموض الذي يلف مفهوم الهويّة، ويحيط به يمتلك هذا المفهوم طاقة كشفية لفهم العالم بما يشتمل عليه من كينونات الأنا والآخر.

استعملت كلمة الهويّة في اللغة العربية، من مصدر مركّب هو ضمير الغائب المعرّف بأداة التّعريف (الـ) ومن اللاحقة المتمثلة في (ي) وعلامة التّأنيث (ة)... استعمل الفلاسفة العرب مثل الفارابي والكندي وابن رشد وابن سينا لفظ "هويّة" المنحوتة من الضمير هو، ويلاحظ أن فلاسفتنا العرب القدامى استعملوه بوصفه مقابلاً للفظ "استين" في اليونانية للدّلالة على وجوه المعنى الذي أقره أرسطو لمفهوم الوجود...

ويسجل لابن رشد عند الأوروبيين أنّه هو: من نقل تعاليم أرسطو إلى أوروبا. "هيرتسن" الذي قال: لقد بقي أرسطو مطموراً تحت أنقاض العالم القديم إلى أن جاء الأعرابي والمقصود / ابن رشد، الذي بعثه وحمله إلى أوروبا التي كانت غارقة في ظلمات الجهل، والمستشرق الإيطالي لويجي / رينالدي بقوله: من فضل العرب علينا أنّهم الّذين عرّفونا بكثير من فلاسفة اليونان، وكانت لهم الأيدي البيضاء على النّهضة الفلسفية عند المسيحيين...

ومما يجدر ذكره هنا، أن هويّة الجماعات البشريّة، قد تمّ بناؤها أصلاً على أساس طقوس تكريم الأجداد وعبادتهم، ذاك أن تنظيم الهويّة وما رافقه من نظام حكم، جرت ترجمته بالعصبيّة القبليّة وبالنّسب، أو بتعايش أُسر عدّة ممتدة ومتمدّنة في إطار حضري "الأسرة الموسّعة".

وبذلك نصل إلى أنّ الدّين ليس الرّحم الأوّل للهويّة، وهو ظاهرة مبنيّة ومتقنة فكرياً، بل الأصل المتّقاسم لجدّ مُشترك. وقد بقي في أجزاء واسعة من المعمورة البشرية كان تكريم الأجداد في مختلف أشكاله بحسب القارّات، فقد بقي لأمد طويل المعيار الوحيد للهويّة.

وقد كان نظام الهويّة يستخدم في دعم سلطة الأقدمين، سلطة رئيس القبيلة أو جمعية الأقدمين والرؤساء، بمقدر ما كانت تنشأ تحالفات تسمح بقيام تجمّعات أكبر، بدويّة أو حضريّة.

لنجد رأي للدكتور جورج قرم المفكّر اللبناني المعروف في مؤلفه المعنون

"المسألة الدينية في القرن الواحد والعشرين" بأنّه من المحتمل أن تكون قد تطوّرت، انطلاقاً من عبادة الأجداد، الأديان التي تعودّنا على تسميتها "الأديان الوثنيّة"، حيث وتبعاً "لجورج قرم" كان تعدّد الآلهة يعكس تعدّد الأجداد. وبناءً على كلام المؤرخ الشهير الذي نشره 1866:

Numa Denis Fustel de Coulanges, La cité antique, Hachette, Paris1866.

مؤلفه هذا الذي يستذكر فيه أهمية تكريم الأجداد، ليس فقط في بلاد الرافدين أو في اليونان وروما، بل أيضاً في الشرق الأقصى، سيما في الصين واليابان.

فالهويّة وفقاً "لجورج قرم" تعمل على تنمية الشعور بالاختلاف مع ما يفترض أنّه هويّة أخرى، والهويّة هي ظاهرة اجتماعية بالمعنى القوي للكلمة، لذا فإن كلّ نظام قيّم يبني الهويّة هو في وقت واحد مكوّن أساسيّ لنظام الحكم الذي ينظم الأمن داخل المجتمع ويقرر الحرب أو السلم مع المجتمع المجاور المختلف. (قرم، 95).

أما "مصطفى حجازي" الأستاذ النّفساني الأكاديمي اللبناني المعروف، فيرى: أنّ الهويّة ليست معطى نهائياً مكتمل الصورة ولا هو مفهوم محدد، بل إن الهويّة تنطوي على عناصر متفاعلة، وأحياناً متناقضة وهي كثيرة التّشابك والتّعقيد، ومع ذلك فإنّها وجه يمكن التّعرف عليه من قسماته الأولى.

أمّا "مجدي عبد الحافظ" الأكاديمي المصري القدير، فيعرّف الهويّة من خلال ارتباطها بالمعاصرة، حيث يشير إلى أنّ الهويّة هي: مجموعة القيم والعناصر والسّمات التي تجمعت عبر العيش في مكان وزمان واحد، ورسخت إلى حد ما، بعد أن تفاعلت فيما بينها، وتفتّق عنها شكل أخير وليس نهائياً، وهو ما يميّز مجموعة اجتماعية ما، تشعر فيما بينها بشرف هذا الانتماء، والموقف من الهويّة موقف معاصر يرتبط بوجودنا وخياراتنا ومصالحنا الآنية.

والأستاذ "حليم بركات" يشير إلى أنّ الهويّة هي وعيّ الذات والمصير

التـاريخي الواحـد مـن موقـع الحيّـز المـادّي والرّوحـي، الـذي يشـغله فـي البنيـة الاجتماعية، وبفعل السّمات والمصالح المشتركة التي تحدّد توجهات الناس وأهدافهم لأنفسـهم، وتعزّيهم وتدفعهم إلـى العمل معاً فـي تثبيت وجـودهم، والمحافظـة علـى منجـزاتهم وتحسـين وضـعهم ومـوقعهم فـي التـاريخ، الهويّـة مـن حيـث كونهـا أمـراً موضوعياً وذاتياً معاً.

وهي وعي الإنسان وإحساسه بانتمائه لمجتمع ما أو أمة أو جماعة أو طبقة في الإطار الإنساني العام.

إنهـا معرفتنـا وأيـن نحـن، مـن أيـن أتينـا إلـى أيـن تمضـي ومـاذا نريـد لأنفسـنا ولغيرنا؟ فمفهوم الانتماء وتبعاً لارتباطه بمفهوم الهويّة يعدّ: مفهوماً فلسفياً ديناميكاً لا يمكن إدراكه إلّا في ضوء مرحلة تاريخية معنية في إطار اجتماعي بذاته، يكون نتاجاً للعديد من المعطيات والمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثّقافية والسياسية في المجتمع، كما أنّه مفهوم نفسي ذو بعد اجتماعي، وبافتقاده بشعر المرء بالعزلة والغربـة، ويعتريـه القلق والضـيق وتنتابـه المشكلات النفسية والاجتماعيـة، التـي لهـا تأثير على وحدة المجتمع وتماسكه.

لذا ترى "ريتا مرهج" أستاذة في علم النفس في كتابها "أولادنا من الولادة حتـى المراهقـة" أنّ المراهـق يحتـاج إلـى قاعـدة عائليـة آمنـة يسـتخدمها كمرجعيـة أساسـية ينطلق منها إلى العالم، وعندما توفر العائلة هذه المرجعية والثقة لـه، تتطور هويته بشكل سليم، فالمراهق الذي يشعر بالتعلق بأهله وبالوقت نفسه يشعر بالحريـة في إبـداء آرائـه يسـتطيع أن يكـون هويـة مسـتقلة مبنيـة علـى قـيم وأهـداف مـن اختيـاره واقتناعه، ويشعر بالاستقرار، وأن يعرف إلى أين هو ذاهب...

بالإضافة إلى تأثير العائلة، فإن دور المدرسة أيضاً تقوم بدور مهم في توفير الفرص الغنيـة والمتنوعـة لاستكشـاف الحيـاة، يجـب علـى المدرسـة أن تسـهم بشـكل فعّال في تنميـة التفكير الراقي عند المراهق بتقديم برامج منهجية ولا منهجيـة تغذي الإبداع وحب الاطلاع والتدرب على مواجهة التحديات وتحمل المسؤوليات.

أما مفردة الانتماء فتستخدم أحياناً بمعنى الهويّة، ومرادفة للولاء أو للانتساب ومرات تستخدم بمعنى التّوحد والاندماج.

إن الانتماء هو مفهوم فلسفي دينامي، لا يمكن إدراكه إلّا في ضوء مرحلة تاريخية بعينها وفي إطار اجتماعي بذاته، فهو نتاج للعديد من المعطيات والمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثّقافية والسياسية في المجتمع، كما أنه مفهوم نفسي ذو بُعد اجتماعي، وبافتقاده يشعر المرء بالعزلة والغربة، ويعتريه القلق والضّيق وتنتابه المشكلات النفسية والاجتماعية التي لها تأثيرها على وحدة المجتمع وتماسكه. وتتعدد الاستخدامات المرادفة لكلمة "الانتماء"، وتستخدم احياناً بمعنى الهويّة، وأحياناً أخرى مرادفة لكلمة الولاء، وأحياناً الانتساب، ورابعاً تستخدم بمعنى التّوحد والاندماج إلى آخر ما هنالك من التعابير المماثلة كالانسياق والرضوخ...

وتأتي هذه الاختلافات تبعاً لما أوردته قواميس اللغة بمختلف اللغات، ويرجع مختار الصّحاح الانتماء إلى أصل الفعل (نمى) ويقال نمى الحديث إلى فلان أي أسنده له ورفعه، ونمى الرجل إلى أبيه أي نسبه، وقد اتفق معه في المعنى نفسه معجم لسان العرب الذى يرده "إلى الفعل نمى"، والنماء بمعنى الزّيادة، ونَموته أي عزوته ونسبته، وانتمى هو إليه، انتسب، وفى الحديث انتمى إلى غير مواليه، أي انتسب إليهم ومال وصار معروفاً لهم، ويقال نماه إلى جده، ارتفع اليه في النسب، أي رفع إليه نسبة.

ويعرف معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية الانتماء بأنه ارتباط الفرد بجماعة، يسعى إلى أن تكون عادة جماعة قوية، يتقمص شخصيتها ويوجد نفسه بها (كالأسرة، النادي، الشركة...إلخ). (محمد عبده الزغير)

ومن اللافت للنظر للمراقب المتمعن لمَا آلت إليه الأمور في الأعوام الأخيرة في الولايات المتحدة الأمريكية، من حيث بروز أساليب واضحة وعلى لسان رأس الهرم للسياسة الأمريكية من ريادة في أساليب عودة الدّين، إلى حياة الأمريكيين، مقابل الريادة الأمريكية في تحريك العولمة الاقتصادية والحضارية.

فقد أعلن "جورج بوش الابن" أن أمريكا أمة مؤمنين لتصبح الحضارة الأمريكية تعكس صورة مزدوجة، جذّابة جداً، لحداثة تقنية فوّارة على انسجام مع تلك القيمة التقليدية والأبدية، ألّا وهي الدّين المعمول به بمعنى حرفي ومحافظ. وهذان الاعتباران "النمو المتواصل للتقدم التقني وللاستهلاك الجماهيري، والممارسة الدّينية" يعدّان بمنزلة رحم أولي إن لم تكن لهويّة الفرد الأساسية وللمجتمع الذي ينتمي إليه، إضافة إلى المعارك الكثيرة التي تُخاض في الولايات المتحدة حتى تحترم المؤسسات، لاسيما المدارس العامة أو النظام القضائي، أو التعاليم الدّينيّة في صورتها الأكثر حرفيّة والأشدّ محافظة.

وهذا الأمر يحيلنا إلى الاستنتاج بأن الأنموذج الحضاري الأمريكي للقرن الحادي والعشرين الذي تصنعه الولايات المتحدة، بدلاً من النموذج الأوروبي المبني على مبدأ القوميات وفلسفة الأنوار وتحرير الإنسان من كل أشكال العبودية والقمع، الذي كان سائداً في القرن العشرين والذي شكل عليه الإرث الثقافي والسياسي لثورة 1776 الأمريكية، والذي كان العالم يسعى إلى محاكاته في القارات الأربع...

المنظور النّفسي التّحليلي لمفهوم الهويّة ينطوي على اعتبار أن:

محور الميول والغرائز والصّراعات الحاصلة ما بين الاجتماعي، والفردي، تعدّ الأساس في النّظرية "الفرويدية" التي غيّرت الفهم للإنسان وحاجاته ونموه النّفسي، وكان من الاكتشافات في هذه النّظرية ثلاثة أمور مهمة تمثّلت بـ:

1- النّظرة القطبية (الثنائية) للعالم والحياة: الشعور واللاشعور، غريزتا الموت والحياة، الاكتئاب والاهتياج...

2- اللغة: للغة موقع أساسي في النّظرية الفرويدية، حيث كان المنهج العلاجي للمرضيات النفسية، وفق النّظرية الفرويدية / التّداعي الحر للأفكار المعبر عنها بالكلام، التي تسهم في تحرر المريض من الأوهام والأرق والقلق، لأن اللغة

في تكوينها وبنيتها تعطي التّصوّر للمصير المشترك الحقيقي للنّفس البشرية، فوفقاً لتاريخ الأديان السماوية الإنسان كليم الله / موسى كليم الله، عيسى ابن الله الذي بَشر بالإنجيل، الإنجيل الذي يدلل على أنه في "البدء كانت الكلمة"، والنبي محمد (ص) والإعجاز اللغوي الذي نزل عليه، من هنا أسيء فهم النّظرية الفرويدية، لأنّها رجعت إلى الأديان والأساطير واعتبرتها ميراث ثقافي، لا يمكن إغفاله إذا أردنا فهم الإنسان، رغم أن "فرويد" أدخل إلى الفهم النفسي من منطلق الفهم البيولوجي والعصبي غنىً وموضوعية، إضافة إلى تعمقه بالأنثروبيولوجيا.

وكما هو معروف أن "فرويد" كان طبيباً أولا، قبل انصرافه للبحث في مضمار النّفس الإنسانيّة، ولكن الأمر المميّز حول "النّظرية النفسيّة التّحليليّة" كونها أعلّت من شأن اللغة بكل أشكالها الشّفهية، وزلات اللسان، وزلات القلم في فهم اللاشعور، البنية الأولية للإنسان، من حيث هو تراث ثقافي متراكم تختزنه ذاكرة الجسد، إلّا أن "الفرويديين الجدد" قد طوروا هذا الفهم للّغة لأبعد من ذلك، ولاسيما المفكّر والمحلّل النّفسي الفرنسي "جاك لاكان"، الذي قال: (إن اللاشعور مبني كبناء اللغة) وهذا التّوجه يزيد من إعلاء شأن اللغة في أساس فهم البنية النفسية، وكذلك المحلل النّفسي والمفكر المصري "مصطفى صفوان" الذي يعدّ من أهم المحللين النّفسيين في أوروبا اليوم، أكّد في كتابه /الكلام أو الموت/ الذي ركز فيه على أن امتلاكنا للتّعبير والإفصاح، هو معيار حياتنا وفعاليتنا، لذلك عندما تتعطل لغة الكلام يكون الموت قد حلّ بالإنسان.

3- المعطى الثّالث للنّظرية النفسية التّحليلية: هو الجنس بما له من أهمية في حياتنا، والتّكلم عنه بصراحة وفق المراحل العمرية أمر مهم للغاية، لأنّه يبقى في حقل اللايقال /الكبت/ والكبت الذي ثبت علمياً، أنه الأصل في كل العلل...

من هنا كان موضوع التربية الجنسية محوراً مهماً للتّركيز عليه في تنمية المهارات الحياتية، من حيث إن الإتقان لأية مهارة يلزم نمو هويّة جنسية سويّة، وتوازن في النّمو النّفسي الاجتماعي، وموضوع التربية الجنسية، الذي يعمل عليه

مبكراً في كل بلدان العالم المتحضّر، التي ما زالت في بلادنا في حكم الثّقافة المحرمة /التابو/.

من هنا تأتي أهمية التربية الجنسية من عمر مبكّر كون هذه التربية تعد الأساس في نمو مفهوم الهويّة الشخصية بعمر مبكر، كونها تهيّئ النّاشئة للأدوار الاجتماعية، التي تنتظرهم في حياتهم ما بعد الدّراسة، فإدراك التّمايز الجنسي هو المنطلق الأولي لنمو مفهوم الهويّة الجنسيّة، فنحن نقول لشخص ما هي جنسيتك، من حيث التّعريف على جواز السّفر لكل شخص، نجد أن "الجنسية" تعني هويّة البلد، سوري، مصري، فرنسي... والكلمة تشير إلى الجنس والتّجانس والجنسية، وكلها تشير إلى الفارق التّشريحي الذّي يميز الطّفل الذّكر، من الطّفلة الأنثى، فهناك العلاقة بين الذات، والذات الأخرى، ابتداءً من العلاقة الذاتية للإنسان مع نفسه، فعندما يفكر لوحده، لا يمكن أن يخرج من أناه في نظر الآخر، فالأنا الفردية، والنّمو الاجتماعي في اتصال مستمر بين الطّرفين...

ومواطننا العربي كمثال على ذلك، ينشأ وليس عنده تصوّرات لذاته من دون الجماعة الفردية، والعكس يجعله منبوذاً، وكل شيء من حولنا يشير إلى هذه المشاركة: السّاحات، الصّلاة، الجامع، الجمعة، الأعراس وطقوس الوفاة والعزاء، وهذه الفلسفة الدّينية التي تحيي روح الجماعة، وتناسي الرّوح الفردية، الآن في برامج التّنمية البشرية، من الملاحظ أنّه يركز عليها من خلال عمل الفريق، والاستثمارات المساهمة في التّنمية المجتمعية وغيرها من الأشكال الأخرى للعمل الجماعي. فالفرد دائماً توّاق إلى الآخر الاجتماعي /القيمة الاجتماعية/ "جاك لاكان" يسميه الأخر الكبير، الذّي هو مصدر شقائنا وسعادتنا، فلا يمكن تلافيه في أي نظرية نفسية، لأنّه جزء من الواقع النّفسي، من هنا أجد مناسباً أن أعرض رأي "جاك لاكان" حول مفهوم الآخر بشقيه الآخر الصّغير /القرين، الآخر الكبير/ الأنا المثالي، فالذات في اتصال دائم ما بين الخارج والدّاخل، فما هو داخلي يصبح خارجي مرات، وما هو خارجي يصبح داخلي، فهذه النّفس ما هي إلّا متواصلة،

وموزّعة في علاقتها في حقل الآخر الكبير، ومن الانفتاح الحاصل من خلال التّأثير الذي يطال المعتقدات والعادات الثّقافية الخاصة بكل شعب، مما يسبب البلبلة والارتباك سواء على الصّعيد السياسي، أو الاجتماعي أو النّفسي.

الخبرة العيادية، والخبرة الحياتية، تؤكدان: أن الإنسان إذا تكلّم قال أكثر مما يعرف، ولكن السّؤال الذي يجب طرحه هنا من أين تأتي هذه المعرفة التي تعدّت حدود الكلام؟

عند المحللين النّفسيين "اللاوعي" مصدر مهم لمعرفة تجهلها الأنا الواعية، من حيث الاستناد إلى التّراث والثّقافة الموروثة عبر الأجيال، حيث أكّدت دراسات "يونغ" عن اللاشعور الجمعي هذا، كما أنّ عالم النّفس التّحليلي "غريزنج" كان له رأي مشابه "ليونغ" حيث وجد أن: محور الأنا، أساس للتّعامل مع الدّاخل والخارج فقوة الأنا، وصلابتها ووحدتها تحدد مدى تعرض الشّخص للإمراضية النفسيّة... فالأنا وفق وجهة نظر "غريزنج" قابلة للتّغيير حسب العمر، والظّروف الخاصة والعامة، كما أنّ "ماينرت" المحلّل النّفسي الشهير يجد الأنا مكوّناً من خلايا متعددة الأجناس ترتبط ببعضها بسلسلة الظّهر الممثلة لمصدر الحركة، ويجد "فرينزي" أنّ: الأنا تظهر منذ الولادة، من خلال ما يسمى "بالأنا البدائية أو الأنا الجلد" ومن ثم تتكون الأنا الثّانوية، التي بحكم الخبرة واكتساب السّلوك يكون الخواء أحد ملامح تفكك الهويّة.

هذه المعرفة بمستويات الأنا يصبح لها قدرة الرّفض، والإبعاد. أي بمعنى أدق يبدو أن "الكبت" مستنداً على قاعدة عضوية لهذه الأنا التي مركزها الدّماغ، المكون من خلايا متعددة الأجناس ترتبط ببعضها بسلسلة الظّهر الممثلة لمصدر الحركة في تفاصيل الحياة اليوميّة. فالتّنشئة الاجتماعية (Socialization) تعدّ من أهم العوامل ذات الصّلة بمفهوم الهويّة والمحافظة عليها، التّنشئة الاجتماعية التي توصف بأنّها: العملية التي تتشكل خلالها معايير الفرد ومهاراته ودوافعه واتجاهاته وسلوكه، لكي تتوافق مع تلك التي يعتبرها المجتمع مرغوباً فيها، ومستحسنه لدوره الراهن أو في المستقبل، كما أنّها من أهم العمليات الاجتماعية، فهي تحول الطّفل

من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي، وهي مهمة للطفل، لأنّها الوسيلة التي تمكنه من تحقيق النمو والنّضج الاجتماعي، وهي أداته في الانتماء الاجتماعي ومرجعه في تكوين علاقات مع الآخرين، ثم إنّها في حالة نجاحها وسيلة لوقايته من مظاهر التّأثيرات والسّلوك المنحرف.

التّحديات المتفاعلة التي تمثل الإشكالية المطروحة على المجتمع العربي، لابدّ أن يتم التعامل معها من خلال حلول ذات مقومات متفاعله بدورها تشكل نوعاً من نظام الاستجابة، وتتمثل نواة هذه الحلول في بناء القدرة على صعيد تنشئة الطفولة ورعايتها، وتكون القدرة بدورها هي محصلة قوى الحصانة الذاتية (الفردية والجماعية) وقوى الفاعلية (في التعامل مع التّحديات).

وبناء الحصانة متعدد الأبعاد ويتناول الحصانة الوطنية، وحصانة الهويّة، والحصانة الصّحية... إلى تماسك المجتمع أو تفككه، بل إن وجوده نفسه وهذا يدفع إلى عوامل شتّى أهمها وحدة التاريخ ووحدة الأرض، ووحدة الاقتصاد ووحدة اللغة، ثم التّكوين السّيكولوجي المشترك.

والتّنشئة الاجتماعية هي تلك العملية التي يكتسب الفرد من خلالها طبيعته الإنسانية، كما أنّ الفرد يتمثّل عن طريقها القيم والاتجاهات والأعراف، ومعايير السّلوك السّائدة في مجتمعه. وهي عملية مستمرة تبدأ منذ اللحظات الأولى في حياة الفرد، وتستمر حتى وفاته، فضلاً عن أنّها عملية نسبية تختلف باختلاف الزمان والمكان، وتختلف باختلاف الطّبقات الاجتماعية داخل المجتمع الواحد. وتعدّ عملية التّنشئة الاجتماعية البوتقة التي يتم فيها خلق وحدة المجتمع.

سلوك الخواء كأحد ملامح تفكك الهويّة

السلوك الفارغ أو سلوك الخواء "Comport Ement Vide" سلوكٌ يشير إلى فتور وجداني شامل، إذ يسعى الشّخص من خلال هذا السّلوك للسند والإبقاء على توازنه الرّهيف من خلال البيئة التي يتخذها بديلاً من علاقته بالموضوع، ومن أبرز أعراض هذا السّلوك:

– حالات هياج لخلق حياة تنظم السّلوك، إذ يستأثر الهياج تماماً بالشّخص من خلال الانخراط في الأشياء والمواقف الملموسة، هذا السّلوك يستأثر بوساطة البيئة الإدراكية الحركية، من خارج نطاق المحسوس، بعيداً عبر المتخيل، كما تتخلل الألعاب الأنشطة التّخيلية اللاشعورية.

– تفكّك الهويّة: Identity diffusion لدى من يعانون من السّلوك الخاوي يظهر من خلال عدم تحققهم لذواتهم.

كما يحصل ذلك نتيجة لغياب كل من الأنفة والالتزام، وهنا يختبر الشّباب درجة من القلق والشعور بعدم الكفاية، تعني الأزمة بصفة عامة وجود مشكلة، ووفقاً للعالم النّفسي الشّهير "أريكسون" فهي تعبّر عن الضّغوط المعتدلة المرتبطة بحاجات النمو، أكثر من أن تكون أحداثاً متطرفة أو أزمات مستعصية على الحل، وهي مرتبطة بالحاجات البيولوجية والمتطلبات الاجتماعية من جانب آخر، إذ يظهر "الـ Stress"عند ظهور حاجة لدى الفرد تسيطر عليه، وتستشعره بالعمل على حلّ الأزمة عن طريق مهارات جديدة، وفقاً لمتطلبات ظهور الأزمة، ووفقاً للنّضج البيولوجي والمتطلبات الاجتماعية وطرائق حل أزمات سابقة.

أما السّلوك الجامد وعدم القدرة على اتخاذ قرارات سليمة بسبب افتقاد الثّقة في الذات، والضّغط الذي يؤدي إلى الجنوح المتمثل بتعاطي المخدرات، وغيرها من سلوكيات الجنوح كالسّرقة ولعب القمار والإدمان على الخمور و...إلخ، كل ذلك يؤدي بالتّالي إلى اضطرابات نفسية، يكون فيها ذوو السّلوك الخاوي همهم إشباع توقعات الآخرين أكثر من البحث عن ذواتهم، وتحقيقها، فيبدون احتراماً شديداً للسّلطة، ويعتمدون على الآخرين أكثر من المشاركين، ويقبلون ما يقدّم، ويظهرون أنهم محققون لذواتهم. هنا تبرز أزمة الهويّة مقابل اضطراب الدّور الاجتماعي، فنجد المراهق مثلاً يسعى لتحديد معنى لوجوده وأهدافه في الحياة وخططه لتحقيق هذه الأهداف.

وبذلك نجد أن العمل على وحدة الانتماء، تغدو مطلوبة ولها طريقان:

الاتجاه الأول: إمّا أن تأتي بالاتفاق، وإما أن تأتي بقوة المدفع، فإذا كانت بالقوة يعني ذلك أنه ليس هنالك أمل، لأي مستقبل لبلد ما في العصر الحاضر نظراً لاستفحال المدنية العلمية من ناحية، واستفحال الأفكار الدّيمقراطية من خلالها، من ناحية أخرى فلا يمكن لبلد أن يعيش الحاضر، خارج صيرورة الزمان.

صحيح أن حركة الزمان دائماً إلى الأمام، والوحدة الوطنيّة والتّغني بها في كل شيء، بحيث إن المعارض يكون عقابه القتل بالسّيف أو بالمدفع.

الاتجاه الثّاني: المتمثل بوحدة الفكر الإنساني، فلا يكون باستطاعة الإنسان أن يتبدى بالعكس أي بالاعتراف بالاختلافات في الواقع، ومعالجتها بالتّفاوض أو التّعايش لا بالقتل، والاعتراف بالاختلافات والحل الذي يأتي عبر التّفاوض.

في مجتمعاتنا ما زال تشبيه رجل الدّولة برجل العائلة، مع أن هذا الأمر معروف، ومنذ الفيلسوف النّفسي الأول "أرسطو" الذي اعتبرت آرائه غير مقبولة، من حيث أن الرّجل المتمكن من حكمه لزوجته في البيت ولأبنائه، ليس مؤشراً على أهليته لحكم المدينة، والعكس بالعكس، ففي بلادنا الدّكتاتور، لا يحاسب على أخطائه، بل على عكس ذلك نجد الثّقافة الشّعبية الشّفوية تكرّس في بلادنا: أن زعيم البلد وحده هو المنقذ للبلد، وأيّة مخالفة لرأيه تعدّ خيانة، فطاعة الحكام سنة، وهو بنفسه لا يتعلّم من هزائمه، ولا توجد معه سوى الكارثة، وبذلك لا يوجد تصحيح ولا تناوب على الحكم طالما نحن مأخوذون بالأب المثالي، وبفكرة الوحدة في كل شيء، كاستمرار الرأس متحكماً بالجسد، فهذه هي الصّورة البدائية لسياسة الحكم في بلادنا.

فكلمة أب تقتضي نظام قرابة، هو نفسه على قطيعة مع كل نظم الطّبيعة، وليس المفروض بالأب هنا أن يكون الأب البيولوجي، بل إن من يعطي اسمه للابن هذا هو الأب الواقعي، أوردت هذا التّفصيل لأصل إلى أن النّظام العائلي العربي هو نظام بطريركي بالدّرجة الأولى، أمّا نتائج التّغيرات العلمية، فلم تظهر

آثارها بعد على مجتمعاتنا العربية كما هو حاصل في الغرب، إذ يوجد في الغرب حالات قلق واكتئاب شائعة وموصوفة في دراسات ويوميات العياديين، أما في الشّرق، فتواجهنا الحالات العصابية التقليدية كالهستيريا، والفوبيا، وهذا عائد إلى دور الأب الذي يضعف في العالم كله، وبالتالي خفت فعالية الزعامة، فعلماء النّفس الاجتماعي لديهم شبه إجماع على تضاؤل دور الأب الواقعي في الحياة الاجتماعية في الدّول المتقدمة، إلى جانب تكامل وتعاظم دور الأم في التّنشئة والرعاية، وبذلك من الملاحظ تدهور دور الأب تحت وطأة الخطاب العلمي والدّور الواقعي في الحياة الاجتماعية، بسبب سيطرة القانون / بديل الأب الرمزي، إلى جانب تكامل، وتعاظم دور الأم في حضورها، من حيث مسؤولية التّنشئة التي تشكّل الموضوع المركزي للأسرة، وبالتّالي سوف يكون تدهور الأب تحت وطأة الخطاب العلمي، كون الدّولة في المجتمعات العصرّية باتت تأخذ دور الأب المثالي والواقعي، في الوقت نفسه بمعنى أنّه إذا أراد شخص ما شيئاً يطالب به الدّولة وليس أباه، وتبعاً لذلك فإذا ما صفع أب ولده يحق لهذا الأخير أن يقدم شكوى ضده في هذه البلدان تبعاً لشرعة وثقافة حقوق الإنسان، أي أن هناك تعاش رقابة ونوعاً من الحق المعطى للابن، على أن الدّولة تعطي أوامرها للأب الواقعي، وتفرض عليه نموذج تربية أطفاله، من هنا إن تراجع دور الأب في العائلة العربية، من حيث إن الأبناء يقومون بما كان الأساس في صميم مسؤولية آبائهم، ليغدو الفهم الراسخ للأبوة أن على الأب حماية الابن، وبالتّالي فهزيمة الأب على الصعيد الرمزي، والواقعي في آن واحد، تُحدث فقداناً تاماً للثقة بالمشروع الأبوي سواء في السلطة أم خارجها، يدرك ذلك لكلّ منّا من خلال نقمة الأبناء على فعل آبائهم في الزمن الماضي، وإعطاء السطوة لتدمير البلد، بدون مقاومة تذكر.

لذلك بقدر ما يكون الأب، على مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقه أمام الطّفل، في محاولة المطابقة مع صورة مثال الأنا، تصبح خيارات الطّفل تتمثل بتحقيق هذا المثال في الشّخصيات التي يقبلها في المجتمع، وهناك عدد كبير من

الشبان الذين يطابقون "مثال الأنا" في الواقع مع شخصيات غير متوازنة أو غير سوية، وهذا عائد إلى خلل في موقع الأب داخل الأسرة، وكذلك إلى خلل في الحياة الاجتماعية في كل مراحلها وظروفها لدى الطّفل، فإن ظهر الأب مغلوباً على أمره، فهذا يزيد الطّلب على الأب المثالي، وهنا ندخل في طلب لا نهاية له، لذلك فإنّ أي هزيمة تلحق بأي حاكم ستشكل نكسة عند جماهيره، لأنهم سيعتقدون أن أسلوب حكمه لم يكن كافياً لإنقاذ شعبه.

بذلك نجد أن الناس في بلادنا، لا يملكون في الواقع تجربة الدّفاع الجماعي عن مصالحهم، فمثلاً الطّالب عندنا ليس عضواً في لجنة الدّفاع عن حقوق الطلبة، وليس الأستاذ عضواً في نقابة للدّفاع عن حقوق المعلمين لها فعاليتها في الواقع، وبالمقارنة نجد الغرب كله عبارة عن جماعات تدافع عن حقوقها، ومن ذلك نصل إلى أن واقع الحال في مجتمعنا يبيّن أنّ تجربة التّضامن للدّفاع عن المصالح غير موجودة.

ومن هنا تأتي الخطورة التي تهدد الانتماء، على اعتبار أنها تُعاش كهزيمة للأب، لذلك نتيجة هزائمنا تجعل الناس يتجهون نحو الدّين بمعنى الرجوع إلى الأب المثالي الذي لا يغدر بهم، لذا نجد اليوم أو في الفترة الأخيرة موجة إسلامية عمّت العالم العربي أجمعه، حيث أفقدت قدرة الفرد على التّمييز، وأصبح أسير الطقوس، فلا يستطيع التّحرك إلّا بإذنها، حيث فقد حرّيته الشخصية وضاعت ذاتيته في لبوس الانتماء للجماعة...

لذلك نجد اليوم أنّ حاجة شعوب المنطقة للحرّية تعلو كل الحاجات رغم الموت والإذلال، فهذه الشّعوب تعيش في حداد مستمر على الحريّة منذ عهود، وواقع الحال هذا قد بلغ حداً صعباً لا يمكن لأحد إنكار وجوده. في مقابل ذلك بات واضحاً أنه ليس من مجال للمعارضة السياسية إلّا عن طريق الدّين، أو طلب الحقوق الدّينية، فالإخوان المسلمون يستغلون هذا الموقف إلى آخر المدى، وبالتّالي أخذ العنف شكلاً جديداً باسم المقدس كما شهدناه على الساحة المصرية

والتونسية ولكن بشدة أخف، وخير شاهد على فعالية الدين في السياسة هو قيام دولة إسرائيل، كونها تجسّد دولة حكم قائمة تبعاً لمعتقداتها الدّينية، تغذّي هذا العنف المقدس، لأنها قامت على أسس دينيّة، ومن جراء ذلك حصل الفعل وردة فعل لم ننتهِ منها بعد.

وإذا حاولنا الرّجوع إلى الوراء، نجد أن جميع حروب العرب، كانت حروباً قومية ضد الأجنبي، أما اليوم لم تعد هذه الحروب، تؤدي دورها وتثير الجماهير بالحماس الوطني لها، إذ هذه الروابط حولت الثّورة في بلاد عربية من وطنية قومية إلى دينيّة، كما في تونس ومصر، وهنا السّؤال هل الإسلام تعدى الأهداف التي حددت له في البداية، وأصبح الدّين بدلاً من أن يكون وسيلة أصبح منهجاً معمماً، وحتى مفروضاً على الجميع، فاللجوء إلى الإسلام أو انتشاره يبقى الحاجة الوحيدة، التي يجد فيها الناس العلامة التي تفرق بينهم، وهذه العلاقة نحاول إقصاءها لذلك يجب ابتداع طريقة ما، أو تكتيك جديد. ولهذا كان السّبب للتّجانس الإسلامي كردة فعل على نتيجة التّجانس العالمي اليوم الذي لم يعد مجالاً لمعنى الانفراد، والذي يتحول إلى فكرة كرة الثّلج التي تكبر أكثر وبازدياد دائم، وممكن أن تتحول إلى سلطة الأنا الأعلى، وتتحكم بالمجتمع، ومن هنا نجد أستاذ الجامعة مؤخرا يلجأ للبسملة في حديثه، لكي يعطي نفسه الإذن في الكلام، وإلاّ قد يرتبك في الكلام ويصيبه العجز في إتمام فكرته واستعراض حجته إن لم يستأذن الإرادة العليا، إرادة الرّب، وهذا أسطع المؤشرات على الإفلاس المتجسد أمامنا اجتماعياً...

في السّنوات العشرين الأخيرة أو أكثر، ظهرت رؤى ودراسات مختلفة حول النّظرة للعالم، وصراع القوى ومحكات الانتماء، وسوف آخذ مثالاً "هنتيغون" الذي تكلم عن صراع الحضارات، وقال إنها ناجمة بالفعل عن صراع الحضارات، انطلاقاً من عولمة النّموذج الأمريكي، والخصوصية التي تفتش عنها الشعوب النّامية... من إقبال الحضارات أو الثّقافات على الصّراع، هو في الصّميم متمثل بصراع القوة، "فهنتيغون" تكلم على أن الحضارات بما هي كذلك تتصارع.

وهذا كلام ممكن أن نجد له تفسيراً من وجهة النّظر النفسية التّحليلية، كون النّظر لما يحصل ويعاش يتمثل بأن الصّراع هو صراع القوي والضّعيف، المتحكم والتّابع، التي تتوقف عليه جميع أوجه الحياة بما فيها الوجه الحضاري والثّقافي والمعتقدات، فالقوة التي نراها ليس فقط العسكرية، إنما القوة التي تتسلح بامتلاكها الخطاب العلمي، لأن العرب اليوم يواجهون أزمة بالنسبة لتخلفهم في هذا المجال، فهم غير قادرين على صنع سيارة أو هاتف جوال أو... ومن هنا تبرز مشكلة تخلفنا كعرب من التبعية للغرب في كل شيء، والانشغال بالخلافات الضّيقة، والملاحظ أنه ليس هناك صراع بين رجال الكنيسة ورجال الدّين الإسلامي، في (مكة والأزهر وقُم)، فالخلاف بينهم ليس جوهرياً، ولكن الخلاف الحاصل الذي يعمل عليه المتنفذون المنتفعون من إثارة التّفرقة دائماً في صفوف الشّرائح الاجتماعية، هذا الخلاف كان يجد له تغذية وتوظيفاً من قبل الحكام في بلادنا، لأنهم يدركون أنه بسلطة الدّولة والحكم تستمر الخلافات بين الجسد الواحد من أبناء البلد، ومن هنا نصل للقول إن المشكلة الجوهرية التي علينا إبرازها، ورؤيتها بوضوح إن العالم العربي أننا لم نتحصل بعد في السّيطرة على الطبيعة، بعد استثمار مواردها بما يخدم إنسان المنطقة، وهذا بارز بقوة إن عدنّا إلى التّاريخ العربي، فالفلاسفة العرب القدماء لم يفكروا في السّيطرة على الطّبيعة، وهذه الفكرة لم تأت إلّا مع بداية الثّورة الصناعية، ومن هنا يبرز سبب القوة التي امتلكها الغرب علينا، حيث نجد أن الصّراع ليس صراعاً بين ثقافة وثقافة، بل يفرض الواقع نفسه اليوم علينا أن لا نغفل عنه، بأن هناك تطوراً علمياً، لم يحصل في مجتمعنا، وهذا أعطى للغرب قوة، وأدى إلى قلب مقاييس القوة، لاسيما بعد اختراع البارود مما عزز سلطة الملوك، هذه السلطة التي تكرست نتيجة لتكوين الولاء للملك أو الرّئيس، مما أدى إلى تكوين دول ترضخ لسلطة الحاكم في واقعنا العربي.

وما زلنا إلى اليوم نرى في أنفسنا الضّعف والتّبعية للغرب وصناعاته، كوننا مازلنا نعيش في مجتمع ليس به أي موضوع يعبر عن إنتاجنا، أو عن رغبتنا لنرى

أنفسنا فيه، من هنا ينكر علينا الاعتراف عن طريق الإنتاج، فعندما لا يكون اعتراف بإنتاجنا ماذا يبقى؟ لاشك سنبقى بذلك نستمد قوة بقائنا وانتمائنا، من فكرة الهويّة والوفاء لذاكرة جوفاء...

من هنا يأتي الدّولار كديانة جديدة "طوطم" جديد، يتم التّوحد عليه في ثقافة عولمة الاستهلاك، والمتعة، ولذلك لكون الدّولار هو: العملة النّقدية الأمريكية، أمريكا التي تتزعم العالم بسيطرة الاستثمارات وهيمنة العقل الديني اليهودي المتعصب عليها، وتبعاً لذلك نجد الدّولار قد تعدّى قيمته المادية، وأصبح له هالة قدسيّة، لأنه يجسد الوعد على الأرض، وإذا حصل الفرد عليه، لا يعود يشعر بغربة في تجواله وتحركاته في العالم، وهذا ما صوب العداء للأمريكان على اعتبار أنهم وجدوا "بالدّولار" محسوساً مادياً يتنافى مع الرّوحي، وسادت في سياساتهم التّوظيفات لنظرية نفسية تربويّة "البراغماتية" التي تقطع الإنسان عن أصله وانتمائه لوجوده في مسار الظّاهر ومتعة الزّمن الحاضر...

وبذلك سادت ثقافة الاحتكار "احتكار الهي" مصدره الجنة على الأرض وليست في السّماء، حيث إن الجنة ملذة دائمة يطالب بها الشّخص، وحسب مستوى امتلاك الدّولار في جيبه، تصبح الجنة ملك يديه، من هنا يغدو العنف اليوم ظاهرة عالمية، ومرهوناً بالاحتكار، فهي حالة واقعية مهما تعددت أشكالها ونسبها، فالعنف في بلادنا ظاهرة بارزة. ومن هنا نلاحظ بحرقة أن ثقافة البلد تدّمر والانتماء بالتّالي يتشوه، ويتعمق الشعور الفردي بالاغتراب، إذ يجد كل منّا أنّنا نعيش في مجتمع ليس فيه أي موضوع يعبر عن روحانيتنا وقيمنا حيث باتت الأصالة تهمة، والخشية اليوم من أن العملية النفسية الحاصلة عند الكثيرين، لاسيما الشّباب تأخذ مرجعيتها ومقاربتها عبر التّماهي مع الغرب في الملبس والمشرب والمسكن والمأكل، التي أصبحت لها انعكاساتها على الوقع الجغرافي أي على الأرض، ولما كان هذا الشّأن مهماً وضرورياً لفهم الأخر، ولمحاكاة حضارية أن نتلاقى بها مع الآخرين على هذا الكوكب، فإن علينا التّذكير أنّ مبدأ المطالبة بحقوق الإنسان لبشر يختلفون عنا في

اللون، والشّكل والوطن والطّبيعة واللغة، لا يمكن أن تتحقق من دون التّماهي بهذا الآخر، لذلك فعند إدراكنا لهذا المبدأ يمكننا عندها أن نتحسس آلام الإنسان ومعاناته، ونتفهم الظّلم والضّرر الذي يلحق به.

ومن هنا أبوح لكم بتساؤل كان يراودني كثيراً، ألخصه بما يلي: ما مدى استطاعة السّوريين انطلاقاً من مناطقهم الجغرافية، بكل ما تحمله من قيم عقائدية مختلفة، التّماهي ببعضهم، عندما كانوا يسمعون بمجزرة أو مصيبة حدثت في السّنيين الماضية على طوائف ومناطق مغايرة؟

هذه الحالة تسمى في علم النّفس التّحليلي (مثال الأنا)، التي تمثل نقطة ارتقائية يتوجه نحوها الجماهير لتشكل هذه النّقطة في النّهاية: القوة المحركة، التي لا يمكن الوصول إليها دون تخطي الحواجز النفسية الداخلية، التي تصب إليها الأنا الذاتية، ولمصلحة هذه الأنا، والمعروف أن هذه النّزعة، تشكل عقبة كبيرة في العمل السياسي، وكذلك الاجتماعي كون أن الحواجز العائلية ومصلحة القرابة، وحواجز الهويّة والطّائفية لها الانتماء الأصل، حين يكون الخيار قائماً بين الوطن والطّائفية، وهنا نطرح "أن يدين المواطن لوطن على قياس الطّائفية، فيضحي بالوطن الكبير، أو يريد وطناً يحتوي الطّائفية، بمعنى الانتماء الطّائفي الذي يلغي الوطن، ولكن حتماً الانتماء للوطن لا يلغي الانتماء الطّائفي". من هنا تبرز الإشكالية في التّجاذب والتّناحر بين الأنا والآخر، من خلال تشويه صورة الآخر وإقصائه، أو كان الصّراع معه جهراً أم خفية، حين نريد تعزيز صورة ذاتنا، كون الاحتفاء بالذات وتحقيقها لا يمكن إلّا بحفر قبر للآخر خاصة المختلف عنا، أما آن الأوان أن نعي أنّ كينونتنا لا تتشكل إلّا بوجود هذا الآخر، ووفقاً "لأريكسون" عالم النّفس الشّهير الذي يؤكد أنه: بدءاً من الطّفولة الأولى ومراحل النّمو النّفسي والاجتماعي التي ميزتهما وفقاً لمراحل النّمو الزّمني والجنسي إلى النّفسي الاجتماعي، وأثرهما على نمو الأنا كما يلي:

– في السّنة الأولى من العمر تسمى المرحلة الفموية من حيث النّمو النّفس جنسي، ويمر بمرحلة الثقة أو عدم الثقة من حيث النّمو النّفس اجتماعي، وهنا الأنا وفق فعالية النّمو تعيش الأمل.

– أما في المرحلة الشّرجية: فإنّ النمو الاجتماعي المقابل هو الاستقلال مقابل الشعور بالخجل، والفعالية المقابلة المتمثلة بالإرادة الأوديبية القضيبية المتمثلة بالمبادرة والشعور بالذّنب، وفعالية الأنا تغدو عرضية هنا...

– مرحلة الكمون الممتدة ما بين/ 3–6 / سنوات من حيث النّمو النّفس اجتماعي الذّي يعاش كفاية مقابل الشعور بالنّقص والفاعلية المقابلة في القدرة.

– مرحلة المراهقة ما بين / 10–18 / المراهقة ويقابلها نمو الهويّة أو اضطراب الدّور، وهنا يبرز تفاعل الأنا المتمثل بالإيثار والتّفاني، حيث الشّباب المبكر يتمثل بالمودة والألفة والعزلة، أمّا فعالية الأنا فتتمثل بالحب في أواسط العمر المعبر عن هذا الحب، الإنتاجية، مقابل الرّكود، لنجد أن فعالية الأنا هنا تتطلّب الاهتمام...

– مرحلة الرّشد المتأخر، ويقابلها في النّمو النّفس اجتماعي، تكامل الذات مقابل اليأس، من هنا فعالية الذات تعيش الحكمة وليس فقط المعرفة والإنجاز.

– تفكّك الهويّة، يحصل نتيجة لغياب كل من الأزمة، والالتزام، بحيث يخبر الشّباب درجة من الشعور بعدم الكفاية والسّلوك الجامد، وعدم القدرة على اتخاذ قرارات سلبية، لافتقادهم الثقة في ذواتهم. والضّغط والجناح لتعاطي المخدرات، والاضطرابات النفسية...

فبالنسبة إلى الأطفال في عمر الطّفولة والمراهقة المتأخرة وعمر الشّباب الأول أي ما يعادل المرحلة الاعدادية والثّانوية في بلادنا.

لوحظ لدى العديد من الزملاء من المرشدين النفسيين في المدارس ممن عرفتهم وتبادلت الأحاديث معهم حول المشاكل النفسية المتشكلة في أواسط الشباب

كانعكاس للأزمة السياسية الدائرة في البلاد، كان إجماع الإجابات يدور حول أنّ إثارة النّقاشات المتصلة بالأزمة القائمة سياسياً، تزيد من تفاعلهم مع الحدث، وردود الأفعال لديهم نجدها تختلف وفقاً لقدراتهم ولمستوى الأذية اللاحقة، والعامل الذي له الأثر الأهم يتصل بأساليب تّنشئتهم الأسرية السّابقة في ظل حياتهم في الظّروف الصعبة، ولكن قبل المرحلة الدّراسية أكثر ما يزعج الأطفال وفق دراسات عالمية مختلفة، يتمحور حول المناظر المرعبة للموت والدّمار وكذلك أصوات القصف والانفجار وأصوات سيارات الإسعاف، التي تثير خيالات لا متناهية، تجعل الرعب يجتاح كامل الشخصية، لتنعكس على تفكك وتماسك الجسد والنفس، كعلامة على سوء التّكيف ومؤشر مباشر لتداعيات الحدث الصّادم.

فالأطفال بعد هذه المرحلة لا يمكنهم في الواقع التّفريق بين الواقع والخيال بسهولة، كون تجربتهم ومفاهيمهم العامة مازالت غير متحققة بالقدر الذي يشكل لهم الفهم المعقول لما يحصل أمامهم، لذا يلاحظ أنّه يصعب في بعض الأوقات الفصل بينهما (أي بين الواقع والمتخيل) لديهم عن هذا الواقع، فقد يخلط الطّفل مرات بين مشهد من فيلم مخيف وبين منظر من مناظر الأخبار، وبين ما عاشه بسبب وضوح الصّور المنقولة في ذهنه ووعيه لِمَا حدث.

وتبعاً لهذه المؤثرات يصبح مفهوم الأنا محكوماً بمتغيرات عدة سوف تتم الإشارة إليها فيما يأتي عبر عرض طروحات علمية لعلماء النفس كان موضوع البحث في مفهوم الأنا لديهم هو قضيتهم الشاغلة...

ومنهم على سبيل المثال باسكال الذي يعرض لخصائص الأنا من كونها "مفهوماً أولياً مؤسساً للهويّة" كما يلي:

1- مُضايق للآخرين من حيث أنه يريد استبعادهم، فكل أنا هو عدو، لذا هو يريد أن يكون المسيطر على الكل.

2- كل ما هو خارج عنّي هو عدوّ لي: فالضّد بالضّد يعرف، ومطلب الإنسان الواعي هو المعرفة.

ويبقى السؤال الجوهري يكمن بـ: لماذا نحارب من هو ضد ما نحمل من قناعة؟ وللجواب على ذلك من خلال قراءة متأنية لما حولنا أجد أنّه: إذا ما خالف الفرد أهداف جماعته، فإنّه يواجه الإقصاء والإبعاد عن السّرب، والذات لكي تكتمل وتحقق وجودها، فلا بدّ أن تعي مفهوم الذات الجمعي، وتحاول الانسجام معه ومع معطياته، وفق ما أطلق عليه "كارل بوبر": الحس المشترك.

وهذا الحسّ المشترك لكي يفعّل ويعاش واقعياً وتثمر أهدافه، لا بدّ له من حامٍ للمشتركات بين بشر يعيشون في موقع واحد وتجمعهم قواسم كثيرة، وبعدها لابدّ أن نصل إلى الحديث عن بنية الجيش الحامي والمربوطة قيادته وقراره بقرار الحاكم، وتفرد رؤيته ونظامه وإقصاء المعارضين لهذه الرؤية.

ومن يتبع تاريخ مؤسسة الجيش بصورة عامة في أي بلد يصل إلى أن: بنية مؤسسة الجيش، بنية هرمية تبدأ بالقاعدة وتنتهي برأس الهرم، وبذلك تماسكها يعود إلى تيار ذي قوة عمودية ينتهي برأس الهرم، وقوة أفقية تربط الأفراد فيما بينهم، فدور الجيش في أذهان السّوريين مثلاً، أصبح بصورة عامة دوراً مزدوجاً، وذلك لأنه قام بحماية الوطن من الاعتداء الخارجي وكذلك بحماية المواطنين من بعضهم عندما حلّت الفوضى في بعض المناطق، فالمهمة الثّنائية للجيش: الدّفاعية والتّوجيهية وضحت لنا. وبالتّمعن بموضوع الجيش الذي يتمثّل الولاء له في أي بلد على أنّه سمة وطنية، فالخدمة العسكرية في بلدنا على سبيل المثال، لا تقتصر على التّدريبات الميدانية، حيث الجيش يستقي قوّته من التّراتب الهرمي، الذي يجعل القائد في قمة الهرم يوزع المحبة بالتّساوي، والتّسلسل الأبوي من القاعدة، فكل قائد هو بمنزلة أب للعساكر، وهو نموذج يتماهون به، كونهم يعدّونه قدوة، وفي الوقت نفسه يفترض به أن يضمر لهم الحبّ ولا يغامر بهم، بل يتحمل مسؤوليتهم عند تعرضهم للخطر.

فالعلاقة الحبية هذه تتلخص بالتّنازل عن الأنانية، ومراعاة شعور الحبيب فوجود هذه العلاقة العاطفية هو أكبر ضمانة لتماسك المجموعة، وصمودها ضد

أخطار التّفرقة، وهي أكثر دواماً من العلاقات القائمة، على المصالح المشتركة، فبمجرد أن تنتهي تصبح التّسوية ملغاة وتتفكك المجموعة.

– وتبعاً للمنظور النّفسي التّحليلي "إنّ العلاقة العاطفية المعتمدة على التّماهي المشترك والمجردة من أيّة نزعات جنسية، تكون مبعدة، لأن "اللبيدو" الطاقة التي تربط الأفراد ببعضهم مكفوفة، ومجردة من أهدافها الجنسية، من هنا يبدو التّفاني والتّضحية، والتّخلي عن حبّ الذات والأنانية، هذه الصّفات الشّاملة من صفات الجيوش، ومن صفات تعاليمها، من هنا يبدو إبعاد الجنس إلى خارج المؤسسة العسكرية من الضّروريات لأنّ التّماسك يستمد منه قوة، وهو ما يسمى: التّسامي "Sublimation"...

اللغة ومفهوم بعد الهويّة

اللغة تبعاً لمفهوم التّسامي أهم قواسم الانتماء والهويّة، الإنسان واللغة حياة وجود، فالإنسان كائن ناطق، وسمة النطق لديه، مماثل لوجوده، نسمع من يقول بأنّ الإنسان مسكون باللغة، ولتوضيح ذلك سأحاول أن أرصد موقع اللغة في حالتي السّواء والمرض في حياة الإنسان، فمن المعروف أنّ البحث في مواضيع اللغة، من المباحث التي لا شكّ كانت مؤثرة وستبقى في ميادين العمل النّفسي، لأنّ البحث في اللغة هو صلب العمل في التّشخيص النفسي للأمراض المختلفة، وكذلك مبحث في العلاج، لأنّ الإنسان مسكون باللغة، ونحن العرب غربتنا في لغتنا كغربتنا في أوطاننا، لا شكّ أن اللغة هي وعاء الفكر، ومحتواه حيث إن الباطن والظّاهر من اللغة، هو ما يشكل المخزون الفكري في أيّة ثقافة، كما أنّ القدرة على التعبير هي مهارة تنضج بالتّنشئة، ولكن قبل تنمية اللغة، لا بدّ من الوجود في اللغة، واللغة رموز ودلالات، وكذلك استعارات وكنايات، كما هي ثقافة الإنسان كذلك، فالإنسان كائن ثقافي تتأكد ثقافته بمقدرته اللغوية، "لاكان" كان يؤكّد على الوجود من خلال الكلام ومن خلال إشارته المهمة، على عظمة

الإنسان المتكلم، والعلامة "مصطفى صفوان" في كتاب له بعنوان (الكلام أو الموت، ترجمة د."مصطفى حجازي" وهذا التعبير (الكلام أو الموت) هو تعبير نفسي تحليلي لاكاني، "صفوان" يؤكد في كتابه هذا كيف يصبح العنف شرطاً إنسانياً ضمنياً لدى هزيمة الكلام، تعبير "لاكان" النّفسي التّحليلي حول كون الكلام: رسالة سياسية فعلية بين الذّوات، وبين الحاكم والمحكوم متجاوزاً السّياسة بالمعنى الشّائع وصولاً إلى الدّيمقراطية الفعلية. من هنا كانت أهم إسهامات "لاكان" للغة الفرنسية إثراءً فكرياً من خلال الجو الفكري الذي كانت تثيرها سيمنيراته الأسبوعية في باريس لسنوات طويلة، لدرجة أعطته شعبية كبيرة، وانتشاراً لفكره في فرنسا، وكاد يكون من الشّخصيات الأولى التي أثرّت على الفكر في فرنسا المعاصرة، هكذا تكون اللغة هي محتوى للفكر، وتطويراً له ليصبح ثقافة حياتية، وبذلك تصبح اللغة مسكونة في الإنسان، مثلما الوجود للإنسان يعبر عن نفسه من خلال الكلام، ومن خلال كل السّكنات، والحركات التي تختلج بالجسد حيث تصبح اللفتة، والهمسة وكل نبضة من الجسد تعبيراً عن مخزون لغوي حقيقي، يعبر عن نفسه في الحالة المرضية، وتأخذ هذه التعبيرات طريقاً، لينطلق التعبير بالكلام الطليق مع تقدّم المتابعة النفسية، وتحرر المريض من السّتار الذي كان يطبق على صدره، ومن ثم لسانه، فالعمل على اللغة هو عمل على تطوير الشخصية، وهنا أستعير قولاً شهيراً للمحلل الفرنسي الكبير "جاك لاكان" بأن اللاشعور مبني كاللغة، وبرأي "فرويد": اللاشعور نسق أولي للشّخصية، وهو الركيزة الأساسية التي بني عليها التّحليل النّفسي، حيث إن رصد دينامية اللاشعور في الشخصية، هي الخطوة الأولى للمحلل النّفسي كي يحسن استعمال التقنيات التّحليلية، المستندة إلى التّداعيات الحرة للأفكار من خلال الكلام، ومشتقات اللاشعور من خلال الأحلام، وكذلك زلات اللسان وسلوك التّكرار، واللاشعور من الزاوية الاقتصادية للجهاز النّفسي، يمثل الطاقة الأولية التي تستمد منها الشخصية، حيويتها السّيكولوجية والذّهنية...

تماسك المجتمع أو تفككه، بل وجوده نفسه إنّما يدفع إلى عوامل شتى أهمها وحدة التاريخ ووحدة الأرض، ووحدة الاقتصاد ووحدة اللغة، ثم التّكوين السّيكولوجي المشترك.

والتّنشئة الاجتماعية هي تلك العملية التي يكتسب الفرد من خلالها طبيعته الإنسانية، كما أنّ الفرد يتمثّل عن طريقها القيم والاتجاهات والأعراف ومعايير السّلوك السّائدة في مجتمعة.

وهي عملية مستمرة تبدأ منذ اللحظات الأولى في حياة الفرد، وتستمر حتى وفاته، فضلاً عن أنّها عملية نسبية تختلف باختلاف الزّمان والمكان، وتختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية داخل المجتمع الواحد.

وتعد عملية التّنشئة الاجتماعية البوتقة التي يتم فيها خلق وحدة المجتمع أو تفككه واتصال أجياله أو انفصالها، عبر الموروث الثّقافي والقيمي ومن أهم أدواته اللغة... وبذلك يكون العمل على الحضور الثّقافي لأية أمة ينطلق من بناء لغتها أي بناء إنسانها، وتحقيق خصوصيته... ولا يخفى على أحد ما تبذله فرنسا لتكريس لغتها ونموها وانتشارها، وكذلك لا يخفى على النّاطقين باللغة الانكليزية، كيف تتطور اللغة الانكليزية المستخدمة في أمريكا حتى أنها تكاد تأخذ لكنة جديدة، وتنمو لتكون لغة لها خصوصيتها، فالإنسان يتطور باللغة وتتطور به، ونتاجه العملي والصّناعي والفلسفي والأدبي، والسّينما والميديا...

إنّ المريض النّفسي، وكذلك المريض العقلي أكثر ما يتأثر لديهم من مهارات هي مهاراتهم اللغوية، هذا ما أستطيع تأكيده من خلال خبرتي العملية مع الأطفال التّوحديين والأطفال المتأخرين عقلياً، ونجد أنّ أكثر شكوى لأهل هؤلاء الأشخاص حين طلب الاستشارة لتقييم وضع ولدهم، نجدهم يشكون دائماً من سوء كلام أطفالهم، فهم يقبلون ابنهم أو ابنتهم بأن يكون / تكون، غير قادر/ قادرة على الاستقلال عنهم في مسألة الخروج، والتحكم بالتّبول والتّبرز، حتى ولو بلغ عمرها أو عمره عشر سنوات، كما أنّهم يقبلون هؤلاء الأولاد وهم لا يستطيعون الأكل

بمفردهم، وكذلك يقبلون سلوكيات أبنائهم الصعبة المتعبة، ويطلبون العمل على تطوير اللغة، حيث إن العجز اللغوي عند أبنائهم هو تكريس مؤكد لديهم بحجم المصاب الذي فجعوا به بمصاب ابنهم...

إنّ اللغة من حيث الاستقبال / الإصغاء للتداعي الحر لمريضنا من أهم أدواتنا في عملنا العيادي في العيادة النفسية التحليلية، حتى يكاد المريض يفكر بما حصل له من راحة من جلسة لأخرى، رغم أنه لم يأخذ أيّ دواء، يجد بصورة جلية وكأن قدرة قادر تدخلت وأرجعت له تماسكه، من خلال رجع كلامه أمام المحلل النفسي بدا انعكاسه وعياً عليه، منحه قوة لا تضاهى، يتلمسها عندما تحرّر عقدة اللسان وبدأ بالإفصاح عن مخزونه المكبوت، لينعم به قوة، وحرية وجمالاً في النظر للنّفس والآخرين، وبالتالي يحصل الشفاء وينعم بالصّحة النفسية والتّكيف، إنّ الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم من آيات الله التي تحدى بها المسلمون أعداءهم بلغة الضاد التي نعتز بها، وهي القاسم المشترك الأعظم الذي يجمعنا وبالعودة للبدء يقول يوحنّا في الإنجيل المقدّس: في البدء كان الكلمة، ونعرف أنّ النبي موسى عليه السلام كلّمه الله فهو في الديانة اليهودية كليم الله...

أبعاد أخرى في النظر للهويّة

إضافة الى الطّروحات السّابقة حول الهويّة هناك طروحات أخرى مهمة حول الهويّة والانتماء من مثل: طروحات "هيغل" حول الهويّة التي تبرز من خلال إبرازها للبحث في هوية الوجود والفكر عنده، الهويّة عند "هيغل" ليست هوية مباشرة لا تعرف تمايزاً، وهو يقول إن الفلسفة ليست مذهباً في الهويّة، بل نشاطاً وحركة طرد، وتنافر فهوية الوجود والفكر ليست هوية لا يعتريها تغيير.. ولكن الاختلاف/التمايز داخل الهوية، لا يقل عن تفاعل الهوية نفسها، بل إن "هيغل" يقول: إن للفكر والوجود، هوية واحدة من حيث الجوهر والاختلاف/تمايزاً من حيث الجوهر أيضاً. الجوهر نفسه يجب فهمه باعتباره وحدة للهوية والاختلافات (ص6، هيجل، أساليب

الفلسفة التاريخية) الفكر عند "هيجل" هو عملية إنتاجية واقعية، لا تعبر عن نفسها في اللغة فحسب، بل في تغيير الأشياء، وصنع الأحداث أيضاً، أي في خلق الثّقافة الروحية المتجسدة مادياً، فالمدن بمنازلها وصروحها فكر متجسد في الحجر، والآلات فكر متجسد في المعدن، والمؤسسات الاجتماعية والقانونية والسياسية هي الفكر في أشكال آخرته (7، هيجل) فالفكر يتموضع خلال العمليات العقلية في مادة حسيّة، وتكون الممارسة لعيش الفكر من خلال عملية تحويل الأشياء والأحداث وفق مفهوم ووفق خطة، فكل تاريخ الحضارة هو تجلٍ خارجي لقوة الفكر، لمفهومات الإنسان وخططه وغاياته...

ويبقى الدّور الإنساني يتجلّى بما هو داخل بوساطة العلاقة الجزئية للإنسان بالوجود، أي بالجنس الإنساني أي بالبشر الآخرين جميعاً، إذ إن طابع هذه العلاقة شديد الدقة، إن الوجود يمثل في ذاته، وجوداً يتعيّن إنجازه على نحو عيني، أي تعيناً، وكذلك غاية يوجد بالنسبة إليها كل إنسان مفرد، داخل نمط معين من المطابقة، وانعدام المطابقة...

والجنس بوصفه وجودياً، هو العنصر بمعنى الوسيط الذي يتحرك داخله أفراد البشر، والذي بوساطته يدخل كل واحد منا، في علاقة مع الآخرين (212، هيجل)، فكل موجود فيها إنّما هو وجود، من حيث الماهية لأجل موجود آخر، وبوساطة موجود آخر، الموجود الآن متعين، في وجوده والموجود الآخر، يعنيه في وجوده، بحيث هذا الذي دخل عليه التوسط، هو نفسه لحظة أساسية، من لحظات ذات الذي يتوسطه، وكل لحظة هي جملة من المتوسطات..

أما ابن عربي: أبو بكر محيي الدّين محمد بن علي بن عربي الذي عاش ما بين /1164 – 1240م/، الملقب بالشّيخ الأكبر يرى أنّ:

النّفس والروح، هما عند ابن عربي شيء واحد، جوهر بسيط، النفس عنده جوهر عاقل، لها قوى حسية وقوى معنوية، ابن عربي تعمق في درس الخيال، وعلاقته بالنّفس والعلم والإبداع، والرؤيا والكشف والحدس من بينهم.

ومن الطروحات المهمة حول الهويّة، تأتي فلسفة ابن عربي حول وحدة الوجود كطرح لرؤيته الخاصة للهوية وللانتماء...

إن الواحد عند الوجوديين صفة ليس فقط للوجود كله، بل ولكل شيء بمفرده، فالوحدة الشّاملة تحضر في كل موجود في أدق ذرة من العالم والوجود، الواحد ينعكس في الشّيء فيمنحه وجوده وفرادته وأثنيته وبهذه الوحدانية تدرك الأشياء الوحدة التي تلفظها، فلا يعرف الواحد إلّا الواحد، حيث من خلال الواحد تترابط الأشياء أحدها بالآخر، ولكن ليس مجرد ترابط أفقي: "horizontal" انتشاري "extensive" مبدأ ابن عربي وأتباعه المتمثل بالواحدية الشّاملة "panenhenism" فقد فقالوا بشهود كل شيء من كل شيء، الوجوديون من خلال مذهبهم الأنطولوجي يعبرون عن المفاهيم الأساسية في اللاهوت الإسلامي، فالإله عندهم هو الوجود الواحد، والكون في كليته والذات والوجود والبحث، الوجود بما هو موجود، الحق والصفات: الحياة – العلم – الإرادة والقدرة وغيرها، التّعينات الكليّة للوجود، "فابن عربي" ومدرسته يمضون من توليد الإله إلى توحيد الوجود حضور مهم يرون في وحدة الوجود نفسها نزوعاً للمطابقة بين الخالق والمخلوقات.

إنّ الشّيخ الأكبر "ابن عربي" وغيره لم يقتصر على المطابقة بين الإله والعالم من زاوية الوجود فحسب، الشّيخ الأكبر يقول ما في الوجود من يقبل الأضداد إلّا العالم من حيث هو واحد، ومن ثم من يقبل الأضداد في وصفه إلّا الله، الإله عند "ابن عربي" ليس إلّا العالم المأخوذ في وحدته، الكل له والكل الكوني تدل عباراته التي تحدث فيها عن الإله، بأنّ: الكل له، بل هو عين الكل: الكل لله وبالله، بل هو الله فهو الكون كله كل شيء ...

وابن عربي يحذر من الفهم المبسط للصيغة المذكورة، لا يقال: في يد الإنسان وفي شيء من أعضائِه أنّه عين الإنسان، ولا غير الإنسان وكذلك أعيان العالم لا يقال إنّها عين الحق، ولا غير الحق بل الوجود كله حق، إله الوجودية الذي يرمز إلى وحدة العالم، يتطابق من حيث ذاته مع مبدأ الوجودية مع الوجود،

وتحديداً مع الوجود البحث المطلق، "ابن عربي" يقول: الحق هو الوجود والأشياء صور الوجود، وبذلك الإله عين الأشياء وهيولى العالم.

هذه المطابقة بين الإله وبين الوجود، تقود منطقياً إلى اللاكونية "Acosmism"، حيث إنه عند "ابن عربي" وأتباعه الأشياء المفردة ليس لها بحد ذاتها وجوداً واقعياً جوهرياً، فهي لا توصف بالوجود إلّا من حيث كونها أجزاء للكل الكوني أو أحوال للجوهر الواحد الوحيد، فمن هذه الزاوية يرى "ابن عربي" أنّه ليس في العالم سكون البتة، وإنّما هو متقلب أبداً دائماً من حال إلى حال والتجدد المستمر الكون هو نتيجة التّجلي الدائم للإله وظهوره في صور الموجودات، إنّه هذا التجلي ذاته، فزمان العدم زمان وجود المثل "فصوص الحكم، 156".

– الهويّة أو الذاتية عند "ابن عربي" (Identity) في عالم الصّيرورة الدّائبة يلتفت ابن عربي إلى وحدة الأشياء من حيث جوهرها، وتتجلى هذه الوحدة في نوعين من التّرابط: أفقي – عمودي.

– الأول: هو الارتباط الزماني بين الأشياء المتجددة الخلق، فما يتراءى للوهلة الأولى على أنّه شيء واحد لا يكون عند التّمعن الشيء ذاته في لحظتين مختلفين، وإنّما شيئين متشابهين (فصوص الحكم، 124)، ولكن الشّيء برغم هذا لا يفقد وحدته الأصلية هويته، وذلك لأنّ ما يطرأ عليه من تغيرات دائبة إنما هي مقدرة مسبقاً فيه، نابعة من ماهيته الجوهرية من عينه الثّانية. وهذه الوحدة الجوهرية تقوم في صلب التّرابط العمودي بين الأشياء، تطابق الإله الذي يتجلى بصور مختلفة في مختلف الملل والمعتقدات، والموجودات كلها هي صور مختلفة لجوهر واحد وتجليات متنوعة لماهية واحدة، فترد جميعاً في نهاية المطاف في الواحد المطلق (فصوص الحكم، 73).

– وابن عربي يرفض رفضاً قاطعاً مذهب الخلق من العدم المحض فالاتفاق مع المعتزلة يرى أنّ خلق الأشياء ليس إلّا انتقالاً لها من حالة مع الأنطولوجية إلى أخرى، من الوجود المعقول إلى الوجود المحسوس، من الوجود بالقوة /الإمكان/ إلى الوجود بالفعل.

اللاشعور عند ابن عربي، هو خزانة الخيال، حيث إن القوة المصورة هي إحدى قوى النفس، وهي تستمد عناصرها من الصور المحسوسة التي سبق أن احتفظ بها الخيال وخزانته، وهنا يبرز أهمية الخيال، ومكانته بين القوى النفسية الأخرى / وهذا ما وضحه في كتابه المهم المعنون بـ"الفتوحات المكية" حول وظيفة الخيال في الكشف العلمي...

لقد أقرّ "ابن عربي" باختلاف الأخلاق والعادات والآداب باختلاف الأزمان والأجيال بقوله الشّهير: "لا تقسروا أولادكم على آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم (نزار عيون السود، 180) وهذه خير إشارة استناداً لفكر ابن عربي بأنّ: مفهوم الانتماء قابل للتبدل تبعاً للمتغيرات الحياتية وظروف المجتمعات.

مفهوم الهويّة والمواطنة

خلاصة حديثي عن موضوع الهويّة والانتماء، سوف أقف عند مفهوم المواطنة ربما بالقياس لذلك نؤسس لبذور المصالحة الوطنية، في الزّمن القريب القادم مؤسساً على انتماء لجغرافية المكان المتسع للجميع، المكان الذي هو سجل للذّاكرة القديمة والمعاصرة والحالية المضمخ بالدّماء الذّكية، لكل فئات الشّعب بكل التّلوينات الدّينية والعرقية، "فإن كان الجسد هو قدر الإنسان فالجغرافيا هي قدر الشّعوب" وفقاً "لفرويد"، الذي لا بدّ أن نكرّس الدعوة للانتماء له، لهذا الأصل، لينتفي من ثم كل الانتماء للفروع، فهكذا سوف يكون التّسامي قيماً رمزية لا تموت...

بحيث نسعى لنبرز ملامح مثل تفاصيل المستقبل الذي ستعيش في ظله أجيالنا من الأحفاد وسلسلة النّسب، حيث القلق يشتد وبذلك هذه الملامح مازالت غير واضحة وغير مكتملة، ولكنه بالإمكان البناء لأجلها.

قد يبدو التنبؤ أصعب فيما يتعلق بالمستقبل القريب، ولكن ثمة ملامح منظورة لا نعتقد أنّها ستتلاشى فجأة، وهذا يستدعينا إلى وضع تصورات مبدئية

للملامح الأساسية وفقاً للأولويات كما يقترحها الدكتور "قدري حفني" بشأن أولويات العمل القادم لما ينبغي التركيز عليه كما الآتي:

1) تدعيم الانتماء وتحمُّل الآخر المختلف.

2) تدعيم قيمة التفكير العلمي والابتكارية.

بينما يرى "د. مصطفى حجازي" الأدوار المستقبلية كما يلى:

- الإسهام في إنتاج الاقتدار المعرفي.
- بناء ثقافة الإنجاز كنقيض لثقافة الاستهلاك.
- تشكل الحصانة النفسية ومتانه الشخصية.
- بناء منهجيات التفكير التّحليلي التّركيبي عند الأطفال والشّباب.

والأمر الجوهري في إبراز ملامح إستراتيجية متكاملة لتأكيد قيمة الانتماء، والتي يمكن أن تساهم فيها كل وسائط التّنشئة، وتعمل على تنفيذها مؤسسات المجتمع من خلال الآتي:

تأكيد القيم المجتمعية التي تعمل على تحقيق الانسجام والوئام في المجتمع من خلال الأسرة، والمؤسسة التّعليمية والإعلامية والخطاب السياسي والخطاب الديني، من خلال مؤسسات المجتمع المدني مهما كان مستوى حضورها على ساحة الصراع.

- تأكيد مبدأ العدالة والمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات.
- تأكيد عملية القدوة الصالحة في كل مواقع العمل، ويستدعى ذلك التّدقيق في اختيار القيادات في الوضع المناسب.
- وضع التّشريعات اللازمة التي تضمن وتؤكد الانتماء والمشاركة والمحافظة على المال العام وصيانته.
- العمل على معالجة الخلل والفجوات في آليات توزيع الدخل، والفجوات بين الرّيف والحضر.
- تأكيد دور الأسرة وضرورة قيامها بهذا الدّور، في غرس القيم الإيجابية

وفـي مقـدمتها قيمـة الانتمـاء، باعتبـار الأسـرة أهـم وأولـى المؤسسـات فـي عمليـة التّنشئة.

– تأكيد دور المؤسسة التّعليمية في غرس الانتماء، وتقويته لدى الطّلاب من خلال المناهج والمحتويات والأنشطة والممارسات الطّلابية.

– تأكيد دور المؤسسة الإعلامية في تعميق الانتماء والولاء من خلال رسائل الإعـلام المختلفـة، مـع إتاحـة فـرص واسـعة للتّيـارات الفكريـة والسياسـية المختلفـة، للتّعبير عن آرائها وبرامجها وأفكارها المنضوية في إطار المصلحة الوطنيّة.

– أن يـتم العمـل علـى إبـراز دور المؤسسـة الدّينيـة فـي تعميـق الانتمـاء إلـى الـوطن، بـدلاً مـن إعاقتـه عبـر الـدعوات الضـيقة للانتمـاءات الطائفيـة المغلقـة والمتعصـبة، ولـردم هـذه الهـوة لا بـدّ مـن التأكيـد علـى روح القـيم الدّينيـة وأبعادهـا الإنسـانية الجوهريـة لاسيما مبدأ المسـاواة والأخـوة الـذي يمكـن أن يتماشـى مـع مبـدأ المواطنة والعدالة الاجتماعية.

– ضرورة توفير الاحتياجات الأساسية المتمثلة في الغذاء والكساء، والصّحة والتّعليم وفرص العمل وحرية التعبير، ووضعها في أولويات خطط التّنمية.

– وضـع الضّـمانات التـي تؤكـد المسـاواة وعـدم التّفرقـة، بـين المنتمـين الـى مختلف الاتجاهات السياسية والثّقافية والاجتماعية والدّينية.

– ضـرورة قيـام الأحـزاب السياسـية والنّقابـات ومؤسسـات المجتمـع المـدني، بدورها في التّثقيف السياسي والاجتماعي وغرس القيم الوطنية.

– العمـل علـى زيـادة مشـاركة المـواطنين، سياسـياً واجتماعيـاً بكـل الوسـائل لتكون مشاركة فعلية وفعّالة.

– العمل على تفعيل دور المؤسسات فـي المجتمـع، وأن تكـون القرارات مـن خلال المؤسسات لا الأفراد.

ومـن خـلال هـذه الـرّؤى المختلفـة يمكـن أن يكـون مسـارنا لعـيش المواطنـة والعدالـة الاجتماعيـة، ضـمن هويّـة إنسـانية وانتمـاء لقيم المنطقـة التـي أنشئنا علـى

ترابهـا، وفـاء لأصـالة أجدادها حصـن حصـين لهويّتنـا الذاتيـة، وانتمائنـا الصّـادق للأصل الذي يجمعنا مع من عاشوا آلامنا نفسها ولهم آمال مشابهة لآمالنا...

هذا التّركيز على الهويّة الشخصية المبنية على ثقافة التّنشئة المناسبة للبيئة، ولكن يبقى الرّبط بين الهويّة الثّقافية والهويّة السياسية أمراً يؤدي دائماً إلى صراعات اجتماعية في داخل مجتمعاتنا، هذا الرّبط لا يكون حقيقياً إلّا عندما تعبر الهويّة السياسية عن الهويّـة الثّقافيـة، التـي يُنظـر إليهـا علـى أنهـا فعـل مـرتبط بالماضـي والمستقبل، بينما الهويّة السياسية فعل يقوم في الغالب على معطيات الحاضر، تبعاً (لمحمـد عابـد الجـابري) فـإنّ الهويّـة الثّقافيـة لا تكتمـل، ولا تبـرز خصوصـيتها الحضارية ولا تغدو هويّة ممتلئة قادرة على مناشدة العالمية، وعلى الأخذ والعطاء إلّا إذا تجسدّت مرجعيتها في كيان مشخص تتطابق فيه ثلاثة عناصر.

1- الوطن بوصفه الأرض والأموات والجغرافيا.

2- التاريخ وقد أصبح النسب الرّوحي الذي تنسجه الثّقافة المشتركة.

3- الدّولة بوصفها التّجسيد القانوني لوحدة الوطن والأمة.

لنصل من خلال ما تقدّم إلى ما طرحه "هول استيوارت" بأنّ الهوية معطى موضوعي لـه عناصـر ومقومـات، وهي إحساس بكيانات ذاتية تتصاعد من الأسرة إلـى الإنسانية، وبالعكس في أحوال معينة فالإنسان ينتمي بحكم كونه عضواً في مجتمع إلى أشياء تكوينات "هويات عديدة" هي مكونات شبكة العلاقات التي يدخل فيهـا بشـكل مباشـر أو غيـر مباشـر، فهـو ينتمـي إلـى أسـرة معينـة وإلـى أشـياء كثيرة..."الهويّات لا تكتمل ولا تنتهي أبداً، فهي بذلك كالذاتية نفسها في تطور وفي تغيّر وهو ذاته الأرق الصعب"...

مـن خـلال هذا الفهم يجـدر بنـا التأكيد علـى دور الأسرة، فـي تحقيـق هذا المفهوم التّنموي الحضاري، الذي ينبغي أن يتعاظم في المستقبل بتسهيل الأمور لها لتأخذ دورها الاجتماعي المنوط بها، والمؤثر فـي تأكيد الهويّة الاجتماعية وبالتالي أصالة الانتماء...

ما بين خطابي العلم والدّين

"مقاربة نظرية"

مقدمة حول المنظورين العلمي والدّيني

إنّ ديناميكية الدّفع لتطوير العلاقة المنهجية العلمية، والفكر الفلسفي، الذي كان سبباً في انطلاقة الثّورة العلمية، والصّناعية في أوروبا وأمريكا، من خلال توظيف المنهجية العلمية التي ميّزت العصر الحديث، هذه الدّيناميكية التي لا تقبل الاستثناء، على اعتبار أن المنهج العلمي من أبرز سماته أنه قابلٌ للتعميم، لذلك إن مجتمعنا فوجئ بهذه الحداثة، وما زلنا نجدها تستنفر قواه، ويحيط نفسه بجدار دفاعي حيالها، لأنّه غير مهيأ وغير قادر بعد على التّوفيق بين العلم والدّين، كما يتبدى أمامنا، لذا اقتصر خياره على أخذ التكنولوجيا عن مجتمعات الحداثة، متجاهلاً الفكر العلمي الّذي أنتجها.

إن آليّة الفصل بين الدّين وأجهزة الدّولة في أوروبا مثلاً، لم تنشأ نتيجة قرار سياسيّ، أو نتيجة ثورة تلغي القديم دفعة واحدة، فقد حصل ذلك في أوروبا، نتيجة تجارب لنيل الحرّيّة الفكرية، وحريّة العيش وفق قانون جامع للعدالة الاجتماعية، يتساوى جميع أبناء البلاد أمامه.

إذ تعدّ التّجارب الأوروبية في سبيل عيش الحريّة، والتي قاومت هيمنة الدّين المؤسّس، قبل أن تتحوّل العلمانيّة إلى واقع تشريعيّ، إلى جانب الحراك الفكري المطالب بالفصل العلمانيّ، تجربة جديرة بالمقارنة والاقتداء، كونها جمعت بين تجارب وأفعال فرديّة، إضافة للأفعال الشّعبية المقاومة، فكان لذلك أثره المهم الذي

كان له الأثر الأكبر في تسريع الإصلاحات العلمانيّة، فتمت تبعاً لذلك علمنة المدارس والمستشفيات، والمحاكم في فرنسا نفسها، بعد جهود عسيرة، وقد انبثق عنها ردود فعل عنيفة أحياناً، من قبل المتديّنين.

وكانت علمنة الإطار العامل والأمكنة، بمنزلة تعويض تدريجي لعمل الرّهبان، بعمل الموظّفين، واستبدال للصّلبان والرّموز الدّينيّة المتمثّلة بتماثيل بآثار فنّيّة دينية...

فمن قراءة لتجربة الشّعوب التي سبقتنا في فصل حياة الدّين عن حياة الواقع السياسي بكل توظيفات الفكر يلاحظ أنّ:

– الأديان بما تدعو إليه من جوهر الإيمان، والتواصل مع الكون الأعظم، فيها من العمق والتّآلف والاتساق ما هو مغري وجاذب، هذا الحال يقتضي منا فحص إمكانيات التّغيير في بلادنا ليبقى التّوازن بمعناه الشّامل، والتّوازن النّفسي بمعناه المحدود، كمنطلق نحو مفهوم إيجابي وموضوعي للصحة النفسية، ومقتضيات التّكيف في حياتنا اليّومية في هذه المنطقة، من حيث إن علم النفس العام، ثم علم النفس المرضي المتصل بمدراس اضطرابات الشخصية، قد بدآ هذه المحاولة بجدٍ ومثابرة، حين تخطى الأول الدوافع الأولية، إلى الدّوافع البعدية في تكامل متصل، وتخطى الثّاني محدودية الذات إلى شمولية الوجود، من حيث إن: الإنسان المعاصر في حاجة الى الإيمان ليكتمل وجوده، وبالتالي تخف صراعاته الداخلية. هذه حقيقة ما انتهت إليه المدارس الحديثة الثائرة في العلوم النفسية، وهي حقيقة قديمة، ولكن إعادة اكتشافها في مجال الطّب النّفسي، والمرض النّفسي خليق بأن يذكرنا، بما نسينا ويوجهنا لما ينبغي.

بذلك نجد أنه لا يمكن للمرء، أن يحصل على المعرفة، إلا بعد أن يتعلم كيف يفكّر؟

لذا تغدو المهمة الجلية للدّور الثّقافي في مجتمعنا العربي، متمثلةً في العمل على تطوير الذّهنية الفكرية، التي تعمل على تحييد العلم عن الدّين، وتجعل

التّعايش ممكناً بدلاً مما هو سائد، كوننا نجد الصّراع المعلن ما بين العلمانية والدين، فالعلم يلغي الدّين في بلادنا، والعكس صحيح، وذلك عن طريق العنف الممارس بأشكال وصور مختلفة من قبل جماعات تحارب وتفرض سيرتها باسم الدّين، فهذا الانقسام في الخطاب لا بدّ أن يستدعي التّأويل، بغية إيجاد مخرج مناسب للاتصال بالآخر، فإذا كان مغلقاً يؤدي حتماً إلى إلغاء الآخر، من هنا يأتي الدّور الفاعل بما هو ملقى علينا، بأن نجد مخرجاً للخروج بمجتمعنا الذي يواجه، ومنذ فترة بعيدة، أزمة وفوضى سياسية وعامة اشتدت رحالها في السنيين الأخيرة، مما كان له العديد من الانعكاسات على المستوى النّفسي والاجتماعي، ويمكن تمثيلها بما يلي:

حالة العجز، والاستسلام لتطبيقات العقائد أو المبادئ الجاهزة، بدلاً من البحث والاستدلال، هذان المظهران اللذان لم يعدّ لهما فعالية في الحياة العصرية مثلما كان سائداً في السّابق، وبذلك يكون المطلوب هو التّغيير، وليس التّعاطي مع الأمور الحياتية الجادة بالسّلبية، أو التّحايل على هذا الواقع الجديد.

وهذا التّغيير يفترض به أن يطال البنية الاجتماعية والذاتية، حتى لو لم يكن مهيأ لمجتمعاتنا، وبالتّالي مواطنينا. وتبعاً لهذا التّفسير، ما نجده من ردّات الفعل، التي ما زالت متفاوتة في المجتمعات العربية تجاه قضايا مختلفة، ولاسيما القضايا الكبيرة التي أُثيرت في السّنوات الأخيرة في حراك الشّارع العربي، فمثلاً نجد على سبيل المثال أن الإساءة للإسلام، والرّسول الكريم، حركت الكثيرين بشكل اندفاعي، بعيداً عن الرّدود المدروسة العقلانية، لإبراز الوجه الحقيقي للإسلام ورسول المسلمين الكريم، بل أتى الرّد عنيفاً وتهجمياً، وهذا ما وجدناه معلناً لدى الدّعاة الإسلاميين، ولاسيما الدّعاة السّلفيين المنادين، بالدّعوة للسّلف الصّالح، أو استباحة العنف لمحاربة الحريّة والانفتاح، كردّة فعل على التّناول للمعتقد الدّيني الثّابت والرّاسخ.

لأجل ذلك نجد أنّهم يحاربون الاتجاهات الدّاعية للدّيمقراطية، وإفراغها من

مضمونها من خلال إبرازها وتحويلها فيما بعد إلى خلافة إسلامية متعصبة كالخلافة البيولوجية التي نادى بها "هتلر" ملك الفكر النّازي الإقصائي في التاريخ العالمي الحديث، وتحت صيغة حرية التعبير والاختيار والتفكير، وهذا ما تغذيه الأنظمة الدّيكتاتورية، من خلال تكريس العنف واتباع منهجية الاغتيال السياسي، كبديل عن تداول السلطة الثّقافية والدّينية، كمجال لإثبات الذاتية الفردية التي يكون التّحرك فيها بحرية إثباتاً أو نفياً، رفضاً وقبولاً، شكاً وإيماناً، بما يسهم في تطوير الذات المسلمة أو المتدينة عموماً، وبالتّالي ينعكس تأثير تطوير الذات الفردية في الجماعة... إن الفكر الإصلاحي الإسلامي الحديث، قد واجه بأشكال نقل المفاهيم من حقل ثقافي إلى آخر، فالمفاهيم كالحريّة والدّستور والمصلحة مثلاً، تحولت في الفكر السياسي الحديث، وانفصل الحديث عنها بعيداً عن التراث الديني، إذ أحيلت إلى المجتمع المدني الحديث، بمؤسساته المتخصصة بالنسبة للغرب، لما أراد مفكرونا تأويلها وبحثوا عن مرادف لها لم يجدوا أمامهم غير جهاز مفاهيمي، لم يتخلص من دلالته الدّينية، مما أدى الى اللاتطابق في ترجمة (الدّيمقراطية: الشّورى، نواب الأمة: أهل الحل والعقد، حريّة الفكر: الاجتهاد، الفطرة: الحالة الطّبيعية (أومليل، 1985)).

من هنا يأتي اليأس من دعاة التّدين حول ما يعاش في عالمنا العربي اليوم، وبالتّالي نجد الكثير من السّلوك الذي يخرج عن الدّين بمعنى اللاتدّين.

ولما كان اللاتدين نزعة طبيعيّة في الإنسان كمثل التّدين، فإنّ هذه الثّقافة ترفض الذاتية، كما ترفض الحريّة الشخصية في التعبير باعتناق دين آخر، وباللاتدين تبدو كأنها تجارب من الطّبيعة ذاتها، وكأنها بالتّالي آلة لطمس الحريّة والذاتية والتهامهما.

خصوصاً، وأنّه من الطّبيعي أن يغير الإنسان إيمانه بيسرٍ تماماً، كمثل ما اعتنقه. الحريّة في المعتقد هي جوهر الكائن الإنساني.

حيث التّعلم مستمر وتشكل المفاهيم مستمر، المهم في ذلك المصداقية

والجديّة في التعامل مع ما نعتقد ونؤمن، وفي حال تعددت الأسباب لتجاوز حالة فكريّة أو روحيّة عشناها، يكون ذلك تجربة فكرية خاصة وفرصة للتّأمل، وليس مجالاً لاستدعاء واختبار ذلك العنف اعتباراً من إلغاء الآخر كشخص وكفكر حرّ مختلف.

هذا الصّراع المستمر، والمستفحل بين التّدين واللاتدين، بالمعنى السّلوكي والعملي: التّدين يعادل التّسليم وإيقاف العقل النّقدي، واللاتدين يعادل التفكير الذي لا يهدئ لكون الفكر يعمل بدون استسهال التّسليم، وهذا من منظور التّحليل النّفسي يتصل بمركزية الأب، في حياة الأشخاص في مرحلة التّنشئة النفسية التّربوية الأولى، ومن ثم الخبرات المتتالية مع بدائل الأب من خلال العلاقة مع الضّوابط والقوانين وممثليها في الحياة الاجتماعية التّالية للحياة الأسرية لكلٍّ منا.

إن الانفتاح على عيش مفاهيم عصريّة تهيّئ التّكيف للامتثال لثقافة العصر، هذه الثّقافة المنفلتة من الرّوابط التّقليدية لمرجعيات رمزية تعطي زخماً لإيقاع الحياة المتمثلة بحريّة التعبير، والتفكير وتداول السّلطات...

وعلى اعتبار أنه "باللغة الحرّة يتحقق الوجود"، تلك اللغة القريبة من همّ الناس ووجدانهم وفكرهم، وبدونها يعني لا وجود لهم، فما بين الإنسان والإنسان صراع مميت، إذا لم تدخل اللغة كطرف ثالث، حيث لا وجود للذّات من دون كلام، حيث إن الوجود الإنساني يكمن في صلب اللغة، من كون اللاوعي مرتبطاً بالكلام، وما نجده عندما يتعطل الكلام والانفتاح على فكر الآخر، ليكون التّفهم والقبول هو صلب العيش الآمن، لا من خلال الإلغاء والاستخفاف، اللذين كانا نتيجة المناداة بالحريّة وتطبيقها في بلادنا العربية.

في العصر الحديث، لم تعد الأمور في حياتنا اليومية تلقائيّة، كما لم تعد قائمة على جعل المقدّس على مسافة من الذات الإنسانية، بل أصبحت الأمور تجري وفق رؤى فلسفيّة سياسيّة، كما أصبحت قائمة على جعل الدّين المؤسّس كلّه على مسافة واحدة من النّفوس، بل ومن المؤسّسات الأخرى، ولذلك كانت الحداثة

فقداناً لبداهة التّقليد، وخروجاً عن الدّين وتفكيكاً لمنظوماته، الأمر الذي أدّى من جراء هذا التّفكيك للأديان، إلى نتيجة واقعية بتنا نلمسها والمتجسدة في فقر للمعاني الرمزيّة، والمتجلية بالفراغ القيمي، وهو ما سمّاه "ماكس فيبير" بزوال السّحر من العالم، ويعني به أفول نجم السّحر والدّين باعتبارهما واعدين بالخلاص وانتشار الشعور بالفراغ، ونتيجة تعدّد أنظمة تيسير الوصول إلى المعلومة، وعيش الحقيقة وكأنها بديل للحماية التي كانت تقدّمها الأديان للمؤمنين، حتى لا يحترقوا بنار المقدّس، وكذلك بآثار زعزعتها التي طورّتها الحداثة بصورة بارزة.

من هنا يبرز الفهم الإنساني الجديد نحو الامتداد الوجودي للانتماء، لسدّ الفراغ المطبق في عالم اليوم، من خلال مثيراته التي لا حصر لها إن شئنا الحصر.

التّباين ما بين المعرفة والحقيقة

إنّ المعرفة لا يمكن أن تسدل السّتار على ذاتها بقدر ما هي نتيجة انقسام، لتبرز الذات بشطريها العلمي والفكري، اللذّين كانا وراء هذا الإنتاج التّكنولوجي الذي بهر العالم الإنساني، على امتداد كوكب الأرض، أي بمعنى أكثر تجديداً بسبب الرّغبة بالموضوع الأولي /objet a/، ووفقاً لرأي العلامّة المصريّ "مصطفى محمود": الدّين الحق لا يناقض العلم لأن الدّين الحق هو منتهى العلم...

فنظام الكون لم يرتعد أمام منظار جاليليو... وإنما الذّي ارتعد هو نظام الكهنوت.

ومن الخطير هنا ما حصل من مقابلة المعرفة العلمية ووضعها مكان المعرفة الدّينية، حيث يكون الإجراء هذا إجراء محظور، كما هو حقل معرفة بالغيب، وانتزاع لمساحة من المعرفة الإلهية، وهذا مما لا يقدر أن يتحمله عقل بشري في بلادنا ولا في سواها. فمن تجارب الشّعوب، ورصد الفلاسفة والمفكرين لذلك، من خلال إيضاح الأجواء العامة، ومحل الفكر وأعماله في انقلاب التّوجهات

على ما هو سائد في حياة الشّعوب لقرون، وهنا الإشارة إلى مسيرة الأوروبيين مع امتثال الأنظمة الدّيمقراطية في بلادهم... وخلاصة ملاحظات الفيلسوف المادي الرائد "هيغل" حول عمل الفكر وموضع اللغة من ذلك...

يسّجل "هيغل" أن الفكر هو عملية إنتاجية واقعية، لا تعبر عن نفسها في اللغة فحسب، بل في تغيير الأشياء وصنع الأحداث أيضاً، أي في خلق الثّقافة الرّوحية المتجسدة مادياً، فالمدن بمنازلها وصروحها فكر متجسد في الحجر، والآلات فكر متجسد في المعدن والمؤسسات الاجتماعية والقانونية والسياسية، هي الفكر في أشكال أخرى.

كما أنّ الفكر يتحقق، ويتموضع (يأخذ موضوعاته) من خلال الفعل في مادة حسيّة، والممارسة هي عملية تحويل الأشياء والأحداث وفق مفهوم، ووفق خطة، فتاريخ الحضارة على العموم ما هو إلّا تجلٍ خارجي لقوة الفكر بما يتصل بفهم الإنسان، وخططه وغاياته وآماله.

إنّ السّعي للمعرفة بالحقيقة يتجلى دوماً عبر المعرفة العميقة للنّفس الإنسانية، كون النّفس الإنسانية لها تجليان:

الأول: التعبير عن النّفس عبر العقل.

والثاني: التعبير عن النّفس عبر الوجدان التي تتحرك بها الحياة. وما بين النّظرة الدّينية والنّظرة العلمية للنّفس الإنسانية، نجد أن النّظرة الدّينية التي تتمثل بالعفوية والتي تسيّر شعباً ما، وتدّير يومياته، وتكفل له المرجعية التي تؤطره، وكل عملية تقييم من خلال تجمع عناصر كل قيمة معنوية، والذي ربما يتم باحتضار البنية المعرفية التي تقع تحت تأثير مبدأي الشّدة واللين، الأمر الذّي يعني أنه لا وظيفة لهذه البنية وذلك، أنه ما من شدّة إلّا تمت مداورتها، وما من لين إلّا وتم استنزافه، على أن الذّهنية الفاعلة، هي تلك التي تجد لكل مقام مقال، فالعملية معقّدة، وهي لذلك غير سهلة، فإذا كان التّغيير الدائم، قدر المجتمعات إلّا أن بعض المجتمعات تنحرف عن طريق التّغيير، كلما دقّت أبوابه وذلك بسبب عدم

وضـوح خطتـه، وضـياع الإجابـات عـن الأسـئلة المطروحـة بمـاذا، ولمـاذا ومتـى وكيف...

ولما كان التّغيير هو محض قرار متخذ، سليمٌ ومقبول من المجتمع، ومن أن القبول لا يمكن أن يسبق الوعي، بما يتم القبول به بمعنى أدق المتمثل بوعي الواقع الذي يجعلنا نقبل خيارات محددة في التّعاطي مع متغيرات الزّمان، وفرض تداعيات الموقف الراهن.

وبـذلك إن لـم تكن لـدينا ثقافة وأفكـار متعمقـة حـول هـذه الثّقافـة، التـي نتمثلهـا بأفضـل مـا يمكـن أن نفكـر بـه ونعـرف، سـيبقى لـدينا فوضـى سياسـية واجتماعيـة، وسيكون لدينا في النّتيجة مجتمع دون قانون، ومن تجارب الشّعوب على ذلك أضع "تجربـة الهنـد فـي ظـل الاسـتعمار البريطـاني لهـا" كمثـال للمقاربـة، فمـن خـلال تلـك الأفكـار التـي خرجـت مـن سياق واقـع الهنـد وفلسفتهم الثقافيـة أثنـاء حكـم الاسـتعمار البريطاني لها في القرن التّاسع عشر، استطاع الهنود تحرير بلادهم وانتصار قيمهم.

العمـل السياسـي يتطلـب حركـة وكلمـة وصـوتاً وانفعـالاً وتفكيـراً حـراً مباشـراً، والبنيـة الذّهنيـة الرّاهنـة لشعوبنا هـي نقيض ذلـك تمامـاً، حيـث إنّ العمـل السياسـي يتطلـب قناعـة، ونقـداً حـراً ذاتيـاً وإرجـاع أثـر للآخـر، ممـا يعنـي نقـداً لـه واللحظـة التاريخيـة الرّاهنـة هـي: نقيض ذلـك تمامـاً بموجـب الذّهنيـة السّـائدة ومفاعليهـا، هنـا يجب التّصرف مع المنطق الزمني والرّوحي بشكل تصالحي، والبناء عليه، حيث إن العمل السياسي، لا يقوم على مجموعة من المتظاهرين في الشّارع، أو إصدار بيان لمجموعة هنا أو هناك ترفض الواقع القائم وتندد به، العمل السياسي قوة ضاغطة بأطروحات وخيارات عملية...

الحـرب كانـت قائمـة فـي البلد، ومسـار السّياسـة قـائم مـن خـلال الابتعـاد عـن واقع الحال على الأرض، وسياسة التّشكيك، وبث الخوف من الآخر المختلف كعدو أرعـن، ومـن كـل أطـراف الصّـراع علـى بلـدنا، وبهـذا الـنّهج السياسـي وجـدنا أن السّياسـة، هـي استمرار للحـرب يفصـلهما عـن بعضـهما فاصـل بسـيط، هـو بمنزلـة

الحائط النّفسي، حائط عازل مبني على الوهم، بحيث إن تقابلا، لا يمكن الاستمرار مطلقاً بهما معاً، لأنه حينها تعاش المواجهة مع الواقع بدلاً من الهروب منه، والتّسامي فوقه.

فإن حصل التّقابل بين مجريات الحرب والنّهج السياسي، عندها لا بدّ أن يحصل الكفّ عن الفعل والتّفكير بالتّدبر.

من هنا نجد أن السّياسة في العالم المتأخّر حضارياً، لا تمارس إلّا بسطوة القوّة، لتكون بذلك استمراراً لغياب العقل النّقدي، الذي هدفه الأساس إقامة العدالة، وطرد الأشرار، كون هذا الهدف ينطق بالحقيقة المتكلمة التي تعدّ مطلباً مستمراً في وجود الإنسان المتكلم عامة، لذا حبس الكلمات وكبتها بات من أهم الأدوات السياسية لتعزيز أي نظام للحكم في هذه البلاد.

نجد أنه رغم اعتراف الكثيرين بهذه الحالة، إلّا أنّهم يفتقدون المعرفة والوسائل التي تؤمن تحرر النّفس من عقالها، لكي تتوجه وتتصالح مع الآخر الكبير.

وهذا الصّمت نتيجة الحنق والخوف مآله الكبت، وهنا يلزم القول: إن اللاوعي متكون عند الإنسان منذ الطفولة انطلاقاً من الكبت الأولي، الذي يعود تاريخه لبدايات دخول الإنسان الأول، في حقل اللغة، أي أن اللغة هي التي تشترط تكوين اللاوعي.

فقد اكتشف "فرويد" عن طريق المرض أن فتح المجال للتّعبير اللغوي من الممكن أن يقود بدوره إلى المكبوت، وفك رباطه مما يحرر الأشخاص المتعبين من أعراض شديدة مستحوذة على تفكيرهم، ويفتح مجالات عديدة لهم، للعمل والإبداع.

الخطاب العلمي للواقع اليوم وصلته بالخطاب الدّيني

تنزع الفئات المشاركة في حوارات عامة حول قضايا تهم المجتمع متعدد الثّقافات إلى عدم التّخاطب بشكل مباشر، لأنها تحدد ماهية الموضوع تبعاً لمعاييرها الخاصة، مما يجعل حريّة التعبير مرتبطة بآراء مغلوطة، وتعابير مهينة للأديان والمجتمعات الدّينية.

وبرغم أن الحوار هو الطّريقة الوحيدة المقبولة أخلاقياً لحل القضايا الخلافية، فإن إمكانيته لا تتوافر دائماً حتى في ديمقراطيات ليبرالية ناضجة، إذ ينزع كل مجتمع إلى تقبل بعض الأمور على عواهنها نظراً لصعوبة تصور أي مجتمع إنساني، يتمتع أفراده بعقل منفتح حول كل القضايا، فيكون حينها للاحتجاج مكانٌ مشروعٌ في هذا المجتمع.

وبالتالي فأية نظرية مدروسة لتداول الرأي السياسي، لا يمكنها الاعتماد على قوة الاقناع فحسب، بل تحتاج إلى تقصي الأحوال التي يكون الاحتجاج فيها مبرراً، والشّكل الذي يجب أن يتخذه، وكيف يمكن دمجه ضمن أطر الحوار العقلاني؟ فالمنطق والجدل مفهومان مرتبطان أحدهما بالآخر، ولكنهما بالوقت نفسه منفصلان منطقياً، والمساواة بينهما خطأ عقلاني مألوف، فكل الحجج تتضمن أو تستند إلى أسباب، وليس العكس هو الصّحيح.

فحينما يُطلب من إحداهن مثلاً ألّا تفعل شيئاً ما لأنّه لا يليق بها أو يتناقض مع تصورها عن ذاتها، نكون بذلك، قد قدمنا لها أسباباً لا حججاً وبراهين.

وكما لا يتعارض العقل والعاطفة كونهما غير منفصلين منطقياً، كذلك الحال بين الحجج والعواطف، فالحجج لها أسباب من نوع معيّن تقتضي صيغة تفكير محددة، إذ يجب توخّي الخلط بينها وبين الأسباب، أو مساواتها بالتفكير ذاته.

فميل المجتمعات التّقليديّة إلى جعل المقدّس على مسافة من الأفراد والمجتمعات له أسباب عديدة من مثل:

- إن المقدّس حسب تشبيه "روجيه كايوا R.Caillois" كالنّار التي تدهش الطّفل وتخيفه، وقد يقترب منها ليحترق المقدّس الذي هو مجال الخطر والممنوع الذي يمكن تعريفه بنقيضه الدّنيويّ، وهو مجال "الاستعمال المشترك، والأفعال التي لا تتطلّب أيّ حيطة، وهي تقع عادة في الهامش الضّيّق والمتاح غالباً للإنسان، حتّى يمارس نشاطه دون إكراه". أما المقدّس حسب "ميرسيا إلياد " فيظهر باعتباره واقعاً، من قبيل آخر مختلف عن كلّ الوقائع، فهناك واقعيّة ما وهناك مبدأ اقتصاد ومجهود

أدنى، وظيفتهما حماية البشر من مطلقات المقدّس وإكراهاته، وواجباته التي قد تتمدّد وتـأتي علـى الحيـاة العمليّـة، لتبـدو نـار المقـدّس تغـري بـالاحتراق أو الإحـراق وبالانخطاف إلى وهم ملتهب متوهّج وراء الواقع، كما إن وظيفة جعل المقدّس بجنانه وناره على مسافة من الأفراد، من خلال ممارسات بعض المجموعات التي اضطلعت بها المؤسّسة الدّينيّة، هو ما يفرض علاقة زمنيّة خاصّة بالطّقوس، من خلال تواتر إيقاعها في حياتنا اليوميّة، ومن خلال كونها تجعل المؤمن يدخل في حالة إحرام ثمّ يخرج منها، وهي الحالة ذاتها التي تفصل بين رجال الدّين وعامّة الناس كي تخلق واسطة بينهم وبين المقدّس، عبر إدارة المقدّس التي نلاحظ أنها تبدي الحذر من التّصوّف كون البعد الصّوفي للمقدس يعطيه معطيات أخلاقية، تضعه في إطار فلسفي واسع، ولأنّ المتصوّف قد يتحوّل إلى فراشة إلهيّة تلقي بنفسها على نار المقدّس، فالمؤمن مهما كان عمق إيمانه، لا يمكن أن يبقى طويلاً في حضرة المقدّس، ولا يمكن أن يبقى طويلاً بلا حاجز يقيه من ناره المتوهّجة...

- إن العيش وفق المعتقدات الدّينية، تجعل الإنسان في حالة رقابة شديدة لذاته قد تُضيّق به الخناق على مجريات تفكيره النّقدي.

وتبعاً للمفكر المصري الدّكتور "فؤاد زكريا" الذي يؤكد على منهج التفكير العلمي وأعمال العقل بقوله: "صحيح أن العقل مازال يجهل الكثير ومازال عاجزاً عن تفسير الكثير، إلا أنه أفضل أداة نملكها كي نعرف عالمنا ونسيطر على مشاكلنا". ويكمل القول: "إن جموع الناس تبحث عادة عن الأسهل والمريح وتتجمع سويّاً، حول الرأي الواحد مثلما تتلاصق أسراب الطيور، لتحمي نفسها من الصقيع، وكلما كان الرأي منتشراً ومألوفاً كان في انتشاره نوعٌ ما من الحماية لصاحبه، إذ يعلم بأنه ليس الوحيد المؤمن به، بل يشعر بدفء الجموع الكبيرة وهي تشاركه إياه، ويطمئن بأنه يستظل تحت سقف الأغلبية.

- أما إحساس المرء بأنه متفرد برأي جديد، وبأنه يطأ أرضاً لم تطأها قدم أخرى من قبل، يتعيّن عليه أن يخوض معركة مع الأغلبية كي يحمي فكرته

الوليدة، فهذا الإحساس لا يقدر عليه إلا القليلون، وعلى يد هؤلاء حقّقت البشرية أعظم إنجازاتها.

وفي البحث حول الصّلة بين الخطاب العلمي والواقعي، يبرز لديّ التّساؤل التّالي: هل المفهوم الحالي للإنسان في العصر الحديث، يتيح لنا التّأكيد على القول: إنّ التّكنولوجيا أصبحت معيار الحقيقة، في مقابل القيم الإنسانية، وبالتّالي ماذا يمثل موضوع اللاوعي، بالنسبة إلى فهم الإنسان؟

وبطرح هذا التّساؤل تبرز إشكالية معينة تتمثل بما يلي وذلك وفقاً لمنظور التّحليل النّفسي:

إن العيش في الواقع وفقاً لمقاربة خطاب العلم، يقوّي فينا نبذ فعالية اللاوعي للتّبشير بضرورة الاستهلاك، ونشر مثال النّجاح الفردي، ومحبة اللذة الفردية، فالكراهية تشترط نبذ وإخراج كل ذاتية خاصة بالآخر.

بكلام أوضح: إنها تعرّي الآخر من هويته الإنسانية لتحجيمه في سمات فارقة بسيطة (اسم، علاقة، وشم، ندبة، حتى لون البشرة...) ليكون العارض النّفسي هو الدّال، وهو الذات بالنسبة لدال آخر، له ارتباط اجتماعي بالإضافة إلى ارتباطه الشّخصي...

وهنا لا يعدو شيئاً يذّكر، ويقف في وجه العمل على محو هذا الاختلاف، حتى لو أدى ذلك إلى إبادة الشّخص الذي يحمله، وإذا كان للشّعور بالذّنب أن يظهر، فلا يحدث ذلك إلّا بعد حين، أي عندما يعلن الشّخص عن نفسه تجاهه كذات، بكل أبعاده الذاتية.

إن مرحلة المرآة تبعاً "لجاك لاكان" تؤسس لأنا جسدي تتداعى مثلها، مثل عقدة أوديب، إذ إن الرّغبة عند الإنسان، وحسب "لاكان" أيضاً تكون في منافسة مطلقة مع الآخر، وأضيف، وتبعاً ل"جاك لاكان" في كل مرة نقترب عند الشّخص من هذا الاغتراب الأساسي، تتولّد عدوانية جذرية، أي الرّغبة في اختفاء الآخر كركيزة لرغبة الذات، والخروج من مأزق مرحلة المرآة لا يكون إلّا بالانفصال عن

الآخر في صورة توسطية تتكشف عبر الكلام وذاتية الأول، حيث يعقب مرحلة المرآة نمو اللغة المنطوقة عند الطفل، هذه اللغة التي تؤسس للاعتراف بالآخر عبر الهدف الجوهري لها، والمتمثل "بالتواصل" بحيث تتحول الغيرة القاتلة عند الطّفل الإنساني عند اكتسابه اللغة.

وكونه يعيشها، حين لا يقدر على التّوضيح عن مأزقه بالكلام، إلى تحويلها إلى تآلف، حسب "حجة القديس أوغسطينوس" حول الرمزية (الاعترافات) الذي ما زلنا نقرأ عبارته الخالدة: «لقد خُلقنا لك يا الله، وقلوبنا ستظل قلقة حتي ترتاح فيك»، وعبارته الشّهيرة القائلة: «لقد كنت أخجل من عدم فعل الشر بوقاحة خالية من الحياء...».

من كل ذلك يبدو لي أن الأمر المهم، والتي تبرز ضرورة الإشارة إليه، أن هذه الذات موجودة في عالم الرموز والمتخيل، أي في عالم اللغة (في اللاوعي)، إذ عندما ينطق الآخرون شحنات الكراهية المركبة، في بنية الشخصية الإنسانية التي هي بجوهرها، تثير الدّافعية للإنجاز، وهي، كما يجد "لاكان"، شرط معيار يبني عليه الإنسان نظام قيمه، يسمح له بإبادة الآخر، حيث يتعلق هذا الأمر بانحراف، وانزلاق في النّظام الرمزي، يقوم على الطّريقة التي يتمكن فيها من تصور رغبته كرغبة للآخر، هذه الرّغبة المقلق تحقيقها لكليهما.

في عام 1966 عقد "جاك لاكان" حلقة دراسية في مشفى "سانت آن" خصصت للمحللين النّفسانيين الشّباب حيث أعلن لهم حينها عن وجود ظاهرة التّمييز، هذا التّمييز الملازم للخطاب العلمي، فقد أشار "لاكان" إلى محدثيه حولها من كونها تنمو على حساب مكانة الفرد، الذي أراد أن يبرزه "جاك لاكان" لتلامذته من المحللين النّفسانيين الشّباب.

من كل ما تقدم أجد أن: وظيفة المقدس في تكوين الرّابطة الاجتماعية يفترض أن يتجه إلى:

- اتجاه تضامني حبي، هو نوع من العهد يعقد بين الأخوة ويجمعهم في

هوية واحدة، تشكل نواة اجتماعية يلتفون حولها ويساندون بعضهم بعضاً في السّراء والضّراء.

– اتجاه معاكس عدائي، تجاه كل ما هو غريب أو دخيل، أو كل من يختلف عنهم، أو يدين الطّوطم نفسه، ذهان هذياني في شكلها المرآتي الذي يستثني الآخر تبعاً لما أشار إليه من قرون "الفارابي" الفيلسوف الإسلامي الشّهير من أن: التّفتيش عن الاعتراف خارج الهو / هو إلغاء الذات.

فهل يتوجب إقامة جدار بين الأنا والآخر، كي نحافظ على الهويّة في الجماعة؟ هذا الأمر الذي كان يؤدي إلى فوضى الحروب العشائرية والقبلية، كونه يستبيح الآخرين في حياتهم وممتلكاتهم.

إذ في نهاية القرن التّاسع عشر، وبداية القرن العشرين، لم يكن ثمّة أي شكّ في أوروبا بأن المكوّن الأكبر للهويّة ليس الدّين البتّة، بل الأمة المعتبرة كظاهرة طبيعية ذات أصالة وموضوعية.

فالمرء هنا فرنسي، إيطالي، ألماني، إنكليزي، إسباني.

وهذا التّحديد للهوية نال إجماع الأوروبيين إلى درجة أن أممهم المجنونة، أقحمت نفسها مرّتين في القرن العشرين في حرب مميتة لم يكن مسرحها أوروبا وحدها، بل المستعمرات أيضاً التي كانت تملّكها منذ القرن السّابع عشر.

ودخل في هاتين الحربين: الولايات المتحدة والإمبراطورية العثمانية بالنسبة إلى الحرب العالمية الأولى (1914–1918)، ودخلت اليابان الحرب العالمية الثانية (1940–1945).

ومنذ نهاية القرن التّاسع عشر، بات مألوفاً اعتبار العالم المتحضر "عالم أوروبا" أنه مكوّن من أمم، سواء أكانت تعمل بحسب النّظام الجمهوري أم الملكيّ، اذ كانت تستند في تحديدها الدّستوري، إلى ما كان يعتبر عوامل طبيعية من مثل (الحدود جغرافية، القواسم اللغويّة، الأصول السّكانية من ذات الأصل الإثني المشترك افتراضاً، وفي مرحلة تالية امتداداً لإرادة العيش المشترك.

أي في تلك الأزمنة العلمانيّة ووفقاً لرأي (د. جورج قرم) الذي أوضحه في كتاب المسألة الدّينية في القرن الحادي والعشرين الذي يعرض فيه أن الدّين لم يكن معتبراً، بوجه عموميّ، كمكوّنٍ معياري للأمّة.

وإذ كانت الحروب الدينيّة المؤلمة، والعنفية في أوروبا بين البروتستانت والكاثوليك، قد أدّت أخيراً إلى التّسامح على الصّعيد الدّيني، وبدوره كان ذلك التّسامح الذي يسمح للكاثوليك، للبروتستانت، واليهود أن يعيشوا كمواطنين في أمّة واحدة، مما أفضى إلى تهميش الدّين والهويّة الدينيّة في تكوين الأمّة.

فإن استعمال كلمة "أمّة" كان قد اكتسب معنىً جديداً، ظهر مع الثّورة الفرنسية، يربط مفهوم الأمة بصوفيّة السّيادة المقدّسة، المخصصة حتى ذلك الحين لملك ذي حقّ إلهيّ – فالأمة غير السّياديّة تبعاً لهذا الاعتبار، هي أمّة مقهورة، ناقصة، مجردّة من حريّتها ومن إنسانيتها.

ولكن الاستعمال الحديث لكلمة أمّة، بمعنى الشّعب السّيادي والسّيد لمصيره، يحتفظ بقوة تعادل قوّة الايمان الدّيني، قوّة الأخلاق المقيدة وشديدة الوطأة على تصرفات الإنسان، التي تعزى عموماً إلى العقيدة والهويّة الدينيّتين.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن مفهوم الشّعب ذاته، كان قد ارتدى معاني عدّة ومختلفة على مرّ التاريخ، إذ في الزمن الحالي الشّعب هو المواطنون الذين يجمعهم الوطن، ولهم من الحقوق والواجبات ما هو متشابه، وفق لحكم دستور البلد وقوانينها. وهنا وتبعاً لـ "بودلير" أشير إلى أن الأنا هو الآخر والآخر هو أنا في أدوار اجتماعية عدة في حياتنا، إذ يستطيع كل مواطن تبادل الموقع ويحسّ بكرامة مواطنه لأنها هي هويته، ولأن المآل واحد.

ولكون المفاهيم النفسية لها حدودها وخصوصيتها، فالأنا هو الآخر في منقلب ما، لأن الحاجة إلى هذا الآخر، هي حاجة إلى التّفريق عن الذات، كونه إنساناً متكلماً... وكلامه علامة مسجلة لتفكيره وجيناته وقناعاته...

أما المغالاة اليوم في المواصفات، فإنها تنم عن استقالة المواطن من

مسؤولياته، فالأوضاع اليوم تخلق ذهنية أنانية، لا تفكّر إلّا بتأمين العيش أو الكسب أو الإثراء، حتى لو كان على حساب غيره، وهذا عائد إلى الخوف من المجهول، مما يجعل المواطن يحشر نفسه فقط ضمن الحدود العائلية، مما يؤدي إلى استفحال الغرائز في نفسه، وفي صورة خاصة تبرز غريزة البقاء كرد فعل بدائي، وهذا ما اختبرناه بعمق في الأحداث الأخيرة التي عشناها في سوريا في السّنوات الاخيرة الماضية، وما زلنا نعيشها عندما اشتد العنف من كل حدب وصوب.

فمن هذا العرض يستقيم الطّرح للتّأسيس لفكر المواطنة، كمفهوم جديد للشّعب الواحد على وطن واحد، ضمن أسس التفكير العلمي العقلاني، حيث العقل البشري هو الجامع لأنواتنا كبشر، رغم اختلاف السّمات الشخصية...

التّفكير العلمي وتقاطعاته مع التّفكير الدّيني

انطلاقاً مما يشير إليه مصطلح التفكير العلمي الذي يؤكد على أنه منهج أو طريقة منظمة يمكن استخدامها في حياتنا اليوميّة، وهو تفكيرٌ غير متخصص بموضوع معين، بل يمكن توجيهه في معالجة جميع الموضوعات.

فليس للتّفكير العلمي لغة خاصة به أو مصطلحات معينه، ويقوم على أساس تنظيم الأفكار استناداً إلى عدة مبادئ منطقية وغير منطقية.

والتفكير بمعناه المجرد هو إعمال العقل أو تشغيله في أمر ما، وهو أهم ما يميز الجنس البشري، فالعقل بإجماع الأديان هو مناط التّكليف، كما أننا نجد أن هناك من رَبط وجود الإنسان بقدرته علي التفكير، مثل الفيلسوف الشّهير "ديكارت" من خلال أطروحته الشّهيرة "أنا أفكر إذاً أنا موجود" وهنا لم يقصد ديكارت الوجود المادي بل قصد الوجود الفعلي.

- **التّراكمية:** تشير إلى الإضافة الجديدة إلى المعرفة، حيث ينطلق الباحث من النقطة التي توصل إليها الباحثون الذين سبقوه، فيصحح أخطاءهم

ويكمل خطواتهم، وقد يبطل معرفة أو نظرية استمرت عقوداً ويقدم معرفة علمية جديدة.

هذه الصّفة تمثل لفظاً يعبّر عن حقيقة تطور العلم، فالعلم سلسلة خبرات وتجارب، وعمل بحثي متواصل في كل المجالات، من الممكن تشبيه العلم ببناء طابقي شاهق، كلما تم بناء طابق ارتفع ليبني الطّابق الذي يعلوه مع ملاحظة أن العلم دائماً يبغي الارتقاء، فمسكنه في العلا أي تبعاً لمثالنا، ليكون الطّابق السّفلي هو القاعدة المنهجية لآليات البناء للأعلى، وبذلك يمثل الطّابق الأسفل بالنسبة له الأساس الجيد الذي تم البناء عليه، والذي لولاه ما كان يصل أي بناء إلى هكذا مستويات شاهقة من العلو والارتفاع... وهذا يوضحه معنى حقائق العلم فالحقائق العلمية ما هي إلا مفردات "نسبية" (مُتغيّرة تبعَاً للزمان والمكان والظّروف المحيطة) التي لا يمكن إطلاق حتمية لها في الكثير من الحالات... اللهم إلا الثّوابت الطّبيعية، وهذه يمكن أن تتغير، والمفاهيم المتكونة عنها باختلاف وتطور الأدوات التي تستخدم في دراستها.

حيث إنّ أيّة نتيجة يصل إليها أي عَالِم، ما هي إلّا نتاج متصل لأفكار، ومحصلة تجارب تمت في عصره وبإمكانيات عصره.

وبالتّالي فإن التّطور الذي يحدث كل يوم في الإمكانيات، والوسائل المتقدمة المستحدثة كلها تقوم بدور مهم في كشف الكثير من الحقائق الجديدة، وتدعيم أو تغيير الكثير من النتائج.

من هنا لا بدّ من التّأكيد على أن العلم دائماً في تقدّم رأسي وأفقي... فهو في تقدم رأسي: لأنه في العمل العلمي دائماً نلمس انجازات مستجدة، تأتي نتائجها لتغير أو تعمق السّابق لها من نتاجات العلم في فروعه المختلفة، وغير المعروفة من قبل، بالوضوح والعمق نفسه وبالتّالي التّخصص الدّقيق هو سمة ملازمة للتّراكمية.

أما التّقدم الأفقي للعلم: فيسعى إلى توسيع المفاهيم وإدراكها إدراكاً شمولياً،

وأكبر الأمثلة على ذلك ما كان يظن من قبل أن فيزياء نيوتن لن يأتي بعدها أحد، وإذا بـ"أنيشتاين" يظهر بالنّسبية، وحالياً بعد ظهور (الفينتو) ثانية على يد العالم المصري الجليل "أحمد زويل" انفتحت الكثير من المجالات التي كانت موصدة الأبواب من قبل، والمستقبل أمامنا لإثبات ذلك، مثلما كان لإضافة الصفر من قبل الخوارزمي باطلاعه على ثقافة الهند التي كان فيها إشارة لذلك، ولكن ليس بالجدّة والوضوح نفسه، إذ يأتي عمل الخوارزمي بكشفه ماهية الصّفر، إلى تعميق وتطوير العمل في البحوث الرّياضية، ليتم تبعاً لكشفه ذاك، تيسير لعمليات الضّرب والمصفوفات.

أما التّفكير الدّيني فهو فِكر أزلي ثابت عماده الثّوابت والتّسليم بحقائق أساس يتمحور حولها الوجود ولا يزيح عنها...

الصّفة الثّانية للتّفكير هي التّنظيم: والمقصود بالتنظيم العمل والتفكير بمنهجية منظمة والبعد عن طرق التفكير "العشوائية" العفوية غير المنضبطة.

حيث إن من أهم صفات التفكير العلمي أنه منظم ومرتبط، ومبنىّ على تخطيط سليم للوصول إلى تقدم في مواجهة المشاهدات، والمشاكل التي تواجه العالم في تحقيق أهدافه، وهذا لا يأتي محض مصادفة، ولكن لا بدّ من بذل الجهد لتحقيقه، والتّدرب عليه والتّخلص من كل عادات التفكير العفوي المشتت.

ويأتي دائماً التّنظيم كسّمة عامة في أي تفكير فمثلاً "التفكير الخُرافي الأسطوري" كان ينظمه مجموعة من الخرافات (غير الملموسة مادياً أو المثبتة علميّاً) عن وجود نظام متعدد الآلهة للكون كلاً مختص عن شيء بذاته.

أما التفكير العلمي والذي يعني: أسلوب، أو طريقة للبحث والمعرفة فتستند إلى منهج يقيم علاقات منظمة بين الظّواهر.

وكذلك حينما جاء التفكير الفلسفي، حاول أن ينظم التّفاعلات الطبيعية واللاهوتية والعقلية، في نظام واحد أسماها (بالكون)، وأضفى عليه صفة، لا يتم إلا بها وهي النّظام.

ثم جاءت الفلسفة الحديثة الأكثر تطوراً معطية نظاماً وأساساً للتّفكير، وهو ما قام به "ديكارت" في الخطوط الأربع في حل المشكلة.

إن العالم يختلف في نظام تفكيره عن التفكير الفلسفي والأسطوري، في كونه يرتكز على منهج ثابت له قواعده وخطته التي تؤدي في النّهاية للوصول لغايته ولهذا المنهج صفات أهمها:

1- الملاحظة المنظمة للظّاهرة المراد دراستها، وبحثها مع التّركيز على الجزئية المرادة، واستخلاصها من بين المعقدات المحيطة بها.

2- لا تعتمد الملاحظة على الحواس الخاصة بالعالم فقط، بل لا بدّ أن تكون ملاحظة دقيقة باستخدام المفردات الحديثة من أجهزة وتقنيات.

3- التّجريب: حيث توضع الظّواهر الملاحظة في ظروف، يتم التّحكم فيها واختبارها مع تغيير الظّروف وتنوعها، بقدر الإمكان للحصول على قوانين جزيئية تتسم بالثّبات كأساس لفرض قانون علمي، أو إرصان تجربة ناظمة لخبرات لاحقة، يلزمها الإسناد لمعيار وضابط محكّم من خلال التّجريب، يتحصل على ذلك من خلال أنها تتسم بأنها غير مترابطة مع بعضها ومنفصلة، ولكنها ذات دلالة لها مصداقية.

4- ثم يقوم العالم بضم الاستنتاجات والقوانين الجزيئية، المتحصل عليها وربطها معاً للوصول إلى نظريّة ثابتة، مثلما حدث لنيوتن في قانون الجاذبية ولأينشتاين بقانون النّسبية و...

عملية الاستنباط العقلي من النّظريات للحصول على نتائج فرعية، يمكننا نيلها من خلال تعميق النّظرية والاستفادة منها إلى أقصى مدى، وهذا يتطلّب القيام بالعديد من التّجارب مرة تلو أخرى، مثلما كان واقع الحال لِمَا أحدثه أينشتاين، باستنباط مفهوم "النّسبية" من القوانين والنّظريات الجزيئية.

- أن يتسم المنهج بالتّرابط والتّسلسل المنطقي، والتفكير الديني يتقارب من سمات التفكير العلمي بأنه منظم بطقوس وفرائض، وواجبات أخلاقية تعطي معتنقه منهجاً حياتياً منضبطاً مريحاً...

الحتمية السّببية ومفهوم القدر

إن المراد بالعلم ليس الوصول إلى نتيجة فقط، ولكن المراد دوماً هو معرفة السّبب وراء هذه النّتيجة، فلا تكون الظّاهرة مفهومة فهماً صحيحاً، وبالمعنى العلمي إلا بمعرفة أسبابها، من هنا كان تأكيد منهجية التّحليل النّفسي على الحتمية السّببية للإمراضيات في النّفس البشرية...

في المعرفة الطبيعية فقط يمكننا معرفة شيء عن طريق صفاته، وما هو غير معروف بشكل مطلق وأساسي لا يمكن حتى أن يعرف بأنه موجود، ولا يوجد معنى في افتراض وجوده... ديكارت وسبينوزا وليبنتز ولوك، رغم أنهم فعلوا ذلك بتأكيد ضعيف جداً لمفهوم الجوهر كشيء يملك صفات، نجد في الوقت عينه ما رفضه هيوم، وأقصى تدريجياً من علم النّفس والفيزياء بالنسبة للطّريقة التي حدث فيها هذا، والمهم هنا التّطمينات اللاهوتية للعقيدة والصّعوبات الناجمة عن رفضها.

إذا لم تكن قطعة من المادة شيئاً غير حاصل جميع مواصفاتها فإن هذه القطعة تضيع حين تتغير الصّفات، ولن يوجد معنى في القول أن الجسم السّماوي يعد الانبعاث الشيء نفسه الذي كان مرة جسداً أرضياً...

إن هذه الصّعوبة يمكن مطابقتها بالضّبط في الفيزياء الحديثة، إذ إن كل ذرة مع الكتروناتها الحاضرة عرضة لتحولات مفاجئة والالكترونيات التي تظهر بعد التّحول لا يمكن مماثلاتها مع تلك التي ظهرت من قبل، إن كل عملية هي فقط طريقة تجميع ظواهر قابلة للملاحظة، ولا تمتلك نوع الواقعية الذي يتطلبه حفظ الهويّة أثناء التّغيير، فقد كانت نتائج هجر الجوهر أكثر جدية بخصوص الروح أكثر مما هو الأمر بخصوص الجسد، ولقد أظهرت نفسها على أية حال بشكل متدرج جداً لأن أشكالاً متنوعة موهوبة للعقيدة القديمة، اعتقد مرة أنه يمكن الدفاع عنها استبدلت كلمة روح بكلمة ذهن من أجل تجنب التّطمينات اللاهوتية، ثم جاءت كلمة ذات، ولا تزال هذه الكلمة موجودة خصوصاً في التغاير المفترض للذاتي والموضوعي، وبالتّالي يجب أن تقال بعض الكلمات عن الذات هنا...

فإن رأينا بشكل متزامن رجلاً وسمعناه يتحدث، فهل يوجد ذات المعنى لما تكون فيه الأنا التي تشاهد، كنفس الأنا التي تسمع، فحين ندرك أي شيء فمعنى ذلك أنه يوجد علاقة بيني وبين الشّيء: الأنا الذي أدرك هو الذات والشّيء المدرك هو الموضوع. وتبين لسوء الحظ أنه لا يمكن أن نعرف شيئاً عن الذات التي كانت دائماً تدرك أشياء أخرى، إلّا هي لم تستطع أن تدرك نفسها...

لقد أنكر "هيوم" بجرأة وجود شيء كهذه الذات إلّا أن هذا لن يفيد ابداً... إذا لم يكن يوجد ذات فما هو الشّيء الذي كان خالداً؟

ما الذي كان يمتلك إرادة حرة؟ من الذي أذنب على الأرض وعوقب في الجحيم؟

لم يجب "هيوم" عن هذه الأسئلة ولم يرغب بالبحث عن جوانب إلا أن الآخرين أحوجتهم جرأته.

ما نلاحظه في الإدراك هو علاقة ذات ظاهراتية مع موضوع ظاهراتي، ولكن وراءهما كليهما يوجد ذات ظاهراتية مع موضوع ظاهراتي، كذلك ذات حقيقية وشيء في ذاته حقيقي.

لا يمكن أبداً أن يلاحظ أي منهما لماذا نفترض أنهما يوجدان؟

لأن هذا ضروري للدّين والأخلاق، فرغم أننا لا نستطيع عن طريق الوسائل العلمية، أن نعرف أي شيء عن الذات الحقيقية نعرف أنها تمتلك إرادة حرة، تستطيع أن تكون خيّرة أو مذنبة..

فكر "كانط" الذي اعتقد أن العقل المحض لا يستطيع أن يبرهن على وجود الله، بأن العقل العملي يستطيع القيام بذلك، بما أن هذا كان نتيجة ضرورية لما نعرفه حدسيّاً في حقل الأخلاق أن الحقائق الرئيسية التي تستطيع أن تلاحظها لا تمتلك ثنائية كهذه، ولا تقدم أي سبب لاعتبار الأشياء، أو الأشخاص كأي شيء سوى مجموعة من الظواهر...

وجد أن الصّعوبة في دراسة علاقات الرّوح والجسم لا توجد فقط في

المصالحة بين مفهوم الجوهر والفلسفة الحديثة، بل تكمن أيضاً في ما يتعلق بالسببية...

دخل مفهوم العلّة إلى علم اللاهوت بشكل رئيسي متصلاً مع الخطيئة.

وكانت الخطيئة من صفات الإرادة، وكانت الإرادة علة العقل، لكن الإرادة لا تستطيع بنفسها أن تكون دائماً نتيجة علل سابقة، حتى لو كانت فسوف لن نكون مسؤولين عن أفعالنا، وبالتالي من أجل حماية مفهوم الخطيئة، كان من الضروري أن تكون الإرادة على الأقل أحياناً غير معلولة بعلة ذهنية.

وعلاقات الذهن والجسد أصبحت من الظّواهر التي من الصعب جداً تأكيد الفرضيات حولها مع مرور الزمن...

نجمت الصّعوبة الأولى من خلال اكتشاف قوانين الميكانيكا إن استطعت أن ترى إحدى السّاعتين وعرفت عن طريق دقتها فقط، ستظن أن التي رأيتها هي التي دقت... هذا دليل على افتراض وجود تراسل تام بين حالات الجسم وحالات الذّهن في مجال علم وظيفة الأعضاء البشرية، ولجأ الذين كرهوا المادية إما إلى اللغز أو إلى القوة الحيوية...

العمل الذي أنجز في علم الأجنة وفي الكيمياء الحيوية، وفي الإنتاج الصّناعي للمركبات العضوية يجعل من المرجح كثيراً جداً أن خصائص مادة حيّة يمكن أن تشرح بشكل كامل كيميائياً وفيزيائياً.

وبالتالي نظرية التّطور جعلت من المستحيل بالطبع افتراض أن المبادئ القابلة للتّطبيق على الأجسام الحيوانية غير قابلة للتّطبيق على الكائنات البشرية...

علم النّفس ونظرية الإرادة، كان واضحاً دوماً من خلالها، أن كثيراً وربما معظم أفعالنا الاختيارية لها عللٌ، إلّا أنّ الفلاسفة الأرثوذكس أكّدوا أن هذه العلل على عكس الموجودة في العالم المادي، لا تُوجب تحتيم تأثيراتها، وأكدوا أنه من الممكن دائماً مقاومة الرغبات الأكثر قوة بفعل الإرادة المحض، وهكذا فحين يرشدنا الهوى، لا تكون أفعالنا حرة بما أنها تمتلك عللاً. ولكن بسبب وجود مقدرة

تدعى أحياناً العقل، وأحياناً الضمير والتي حين نتبع إرشادها تمنحنا الحرية الحقيقية...

إن الحرية الحقيقية كتعارض مع النزوة حددت بطاعة القانون الأخلاقي، وقام الهيغيليون بخطوة إضافية وحددوا القانون الأخلاقي بقانون الدولة، بحيث أصبحت الحريّة الحقة هي طاعة الشّرطة، ولقد أحبت الحكومات هذه العقيدة كثيراً...

كما أن إدراكنا للأشياء عائد إلى عمليات معقدة تنتقل عبر الأعصاب إلى الدماغ، إن مسألة الوعي عائد إلى عمليات معقدة تنتقل عبر الأعصاب إلى الدماغ، إن مسألة الوعيّ هي بالأحرى أكثر صعوبة، فنحن نقول إننا واعون، إلّا أن القضبان الحديدية والأحجار ليست واعية...

كما أننا نقول إننا واعون حين نكون مستيقظين بيد أننا لسنا كذلك أثناء النوم، وبالتأكيد نعني شيئاً ما حين نقول هذا ونعني صحيحاً شيئاً آخر، ولكن أن نعبر لحين ما هو هذا الشيء الصحيح... فتلك مسألة صعبة وتتطلّب تغييراً للغة.

حين نقول نحن واعون فإننا نعني شيئين نعني من ناحية أولى أننا نتفاعل بطريقة معينة مع بيئتنا ومن ناحية أخرى نبدو أننا نعثر لدى النظر في الداخل على نوعية ما في أفكارنا ومشاعرنا لا نجدها في الأشياء غير العاقلة...

أما بالنسبة لتفاعلنا مع البيئة فإن هذا يتألف من كوننا واعيين لشيء ما.

إن الجزء الأكثر أهمية من مفهوم الإدراك يتعلق بما يُكتشف عن طريق الاستبطان، فلا نستجيب لأشياء خارجية فحسب بل نعرف أننا نستجيب.

نعتقد أن الحجر لا يعرف حين يستجيب، لأنه اذا كان يعرف فهو يملك وعياً بذلك، الفرق في التحليل هو فرق درجة من المعرفة بالإضافة إلى الرؤية...

فحقائق الفيزياء علنية بمعنى أنها مرئية للجميع، بينما حقائق علم النفس خاصة كوننا نحصل عليها من خلال الاستبطان وهذا فارق جوهري...

وعندما تفحص حقائق الفيزياء عن كثب سيتبين أنها باطنية كحقائق علم النفس.

الفيزياء تهتم بالعلاقات السّببية خارج الدّماغ، ويهتم علم النّفس بالعلاقات السّببية خارج الدّماغ، مما يؤدي إلى مسلمات الفيزياء وعلم النّفس وهي حوادث تحصل في الدّماغ وتمتلك سلسلة من الأسباب الخارجية تستقصيها الفيزياء وسلسلة من المؤثرات الداخلية كالذّكريات والعادات يستقصيها علم النّفس، إلّا أنّه لا يوجد دليل على أي فرق أساسي بين مقومات العالم الجسدي والسيكولوجي.

إذ الروح والجسد لم يستطيعا العثور على مكان في العلم الحديث، ويبقى علينا التّحقق حول التّأثير الذي تركته المبادئ الحديثة في علم وظائف الأعضاء، وعلم النّفس المرضي على مصداقية الإيمان الأرثوذكسي بالخلود...

إن أهواءنا الأكثر وحشية تتخذ هذه الأيام طابعاً سياسياً، وليس لاهوتياً، إنها حقيقة مثيرة للفضول، على حين أصبح الإيمان بالجحيم أقل تحديداً، كما جاء مؤخراً على لسان بابا الفاتيكان وفقد الإيمان بالفردوس حيويته، رغم أن الفردوس جزء معترف به في الدّيانات السّماوية...

وللبحث العلمي دائماً أهداف ينبغي التيقن منها أو تنسيقها ومن هذه الأهداف:

الهدف الأول: هو إرضاء نزعة المعرفة وحبّ الاستطلاع لدى الإنسان، إذ لوحظ أنه في بعض الحضارات كان الاهتمام فيها فقط للنّتيجة المتحصلة للمعارف، دون معرفة الأساس النّظري والعلمي الذي تأسست عليها هذه النتائج، مما له دور في إعاقة التّقدم العلمي والحضاري في آخر المطاف.

الهدف الثّاني: معرفة سبب النّتيجة يمكننا من التّحكم فيها، واستخلاص أساس عام يمكننا من الوصول إلى مزيد من النتائج التي تفيد في ظواهر أخرى.

فقد فطن الفلاسفة القدماء إلى أهمية السّبب، ولخص ذلك أرسطو في النّظرية السّببية، وتبعاً لنظرية أرسطو المعرفية كان تطور المنطق كمجال للفكر الفلسفي، وتوسيع النّظر لكل التّفاصيل للظواهر العديدة الاجتماعية منها والطّبيعية، وقدر أرجعت أنواع المسببات إلى أربعة: سبب مادي، سبب صوري، سبب فاعل،

سبب نمائي، وإذا طبقنا هذا على صناعة السّرير مثلاً، فإننا نجد أن أسبابه الأربعة:

1- سبب مادي: الخشب وهو في صنع السرير.

2- سبب صوري: الشكل المصمم عليه ودوره.

3- سبب فاعل: النّجار ودوره في عمله هذا.

4- سبب نمائي: أسباب النّوم (على سبيل المثال) هي التي أدت العملية أي أن السّرير له أربعة أسباب مختلفة تجمعت مع بعضها للوصول إليه وإنتاجه.

وإن كان أهمها هو الغاية من وجوده، إذ إن الحاجة إليه كانت أهم الأسباب في وجوده في كثير من الأحيان.

وقد قام العلم الحديث بتوسيع فكرة "السّببية"، فكل ظاهرة لا تتوقف على سبب واحد بل مجموعة من الأسباب المعقدة، التي تتداخل فيما بينها مؤدية للنتيجة.

- الشّمولية:

إن من أهم ما يميز المعرفة العلمية أنها تكون شاملة أي قابلة للتعميم على جميع الأمثلة الظّاهرة المشابهة، بمعنى أن العلوم متصلة، علم الكون والعلم الكوانتي والعلم بالفيزياء والعلم بالجسد والنّفس، فمثلاً: عند تفسير سقوط جسم ثقيل من أعلى إلى الأرض، كان في البداية ظاهرة سقوط تفاحة من أعلى شجرة، ولكن العالم نظر إلى الموضوع بشمولية أي ليس خاصة بسّقوط الجسم المعني هنا، وبسبب ما يخص سقوط وزن وكتلة بسرعة معينة في زمن معين، كانت نظرية الجاذبية التي تسري على جميع الأجسام السّاقطة أياً كان نوعها، والمعنى الآخر للشّمولية هو عدم رؤية الموضوع من منظور واحد بل النّظر إلى الظّاهرة نظرة شمولية فلم ينظر إلى التّفاحة على شكلها فحسب، بل نظر إليها كوزن وكتلة...إلخ. والتّفكير الدّيني أيضاً فيه من الشّمولية والتّخصيص لكل نواحي الفرد وتفاصيل الحياة والنّظر لكل الموجودات والخلائق...

- **الدّقة والتّجريد:**

المقصود بالدّقة يعني تحديد الشّيء المراد دراسته، والتعبير عن الظّاهرة المدروسة بدقه دون السّقوط في ألفاظ تحمل أكثر من معنى وأكثر من تفسير. إشكالية "ديكارت" في اللغة من أكبر الأمثلة علي ذلك، أي أنه لا بدّ من تحديد الاصطلاحات واللغة المعبرة تعبيراً علمياً دقيقاً، وهذا أسقط الكثير من العلماء والاستنتاجات في هوة كبيرة من الاحتمالات والأخطاء إلى أن تم استخدام التعبيرات الرياضية التي تحدد الظّاهرة تحديداً علمياً، ولقد أصبح هذا التعبير الرّياضي مهماً، حيث جعل كثيراً يقسمون المراحل العلمية إلى مرحلتين فالمرحلة الأولى: ما قبل العلم هي مرحلة التّقول بألفاظ لغوية عقيمة غير محددة، مثل علوم الطّبيعة في بدايته في العصور الفلسفية الأولى، واستخدام ألفاظ معينة للتّعبير عن الظّواهر الطّبيعية، كبارد وحار وثقيل وخفيف ...إلخ. إلى أن جاء "جاليليو" ودخل بنا مرحلة جديدة في علم الفيزياء "غاليلو" طبق لغة الكم الرياضية للتّعبير عن الظّواهر الطّبيعية... ولما كانت الرياضيات والأرقام الرّياضية تتصف بالتجريد (على سبيل المثال): 2+2=4، لا تعنى شيئاً بذاته ولكنها تعني فقط الإضافة؛ كان اتصاف العلم بالتّجريد، وقد أفاد العلم جداً من عملية تجريده وتحويله إلى أرقام ولغة رقمية.

الضّرورات اللازمة لتقريب الخطابين العلمي والدّيني

بات من ضرورات تحقيق التكيّف في الحياة المعاصرة في بلادنا، ومن كل الناس أقصد (المواطنين)، أن يتم توسيع نظرتهم حيال الانتماء بدءاً من المحيط العائلي، والمذهبي الضيقين إلى الانتماء للوطن بأكمله ومن ثم الانتماء للعالم الممتد بكل نتاجاته وإشكالاته كمصير البشر على كوكبهم.

- فالمغالاة في تقديس الحاكم سوف تكون بمنزلة استهلاك لشيء محبب، فبعد أن يتم استهلاكه يشعر الإنسان أنه ليس في حاجة إليه، كما يفرح الطّفل بلعبته، ثمّ يملّ منها، فالتّقديس يحمل دائماً في طياته دواعي التّدمير، لذلك لا بدّ

من تدوير العلاقة بين الحاكم والنّاس من علاقة بين حاكم ومحكوم إلى علاقة بين حاكم ومواطن.

وأخيراً أنهي إشاراتي هذه بقول الرّسول العربي محمد (ص): «إنَّ الْعُلَماءَ وَرَثَةُ الأنْبِياءِ وإنَّ الأنْبِياءَ لَمْ يُورِّثُوا دِينَاراً وَلا دِرْهَماً، وإنَّما ورَّثُوا الْعِلْمَ، فَمنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحظٍّ وَافِرٍ».

إن العصر الحديث يتميز بغياب كل القيم المقدسة الموروثة عن الأجداد، وينعدم وجودها في النّظام الرّمزي القيمي، ويكون العنف أبرز تجلٍ لها باسم المعتقد، أما حان الوقت أن يكون العمل في بلادنا، أن نعيد ما لقيصر لقيصر وما لله لله...

حيث إن الخطاب العلمي يتمايز، ويتميز بصفات ونتائج تتناقض مع القيم الدّينية والمقدسات كونه:

- يلغي الذات الإنسانية لأنه يحولها إلى آلة مُستَهلَكة، ومُستهلِكَة.
- يلغي الرّغبة وموضوعها، وهي التي تميز الإنسان من الحيوان لأنه يختزل الإنسان بحاجاته فقط...
- العلم لا يعطي أي اعتبار للمقدس، فيضعه في خانة المتخيل والمتوهم...

في بلادنا المتأخرة عن العلم نجد أن الدّعوات إلى الجهاد المقدس، والدّعوة من الشّعوب القوية إلى الحروب المحقة، على سبيل المثال لا الحصر كما حصل من دعوة "بوش" لحربه على صدام حسين تحقيقاً للدّيمقراطية الكاذبة في العراق، وتخلصاً من الأسلحة النووية التي يمتلكها صدام حسين على حدّ زعمهم، ولذلك هيّؤوا لِما حصل في حرب الخليج تمهيداً للانقضاض على صدام حسين والنّيل من العراق...

وجليّ القول أن نتذكر وتبعاً أيضا للدّكتور "جورج قرم" أن غزو الأوروبيين للقارة الأمريكية، له صلة وثيقة بتلك الثّورات الدينيّة، فقد كان نابعاً من الاعتقاد شّديد الشيوع بأنّ "أرض ميعاد" جديدة للبلاد المسيحية تقع في ما وراء الأطلسي،

وأنها ستغدو من جهة أخرى أرضاً ستزدهر فيها مختلف الكنائس البروستانتية الهاربة من أوروبا المعرّضة للعنف الدّيني.

ويوضح ريتشارد زنتر، مؤرخ الحياة الدينيّة في الولايات المتحدة : "بالنسبة إلى كثير من الأوروبيين، أن حركة الإصلاح البروتستانتي تفعم آمالهم المبكرّة بأرض ميعاد للقدّيسين. إن إعادة اكتشاف أمريكا في القرن الخامس عشر ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بحركة الدّفع القويّة التي ارتداها الإصلاح البروتستانتي بعد أكثر من عشرين عاماً.

حيث إن كلا الأمرين: 1- اكتشاف أمريكا، 2- الإصلاح البروتستانتي، كلاهما أعلنا حلولاً لتجديد العالم.

أمّا "ميشال هوارد"، المتخصص بتأريخ الحروب، فيبيّن جيداً كيف أن غزو أميركا قد بلور المزج بين البروتستانتية والوطنية والنّهب، التي صارت عملياً مترادفة، بما أن فئة النّبلاء الصّغيرة التي خسرت امتيازاتها المادية بسبب العمل بحصر الإرث لمصلحة الابن البكر على حساب الورثة الآخرين، إنما اندفعت أو دفعت نحو البروتستانتية، نحو البحر والهجرة، ونحو أعمال القرصنة البحرية الهادفة إلى كسر احتكار التّجارة الخارجية من قبل سلطة البابا.

كما كان حال "فاسكو دِ غاما (De Gama) عندما قدم إلى الهند سنة 1498 قدم للبحث عن "المسيحيين والتوابل"، فهناك وعي ملتبس لخطاب الدّين والعلم على امتداد العهود السابقة ومازال...

في محاولة السّعي للإحاطة بالوعي الهويّاتي للقرن الواحد والعشرين، وكذلك تبيان أصوله أجد من المهم توسيع دائرة التأمل ليشمل تأثير الدّين في أنظمة الحكم وبناء الهويّة.

في بلدان عالمنا المتوسطي تبعاً "لجورج قرم" كان للهويّة الدّينية شأن قديماً وحديثاً، فقد كانت منظومات الحكم التي كانت عليها الإمبراطوريات الكبرى في بلاد الرافدين، وحتى الإمبراطورية الرومانية، لم تكن مبنية على إيديولوجيا الهويّة الدّينيّة،

إلّا بشكل هامشيّ جداً، فالقول المهم القول: إن التوحيد، خلافاً للوثنية، كان قد أدخل عنصراً قوياً من التصلّب في البناء الهوياتي، منذ أن صار دين دولة.

فمثلاً التعاليم الدينيّة الكبرى في شبه القارة الهندية وفي الشرق الأقصى، هي تعاليم أخلاقية، صوفيّة وناظمة للمجتمع، مثل الكونفوشية والتاويّة أو البوذيّة والفيدية، لكنها تمتزج وتختلط في شتّى الامتزاجات والاختلاطات، تنحلّ ثم تتركبّ على نحو آخر، وبعد قرون عديدة بكثير من السّهولة، أكثر من مفهوم الإله الواحد المحصور بشعب مختار على سبيل المثال، من هنا ندرك ونستطيع تقييم ما وصلت له اليونان اليوم ومكانة الصّين في الاقتصاد العالمي، فالصّينيون واليابانيون وحدهم سيكون لهم أباطرة ناطقون باسم السماء، المصوّرة على أنّها قوّة إلهيّة ناظمة للعالم، من دون أن ينطوي ذلك على مفاهيم الخلاص والوحي الخاصة بالتّوحيد...

وختاماً أريد توكيد قولي حول إشكالية خطابي العلم والدّين بالقول وبالاستئناس والاتفاق مع ما ورد عن "د. جورج قرم" في كتاب المسألة الدينية في القرن الحادي والعشرين: بأن مفهوم الغرب الهوياتي (من هوية) والثقافي معاً، ليس جديداً، بل يمكننا إرجاعه إلى تقسيم الإمبراطورية الرومانية، كما يمكن إرجاعه إلى انشراخ الكنيسة، بين كنيسة شرقية وكنيسة غربية.

غير أنّ الوعي الرائج بهويّة غريبة جاءنا بنحو خاص من الفكر الألماني الفلسفي والسوسيولوجي، وكذلك من أفكار وتأملات فلاسفة عصر التنوير من مثل فلسفة "مونتسكيو" وتأمله في أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم.

ولا بدّ أيضاً من الإشارة إلى صرخة الإنذار التي أطلقها الفيلسوف الألماني "أو سوالد شبنغلر" (1880-1936) في كتابه الذي عنونه "انحطاط الغرب".

وبذلك يمكن تثبيت القول أن كلاً من خطابي الدّين والعلم عليهما ما عليهما، من ملابسات وانتقادات وستبقى مادامت تحرك الإنسان قوى لا واعية تفعل مفعولها، لا يمكن أن نحيّد تأثيرها وهذا هو السرّ من وجهة نظري في شعور الغرب

بالتّفوق علينا وعلى بقية بقاع الأرض كون هذا الغرب الأوروبي وريث أنواع عدة من التراث التي تشكل بدورها تراثاً لا واعياً يوحي بتفوق الدّيار المسيحيّة، وتكريس التقاليد المسمّاة "يهوديّة – مسيحية" وتكريس تفوق العرق الآري...

يشكل المتدينون أغلبية ساحقة في معظم المجتمعات، ومن الصعب رؤية كيف يمكن أن يطلب منهم في النّظام الدّيمقراطي الامتناع عن التّصرف على أساس معتقداتهم الدينية، وأية محاولة من هذا القبيل سوف تؤدي فقط إلى معاداتهم للنّظام السياسي الذي يحرمهم حقهم من التعبير العلني عما يكنون لهم عميق الاحترام والإجلال والإكبار، ولربما يكون للطلب العلماني معنى إذا كان المجتمع علمانياً، أو في طريقه ليصبح كذلك كلياً أو جوهرياً، أو إذا كان الدين لا يهم الناس، أو يمثل لهم اهتماماً هامشياً...

ومختلف استطلاعات الرأي تظهر أنّ الدّين يبقى قوة مهمة في حياة الناس، 99% من أعضاء الكونغرس في الولايات المتحدة يزعمون استشارة معتقداتهم الدينية قبل التّصويت على القضايا المهمة، كما أن العديد من النشطاء الخضر، والمنظمات المناهضة للعنصرية، والحملات المطالبة بحقوق السكان الأصليين، ومحاربة الفقر، وحركات السّلاح ونزع الأسلحة، وحقوق الإنسان والعدالة في العالم، يزعمون أيضاً أنهم يستمدون إلهامهم من معتقداتهم الدينية، لذا لا يجب أن يفاجئنا تدخل الدّين في المجتمع والسّياسة.

بعد أن فقدت الإيديولوجيات العلمانية مثل الشّيوعية وحتى الليبرالية بريقها وزخمها أصبح هناك طلب على طرائق تفكير جديدة، كأن يبحثون عن ضابط أخلاقي في الحياة الشخصية والسياسية، ويستكشفون مصادر جديدة من البواعث الأخلاقية والطاقة والقدرة. إن الإيمان السّابق بقدرة العلم على حل غموض الكون أو حتى على تقديم حلول للمشكلات الاجتماعية والاقتصادية، ضعف وبلغ حداً من الضّعف والانحطاط جعل العلماء يسعون الآن إلى تحقيق التّقارب بين العلم والدّين (547، التّنوع الثّقافي والنّظرية السياسية).

حين طلب "مارتن لوثر كينغ" بالمساواة العرقية على أساس أن البشر كلهم هم عيال الله، لاقى مطلبه قبولاً لدى معظم الأمريكيين الذين أقروه باعتباره قيمة يفرضها دستورهم، ولم يتحول إلى موضوع للجدل السياسي، بل كان وثيق الصلة بالسّياسة، لأنه أشار إلى السّبب الذي يجعل المساواة العرقية أمراً مهماً بالنسبة إلى كينغ، وساعده على حشد الناس الذين يفكرون بهذا الأسلوب.

يحتاج الفراغ الأخلاقي الناتج لبديل يملؤه، من خلال الاستعانة بالحياة المجتمعية لحل مشاكل عديدة، وتصبح الدولة ذاتها إما فارغة جوفاء أو مغالبة في استبدادها ودكتاتوريتها.

فإلى جانب الأسرة والمدرسة والمجتمعات الطّوعية وغيرها من المؤسسات الاجتماعية، يقوم الدين بدور مهم في الحفاظ على حيوية المبادئ الأخلاقية، كما أن حقيقة استخلاص عدد كبير من الأشخاص – بوعي أو بدون وعي– قيمهم الأخلاقية وحبهم للخير من الدين، جميعها عوامل لها دورها في تعزيز دور الدين في الحياة العامة.

يؤدي الدّين أيضاً عدداً من الوظائف العامة المهمة، فهو يرفض مطالب الدولة والاقتصاد بالخضوع لحكم قيمهما الضيقة الخاصة، ويخضعهما لاهتمامات أخلاقية أشد اتساعاً. وهو يشدّد على وحدة الجنس البشري ويحدّ نزعة تحديد المبادئ الأخلاقية في إطار الحدود الإقليمية للدّولة.

في الوقت الذي نعترف فيه بالإسهام القيم للدّين في الحياة السياسية، ينبغي علينا عدم تجاهل تأثيراته الضّارة التي يسلط العلمانيون الضّوء عليها، إذ غالباً ما يكون الدين إن تم العمل استناداً إليه في السياسة استبدادياً ومتغطرساً ودوغمائياً ومؤمناً بصوابيته الأخلاقية المطلقة، فلا يتقبل التسويات.

كما يستثير دوافع قوية وغير عقلانية أحياناً، إذ نظراً لأصوله القديمة عموماً فهو محافظ لحد بعيد، وضيق التفكير وغير حساس تجاه التغيرات في المناخ الاجتماعي، وتطلعات الناس الأخلاقية، كما يضمر تحيزاً ضد المرأة، ونجد في كل

دين عدم تسامح مع الأديان الأخرى وتجاه الانشقاقات الداخلية وتظهر نزعة للعنف مخزية أحياناً يستخدم فيها الدين لتبرير ممارسات شريرة مثل الرق، والحروب الصليبية، ومعاداة السامية، والنبذ الطّبقي والطّائفي.

إن الدين يسمو بأحواله الحسنة ليبلغ أعلى الذرا، وينحط في أسوئها إلى أدنى مراتب القسوة والوحشية.

وبذلك لا يوجد في الحياة البشرية خير صرف نقي، ولا ينبغي علينا رؤية الدين من منظور وردي واعد مبالغ في تفاؤله، أو منظور كئيب كالح مُغال في تشاؤمه وبدلاً من إبعاده عن الحياة السياسية وإبقائه مراقباً مقطباً يتهددها من الخارج، يمكن إيجاد السبل للاستفادة من إسهاماته وتقليص مخاطره.

من خلال إعطاء المؤسسات الدّينية صفة المؤسسات الخيرية على سبيل المثال، كما هو الحال في المجتمعات الليبرالية كافة، أو المساعدة في إقامة مشاريع صيانة الموارد العامة والطبيعية.

حيث بإدخال رجال الدّين في إطار الاهتمام بمجالات الشأن العام بجعلهم مسؤولين أمام الناس، إذ يخضع بالتالي للانضباط الدّيمقراطي في هذا التكليف والدور الذي يتبوؤه بأن يعد دوماً كوادر أفضل لهذه المهام...

إذ بإدخال تعليم الدّين في المدارس، يمكن للموجهين والاستشاريين التربويين والنفسيين وعلماء الاجتماع أن يقرروا كيفية تدريس الدين.

أما حين لا يشكل جزءاً من المنهاج فسوف يعتمد على عائلاتهم ومنظماتهم الدينية، مما يؤدي لحصرهم وتقييدهم في نطاق دينهم وتكريس الطائفية، فقبول لغة الدين كإحدى اللغات المحترمة للحياة السياسية، يصبح من الجوهري أن يفهم مواطنو المستقبل كيف يفكر الشّخص المتدين؟ ويجادل ويستنتج؟ وأن يكتسبوا على أقل تقدير بعض المعرفة بالتّقاليد الدّينية الرئيسية لمجتمعهم. هذه المعرفة المشتركة بالدين تعادل في أهميتها بالنسبة للمواطنة الواعية أهمية معرفة تاريخ وجغرافيا المجتمع، وترتيباته الدّستورية والسياسية.

وخير مثال قرار فرنسا في إعادة تعليم الدين في مدارسها في ثمانينات القرن الماضي بعد إبعاده لقرون، بدعم كامل من الكنيسة الكاثوليكية ومن قبل هيئات علمانية مثل هيئة التعليم الوطني واتحاد التّعليم الوطني... أما أمريكا فما زالت لا تسمح بتدريس الدين كمادة أكاديمية في المدارس بل نجد المواطنين يتعرفون على دينهم من الكنائس والطّوائف والمذاهب. إذ في الوقت الذي يُرحب فيه بالدين داخل الحياة السياسية، يتوجب التحذير من أخطاره، برغم عدم وجود طريقة سهلة ومضمونة لتفاديها ومنع استغلالها في النّظام الدّيمقراطي...

كأن يطلب من المتدينين احترام مبدأ المساواة في المواطنة وعملية اتخاذ القرار الدّيمقراطي، باعتبارها من الشروط الضرورية للمشاركة السياسية. إذ بمقدور الدين المساهمة في الحياة السياسية، ومن الواجب العثور على الطرق الكفيلة باحترامه، وقبوله والترحيب به في إطارها، بالمقابل ينبغي علينا مطالبة المتدينين بقبول قيود ومحددات النّظام الدّيمقراطي، من خلال إظهار الاحترام الصادق لحرياته الأساسية وخطواته الإجرائية، وإدراك عناء وتعقيد الحياة السياسية عامة، وفي بلادنا خاصة في ظل التّردي السياسي والانفلات الأمني الحاصل... إن تقديرنا لحقيقة أن الدين الذي يبالغ في دينونته، أو يغالي في اقترابه من مراكز السلطة السياسية، بأنه يكون قد قطع شوطاً باتجاه خسارة مكونه الرّوحي وفقدان احترامنا له.

كما أن العلمانية الشّمولية التي تأخذ في اعتبارها مكانة الدّين، توفر أفضل القواعد المؤسسة للارتباط الخلاق بين الدين والحياة السياسية بصورة تعمم الفائدة عليهما معاً... (565، التنوع الثّقافي والنّظرية السياسية).

ولما كان الدّين يستدعي شكلاً محدداً من السّلوك، كون الدّين يشمل الإيمان فعلاً، لكنه لا يقتصر عليه، الأمر الذي يفسر لماذا لا يجب مساواة الاثنين معاً، فهو يضم إلى جانبه الحكم والخيار والقرار.

ومن هنا يأتي المنطق والمسؤولية الشخصية، لذلك لا يعفى المواطنون من أصحاب التفكير الدّيني بدءاً من المناقشة العقلانية لمعتقداتهم وممارساتهم المتصلة بالسّياسة. كذلك الحياة السياسية لا تعترف بوجود حقائق معصومة، بل اعترافها يتجه لتلك القادرة على اقناع مجتمعات المواطنين المحلية بالأسلوب الديمقراطي...

الفصل الرابع

التكوين الثّقافي لبلادنا

مقدمة وتمهيد

على الرغم من الخيبات التي حدثت في حياة السوريين خلال الحرب الشرسة الأخيرة على امتداد سنوات، لم تنقطع الأحاسيس لشغف الحياة لدى الجميع في الداخل، رغم ما تم عيشه من مآسٍ، وكانت موجوداته واضحة على أرض الواقع، كأن نجد هناك من هُدِم بيته أو حيّه فنجده يذهب لحي آخر بإصرار، وفي حال سمعنا باستشهاد شهيد، نسمع من يقول كلنا الشّهيد... بمعنى آخر من الواضح أن إرادة الحياة لدى السّوريين، سجلت أنّها لا يمكن أن تقهر، أو تكسر...

وهنا أذكر مقولة صوفية تخدم هذا الطرح، الذي أتيت عليه تقول: إذا احتجب الله نتيجة الخطيئة، تحدثنا عن الجمال كفخ، هل هو فخ يضعه الله ليختبر البشر؟

فدائماً نجد من يقول إذا اشتدت الآلام إن في ذلك حكمة... وكأن الله أوجد الناس كي يختبر سر الحجب، وكما هو معلوم إن الاحتجاب، هو سر المنع والامتناع الإلهي...

الله لا يُرى، بل هو موجود، وما يدلل على وجوده في حياتنا، إنه ما من إنسان تضيق به الأحوال، ويعايش الصّدمة، إلّا ونجده يتمتم بدعاء وتضرع إلى الله، أو في طرف نقيض نجده يكفر أو يعلن حنقه من الله، وفي كلا الحالين التضرع أو الغضب والكفر به، هما مثلان لإثبات حقيقة واحدة وجود الله داخل الذات الإنسانية وكأنه رجاء، إما أن يرفعنا وإما أن يقسو علينا ويخذلنا.. هذه الاعتبارات تشكل إحدى مكونات اللاشعور الثقافي المجتمعي في غالبية بلادنا العربية...

إنّ الثّقافة مهمة جداً للنّاس جميعهم، من حيث إنّ تقدير الناس لذواتهم يعتمد على اعتراف الآخرين لهم، حيث إنّ الاهتمام بقضية العدالة الاجتماعية لا يجب أن يتضمن حقوقاً ورعاية ورفاهاً على الصّعيد الاقتصادي، وبالتّالي الحياتي في رفع مستوى المعيشة، بل أجد أنه من المهم الانتباه إلى الجانب الثّقافي المغذى بفعل تطبيق العدالة الاجتماعية، من خلال تأكيد احترام معتقدات الناس، في أي بلد، وممارساتهم وطقوسهم التي لا تؤذي أحداً، أمّا في حال تم الإحجام عنها فيتسبب ذلك في الكثير من الأذى والظّلم للآخرين. إنّ تداخل القرار السياسي في كل تفاصيل حياة الناس في أي بلد ولاسيما الشأن الثقافي سيجعل الحريّات لاسيما (حريّة المعتقد) و(حريّة التعبير) غير متحققة بكل وضوح، وهذا قد يؤدي إلى تأخر عيش المواطنة من خلال التّساوي في احترام ثقافة الأفراد كجزء لا يتجزأ من مبدأ التّساوي... فتُعاش الثقافة من خلال الشّعارات عبر المنابر أكثر مما تقاس كسلوك منفتح مزدهر لأي شعب... نظراً لأنّ الدّولة الحديثة تحتاج إلى التّجانس الثّقافي والاجتماعي كأساس ضروريّ لقيامها واستمراريتها...

وهنا تطرح باستمرار علاقة الدّولة بالثّقافة، فيما إذ يتوجب عليها إعطاء الثّقافة السائدة مكانة متميزة أو التعامل مع كل الثّقافات بشكل متساوٍ، وما إذا كانت المساواة تقتضي الحياد الثّقافي والإنصاف وعدم التحيز، فالدولة الحديثة مطلوب منها احترام التّعددية الثّقافية في أي بلد، والعمل على إشاعة الوحدة السياسية في المجتمع لردم التّباينات والانتماءات الضيقة، وتسهم بذلك الدولة بإغناء الأجزاء للكل، ضمن توسيع آفاق التّنوع الثّقافي وتسهم في إيجاد وتطوير نظرية شاملة تغني الفكر في بنية الدّولة وديناميتها لتأخذ دورها المحوري في الحياة الإنسانية...

وهناك حقيقة ذهنية عند المسلم يعرف بها الله هي: إن الله عند المسلم معلوم بأسمائه الحسنى المعبّرة عن صفاته وتجلياته، بمعنى أدق أن هناك كل شيء محدّد بدقّة في ناموس المسلم بمعرفة الله لديه، والصّفة الإلهية معبرة بكلمة، بحيث تغدو

الكلمة كصورة رمزية معبرة عن الواقع الذي يعيشه، ليكون التّجسيد التّصويري لله عبر الكلمات، تجسيداً للحقيقة.

ولكن كيف؟

وجوابي على هذا التّساؤل الإشكالي، يمكنني توضيح ذلك استنتاجاً وليس يقيناً دقيقاً، وأبدأ من أن الصورة الداخلية للذات تقول الحقيقة دائماً. وذلك من خلال منطوق خاص، يستند إلى أن الله أوجد الناس، لكي يكشفوا الحجب عن عيونهم، وليعيشوا كشف البصيرة، ويصلوا إلى الله بالبصيرة لا بالبصر...

وبذلك فإن إعجاز الدّين الإسلامي، يأتي عبر الإعجاز اللغوي المتمثل بالقرآن الكريم، القرآن الكريم الذي هو كلمات، وهذه الكلمات تحمل دلالات رمزية، وصوراً رمزية، من هنا تنبعث مصداقية الرّسالة النبوية، وهذا ما ميّز عظمة النّبي الكريم محمد "ص" أيضاً، كون الوحي الإلهي أتاه بالقرآن الكريم، وهنا الإعجاز، على حين باقي الرّسل والأنبياء ممن أتوا قبله أتوا بمعجزات حسية... بدءاً من الإعجاز في ميلاد السّيد يسوع المسيح، إلى شفاء الأعمى، والأبرص وغيرها من المعجزات.

أيَّد الله سبحانه أنبياءه بمعجزات، وهي أمور خارقة، وغالباً ما تكون من جنس ما بَرع فيه قوم كل نبي؛ فقوم موسى مثلاً برعوا في السّحر فجعل الله النبي موسى، يلقي عصاه فتتحول إلى ثعبان مبين، وقوم عيسى من الثّابت، أنهم برعوا في الطّب، فداوى عيسى عليه السلام الأبرص والأعمى، وبرع العرب في شبه الجزيرة بالبلاغة والشّعر، فأنزل الله إليهم القرآن، فكان معجزة لهم عجزوا أن يأتوا بسورة من مثله.

ملابسات حول مفهومي الحريّة والدّيمقراطية

ما لاحظناه في الآونة الأخيرة: أنَّ كثيراً ما يُطرح لدى كل التّيارات والفعاليات السياسية، شعار الحوار والاعتراف بالآخر، حيث أصبح عنواناً كبيراً، ومدخلاً لكل من أقام مبادرة حل للمشكلة في أكثر من بلد عربي في ظلّ الحراك الشعبي للشارع

العربي في دول عربية عدّة، فهذه الهوّة التي تفصل المثقف العربي، والمعارضة العربية، والطبقات الحاكمة، كيف لها أن تُردم؟ ويكون بينهم جسر للالتقاء، على مفاهيم كل منهم ينظر إليها برؤى مغايرة، وينظر إلى اتجاهات مختلفة، ويدور في مدارات متنافرة عن الآخر، ماذا يعني الحوار هنا، مع من يتم، ما بين رجال السّياسة، أم ما بين رجال الدّين، ما بين المفكرين، أم ما بين القادة العسكريين؟! كلها أسئلة لا يمكن الإجابة عنها، بسبب تكدس حائط نفسي بينهم، هذا الحاجز قد يكون أعتى من جدار برلين الذي هوى، هذا الحائط الأرضي أزيل، عندما النّفوس انفتحت عبر انفتاح العقول على دراسة الجدوى لكل الخيارات، وبمعاينة النتائج كان ذلك متاحاً، فإزالة الحائط الذي بني حجراً فوق حجر بأيدٍ بشرية، تحكمها ذهنيات على قناعة ثابتة، من أن إقامة هذا الجدار هو صمام أمان، ولكن بعد مرور زمن تبين أن هذا الحاجز، هو حجب عن الصواب، والانفتاح والقوة لقوم تجمعهم وحدة اللغة، والانتماء للأرض الواحدة، لذا إزالة الجدار النفسي يتطلّب عملاً وجهداً نفسيين كبيرين، يبدأ العمل عليه من الذات، قبل أن يطالب الآخر المقابل بالإزاحة أو الإلغاء، وعندما ينفك الحجب تكون إزالة الأحجار المتهدمة، إجراء تحصلياً مستحقاً، ليصل النّفوس ببعضها، كونها اتفقت على العيش معاً لرفعة البلاد والارتقاء بالنّفس والبلد معاً، فتحرر النّفس من عقالها، في بلادنا التي غالبية المواطنين فيها من المتدينين بالأديان السماوية الثلاثة، لا يبارحوها ليتاح لهم التّوجه والتّصالح مع الآخر المقابل...

تتجه القناعات إلى أن: حكم الأكثرية المتمثل بأسلوب الحكم الدّيمقراطي، هو الوسيلة التي استنبطها الفكر الإنساني كي يضمن حقوق الإنسان في بلادنا وحريته، ولو لم يكن بصورة غير متكاملة، فلا يوجد في الأفق المنظور وسيلة حكم أصلح من نظام الحكم الدّيمقراطي هذا... ولكن الملاحظ أن المعرفة الحديثة عند العرب لهذا الأسلوب في الحكم، ورغم الاقتناع بأفضليته إلّا أن مقاومته النفسية كبيرة من قبل المسؤولين، ومن قبل شرائح كبيرة من الشّعب، حيث إشكالياتنا هنا

مـع التنشئة علـى الـولاء لقرون، وهنـا تكمـن إحباطـات مـن ينـادي بهـذا الأسـلوب للحكم، ويروج للعمل عليه...

إن السياسيين لا تشغل فكرهم المشاكل التـي يفرزهـا إغفـال المنظـور الثّقافي لفئات من المجتمع هم جزء أصيل من نسيج هذه الدّولة الاجتماعي والجغرافـي، فلو شاء مجتمـع ثقافي مـا البقاء علـى حالـه، وتُرك وشأنه، فبالإمكـان تلبيـة متطلباتـه بشكل أيسر وأكثر سـهولة ممـا لـو شـاء التّمتـع بحـق المسـاواة فـي صـياغة وإعـادة هيكلية البنية السياسية القائمة للمجتمع الأعم...

قـد تشـجع الثّقافـة علـى تنميـة الصّـالح الإنسـاني العـام دون أن تشـجع علـى الاستقلال الّذاتي، كما هو الحال في العديد من المجتمعات التّراتبية التّقليديـة، أو قد تشجع رؤيـة متطرفة للثّقافة لدرجة لا تستطيع فيها تقديم حس مجتمعي أو مصدر للانتماء الجماعي، أو عالم غني بالعلاقات الاجتماعية أو صـلة بين الأجيال، وقد أدرك (راز) فـي مؤلفـه (الأخـلاق فـي الحيـز العـام) والصـادر فـي العـام 1994 أن التّوترات القائمة بين بعدي الثقافة، كما آمن، لا يجب فيها تقييم الثّقافة من خلال أحدهما دون الآخر.

إذ يكفـي أن الثقافـة تشـجع الـى حـدٍ مـا علـى بعـض الاسـتقلالية والصـالح الإنساني العام، فحتى الثقافة القمعية تعني الكثير لأبنائها، وتستحق إظهار التسامح تجاههـا، لكنهـا لا يجـب أن تكـون قمعيـة إلـى حـد تمنـع فيـه علـى أفرادهـا، فـرص تطوير ذواتهم والتعبير عن جوانب مهمة في طبيعتهم الإنسانية...

ولا يجـب أن تمنـع عنهم حقّ الوجـود أيضـاً، لأن ذلك الحق يفرض احترام حرياتهم، وتمنـع الثّقافة من أن تصبح قمعية من الدّاخل، عـلاوة علـى ذلك، ورغم أنـه لا يتحتم علـى الثّقافـة أن تكون ليبراليـة بمعنـى احترام ورعايـة الاسـتقلال الـذاتي لأفرادها، إذن عليها أن تجسد قيماً نحترمها وندرك معانيها، وعليها أن تكون واعية بالتّعـايش مـع الثّقافات الأخرى بـودٍ وتسـامح لأنّهـا لا توجـد وحدها فـي فـراغ ثقـافي (177، التنوع الثّقافي والنّظرية السياسية).

هنا يعاش تداخل في الصّراع مع الذات، حيث التّنشئة على النظام البطريركي والتماهي مع الحاكم (الأب المثالي) هي المرجع القائم في اللاشعور الجمعي لشعوب المنطقة، ومن هنا جدير بنا أن نحدّد معايير تصوّر الذات لمواطنينا، والذي لا يمكن أن يتم إلّا ضمن أفق من الحريّة، وهنا تحرّر النّفس يقتضي جهاداً ذاتياً معها، بغية التحرّر بداية من مكبوتات الماضي، ثم الانطلاق إلى مكاسب الحاضر، فيستطيع الفكر أن ينطلق حينها من عقاله النّفسي، ويخرج إلى حيّز الإبداع.

إنّ الرّقابة النفسيّة الواعية واللاواعية تعمل بآن واحد وبشكل متصل لا ينقطع، وكم نسمع على لسان الكثيرين قولاً له دلالات عديدة «إنني أحلم بالأشياء التي تحصل لي في النهار» هذا مثال عيادي أعرضه هنا، إذ وفقاً للمنظور النفسي التحليلي هذا القول: هذا الأمر ما هو إلا «دلالة على أن الوعي واللاوعي متصلان وفي حالة استنفار كبيرة عندما يشتد القلق»، وهذا الحال بشكل مؤكد، يعاش بشدة عند الأشخاص القلقين بالطبع، كما أن هذه الحالة أيضاً تتسبب في تعطل انطلاقة الفكر في مجتمعاتنا العربية، نتيجة القلق المعاش على مستوى الفرد والمجتمع.

إنّ النّظر للثقافة حصراً من وجهة نظر أفرادها يثير مشكلة أخرى، فالثقافات لا تتعايش بسلام ووئام بل تتنافس وتدخل في صراعات وتسعى إلى الهيمنة والسيادة على بعضها بعضاً، نظراً لأنها نادراً ما تكون متساوية من حيث العدد أو القوة السياسية والاقتصادية أو المكانة الأخلاقية وما إلى ذلك...

إن النظرة إلى التنوع الثقافي تبين الأسباب التي تجعل من محاولة تحقيقه ضرورة جديرة بالمتابعة، وكيف أن فوائده لا تعود بالنفع على الأقليات فحسب بل على المجتمع بكليته.

وبذلك فحب المرء لثقافته يجب ألا يعميه عن أخطائها، لكن تلك البديهية الواضحة تختلف عن جعل الحب رهينة الأداء الوظيفي للثقافة أو خصالها الحميدة والمحببة (182، المرجع السابق)

تمنح الثّقافة أبناءها إحساساً، وتهبهم مصدراً غير مشروط للانتماء والتماثل، لا يعتمد على مدى نجاحهم أو فشلهم كما تسهل عملية التفاهم المتبادل، وتشجع على التضامن الاجتماعي وبناء الثقة، وتدعم التلاحم بين الأجيال وتفضي إلى الصالح الإنساني العام، بمعنى الثّقافة لها دورها في بناء الاستقلال الذاتي. هذا ما يؤكده (كيمليكا :Kymlicka، 1995) فيرى أنّ البشر مخلوقات ثقافية ليس بالمفهوم المجتمعي الذي يراهم متشكلين ثقافياً بل بمعنى أن الثّقافات ضرورة جوهرية لتطويرهم كبشر.

يعتقد "كيمليكا" أن الثقافة المجتمعية المشتركة بين كل أفرادها والمتجسدة في مؤسساتها الرئيسية، ظاهرة حديثة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالديمقراطية الحديثة والاقتصاد المعاصر، لذلك يستخدم تعابير الثّقافة والمجتمع الثّقافي، والثقافة المجتمعية والأمة والشعب بطريقة تبادلية واضحة.

حيث إن الثقافة لها دور حيوي للتطور الإنساني ككل، وتتمنع الأقليات بحقها في تبني ثقافتها الخاصة، كما أنّ مبدأ العدالة يقتضي أن تتمتع الأقليات كما الأغلبية على حدٍّ سواء بحقوق ثقافية متساوية وبإمكانية ممارسة هذه الحقوق بفعالية متساوية تبعاً لنظرية (رولز) في العدالة الاجتماعية والتي بوسعها أن تشمل مختلف أشكال العلاقات بين الثقافات، ويجعل منها أساس نظريته في التعددية الثقافية، أما على الصعيد العملي فيجادل في أن الدمج بالقوة لا ينجح أبداً، وغالباً ما يؤدي إلى التّشوش النّفسي والأخلاقي. (186، التنوع الثقافي وسياسة الدّولة).

تنبع قيمة الثقافة من كونها شرطاً لازماً لتطوير الاستقلال الذاتي لذلك يؤكد "كيمليكا" على أن الأقليات القومية يجب أن تكون ليبرالية من الداخل وإلاّ فوضت أساس حقها بالاستقلال الذاتي كجماعة، ويكون ذلك من خلال ضمان الحريات المدنية والسياسية الأساسية، والمساواة بين الجنسين، وضمان حق الخروج على الإجماع وما إلى ذلك...

يؤكد "رولز" على الحق في تأكيد أهمية البدء بالثقافة العامة للمجتمع الديمقراطي، لكنه يخطئ في عدم إدراك تنوعها بين مجتمع وآخر ومواجهتها اعتراضات وتحديات في كل منها...

مارغليت وهالبيرتال (1994، Marglit and Halbertal) يشير إلى استحالة تقييم أهمية الثقافة بشكل مقنع حصراً من خلال دعمها للحرية والاستقلالية الذاتية، فالدور الرئيس الذي تقوم به يكمن في تقديم إحساس بمعنى الأشياء المحيطة بأفرادها (التنوع الثقافي، 207).

وهنا أعرض لمثال حصل لزميلة لي من مصر، وهي محللة نفسية، بأن تصدر من جهة مجهولة فتوى بحقها، وبحق العمل النّفسي في بلادنا بأنه حرام، حرام... وأنه بدعة شيطانية للعيش. إن المجتمع الإنساني في الدول المتقدمة اليوم، وصل من الوعي إلى حد قدسية الفرد /المواطن/، بحيث إن وقع هذا المواطن في أسر، أو تعرض لظلم من مستوى ما تتحرك جميع أجهزة الدولة لتحريره، من مصابه وحمايته، كون المجتمع بأسره في هذه الدّول المتقدّمة يتماهى به، فالمطالبة بحقوق هذا المواطن، الذي تعرض لظلم، تخرج عن حدود شخصيته، لكي تتجسد في قيم المجتمع بأكملها، بينما في البلاد العربية عموماً فإنّ مفهوم الفرد غائب، وهنا الإشكالية الفكرية الكبرى، كيف نبني صرحاً فكرياً علمياً دون تجسيد مفهوم قيمة كبرى للمواطن، فالفكر الغربي نرفضه في ثقافتنا الشّعبية الشّفهية، لاعتبارات عامّة ترسّخت عبر سنين مديدة، لأنّه فكر مادي استعماري، ومن هنا أجد أن عدم اهتمامنا بحوار الذات، وغياب الاهتمام بالجانب النّفسي للمواطن، سوف يجعلنا نحكم على أنفسنا بالنفي عبر تغييبها، وبالتّالي يُحكم على الحوار بالإلغاء.

يرى مارسيل موس (Marcel Mauss) أن كل مجتمع هو مصدر ثقافة وحضارة، فلا يمكن تصور مجتمع بدونها، من جهة أخرى ليس من حضارة إلّا نتاج لموروث اجتماعي، كما أن أشهر تعريف للحضارة هو التعريف الذي وضعه البريطاني إدوارد تايلور عام 1871 في كتابه الثقافة البدائية. يقول تايلور:

«الثقافة أو الحضارة هي: ذلك الكلّ المعقد الذي يحول المعارف والمعتقدات، والفنون والقوانين والأخلاق والتّقاليد، والطاقات الأخرى، أو عادة اكتسبها الإنسان من خلال كونه عضواً في مجتمع».

بينما تحدّث "كلفود ليفي شتراوس" أيضاً عن مجتمعات حارة، وأخرى باردة، فالمجتمعات الحارة تبعاً لوصف شتراوس، هي الأكثر ليونة ومطاوعة، وهي أكثر تجديداً، كما أنها منتمية إلى تاريخ سريع الإيقاع، أما الأخرى، فتكون قابعة في تاريخها البطيء.

أما الحديث حول الإيديولوجيا، فقد فرض نفسه من خلال فرز عالمين مختلفين هما:

- النّهج النفسي العلمي المطبق على الطبيعة.
- النهج السياسي الاجتماعي، المطبق على الإنسان.

ففي مجتمعاتنا التي تعدّ تقليدية يتداخل هذان النّهجان، أو المساران بآليات عجيبة التزامن، وتنفى كل الأبعاد الأخرى فلا عامل ثالث يعطي رحابة الطّرح للقضايا العالقة والمتجددة التي تفرضها متغيرات العصر والّتطورات الحاصلة فيه على نمط الحياة وبالتالي نمط التفكير والتطلعات.

هذه الثّنائية المقيتة في الرؤية والحكم، تشعر الجميع بالعجز ربما يكون عجز المثقف والأكاديمي أثقل وقعاً، كون الفكر والعمل الذهني لا يمكن له أن يعاش عبر منطق ضيق، يتجلى "منطق إما أو" هذه العبارة استعرتها من كتاب الكاتب السّوري "محمد كامل الخطيب" من كتابه الذي يحمل عنوان (أحمر وأسود وألوان أخرى). السّياسة والدّين والمجتمع المدني "منطق (إما / أو)" هو منطق: الثنائية المقيتة بحصر الخيارات، وتضيق الطّروحات، تبعاً لما جاء في كلام "محمد الخطيب" أن الرؤية النسبية والنظرة العقلانية وطريقة التّحليل الدّيالكتيكية، أتت لتقول لنا: إن الواقع والحياة أعقد من ذلك بكثير، وإن الحياة والفكر، والواقع

والوجود، ليست محكومة بالضّرورة، بهذه الثّنائيات المتناحرة /منطق إما/ بما يعنيه: إما الإيمان أو الكفر وإما النّور أو الظّلمة، وإما الخير أو الشّر.

فهذا هو المنطق المبسط والسّاذج، وعديم الفائدة، وبالتّالي الواقع المتعدد والملتبس والمتداخل، وإن هناك طرقاً متعددة يسلكها الفكر والواقع في تحركهما، كما أن هناك زوايا نظر متعددة تجاه الوقوع، والحياة والفكر، وسياقاتها هناك دائماً احتمالات ودروب متعددة، يمكن للمرء مثلما، يمكن للمجتمع وللفكر بل للمستقبل أن يسلكها، دون أن يكون مقيداً بالضّرورة بهذه الثنائيات المتضادة، التي ينتج عنها منطق أو خيار: (إما / أو)، أي أن عليك دائماً، أن تختار هذا أو ذاك، تحت تأثير ضغط الاختيار، كحل وحيد وليس خياراً، إذ ليس هناك من خيارات أخرى...

والمتتبع لميراثنا الفكري والاجتماعي، يجد أن هذا المنطق حكمنا طويلاً، وتكرّست هذه الثنائية، بعبارات كادت أن تشكل عصياناً قهرياً... ويمكن ذكر أمثلة كثيرة عليها من مثل: التّقدمية، والرجعية / الاشتراكية، والرأسمالية، الأصالة والمعاصرة / الشّرق والغرب / الدّين والدّولة... الدّيمقراطية أو العلمانية.

إن الرؤية الثّنائية ومنطق إما / أو ربما يكون من أكثر المناهج، والنّظرات قصوراً، ومن أكثرها بعداً عن مطابقة الواقع.

منطق (إما / أو) هو منطق إلغائي يعني إما أنا، وأما أنت أو إما نحن وإما هم...

من هنا أجد الثّقافة بوصفها أنسنة وترويضاً وإعلاءً للأنا الأعلى، فالمشاريع الثّقافية، ودعاتها وما ينتظر منها، ومنهم الكثير في بلداننا، من اليوم إلى ما لا نهاية، فحتى يكتب عصر العلم، لا بدّ لنا أن نعيشه، وننخرط في أجوائه ونسهم فيه، لا أن نكون عالة عليه، ولا يبقى لنا إلّا العيش على تصدق حرّيتنا ومصيرنا، أن نغرس أنوفنا في الماضي ونبقى هناك، فهذا مُحالٌ قبوله إن كنا دعاة حرية وكرامة، والأهم دعاة الانتماء الأصيل، لتاريخ تتسابق الأمم في إعلان النّسب إليه، أو بالأحرى نسبه لها.

فبـدلاً مـن أن يكـون الماضـي للـذّكرى والاعتبـار، يصـبح مكانـاً للعـيش والانكفاء... وتحويلاً للإنسان، وليس مجرّد كبت، وقمع للميول والغرائز البدائية عند هذا الإنسان أو ذاك فرداً في مجموع المجتمع...

ربما يكون ذلك هو رهان، وهدف ومسوغ الحضارة، عموماً والثّقافة، من خلال أنسنة "طبيعة الإنسان الوحشية: البدائية أو الغرائزية"، وتحويله إلى كائن حضاري ثقافي، يكون صراعه، وتنافسه متسامياً وخلاقاً ورياضياً، وليس صراعاً تناحرياً وفنائياً، أو تدميرياً.

التّحليل النّفسي والنّظر للحريّة ومقاربة المفهوم على واقع مجتمعنا

التّحليل النّفسي ليس ديناً ولا فلسفة ولا إيديولوجيا ولا حكمة، بل هو حالة قطيعة بطيئة تتجدد باستمرار مع كل ما يدخل، ويختبئ في خطابنا العام على شكل قيم، وأحكام وشعارات، وعلى هيئة كلام حول الواجب والحق. وبالطبع تكون بشكل بديهي تتوزع بين "مع" و"ضد"، ليكون بذلك المحلل النّفسي ثابتاً في بقائه، مقابل حفاظه على علاقته باللاوعي كمصدر وحيد لمعرفة الذات الإنسانية على حقيقتها، كل ذلك عبر الكلام وحرية القول، حيث لا يمكن لوجود آخر غير الكلام أن يوصلنا إلى إنسانيتنا إلّا الكلام، فإن كان الكلام هو الذي يحدد إنسانيتنا فإن فحوى الكلام، هو ما يحدد طبيعتنا وماهيتنا الإنسانية، ويرصد خبراتنا. ويكون بالتالي القول الحر البعيد عن الخوف هو: مشكلتنا حيث التربية على الخوف والتّبعية، هي من أبرز المسببات لمشاكلنا الذاتية.

حقاً إن الكلام هو منطوق الذات، رغم أننا نجد المُتعب نفسياً يتكلم بلسان حال مَثَله الأعلى، وعندما لا يقدر فذلك بسبب عدم الرّضا بالكلام عما هو بعيد عنه، هنا تبدأ إشكاليته مع ذاته ومع الآخرين وتبدأ رحلة عذاباته ليصل إلى العيادة النفسية.

فنجد كنفسانيين ممارسين للعمل العيادي: حين يأتي الشّخص إلى العيادة النفسية بإرادته، كونه تحسس مشاكله التي لا مخرج لها في الأساليب والطّرق التي ألفها الناس، لحل مشاكلهم العارضة منها والمزمنة.

فهو يأتي إلى العيادة النفسية ليودع مشاكله بذمة النفساني، وبدون أن يبدي هذا الشّخص أية دافعية فعلية للإسهام في حلّ مشاكله من خلال التجاوب مع المعالج النّفسي، ليعطي للنفساني صفة الساحر أو المنجم المشعوذ المخلص لمشاكله، وهنا أودّ مشاركتكم الحديث عن خبرتي العيادية كمحللة نفسية، إذ يأتيني الأشخاص المتعبون من حمولاتهم النّفسية المديدة لزمن بعيد. هم في الغالب ثابت في ذهنيتهم أن العيادة النّفسية مكب نفايات، بمعنى يريدوا أن يلقوا ما عندهم من عذابات وقاذورات سلوكية ويذهبوا، ولا يريدون حتى أن يسمعوا أيّة رؤية للنّفساني بدايةً، فتجد أحدهم يتحدث في كل الأمور عدا مشكلته الأساس التي أودت به العيادة، تجده يقاوم الكلام والاستماع، كما يقاوم مرات النظر والتواصل عبر البصر إلى محدثه، ليبقى مجهولاً أمامهم لا يريد بلوغ المعرفة عبر الاعتراف بما حصل والوعي لذلك...

ونجد الكثيرين من الأشخاص يقولون ما لا يعرفونه، يقولون أموراً لم يفكروا بها، ولذلك نجد أن الحل للمشاكل النفسية يطول قياساً بالأمراض الجسدية، ولنبدأ بالعمل على حل الإشكال الذي أرهق مريضنا، لا بدّ من العمل فالحل على جعله يقبل أن يكون فاعلاً بأحداث حياته، وليس منفعلاً أو مفعولاً به، فعندما نلمس التّمنع وعدم المقدرة على فك أسره من عقالها التربوي الحصين، وموانعه التي تكرسها مفاهيم المجتمع السلبية المتأخرة، يبدأ الدّعم النّفسي بمنح الثقة والطمأنينة، عبر الإصغاء الموحي والتقبل الكامل لكل ما تبدى به مريضنا.

وفقاً لقاعدة علاجية: إنّ من يخاف يربكه الانتقاد فينشأ حذراً قلقاً، ومن كون الشخص القلق يخاف الانتقاد لأنه فاقد الثقة من نفسه، فهو لم يجرب ردود الأفعال تجاه الكلمات، بل نشأ على ترداد ما يريده مربيه في مرات كثيرة، ودائماً مبتعد عن

حريّة القول الموصل بالتالي لوعي الذات لهذه الحريّة، ليتم تبعاً لذلك وبسهولة وضع الضّوابط من قبل الشخص نفسه، بصورة أهم وأوثق من أية قوانين خارجية قمعية كانت أم حضارية...

لأجل كل ذلك عندما يكون المطلوب من هذا الشخص أن: يبتعد عن عائلته ليكون مستقلاً بأفعاله نجده يرتبك، ويعيش هواجس الضعف والشّكوك، وبدلاً من أن يُدفع هذا الشّخص من أسرته على خوض تجربته باستقلالية، ومن ثم بمسؤولية نجد أسرته تبرر خوفه، ونجد الأم أو الأب يحملان الموقف الذي عاشه ولدهم بفشل وإحباط، ليجنباه متاعب المواجهة من جهة ويضعاه في تجنب من الموقف، ويحلان له متاعبه بشكل مؤقت، ويغرق هذا الشّخص هنا بدوامة الواجبات الكثيرة لأسرته، بدون أن يدرك انصهاره في حالةٍ سوف ترديه في الضّعف والجهالة، حيث تبقى ذاته مغيبة، والسؤال المركزي الذي دائماً يردد في كل العيادات النفسية التّحليلية، لماذا مقاومة المتعبين نفسياً الحديث عن عوارضهم، وعن مشاكلهم بصورة مباشرة؟ لماذا يحدث تحول للأعراض وقلبٌ لها من البوح بالكلام إلى البوح والشّكوى بالجسد؟ فكم من الإمراضيات الجسدية منشأها نفسي فعندما تعجز الذات عن الحديث عن ضعفها وخوفها، يسعفها الجسد، وبذلك نجد الجسد يتكلم في مرات كثيرة من خلال عوارضه سواء بالحرارة أو البرودة أو بالطّفح الجلدي أو بسرعة ضربات القلب، أو من خلال الإحساس بانسداد السّمع، وحجب الرؤية كأعراض لاضطراب السّمع والبصر في أداء وظيفتهما الحسيّة، أو اضطراب عادات النّوم والأكل وغيرها من حالات العوارض النفس جسدية، لتأتي الأبحاث الحديثة لتقول وتؤكد أن أخطر الأمراض الجسدية تعود لعدم استقرار النفس بدءاً من اضطراب سكر الدّم إلى السّرطانات إلى العقم، وارتفاع ضغط الدم، إلى تساقط الشّعر وتقرحات المعدة والتهاب الكولون أو الأمعاء المزمنين...

من المؤشرات التي باتت واضحة للجميع مؤخراً ومن خلال تسليط الأضواء على القضايا العامة، وهموم الناس في غالبية المجتمعات، وذلك عبر الإضاءة

على سلبيات التشريعات الدّولية والحقوق الإنسانية: إن حرية التعبير هي من أهم المسببات لعيش حداثة العصر، وتقدم الغرب في أوروبا وأمريكا وغيرهما من دول العالم المتطور، إذ بتنا نجد أن واقع الحال في بلادنا العربية بالنسبة لهذا الشأن، يلاحظ وبقوة أن الحداثة عند العرب تعاش لديهم بمدى الإقبال على الاستهلاك، ومن خلال تناول صنوف المأكولات والمشارب الغربية، حتى غدت مشروباتنا الشّعبية وكأنها تعبير عن تخلف وفقر، والأخطر من ذلك، مفهوم الحداثة الذي طال الملبس وغيره من تطبيقات الحداثة على مستهلكاتنا اليومية، بحيث لم يعد الفرد منا يقدر على إكمال حياته براحة بدونها / كالسيارة والموبايل والنت بخاصة وهناك الكثير من المظاهر الأخرى الأثرة...

فلما كانت حرية التعبير منطلقاً مهماً لحرية الفكر، يبقى سؤالي المطروح بإلحاح: كيف لنا أن ننعم بحرية الفكر ونحن خائفون؟ حيث الخوف يعطّل الفكر، وحريّة الفكر لا بدّ لها من حريّة النّقد...

لذلك إن استعمالنا لتراثنا من خلال امتلاكه فقط، بدلاً من إدخاله في منظومتنا الفكرية، وتوظيف محتواه في سلوكنا اليومي، لنعيش الخصوصية وينتفي الاغتراب الدّاخلي عن ماضينا عبر عيشه بحيوية وانفتاح لا كطقوس شعائرية فقط، لما لا نعيش تراثنا من خلال إدخاله في إبداعات الحاضر؟ أفكر وأفكر لأصل ولا أعلم مدى موافقة قارئ على كلامي هذا: أن عيش الحداثة بكل مكتسباتها لن يكون إلّا في حرية القول الشّفهي كما القول المكتوب... لا أن تبقى الفجوة قائمة في حياتنا اليومية ما بين الشفهي والمكتوب، اذ دائماً المكتوب يأسرنا بسلطته التنفيذية، حيث الحرف وثيقة، بعد أن كان العربي تربطه الكلمة للإيفاء بأثقل الذمم. لذا حريتنا تبدأ من إعادة النّظر بتنشئة أبنائنا، فتربية أبنائنا حصيلة لتربيتنا، وإذا بقيت الأمراض التي تحجب النّفس عن التّألق أسيرة تفكيرنا سوف يبقى عيش الحريّة عسيراً لأبنائنا، وهذا ما حصل من ثورة الأبناء على الآباء مؤخراً في بلادنا...

فآدابنا وفنوننا ونظريات الفكر لأجدادنا تعطينا الثقة في فهم الرّموز القيمية لتراثنا، فلم لا يتم البحث عن موقع الأب المثالي المعبّر عن مثال الأنا، الذي نريد الوصول إليه والمصالحة معه، كل ذلك يكون من خلال السعي للامتثال إليه عبر إحيائه، لا أن يكون العيش معه كميت، حيث لا يمكننا معايشة موتانا، فالحياة دائماً أقوى وأبقى من الموت، الحياة للأبقى لأنّ الله تعالى "حيٌّ قيوم"، والله يعيش فينا، من هنا كانت الديانات جميعها تكرس حياة أخرى بعد الموت، كون الموت أشد قسوة من قبوله إلّا بفسحة أمل، بلقاء الله بعد الموت، أو بنيل الشّهادة، فالشّهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وبذلك فإن عيش المثل والقيم كخيال وأحلام يقظة، تجعلنا قريبين من الموت أكثر، لأنه عندما تنقطع المخيلة عن التخييل، ونستيقظ من حلمنا، حينها تحصل الصّدمة ويعاش الضعف والمرض.

ومن هنا يأتي التّأكيد على أن الحريّة تبدأ بقول الحقيقة، وبالمقاربة النفسية التّحليلية، يتحقق الشّفاء وفق منهجية التّحليل النّفسي عند ما يبدأ بالقول الحر الذي يستبعد رقابة الكلام من خلال التداعي الحر الطليق، لنجد ان الشفاء الكامل يتحقق عندما يتمكن مريضنا امتلاك حريّة القول فعلاً، أمام نفسه أولاً من خلال عملية التحليل وعبر آلية التّداعي لأفكاره بالكلام بحرية، فالتّداعي الحر هو من أقوى الاستطبابات النفسية لغاية الآن، فعدم المقدرة على البوح الحر، تخلق أوراماً في الجسد وفق آلية الحصر للعواطف والأفكار لتكون شخصية الإنسان في وحدة النّفس والجسد الحقيقة التي لا يمكن لأحد نكرانها.

إن تقنية التداعي الحر النفسية العلاجية، يكمن فيها الشفاء للنفس كما للجسد، ليكون التمنع والمقاومة عن الكلام ما هو إلّا تثبيت على الإمراضية النفسية، من خلال الهروب من المعرفة والاعتراف بأقصى ما جرى للشّخص فيما مضى من عمره، من هنا كان تحرير المكبوتات شفاء... حقاً لا وجود لشيء آخر ممكن أن يوصلنا إلى تطهير ذواتنا وعقولنا مثل عظمة الكلمة، حيث لا تطهير المدن نفع، ولا تطهير الأرياف نفع في بلادنا، بل زادت الجراح وانفتقت نتيجة

المواد المطهرة الزائدة عن حمولة جسد البلاد، ويوماً بعد يوم يثبت أن بالحريّة شفاؤنا، ولنتذكر أن حرية التعبير هي ما تسببت في حضارة أوروبا، والشعوب التي نفضت مشاكلها، وعاشت الحرية هي الشعوب التي أبدعت...

وحيث إننا لم نتمكن من حريّة التعبير بعد، فلم نمتلك آليات التفكير الناقد، التفكير مع أنفسنا والتفكير مع الآخر، ولما كان الأنا هو آخر وفق "لاكان" وآخرون، وكتابتنا لن تكون حرّة، وأصيلة بل تبقى في طور التّفريغ والتفكير بعقل الآخر ومعه لتشكل غنىً، وإغناء لحريتنا، كونه يفتح لنا أبواب الخلق والإبداع الذي لا حدّ له...

إن الكلمة عنوان ذواتنا كونها أداتنا الفاعلة، لنصل من خلالها إلى الآخر المختلف عنّا، وبالمقابل من خلالها يصل الآخر إلى دواخلنا عبر الكلمات، ليغير مشاعرنا واتجاهاتنا، كما أنه بالكلمات نعيش إيماننا بالصلاة والدعاء ذلك تقرب... من هنا نجد أن الإيمان بقوة الكلام في حياتنا كبشر، كانت أدوات كل الدّيانات والفلسفات والإيديولوجيات، لذلك الكلمة أداة للآخر الذي يعطي كلامي الفرصة للوصول إلى الهدف الذي نبتغيه ونريده، كل ذلك عبر تفسير معاني كلامه لنا، وتأويل هذه الكلمات بالرجوع لأوليات المعاني، ففتح المعاني لا يمكن أن يتم إلّا عبر حرية التعبير، وحتى يتمكن كل منا من الوصول إلى معنى مرتبط بحياته، لابدّ له من تحليل المعاني من خلال تأويلها وفهمها، وهنا تبرز المشكلة الأساس في ثقافتنا العربية، من أن عملية التأويل مأساة في عالمنا العربي، حيث إنّه يكرس وعبر دعاة العودة إلى السّلفية التقيد الحرفي للنّصوص التي تهدف لتقييد حريّة العقل والبحث، ولنتذكر أن الله كرّم العلم والعلماء عبر نصوص كثيرة منزّلة، وتبعاً لذلك تكون الدعوة للتّأويل والخروج عن الحرفية والتعمق بروح النص حقّاً مشروعاً يفترض لنا التمتع به، وليس الاكتفاء بظاهر القول...

فمن خلال عملية تناول النّصوص عبر التّأويل الذي تطرحه وما زالت وطرحته حداثة الغرب المعاصرة، نتلمس أن الغرب عاش من خلال هذه المنهجية

البنيوية للغة بسبر دلالاتها، ليكون تبعاً لذلك الاغتناء بالآداب والفنون وانطلاق العلوم، وتجدد الحياة لديهم من خلال الانتصار على المرض، حيث معركة الحضارة الإنسانية اليوم هي مقاومة للموت إلى أقصى الحدود، فعلاقة الإنسان بالموت هي علاقة وطيدة بالمعاني العميقة لمعنى الحياة، علاقة الإنسان بالموت علاقة بالحيوات الأخرى، فالأديان كانت تبشر دوماً.

فلنتذكر أن كلمات عزاؤنا لمن نشاركه مصابه بموت عزيز على قلبه، إذ نبث له كلماتنا بالقول: «أسكنه الله فسيح جناته»... كونه من الصّعب علينا أن تقبل الوقوف عند الموت، إلّا بفسحة أمل لما بعد هذا الموت، طمعاً بالسّكن النهائي المستقر بجنة الخلد، من أنه لا يمكن اعتبار المقابر في الاسلام على سبيل المثال، مجرد وحدات سكنية أو مستوطنات للأموات، لتبقى جدلية الموت والحياة مفتقة للفكر بالمقدس أو التفكير بسياسات، وأجندات الحياة من خلال الخطط التّنموية، أو حتى من خلال الحروب...

وحيث التّحليل النّفسي حريّة للفكر، لا يمكن أن يثمر إلّا في مناخ الحريّة، الحريّة التي تعني الحماية لكل من يريد التّكلم أو الكتابة، لتظهر ثقافة التّأثير في الجماعات الشّعبية ليكون بذلك البناء للوطن يعنى به الجميع وليس النّخبة، ومن هنا مكمن الخوف من نيل الشّعوب لحريتها لاسيما حريّة التعبير التي هي مفتاح لعيش واسترداد كل ما أسر الإنسان، لاسيما حق القول...

هل ثقافة التّحليل النّفسي تصلح كمنهج لحل مشاكلنا الاجتماعية؟

من كل ما سبق، تيقنت لِمَ عالمنا العربي، حارب التّحليل النّفسي، حيث التحليل النفسي حرية للفكر، فلا يمكن أن يثمر العمل النّفسي التحليلي بما يرضي طموح المحلّل إلّا في مناخ الحريّة، الحريّة التي تعني الحماية لكل من يريد التّكلم أو الكتابة، لتظهر ثقافة التأثير في الجماعات الشعبية، ليكون بذلك البناء للوطن معني به الجميع، وليس النّخبة.

من هنا الخوف من حريّة الشعوب، ولاسيما حرية النساء، رغم أن الدعاة لذلك كثيرون، فحرية المرأة لا تزال في قفص الاتهام، فمدام "رولان" الأم الروحية لجماعة "الجيرون" تخاطب الحرية... قائلة:

«أيتها الحريّة.. كم من الجرائم ترتكب باسمك».

ومنذ الثورة الفرنسية، ولا تزال هذه المقولة تُقال كلما استغلت الغايات النبيلة، والقيم الرفيعة، في تبرير أعمال خسيسة وساقطة، والدفاع عن تصرفات شديدة، وهكذا تبقى حالة الرفض الغربية، من أوروبا وامتداداً لأمريكا، ومن دوائر الرأي العام إلى أجهزة الحكومات والبرلمانات، المتهم الجديد ليس الحريّة على إطلاقها، ولكن! حرية المرأة على وجه الخصوص، وهذا البعد من العوائق المهمة في التّحول المجتمعي نحو الدّيمقراطية في بلادنا.

لم تقم نهضة أمة، إلّا وكانت الثّقافة في قلب مشروعها، كما لم تتخبط أمة في حالات الانتكاس والتّقهقر، إلّا وكانت مسألة الثّقافة في قلب وجودها للخروج من مأزقها، واستعادة مكانتها وانطلاقها، لا يمكن لأية أمة أن تعيش وتتميز في ظل اجتياح العولمة، طالما لم تخلق لذاتها قوة وإبداع قيم تعبر عن وجودها التاريخي الحالي، حيث إن الخصوصية الثقافية للمجتمعات تشكل أحد الثّوابت المرجعية التي يمكن لكل مجتمع أن يخلق منها قيمته المرجعية، غير أن هذه الثّوابت لا ينبغي أن تتحول إلى أطر جاهزة، أو إلى مقررات عقائدية مغلقة، أو نظم إيديولوجية ومعطيات لوجودنا بصورة حرة عقائدية مغلقة، أو نظم إيديولوجية، حيّة مفتوحة على الأحداث، والتّطورات بشكل يخرجنا أكثر قوة وفاعلية وحضوراً.

الحياة والحريّة والسّعي في طلب العدالة الاجتماعية هي حقوق أساسية بدون عون من المجتمع من خلال تراثه الشّفوي، ليكون السّلوك كله غير واضح، حيث الوعي نتاج اجتماعي، إذ ليس الميدان الخاص للإنسان المستقل فحسب، بل إنه لا يوجد في نطاق الإنسان المعزول الوحيد... كثيراً ما يحكم على الثقافات على أساس مقدار تشجيعها للملاحظة الذاتية، يقال إن بعض الثّقافات تنجب رجالاً

عديمي التفكير وكان سقراط يحظى بالإعجاب، لأنه كان يعلم الناس الأسلوب الاستقرائي والبحث في طبيعتهم الخاصة، ملاحظة الذات ليست سوى مدخل إلى العمل...

إن معرفة النفس ذات قيمة فقط، بمقدار ما تساعد في التلاؤم مع الطوارئ التي برزت في ظلها... و يدلل "جاك آن ميلر" المحلل النّفسي الشهير على ذلك بقوله "نحن نحب ذاك الذي يجيب عن سؤالنا من نكون "

من هنا تأتي قضية مخلفات العصر الباقية كإرث خفي، أو مسافر بيننا جميعاً عندما يفرض علينا كرهاً عن إرادتنا، أو نقتل بأنفسنا طواعية وعن رضا يمكن أن نتنازل عن فرديتنا أو تنزع عنا فرديتنا لحساب فردية آخر أو آخرين زعيماً ملهماً أو قائداً خالداً أو حاكماً بأمر الله ينطق وحده أو وحدهم وصفوه بالحكمة والعدل والصّواب إلهاماً وعلماً، ومقدرته لا قبل السّواد الأعظم من عامة الناس بها لذلك وجب عليهم الطاعة والامتثال، هل هنا في حالة كبت أم صمت العالم تغير: فالشّمس واحدة والهواء واحد والسماء واحدة، جميعاً شركاء في السّراء والضراء في الخير والشّر في الحقوق والواجبات...

وقول "فرويد" في هذا السياق يبقى خير شاهد على تأكيد الأفكار هذه: من أن كل إنسان تعشش فيه ميول هدامة وبالتّالي مناهضة للاجتماع والثّقافة، وإن هذه الميول قوية بما فيه الكفاية لدى عدد كبير من الناس لتحدد سلوكهم في المجتمع.

فإذا كان الصراع من أجل الاعتراف هو الفعل الأول الإنساني، فإنه لن يكون الفعل الأخير، فالصّراع سينتهي بعلاقة السّيد والعبد، التي لن تكون مرضية لا بالنسبة للسّيد ولا بالنسبة للعبد.

لا بدّ للمرء هنا من أن يخاطر بحياته لأنه عندئذ يستبقي حريته ويصون كرامته مثبتاً ذلك لنفسه وللآخرين، حالة الحرب كانت تؤدي إلى إقامة علاقة بين السّيد والعبد، عندما يقوم أحد المقاتلين الأولين الذي يخاف على حياته بالاعتراف بالآخر ويقبل بأن يصبح عبده، غير أن العلاقة الاجتماعية بين السّيد والعبد لم

تكن ثابتة، فإذا ما كان السّيد ولا العبد راضيين في النهاية، من حيث أن رغبتهما أن يُعترف بها، فغياب الرضا كان يشكل تناقضاً في المجتمعات القائمة على العبودية، وكان يدفع نحو مرحلة جديدة في السّيرورة التاريخية.

إذ إن فقدان حريّة العبد أي إنسانيته الناقصة، تضع السيد أمام إحراج فهو يرغب بأن يُعترف به من قبل كائن آخر يملك مثله القيمة أو الكرامة، فهو بدلاً من ذلك يعترف به من قبل العبد الذي بقيت إنسانيته غير مكتملة، ومن هنا يأتي عدم رضاه هذا ما يشكل مأساة السّيد.

وفي الواقع يستعيد العبد إنسانيته التي فقدها بسبب خوفه من الموت العنيف بواسطة العمل، فبدلاً من أن يعمل لخوفه من العقاب يشرع في القيام بعمله لإحساسه بالواجب وللانضباط الذاتي، من أنه بتلك العملية يتعلم أن يتجاوز رغباته الحيوانية حباً بالعمل فقط، وبفضل العمل يبدأ العبد بفهم أنه باعتباره كائناً بشرياً يستطيع تحويل مشاكله وفق التّصعيد والتّسامي وهذا فعل مستحسن، أو من خلال الهروب والكبت وهنا نقع في العلاج المرضي. وتبتعد الأفكار عن الترداد للترداد، وهنا تخرج الثقافة المعرفية من إطارها المنبري، أي من خلال المنابر، إلى حَيزها العملي في توظيفها في تحسن السّلوك اليومي المساهم حقيقة في أي تغيير في بنية المجتمع المحيط.

هل لحرية التعبير حدود في ظل ديمقراطية الثّقافة؟

الثّقافة الرائجة التي أضحت اليوم عامة للكبار والصّغار والمتعلمين وغير المتعلمين، ثقافة التّعرف على حقوق الإنسان، اذ أصبحت معطى معرفي وثقافي يعدّ من الضّرورات مؤخراً لدى شريحة واسعة من عامة الناس في بلادنا...

فبتنا نسمع الطّفل الصغير يقول مُدافعاً عن مطالبه البسيطة في أسرته كلمة من حقي مرات عدة يومياً، ومن أهم ما يردد اليوم وبكثرة أيضاً عبر وسائل الاتصال والإعلام المختلفة عبارة "حرية التعبير"، إذ بتنا نسمع الزوجة التي قهرتها

السّنيين في علاقتها الزّوجية، وتبعيتها للزوج في كل تفاصيل حياتها في حركاتها وسكناتها، تردد كلمة من حقي التعبير عن رأيي كلازمة تقال مرات في سياقها السّليم، ومرات تقول هذه العبارة في غير هذا السياق، ولكنها تنطقها.

كما بات التّلاميذ يرددون أمام معلميهم عبارة من حقنا أن نتعلم بشكل جيد، وأن يحترمنا الأساتذة. ويبقى مطروحاً علينا جميعاً السّؤال الجوهري هل لهذا الحق حدود؟

ما يهمنا من هذا التّساؤل هو دلالة الوعي بهذا السّؤال.

وفقاً "للدكتورة أحلام بيضون" إن هذا الحق لا بدّ له من التّمييز بينه وبين الكلام الخطر، خاصة ما يشكل تحريضاً على الفتنة وفق ما يلي:

1- التّدجيل أي / النّطق بما هو كذب خاصة إذ نتج عن ذلك ضرر معين.

2- الكلام التّحريضي الذي يشجع على ارتكاب جرم ما.

3- الكلام التجديفي على أحد الأديان أو المعتقدات فإن كان هناك من عظيم أهمية للتّعبير عن الرأي كحق أساس من حقوقنا الإنسانية، فإن انتهاك حريّة التعبير هذه يشكل انتهاكاً لنصوص قانونية دوليّة، بمعنى أدق هو جريمة ضد إنسانية الإنسان وفق منطق القانون الدّولي، وضمن الدّول تعد جريمة من كونها انتهاك لقاعدة دستورية، حيث إن قدسيّة حقوق الإنسان العامة يقابلها منطقياً في ذات الوقت قدسيّة للنصوص التي تجرّم التحريض على الفتن بين فئات الشّعب.

وفي الحال الذي نحن عليه اليوم والفوضى القاتلة، تجتاح حياتنا في كل تفاصيلها، الخوف من فوضى استعمال السّلاح، وفوضى التعبير وفوضى المسموح والممنوع بدواعي الحريّة، ودوافع عيش الديمقراطية إلى أقل هذه الشرور الموجعة تحرير الأسعار كعبء عسير للمواطن محدود الدخل، بل وحتى الذين من دخل متوسط باتوا يعانون ويتلكؤون في أعباء الحياة، فكيف تنشأ في ظل هذه المواجع اهتمامات معرفية جادة واحترام للمختلف في كل منا...

إذ في ظل عدم وجود فعالية لوضع حدٍ لمثل هذه التّصرفات المختلفة،

فالكلام التحريضي يصبح مدرج كغذاء يومي يمارسه جميع أفراد الشعب في بلادنا، وخطورة ذلك تأتي، من أنه يشجع الناس على التمادي في إطلاق الكلام اللامسؤول، مما يعرّض أمننا الشخصي للخطورة في سياق الاقتتال المجاني الدّائر من حولنا...

صحيح أن حرية التعبير تحقق كرامة الإنسان، على اعتبار أن الكلام وبتحليل بسيط، هو جوهر حضورنا الإنساني.

ويبقى التّساؤل حول الفارق بين الحقّ والحريّة مشروعاً ومطروحاً، ولكن مازال يتم الخلط بين الأمرين...

فالحريّة حق إنساني سامي، ولكن علينا أن نتذكر أن ممارسة عيش الحريّة كسلوك يومي عند بني البشر، ليست بالحريّة المطلقة بالمعنى العملي للكلمة، وذلك كون سلوكنا محكوماً بمعايير عدة داخلية وخارجية عديدة...

فللكلام ضوابطه، وإن نترك الكلام على عواهنه، فذلك جنوح سلوكي قبل أن يكون خروجاً عن القانون والحق الدّولي، من حيث إن القيد الأبرز على حريّة الفرد، هو حقوق الآخرين علينا وكراماتهم وخصوصياتهم... وهذا يختلف عن نقد السّلوك الخاطئ أينما وجدناه، ولو على أنفسنا، وهنا عظمة القول الحرّ...

فالمجتمع له قيم ناظمة لمساره الحضاري، ولصيرورته الاجتماعية، والحريّة هنا بالتّالي لها ثوابتها، حتى لا تكون ممارستنا لحريّة التعبير مُرضية فقط لنزواتنا، أو حالاتنا الانفعالية، ولنكون حريصين على أن تعاش، في سبيل نشر الحجج، وتقوية الإقناع وتذليل العوائق لقبول المختلف عنّا.

إذ إنه في حال عيش حريّة التعبير، نجد أن دوافع الإبداع ومن خلال الاجتهاد تتولد من خلال الاجتهاد، ومن كون هذه عيش الحريّة، يفتح الآفاق أمام عملية الحوار والمشاورة، مما يثمر فكراً راقياً وآراء حكيمة وقرارات رشيدة.

إن عيش حريّة التعبير يحقق كرامة إنسانية، من حيث صقلها للمواهب، ليكون ذلك دليلاً على عيش الدّيمقراطية التي تتحكم في مفاصل حياتنا العامة

والخاصــة. ويكـون غيابهـا دلالـة علـى الاسـتبداد الفكـري، فالحريّـة وفقـاً للفكـر "الفرويدي" تمثل وعياً للمسؤوليات والإيفاء بالالتزامات عن طواعية وجديّة وليس قسراً...

إن الحريّة بلا تصرف مسؤول والتزام للقانون العام، وللشّرائع النّاظمة لناموس البشر... يكون مؤداها في المنتهى مؤدى سلبياً وسلوكاً جانحاً، كما أن حريّة إبداء الرأي، والقول لا شك تصدر عن إنسان حرّ حيث الكلمة هي مقدمة دوما عن الفعل، الذي هو تجسيد للسّلوك الإنساني. أو ما يعادل وفقاً لـ "عبد الستار ابراهيم" لمفهوم تأكيد الذات أو التوكيدية "Assertiveness" المعادلة لحرية التعبير عن المشاعر، أما ولبـي "Wolpe،1958" و لازاروس "Lazarus" فقـد أعـادا صـياغة هـذه الخاصـية بحيث أصبحت تشير إلى قدرة يمكن تطويرها وتدريبها، تتمثل في التعبير عن النفس والدماغ عن الحقوق الشخصية، عندما تخترق دون وجه حق، مفهوم التعبير عن المشاعر أو ما يسمى بالحريّة الانفعالية والتي تتمثل بحرية التصرف وفق مقتضيات الموقف ومتطلبات التفاعل بحيث يخرج الفرد في هذه المواقف منتصراً وناجحاً، ولكن دون إخـلال بحقـوق الآخـرين، فـالتعبير عـن الانفعـالات والمشـاعر بحريـة، وفـق التصـرف مـن منطلقـات نقـاط القـوة فـي الشخصـية، بحيـث لا يكـون الفـرد ضـحية لأخطاء الآخر أو الظروف، بمعنى التوكيدية تتضمن كثيراً من التلقائية والحريّة في التعبير عن المشاعر الإيجابية والسلبية معاً، بعبارة أخرى تساعدنا في تحقيق أكبر قدر من الفاعلية والنجاح عندما ندخل في علاقات اجتماعية مع الآخرين، أو على أحسن تقدير، تساعدنا على ألّا نكون ضحايا لمواقف خاطئة من صنع الآخرين ودوافعهم في مثل هذه المواقف (إبراهيم، 1985).

فإن ما هو حق ينم عن حاجة، فالحق هو حاجة، وبالقياس على هذا المبدأ فإن الطعام حاجة بشرية وحق إنساني، لنتدرج بذلك إلى الحاجات المعنوية من مثل الاحترام وتحقيق الذات، فتعد هذه الحاجات وتلبيتها حقوق إنسانية سامية...

وحريّة التعبير تعدُّ حاجة فردية إنسانية، وهي أيضاً حاجة اجتماعية، حيث

إن إفصاح الأشخاص عن مخزونهم الفكري، عبر التعبير اللغوي، الذي يقدم تبعاً لذلك للمجتمع إنتاجاً فكرياً خاصاً، يسهم في بناء تطلعات أبنائه...

من هنا أجد أن حريّة التعبير هي أساسية في حياة كل مجتمع، بما تعبر به عن تاريخ الإنسان كعامل من أهم عوامل التّطور، وكذلك التّغيير نحو أوضاع متقدمة في سلم الحضارة، لتبقى الحريّة في عمق معانيها هي الحياة في عمق مدلولاتها، وبكل تجلياتها الصّريحة والحالمة...

هنا ومن وجهة نظر خاصة، أجد أن إسهام المثقفين والدّارسين في بلادنا في هذه المرحلة تجاه قضايا أوطانهم، يكمن في تعميق الوعي والعمل على توضيح المصطلحات السياسية التي تطرق المسامع اليوم في كل وقت... ويشوب ترددها التباسات عدة.

وهذه المصطلحات لا تخفى على أحد، ومن هذه المصطلحات أذكر: الحرية والديمقراطية والكرامة وحقوق الإنسان والنظام البرلماني والنظام الرئاسي والعلمانية والقضاء والعدالة الاجتماعية والعدالة الانتقالية، والحكم الرشيد وحكم الخلافة والاسلام السياسي، وكرسي الرئاسة والسيادة وانتهاك أمن البلاد وغير ذلك من أعمال فوضى السلاح...

ومن التعريفات التي أريد أن أضعها أمامكم للحرية أربعة تعريفات تتفق مع مضمون ما أشرت إليه في فهمي لحرية التعبير.

- التعريف الأول للفيلسوف الشهير أبو الفكر الفلسفي أرسطو الذي حدد تعريفه للحرية بأنها فعل الأفضل أي بمعنى الاختيار.

- التّعريف الثاني لـ "جون استيوارت ميل" الفيلسوف والاقتصادي البريطاني الشهير الذي يعرف الحرية بقوله: "الحرية عبارة عن قدرة الإنسان على السعي وراء مصلحته التي يراها بحسب منظوره شريطة ألا تكون مفضية إلى أضرار الآخرين.

- أما الفيلسوف الألماني الشهير "إيمانويل كانت" فعرف الحرية بأنها: "عبارة عن استقلال الإنسان عن أي شيء إلا عن القانون الأخلاقي".

– وهناك تعريف للحرية في الموسوعة الإسلامية الميسرة أتبناها في رؤيتي لمفهوم الحرية والذي يتلخص بأن الحرية: هي القدرة على الاختيار بين الممكنات بما يحقق إنسانيتنا...

من كل ما سبق أختم قولي هذا بأن: الحرية في كل فعل من أفعالنا الإنسانية يحكمها أمران وعي الذات، ووعي الآخر، وبذلك يكون الوعي دائماً بذاتنا نسبياً ورأي الآخر مهماً في نظرتنا لأنفسنا، من ذلك فإن الحرية الإنسانية ليست مطلقة، بل هي دوماً حرية صراع مع الظروف وجهاد مع الذات لعيش أوسع الخيارات المتوافقة مع كرامتنا الإنسانية، والآخر المشابه لنا في صراعاته وآماله...

حول الدّور المنتظر للثّقافة في بلادنا

إنّ النشاط الثقافي، يقوم على أساس أن الإنسان ليس ناقلاً للقيم الثقافية فحسب، بل هو صانعها ومبدعها أيضاً، صانع يستخدم القيم الثقافية المقبولة بصورة مبدعة، ويخلق منها قيماً جديدة، فالمفهوم الجديد للإنسان يقوم على أساس وحدة الأنشطة الحيوية لبني الإنسان، وبهذا المعنى نجد عالم الاجتماع البولوني "جان سزيبانسكي Jan Szepanasky" يقول: «إن العمل المهني والحياة العائلية والراحة والتسلية وإشباع جميع الحاجات تشكل كلاً وظيفياً، يستند إلى وحدة شخصية الإنسان، في إطار هذا المفهوم لا يمكن تجزئة الإنسان إلى قطاعين: قطاع للعمل وقطاع للترويح عن النفس والثّقافة».

أما "رينيه ماهو R.Maheu" فيؤكّد على أنّ الثّقافة ليست ترفاً، إذ من المؤكد أن ازدياد أوقات الفراغ يخلق مرات شروطاً طيبة تساعد على التأمل والدراسة والاستماع بالآثار الثقافية، ولكن يجب أن لا يغيب عنا أن إبداع الآثار الثقافية وفهمها يتحقق في الشدة كما يتحقق في الحياة السهلة.

صحيح أن اللحظات التي ننذر فيها أنفسنا للثقافة، هي لحظات نعيم ترتفع فوق مادية الوجود العادي والعمل اليومي الشاق، لكن الثقافة شأنها في ذلك شأن

العلم والعمل، لا يمكن أن تختصر في نطاق لحظات السعادة المجانية هذه.

إن الحياة الثقافية إذا ما نظرنا إليها في حقيقتها المتعددة الأوجه والأبعاد، تعد الثقافة بعداً من أبعاد الحياة، حاضره موضوعي واعٍ في حياة كلٍّ منّا كبشر.

فكون الثقافة بعداً من أبعاد الحياة، فهي قد تعني جدياً تمتع الأفراد بنشاط فكري خلاق يتميز بالقدرة على المبادرة، وطرح الأفكار البناءة والرغبة في التقدم في جميع المجالات الاقتصادية منها، والفنية على السواء، لذا الواضح أن هناك صلة وثيقة بين تطلعات البشر ودوافعهم من جهة وبين نشاطهم الاقتصادي من جهة أخرى، فمن أجل نجاح الفرد في الإنتاج أو في إدارة الأعمال، من الضروري أن تكون عنده معلومات وقيم أخلاقية عالية، على أن تكون على سوية ثقافية جيدة.

يمكن أن نحدد للثقافة عموماً محوريين:

الأول يتصل: بمنتجي الثقافة أو مبدعيها.

والثاني: يتصل بمستقبلي أو مستهلكي هذا المنتج.

إذ إن النشاط الثقافي كما يمكننا أن نتصور دوره اليوم، يقوم على أساس أن الإنسان ليس ناقلاً للقيم الثقافية فحسب، بل هو صانعها ومبدعها وصانع القيم الثقافية المقبولة بصورة مبدعة، ويخلق منها قيما جديدة.

حيث الثّقافة تعني في أهم ما تعنيه توكيداً لذات الفرد في جميع مجالات نشاطه العام (السياسي والاقتصادي والشّخصي والفنّي)، كما تعني إيجاد علاقات جديدة بين الفرد والمجتمع، وتقريب الفجوة بين المنتجين والمستهلكين، وبين الحاكمين والمحكومين، التي هي معضلة المعضلات في بلدان كبلادنا.

إن إشراك الجميع في تقرير جميع الشؤون التي تهمهم وتنفيذها، ومشاركة الأفراد في اتخاذ القرارات، هنا المعيار لتأخذ الثّقافة دورها في حث الأفراد في البلد الواحد على تحسين صورة أنفسهم من خلال تطوير قدراتهم باستمرار، وزيادة معلوماتهم العامة، وتجاوز الحدود التي يفرضها التّخصص في حياة المجتمع الحديث.

وعندما لا تعود الثقافة ميداناً معزولاً، أو لا تقدر أن تكون تعبيراً عن اهتمامات مجردة حقيقية محسوسة، وتغدو تطلعاً إيجابياً واعياً يفتح بالوقت نفسه آفاقاً غير محدودة لتفتح إمكانات كل فرد، يمكننا أن نصنف الدور الثقافي بالمفلسف، فلنساهم في تفعيل هذه الوظيفة الجديدة والتجديدية للثقافة، كونها عنصراً جوهرياً في إحياء البلدان وإعمارها على قدم المساواة.

فإن كان يروق لنا أن نصف مجتمع اليوم، بأنه مجتمع العدالة الاجتماعية وعصر الحقوق الإنسانية، فلتكن الثقافة مطلباً للجميع ويشارك بها الجميع.

يرد في المادة (37) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان نص واضح على أن حق الثقافة هو حق مصرح به من ضمن حقوق الإنسان.

من هنا يبرز اعتبار أن المناداة بديمقراطية الثقافة، لا يقل أهمية عن الديمقراطية السياسية وديمقراطية التعليم.

الفصل الخامس

العنف السياسي

وآثاره النفسية والاجتماعية

تعاريف ومصطلحات

يعدّ العنف إشكالية معقدة، لما لها من أبعاد اجتماعية أو سياسية، ولكن ببنى نفسية خاصة لمفتعليها، كون كل ممارسة للعنف يصاحبها ممارسة خطابية وترويج اجتماعي، وأحياناً ثقافي ليتم تبنيها والعمل عليها.

يعرف العنف السياسي بأنه: استخدام للقوة المادية أو التّهديد باستخدامها سواء من قبل نظام سياسي معين، أو قوة سياسية معينة لتحقيق أهداف سياسية محددة.

والعنف السياسي ظاهرة خطيرة وواسعة الانتشار أكثر من كل أشكال العنف الأخرى، وذلك لكثرة المبررات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي يحتمي بها دعاة العنف السياسي. هناك دراسة لعالم النفس الأمريكي الشهير "وليم جيمس" عام (1985) والتي أجراها في (26) دولة تفضي إلى وجود علاقة مطردة بشكل دائم بين عدم المساواة في توزيع الدخل والقهر الاجتماعي وبين العنف السياسي.

والعنف السياسي في حقيقته ليس عنفاً اجتماعياً أو اقتصادياً بل هو سلوك منحرف، وعنف يدور حول السلطة ويتميز بالرمزية والجماعية والإيثار، وهذا لأنه يتستر ظاهرياً تحت شعارات كبيرة... والعنف السياسي تكمن وراءه أسباب نفسية بالدرجة الأولى كالرغبة في السيطرة والتحكم...

كما أن العنف السياسي هو في سلم الصراع بين الخير والشر وهو يناقض العمل السياسي، من حيث إن العمل السياسي بطبعه يتطلب ممارسات دبلوماسية،

وعلاقات وثيقة ولقاءات ودية واحترام لوجهات النظر المختلفة، والتفاوض والقبول بالحدّ الأدنى من المطالب السياسية، والرضا بالتوافقات والإيمان بالشّراكة الاجتماعية والسياسية، وربما تنازلاً للصالح العام، بينما يمثل العنف السياسي سلوكاً منحرفاً، يراد منه أن يؤثر على نتائج العملية السياسية من خلال استخدام أدوات ضغط إكراهية، تجعل الطرف الآخر يذعن إلى مطالب فرقائه، فهو استناد فعلي للقوة أو يهدد باستخدامها لإلحاق الأذى والضرر بالأشخاص والإتلاف للممتلكات، وذلك لتحقيق أهداف سياسية مباشرة، أو أهداف اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية لها دلالات وأبعاد سياسية. والعنف السياسي يكون دائماً نتاج عوامل نفسية، وعقد متراكمة لأشخاص استطاعوا أن يلعبوا على الاختلافات والمتناقضات الاجتماعية والاقتصادية، ولو وعت الشعوب على حالها لوجدت نفسها أول الخاسرين من ممارسة العنف السياسي وآخر الرابحين، إن كان في العنف ربح، نحن اليوم بحاجة لحل هذه التناقضات بالطرق السلمية، وليس أمامنا إلا العمل السياسي السلمي.

يقول عالم الاجتماع العربي الشهير "ابن خلدون": "المقهور دائماً يسلك سلوك القاهر" ليكون العنف السياسي ممارسة يائسة متضمنة للعنف والكراهية، مما يجعل المطالبة كلها أمراً قانونياً في الحياة السياسية العالمية هناك، وبشكل دائم تهديد بالإعلان الصّريح عن ممارسة القوة التي تتعقب كل تعارض في المصالح بين الدّول والشّعوب، وكل خروج عن سلطة النظام العالمي الجديد، الذي له من القوة والتأثير القوة الخارقة من خلال التطور العلمي والتكنولوجي، لنجد أن مفهوم ممارسة الحروب اليوم في النظام العالمي الجديد يغدو نظاماً شمولياً، هذه الآليات العنيفة والقاهرة يمارسها النظام الجديد لفرض العولمة، وكأنها الحل الوحيد الممكن لنمط العيش بدلاً من أن تنتج ردود فعل متفاوتة ومتنوعة، فإجبار الإنسان على السّكوت وعدم الاحتجاج، يعني في الأصل اقترافاً لأعمال العنف؛ كون حرمان الإنسان من كلامه يعني سلفاً حرمانه من الوجود.

أما العنف الممارس خلال الصراعات السياسية والاجتماعية، أو التّنازع على السلطة والسّلطان بين الحكام والجماعات السياسية المعارضة، فكان يتم إما باسم الدين والإسلام، وضرورة المحافظة عليهما بالطرق والوسائل الممكنة المشروعة وغير المشروعة كافة، وإما عبر ما أسماه ابن خلدون إنشاء دعوة دينية (الإيديولوجيا المعتمدة)، تستند إلى عصبية معينة (القوة المادية) للوصول إلى الحكم.

فلما كان الإنسان متفرداً بالقتل باختياره بني جنسه؛ وهو وحده من بين كل الكائنات الحية، يختص بالقدرة على إضمار هدف القتل العَمْد.

فالبشر هم الوحيدون من بين كل الكائنات الحية الذين يعرفون الاقتتال في مجازرَ جماعية، فبقدر ما نهتم قبل كل شيء بجعل العنف حقاً للإنسان، ولا نأخذ بالحسبان معاناةَ الإنسان ضحية العنف والهدر العنيف لإنسانيته. فإذا كان ينبغي بذلُ هذه المشقة كلها لتبرير العنف فذلك تحديداً لأنه غير قابل للتبرير.

فلا أحد يفكر في وجوب تبرير الطيبة لأنها سمة بشرية طبيعة، لكن العنف (violence) الذي يغذي حضارة الإنسان المعاصر، هذه القوّة الطاغية التي عجزت البشرية عن معالجتها والحدّ من انتشارها. فهل العنف مظهر لصدام الحضارات أم هو ردّة فعل ضدّ الهيمنة العالمية، أم هو أزمة العقلانية ومقتضيات الحداثة، أم هو تعبير عن عدوانية الإنسان وعن بنية المجتمع وثقافته... إن تبلور العنف في الثقافة المعاصرة اليوم له دوافعه ومصالحه السياسية بالدرجة الأولى، وبالتالي فهو عنف سياسي بامتياز، وفق ما أشار إليه الدكتور قدري حنفي بأن العنف السياسي: «هو نوع من العنف الداخلي الذي تدور حوله السلطة ويتميز بالرمزية والجماعية والإيثارية».

فتبعاً لهذا التعريف يمكن رصد مظاهر وأشكال عديدة للعنف السياسي عموماً كقمع المعارضين، والاحتجاج ضد العديد من الأنظمة السياسية المتحكمة في العالم، كما أن النزاعات الطائفية والعرقية والإثنية، التي تمزق بعض البلدان، تؤدي إلى الكثير من المآسي.

والأمثلة على ذلك كثيرة عربياً وعالمياً (لبنان، أفغانستان، إيرلندا، منطقة البلقان، والعراق)، الحرب الإقليمية والحروب التقليدية بين الدول المتناحرة، إسرائيل والدول العربية وحرب إيران والعراق والحرب الدائمة الإعلان ما بين أمريكا وكوريا الشمالية، كلّها أعمال العنف والإرهاب المنظم كالمخدرات وأعمال السطو والقتل والحركات السياسية والدينية المتطرفة...

لتكون النتيجة، أن الإرهاب يتماهى مع العنف السياسي، لدرجة يتعذر معها التمييز بينهما، إلا أنهما يختلفان في ما يلي:

الحرب مثلاً كعنف سياسي مشروع تتميز عن الإرهاب في أنها تخضع لقوانين واتفاقيات دولية معترف بها، فتبقى مسألة احترام هذه الاتفاقيات هي المشكلة، فللحرب إذن قوانين وقواعد مكتوبة أو عرفية ملزمة للدولة قانونياً وأخلاقياً باحترامها، يقول "كلاوزفيتز": «إن الحرب هي السياسة بوسائل أخرى» فالفوز أو الإخفاق يمكن أن يأخذ شكل الرهان ذي النتيجة اللاغية، فيمكن أن يعني النصر تدمير العدو أو على الأقل تدمير إرادته السياسية.

أما رهانات الحرب فتبقى محدودة بالنسبة إلى الذين يخوضونها على الأرض، من حيث إن المقصود بها هو تدمير الإرادة السياسية للخصم، وليس تدميره كشخص وإنما كفاعل سياسي.

بينما لا يخضع الإرهاب لأي قانون أو اتفاقية أو مبدأ، كما تتميز الحرب بالطّابع الجماعي، فهي إما بين دولة ودولة أو بين تحالفات عدة دول إزاء دولة أو عدة بلدان، وبالمقابل فالإرهاب يكون إما فردياً، أو ينفد عبر مجموعات صغيرة، وقد تمارسه دولة ضد دولة عبر توظيف حركات إرهابية متخصصة في التدمير أو الاغتيال، بدل المواجهة المسلحة المباشرة، كما الحال في الصّراع بين الهند والباكستان.

إنّ ميدان الحرب الجغرافي معروف ومحدد، عكس الإرهاب فهو بدون ميدان ولا جغرافية.

فماذا عن علاقة الإرهاب بالثورة؟ تهدف الثّورة إلى تغيير الأسس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في المجتمع، وتسعى إلى خلق فكرة قانونية جديدة، بدل الفكرة القانونية القديمة المهترئة، التي لم تعد تنسجم مع الأوضاع الحالية، فالثّورة لا تحسب خروجاً على القانون، وإنما هي عمل قانوني، فالثورة الاجتماعية هي عنف مبرر تاريخياً.

فما يميز الإرهاب عن باقي الجرائم وأشكال العنف السياسي، يتمثل باتساع حجم ما يمكن أن يترتب عليه من فوضى ورعب وهلع وخوف، الذي ينعكس على الأفراد والجماعات، مما يفرز لنا إحساساً بالاستقرار وعدم الأمن واستيطان الشعور بانعدام تواجد سلطة الدّولة مادياً ورمزياً، من هنا تكمن خطورة الإرهاب التأثيرية والمعنوية، وهنا يطرح السؤال حول: ما هي الغاية من العمل الإرهابي؟

من الطبيعي أن الغايات تختلف حسب أهداف منفذيها واستراتيجياتهم، لكنها تستمد قوتها مما قد تخلفه من ارتباك وذعر وضحايا، ومثالنا على ذلك: الإرهاب الذي يحمل غايات سياسية، أو بصيغة أخرى الإرهاب المقبول أو العنف السياسي...

ولكن يمكن لنا تحديد أهداف العمل الإرهابي فيما يلي:

– إثارة اهتمام الرأي العام الدّولي والدّاخلي، وتحسيسه بمدى صعوبة المسألة، ونيل تعاطفه ومساندته المادية والسياسية.

– المس برمزية السلطة السياسية المادية والرمزية، وحشد وتعبئة الرأي العام الوطني والدولي بعجز النظام ومحدودية قدراته التنظيمية والسياسية والعسكرية.

فممارسة العنف واحتكاره كما هو محتكر من طرف السلطة، والإقدام على ممارسة العنف في دولة ما، من شأنه منافسة السلطة في احتكار العنف.

خلق حالة من الخوف وعدم الأمن والاستقرار، وتحسيس الناس بعدم الأمان والقدرة على العيش باطمئنان، وذلك بهدف التأثير النفسي على الجماهير من جراء تتالي أعمال العنف، التي من شأنها أن تؤدي إلى استبطانهم لانعدام سلطة سياسية

قادرة على حمايتهم، ومن هنا تأتي خطورة العمل العنيف، إلا أن تأثيراته تبقى محدودة لفترة ما بعد الحدث والانفعالات التي خلفها.

الضّغط على النظام السياسي لتقديم المزيد من التنازلات، ولنيل الأهداف التي كانت وراء هذه الأعمال العنيفة، وقد يتم الضغط بوسيلة أخرى في حالة احتجاز رهائن من بلدان مؤثرة دولياً أو من جهات داعمة للعنف، بغرض ضغط هده البلدان لتقديم تنازلات، ومن الواقع السوري خير مثال احتجاز أعضاء من حزب الله اللبناني في مدينة حلب واحتجاز مطرانين في حلب أيضاً واحتجاز طيارين تركيين من قبل عناصر حزب الله في لبنان.

ومن بين الأسباب المولدة للعنف السياسي في بلادنا يمكن لنا أن نذكر:

– سيطرة بلدان الشمال (أوروبا وأمريكا) على جل الثروات والخيرات والتكنولوجيات، وتأثيرات ثقل المديونية الخارجية ودور الشركات المتعددة الجنسية في احتكار الخيرات، والسيطرة على الاقتصاد الدولي مما نتج عنه إفقار دول الجنوب واستغلال شعوبها، مما ولّد تبايناً شاسعاً في مستوى العيش، فأفرز هذا الحال حالات من اليأس والإحباط والرفض، كما برزت العديد من التيارات الرافضة لهذه الأشكال اللاعادلة في تقسيم العلم والتخصصات والخيرات، فقامت العديد من المساعي لتحرير بلدان الجنوب من نير هده الهيمنة، وبعد أن أفلست الطرق السلمية عبر القنوات الدبلوماسية والمؤتمرات الدولية خاصة مجموعة 77، فأضحى اللجوء إلى العنف مبرراً ومفروضاً بعد فشل الإستراتيجيات للتفاوض.(أحمد قويدر، العنف والإرهاب السياسي)...

الآثار النفسية للعنف السياسي

إن العنف يؤدي دائماً إلى نتائج مأساوية خطيرة عند الأطفال والمدنيين من السكان، ففي تقرير منظمة العفو الدّولية لعام 1984 حول العنف يشير التقرير إلى أن العنف السياسي، يؤدي إلى انقلاب في الظروف النفسية والاقتصادية، ينعكس

ذلك بصورة واضحة على الأطفال في أي بلد يمارس فيه العنف السياسي، إما من خلال انعكاس ذلك على التّغذية ونقص لرعاية في مؤسسات التعليم اللازمة للتنشئة السّليمة. والتّهجير والتربية على الخوف ومن ثم الانعكاس مستقبلاً على الانحراف والجنوح في السّلوك..

- الشعور بالعدائية والتّهديد.
- زيادة الكوابيس أثناء النوم.
- سوء التكيف وعدم التّركيز.
- عيش اضطرابات كثيرة من جراء أعمال العنف.
- عيش التمرد والسّلوكيات المنحرفة.
- مشاعر النكران والتّبلد الانفعالي.
- الاكتئاب والانتحار وأعمال الإجرام...
- من الدراسات النفسية التي أبرزت هذه الآثار في منطقتنا العربية أذكر:

1- دراسة (الحمادي وآخرون، 1994) التي أظهرت أن 16% من الأطفال يعانون من اضطراب ما بعد الصدمة بسبب الغزو العراقي للكويت.

2- كما أظهرت دراسة لليونسيف في العراق أن 25% من الأطفال يعانون من اضطراب ما بعد الصدمة (UNICER،1987).

3- أظهرت دراسة في لبنان (غسان يعقوب، 1992) أن 80% من الأطفال المدروسين ما بين عمر(7-11) يعتقدون بأن العالم الخارجي عدائي ومهدد...

الاعتقال والتعذيب من أهم مظاهر العنف السياسي

من أبرز آثار التعذيب النفسي خطورة:

1- التكرار النّفسي الدّائم للحدث وذكريات التعذيب أو الأسر، ليلاً ونهاراً.

2- الشعور الدّائم بالمفاجئة من حيث أن الاقتحام للتعذيب أو احتمال تعرضه للأسر أو الاعتقال يجعله لا يسكن على حال.

3- عصبية زائدة واهتياج، كآلية دفاعية لإثبات الحضور عن طريق العنف والعصيبة والضرب.

4- الانسحاب والعزلة والصمت.

5- عدم القدرة على التّركيز والتفكير المنطقي بسبب طغيان ذكرى التعذيب وشدة الانفعال...

6- الخلل في التّوازن نتيجة الضّرب على الرأس.

7- الخلل في الهلوسة وشعور الملاحقة بالأذى.

8- تقليد أصوات الحيوانات لإثارة السّخرية والشّتم والتّهديد بالموت، مما يؤدي لتدمير الشعور بالكرامة الذاتية وتنمية الشعور بالذل والعار.

9- الحرمان من النظافة البدنية والرّاحة مما يؤدي الى الشعور بالدونية وهبوط قيمة الذات والعودة للنكوص.

10- الاغتصاب.

11- غسل الدّماغ وضرب المعتقدات الشخصية.

12- استخدام الكهرباء ووضع التيار الكهربائي على مناطق الجسم الحساسة (الأذنان، الأصابع، القدمان والأعضاء التّناسلية).

13- التهديد بتعذيب المعتقل أمام زوجته وأبنائه، و رؤية أشخاص يتعذبون وسماعهم يصرخون.

14- نشر قطع من الزجاج داخل أرض الزنزانة وإجبار المعتقل على الوقوف عليها.

15- صلب المعتقل خارج الزّنزانة تحت ظروف جوية قاسية (حرارة الشّمس أو تحت المطر والبرد).

أفكار نفسية علاجية ممكن العمل عليها مع المعتقلين السياسيين

1- الاسترخاء والتنفس العميق.

2- إعادة التّنظيم المعرفي للحدث عن طريق الحديث عنه وترميز الأحداث بغية تجاوزها عبرَ المساندة العلاجية.

3- حركة العينين وهي تقنية فعالة وفق الأسلوب الذي طرحه (شابيرو، 1989) التي تتمثل بالتعرض للأشياء والمنبهات المؤلمة التي كان الشخص قد تعرض للتعذيب بها كالمخفر مثلاً، اللباس العسكري، والسّوط... الهدف منها مقاومة الصور والأفكار الدخيلة المرتبطة بالتعذيب والأسر، بهدف خفض القلق والتخفيف من الضغط النّفسي الحاصل نتيجة هذه الصورة المزدحمة في الذِّهن حول تجربة التّعذيب الحاصلة نتيجة الاعتقال أو الأسر...

اكتساب المهارات اللازمة للتّعامل مع القلق والخوف والتوتر مثل مهارة الحوار وتوكيد الذات عبر لعب الأدوار في الموقف العلاجي...

إنّ الملاحظات العامة من خلال الدّراسات حول التّعذيب، تُظهر أن من يتعرضون لأهوال المعارك أو الذين يشاهدون أمامهم أعمال القتل والموت تبدو عليهم أشكال مزمنة للاضطرابات مما يستلزم عمل فريق علاجي متكامل، من نفسانيين وعلاج فيزيائي واختصاصيين اجتماعيين بغية المساعدة اللازمة لإعادة التّأهيل النفسي للتكيف مع أنفسهم وبيئتهم...

يرى "فرويد" أن المهمة الأساسية في التّحليل النفسي هي الوصول إلى المشاهد البدائية التي يمكن أن تظهر مباشرة أو بواسطة الهوامات التي هي بناء دفاعي تسمح بعدم التذكر الكامل للواقعة الأساسية، وهي تدمج التجارب بسياق هوامي دفاعي، يحتوي ما حصل عند الأهل والجدود أيضاً، وتربطه بما شاهده المريض نفسه من بقايا الذكريات المثيرة للحالة الانفعالية، ويتم ذلك في إطار مركب ومعقد ومتكامل وتأخذ الهوامات بُعدها وهندستها، عبر إعطاء صيغة التفكك للذكريات الحاصلة.

ومما لا شك به أن تزايد أعداد المعتقلين السياسيين واضطهادهم يشكل عائقاً ذا دلالـة مـن عوائـق التحـول الـدّيمقراطي، نتيجـة لـردود الفعـل الحانقـة مـن ذوي المعتقلين ومناصريهم...

الفصل السّادس

تكون العقد النفسية عبر الولاء

"عقدة ابراهام نموذجاً"

تمهيد

إن العيش في ظل ظروف من عدم الاستقرار الأمني، والانعكاس غير المستقر على تفاصيل الحياة اليومية، كما حدث بالتحديد في ليبيا وسوريا في السنوات الماضية، أُسجل تقييمي كمحللة نفسانية متابعة عن قرب لهواجس الناس بالداخل السّوري من خلال الحالات العيادية التي عاينتها، ومتابعتي المتواصلة للحدث الليبي، إن هذه الأحداث أفرزت كماً من العقد النفسيّة التي تكرّست وتتكرس باستمرار بفعل استمرار الظّروف المسببة لها، إضافة إلى محمولات الماضي لكل شخص، وكم سنحتاج من العمل لإعادة توازن النفوس، وجعلهم يبصرون أهدافاً لحياة مستقبلية تنتظرهم، متخطين رعب وبؤس هذه الأيّام التي عاشوها، والواقع السّوري اليوم ثري كحقل للبحث النّفسي، بهدف وضع خطط استشفاء بما يناسب كل حالة، والحالات كثيرة متشابهة يلزمها علاج جماعي بغية الشّفاء من كوارث تسبب بها العالم من حولنا، ومن خلال المساعدات المعطل وصولها لمحتاجيها، ممن كانوا ضحية العنف المستفحل في البلاد، وأيضاً من كانوا ضحايا كوارث الطّبيعة التي حلّت عليهم في بلاد اللجوء بفعل الثّلوج التي لا سابق لها (واقع حال مخيم الزعتري، شتاء 2012–2013)، منذ أكثر من عشرين عاماً على البلد ودول الجوار... ليكون الصراع ضد الطبيعة، والصراع ضد تنظيم الحياة الاجتماعية، هدفي الحضارة الإنسانية لبلوغ السعادة، كون الإنسان وعلى الدوام يود تجنب الألم ويحس بمشاعر لذة قوية، حين استطاعته تجنب الآلام...

ففي إلقاء النظر على بعد تاريخي لواقع حالنا في هذه المنطقة وغيرها في التاريخ الإنساني، يمكننا الاستنتاج أن الحضارة الإنسانية بمتطلباتها غير المحدودة في كبح رغبات الإنسان، كانت بؤرة خصبة لنشوء المتاعب النفسية. ومن جهة أخرى فإن اجتياف العدوانية، وتأسيس (الأنا الأعلى) يحصل عبر إرجاع العدوانية إلى النقطة التي انطلقت منها الحضارة، بحيث يتم تفريغها من محتواها وتجريد الفرد من سلاحه، ومراقبة سلوكه بواسطة أناه الأعلى، من هنا تقاد الحضارة إلى مقاومة ذلك الدّافع العدواني، بكل حزم مفاقمة بذلك الشعور بالذنب الذي سيشهد على امتداد تطوره، لقد جهد (فرويد) في بحثه عن نظرية أساسية حول أصل المجتمع، انطلاقاً من بنية نفسية كونية، تؤسس لمعرفة أوسع لفهم السّلوك الإنساني استناداً لمنطلقات أساسية تجمع السّلوك البشري كله، وذلك خلال سعيه الجاد لتأطير هذه الأسس لفهم بنية النّفس البشرية، فقد تمكن نتيجة بحثه ذاك من بناء (هوام: Fantasme) لحقيقة كونية انطلاقاً من مقتل الأب زعيم العشيرة البدائية، حيث كان إنسان ما قبل التاريخ يعيش في جماعة بدائية تحت سيطرة استبدادية مطلقة لأب قاس غيور استأثر لنفسه بكل النّساء، وطرد أبناءه بمجرد أن شبوا عن الطّوق وكانت هذه هي صورة العشيرة البدائية بدون محرمات أو طوطم، يحكمه مبدأ أوحد هو سلطة الأب الرّهيبة، ولم يكن ثمة ضمير بعد إذ لم تكن ثمة معايير أو قيم وبالتالي لم تكن إمكانية لبناء مثل أعلى، الغرائز والانفعالات لهما السلطة المطلقة، وقد اقتتل الإخوة فيما بينهم لمنع أي كان من الاستيلاء على هذه السلطة، التي يحوز عليها الأب، مع الإفصاح عن حقهم في الحصول عليها، وكان من شأن هذا الموقف المفارق، أن يترك فراغاً في مكان الأب الميت كمؤسس للتّحريم، أما الشعور بالذّنب (sentiment culpabilite) الذي تلا ذلك فهو يعود إلى اختفاء الرغبة، ولا تتوانى جريمة قتل الأب (الزعيم) إثر نشوة النّصر عن تفجير الأسى في قلب الإخوة القتلة، لأن (تجاذب المشاعر ambivalence) يدفع إلى الخوف من الأب، ومن ثم إلى كرهه، وفي الوقت نفسه إلى كونه مثار إعجاب ومحبّة، هنا يمتزج الحب والحقد والرّهبة، والإعجاب في هذا

القتل، حيث يشكل هذا التّجاذب تجاه الأب أساساً، لتفسير الأعراض المتناقضة والمفارقة، "فالأخوة كانوا يكرهون الأب، الذي كان يعترض بقوة إشباع رغبتهم إلى القوة، وإلى متطلباتهم الجنسية، ولكن على الرغم من كرههم له، كانوا يحبونه ويعجبون به، وبعد القضاء عليه، وبعد إشباع حقدهم وتحقيق تماهيهم معه، عبروا عن مشاعر رقيقة جداً تجاهه، رؤية مؤسس التّحليل النّفسي الشّهير "فرويد" هذه سهلت لفهم الموقف العاطفي، من حيث إن عملية القتل لم تكن لتشبع كلياً، أياً من الشركاء المتواطئين، فهذا عمل لا جدوى منه، هذا في وقت نعلم جميعاً: أن الهزيمة تؤتي ردة الفعل الأخلاقية، أكثر مما يفعل الانتصار.

عملت مقدمتي الاستهلالية هذه، لجعل السياق المنهجي للبحث في عقدة الولاء الشائكة الأبعاد كونها إشكالية فلسفية تبعاً للدين والأسطورة وإشكالية واقعية تبعاً للتاريخ السياسي.

فهل ما زال الإنسان البدائي يكمن في لاوعي الإنسان الحاضر؟ وبالتالي الخروج من هذا المأزق الصّراعي، هل يتم على أساس مثلاً:

– تأسيس عقد اتفاق يحل النّزاع بين الإخوة ويضمن العيش معاً بسلام.

– إعادة إحياء الأب الميت – الأب المثالي– والاتفاق معه مجدداً ليكون الحَكَم..

وبذلك هنا يتم استخراج قانونين متلازمين:

الأول: يتصل بتحريم المحارم، أي ما كان الأب يدافع عنه بقوة، وهو الاستحواذ الحصري على الأم، هذا المحرم له نتيجة شديدة الأهمية: هو أساس الشعور بالتّماسك الاجتماعي، الذّي يعدّ أساس تفاعل الوعي بين جميع أفراد المجتمع.

الثّاني: تأسيس القانون الأبوي (البطريركي patriarcal). يكمن وراء هذه النظرة للأمور ما ألمح له "فرويد" عن نشأة المجتمع والأخلاق: من خلال بحثه أي "فرويد" عن نظرية أساسية حول أصل المجتمع، انطلاقاً من بنية نفسية كونية

(Universelle)، وبنـاءً علـى نظرتـه الشّـمولية تلـك، تمكـن مـن بنـاء (هـوام: Fantasme) لحقيقـة كونيـة انطلاقـاً مـن جريمـة قتـل الأب زعـيم العشـيرة البدائيـة، واقتتال الأخوة، وتحريم المحارم (سفاح القربى)، وإنشاء القانون البطريركي. وتبعاً لذلك كانت جريمة قتل الأب، هي ما أدت إلى بناء المجتمع الإنساني على أساس عقد اجتماعي واضح الحدود.

حين طبق "فرويد" التّحليل النفسي على الجنس البشري، اعتبر أن ثمة نفساً جماعية تجري بداخلها العمليات النفسية على نحو ما تجري بداخل النفس الفردية. وبذلك عندما تظهر العدوانية بشكل تلقائي، وتكشف في الإنسان بعداً متوحشاً، بحيث يفقد أي اعتبار لبني جنسه، وإذا حدثت وتخفت لفترة القيود الاجتماعية المفروضة على نزوة العدوان، فإن الإنسان المتحضر نجده يرتد إلى حالته البدائية... وهناك يتم طرح سؤال وجيه حين نواجه الموت الأخوي أمامنا، يمكنني صياغته وفق ما يلي: هل يعيش إنسان عصور ما قبل التاريخ داخل لاوعينا دون أي تغيير؟

فحين تنحدر الصّراعات المدمرة لدرجات دنيا، يسقط عبرها الوجدان الإنساني؟ وهنا لابدّ من الإشارة، إلى أن هذه القيم الإنسانية الوجدانية حين تختفي، يعود الإنسان إلى ميوله الشريرة الأصلية، متحرراً من وخز الضمير، ومن كون شهوة القتل، أصبحت متحكمة بمخيلته، وبالتّالي على كل الصور الذهنية التي تنتج لغته المنطوقة في معاشه اليومي، من هنا يصبح هذا الإنسان مستعداً لارتكاب أفظع الجرائم، وممارسة العنف، وإلحاق الدّمار والأذى عند الآخر المخالف له بتوجهاته وميوله، كونه يخضع بذلك لنزعة العدوان التي تقود أعماله، عبر إلحاق الدمار والأذى عند الآخر، ليكون بذلك كل إنسان تعشش فيه ميول هدامة، وبالتالي مناهضة للمجتمع والثّقافة، وهذه الميول قوية بما فيه الكفاية، عند عدد كبير من الناس، نجدها تحدد سلوكهم أمامنا في تجمعنا الإنساني، من خلال ما تقدم يمكن توضيح المنبت المناسب لتكوين العقد النفسية، ولم أجد لذلك أفصح من توضيح منبت العقدة النفسية هذه، مما خطه مؤسس التّحليل النّفسي العربي الرّاحل

"مصطفى زيور" الذي يقول في تعريفها: بأنها تشير إلى مجموعة من الأفكار، وما يرتبط بها من الانفعالات المكبوتة المتداخلة، في مركب كلي يدفع الفرد لاشعورياً، لأن يفكر وينفعل، ويسلك متخذاً نمطاً بعينه يتصف بالجمود، المتمثل بانعدام القابلية للتعديل، وفق مقتضيات الواقع المتغير، ومن العقد التي أجد من الضّرورة إبراز الحديث عنها هنا، ما يسمى (بعقدة الأب الحامي أو ما يعادلها عقدة ابراهام) وفق اللغة النفسية التّحليلية: حيث سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام هو (أبو الأنبياء) وبالتالي هو الأب الرمزي بالمعنى النّفسي والمجاز اللغوي، هذه العقدة التي تشير إلى الاستسلام لقيادة مطلقة، تدعو صاحبها إلى حياة داخلية صوفية، في اللحظات التي فيها تثقل مسؤولياته، لنجده ينقاد حتماً إلى تفويض أمره إلى الإلهام أو إن شئتم القدر، ومن ناحية أخرى تسليم أمره لمرجعية، تأخذ موقع الأب السّند الحامي، ومنحه الثقة ليتصرف، ويجد تصريفاً لواقع الحال الذي هو عليه، بحيث يمنحه قيادة مطلقة لمصيره، ففي اللحظات التي تصل فيها السلطة الأبوية أوجها هذه، في حال يأمر فيها الأب الواقعي بالتضحية بالابن، إما لكونه ابناً عاقاً في حال خالف مشيئته ونظامه، وإما لكونه الابن البار الذي يدافع عن الأب تلقائياً بدون أدنى تفكير على مبدأ الطاعة والبرّ، هنا ما يحصل يكون مقدماً، كقربان أو ضحية لا مثيل لها تقدم للآلهة، ليغدو حلاً للمآزم النفسية التي استفحلت، (تضحية ابراهام / أي الأب) أو عقدة ابراهام، هي التكريس الأسمى لعمل ما، وبناءً على هذا التكريس المطلق للتّبعية الصّوفية، أو المحبة الصّوفية إن شئتم، قد تقوم الحرب بطريقة غير مباشرة، وتعمل وفق وظيفة الضّحية السّالفة الذكر، ليكون فيها الآباء، إن ضحوا بأولادهم، مرتاحين من أي ذنب.

إن العمل السياسي يتطلّب حركة وكلمة وصوتاً وانفعالاً وتفكيراً حراً ومباشراً، والبنية الذهنية الراهنة هي نقيض ذلك تماماً، حيث إن العمل السياسي يتطلب قناعة ونقداً حراً ذاتياً، وإرجاع الأثر للآخر، مما يعني نقداً له. واللحظة التاريخية الرّاهنة، هي نقيض ذلك تماماً بموجب الذهنية السّائدة ومفاعليها، وبذلك يلزم هنا التّصرف

مع المنطق الزمني والرّوحي بشكل تصالحي، وبناء عليه فإن العمل السياسي، لا يقوم على مجموعة المتظاهرين في الشّارع، ولا على من يحملون السلاح في وجه مناصريه، العمل السياسي وفق قناعتي التي أخطّها هنا: لا بدّ أن يتجه لكل شخص يحرص على بناء عناصر فاعلة في بلده، فالبنية النفسيّة القابعة في أساس الأنا، تؤخذ في استعراض الآخر القرين، فيحصل تماهٍ في شكل غيرة منافسة، إما أن تكون غيرة محببة، أو تحبب في غيرة، بحيث يتماهى الثاني بالأول، وكأنه في وضع مرآتي يتأمل نفسه في الآخر، ويتحكم بهذه العلاقة ما بين الذات والذات الأخرى، انقسام أساسي داخلي خاص بكل طرف، بحيث تبقى هذه البنية قابعة في أساس الأنا، ولا تلغى كلياً وهي تبعاً "للاكان" متحكمة بعلاقة السّيد والعبد، كما يرد من أي طرف، لأن هذه البنية تبقى قابعة في أساس الأنا، ولا تلغى كلياً وهي تبعاً "للاكان" متحكمة بعلاقة ضامنة في إشكالية "هيغل" لتصبح علاقة عشقية، عندما يقول العاشق للمعشوق: أنا أنت وأنت أنا، وهنا الحوار يصبح معدوماً، كونه منغلقاً ليس فيه مستقبل ومرسل، بل افتقد عناصره، وهنا مقبرة الديمقراطية، وعيش الاندماج، والتبعية من خلال اندماج العبد بالسيد، الضّحية في الجلاد لتعاش متلازمة "استوكهولم" حيث تضيع المعاني، وتعاش مرضية القهر والاستلاب، إذ يصبح الإنسان في مثل هذه الحالة طوعياً يستسلم ويعبد جلاديه، ويدافع عنهم، ويكرسهم بقوة كحكام لأمره، لأنه أصبح أسيراً له، بفعل الخوف من التّضحية به، وعلى رأي أستاذي المرحوم البروفيسور عدنان حب الله "الخوف يبرر العبادة دائماً"...

العنف توظيف في خدمة الأنا المثالي لكل منّا

إن الحديث عن الأسباب والعوامل النفسية التي كانت وراء حروب أهلية، وحروب مدمرة كالتي قام بها "هتلر وموسوليني وحتى لينين" وحتى عبد الناصر وكذلك صدام حسين، تبرز سمات القائد لديهم، مسؤولية كبيرة كون كلّ منهم كان مطروحاً كمثال أعلى لتأجيج الجماهير، لأنه يصبح في آخر الأمر، يؤمر من

الخارج ومن الداخل عبر الأمر النفسي الذي يعطل المنطق والتفكير العقلاني، حيث القدرة على النقد...

أصبح من الواضح أن الإنسان مهما كان تكوينه، يرنو دائماً إلى تحقيق الأنا المثالي، يركض وراءه دون أن يتمكن من بلوغه، وإذا تجسد مثال الأنا في شخص ما يصبح القائد المثالي الذي تلتقي عنده كل الجماهير لكي تتماهى به، أو حتى التوحد به إلى درجة ذوبانه والتهامه.

ونحن نعرف على صعيد التّحليل النفسي، خلافاً لما يحصل في الواقع في سيكولوجية الجماعة، أنه رغم أن الإطار الذي يحصل به التحليل هو أشبه بالمختبر، مركباً اصطفافياً، فلا هو في الواقع رجلاً مثالياً ولا يدعي تحقيق المعجزات أو القيام بأعمال خارقة. بل ينتظر أن تبزغ مظاهر المثالية، لكي يعالجها لأنه يعدّها أشبه بالحالة المرضية مدعومة بنرجسية مطلقة، مهمته أن يشفي مريضه منها، وهي تتميز باتجاهين:

الاتجاه الأول: إن هذا المثال يستمد قوته بالنسبة للمريض بأنه يفترض أنه عارف لما يعانيه من أزمات نفسية، وأنه قادر على تحريره من القيود والعقد الموروثة حتى يحقق سعادته في الحياة عبر متع لامتناهية.

الاتجاه الثاني: إن كلامه أصبح مسموعاً وله تداعيات نفسية وسلطوية على مسار الأمور، فيستعمل هذه على شفائه من مرض المثالية لكي يبددها وينقلها من المتخيل إلى الواقع لكي يصبح في النهاية رجلاً عادياً بين الرجال وأن المثالية التي كان يسقطها عليه ليست إلا وهماً نرجسياً كانت الأنا تضلله عبرها عن حقيقة ذاته ويلاحظ في قمة هذه المسيرة أن المريض يفقد قدرة النقد ويتعطل ذكاؤه ويصبح مرهوناً بهذا الآخر الكبير الذي يمثل الأنا المثالي...

وإذا أجرينا مقارنة بين الموضعية المتصلة بكلّ من المحلل والقائد يمكننا القول: إن الأول يفسح المجال كي تتكشف هذه الظاهرة المكونة دون أن يشارك المريض المعتقد (أي أن يرى في نفسه عارفاً ويقيناً) حتى يتمكن من تفكيكها أو

تبديد وهمها، فيتمكن عندئذ من الحداد عليها، أما الثاني أي القائد فإنه يعكس صورة مرآتية من صنع جماهيره فيتماهى بها، ويرى بها تكاملاً يضخم نرجسيته وتصبح أناه المتضخمة غير قابلة للنقد، أو استكشاف أخطائه أو تصحيح مساره قبل فوات الأوان. وأعتقد أن نموذج صدام حسين والنهاية المأساوية لشعبه خير برهان على ذلك (عدنان حب الله، 2004م، حول مفهوم الأنا وتمثلاته المختلفة، أحد سيمنيرات المركز العربي للأبحاث النفسية والتّحليلية).

هذه الظاهرة موجودة منذ قديم الزمان، قبل أن يكشفها التحليل النفسي فقد أشار عليها لابويسيه (Leboecier) في مقالة قصيرة له سنة 1552 تحت عنوان "العبودية المختارة".

السؤال الذي يُطرح: ما هو السّر الذي يجعل بعض الحكّام برغم اختيارهم من قبل شعوبهم في موضع يخوّلهم التّحكم بسلطة مطلقة؟

يقول (لابويسيه) إن الجواب سهل: فإذا تموضع هذا الشّخص في مركز السلطة لأن الشعب قد نصبه، فيكفي لهؤلاء المواطنين أن ينزعوا عنه هذا التكليف حتى يسقط كورقة الخريف، وهذا ما حصل للويس السادس عشر إبان الثّورة الفرنسية، فبعد أن كان ملك فرنسا يتمتع بالسلطة المطلقة سحب عنه الشّعب هذا التّكليف، وأضحى بين ليلة وأخرى لويس كابيته (اسم عائلته) واقتيد إلى المقصلة. ولكن يزيد "لابويسيه" على ذلك، وهنا يكمن السّر، أنه إذا سحبت السلطة منه نصبّوا مكانه آخر، قد يكون أكثر ذكاء يستعمل طرقاً أكثر تحايلاً ومراوغة، فيما السلطة قد تكون أكثر تعسفاً وظلماً. إذاً هنالك عامل يصعب فهمه، هو أن الجماهير بحاجة إلى من يحكمها ويديرها، وتنقاد إليه بدافع عبودية مختارة مجبولة في طينة البشر، وهذه الصّور للبنية الاجتماعية، ولمفهوم السلطة المستوحاة من الصورة المكونة للإنسان، فلكل جسد رأس يديره ويسيّره، كما يقول هوميروس: ملك واحد لشعب واحد. أو كما يقول الدّين المسيحي بأن الله خلق الإنسان على صورته. والفراعنة عندما بنوا الأهرام كانت هندسة البناء مستوحاة من سلطة الفرعون الذي

يقف على رأس الهرم. وبقيت هذه الصّور الجسدية مهيمنة في مخيلة الشعوب، فبنت أساسها وتصورها لشكل الحكم، حيث يسود على رأسه القائد أو المثال تدين له الشّعوب بالحب والوفاء والإذعان.

إن تفشي هذه الظّاهرة بالعالم – لاسيما الحضاري – أصبح مصدر قلق معمم للعامّة والخاصة من المتخصصين النّفسانيين والاجتماعيين. فلا يخلو دين أو مذهب من ظاهرة الملل والنِّحل (الانتماءات الضّيقة المتعصبة)، ففي الدّين المسيحي هنالك الكنيسة العلمانوية (Eglise Scientologique) والعديد من الكنائس المستقلة في أمريكا الجنوبية، وفي الإسلام تتعدد الفرق من الإخوان المسلمين وإلى القاعدة وجبهة النُّصرة مؤخراً في سوريا، وتتعامل السّلطات معها مهما كانت، ولا سيما الإسلامية على أنها مِلل ونِحل بعيدة عن الدّين الحنيف ومصدراً لتفجير العنف العالمي والإرهاب.

وبتحليل هذه الظّاهرة يتبين أن انتشارها المستفحل مؤخراً يعود إلى حاجة نفسية واجتماعية في آن واحد، لتأكيد الذات والوجود، رداً على التّعدي الغربي على الإسلام، والمقدسات الإسلامية في فلسطين، والتّعدي على شخص الرّسول بأكثر من أسلوب في السّنوات العشر الأخيرة، وتستقطب هذه النزعة عند البعض ولاسيما الشّباب بعمر المراهقة حتى أوائل الرّشد...

فلكي يتمكن المراهق من المرور بمرحلة التكوين لشخصيته المتحررة من والديه يجب أن يتحقق شرطان: هويته الجنسية وهويته الشخصية التي تؤكد انتمائه العائلي والاجتماعي، ونراه في هذه الحالة يسبق الراشد في تطبيق القيم والأفكار التي تدخل في خانة "ما لا يقال" ونراه في هذه المرحلة شديد التّأثير، بممارسة غسل الدّماغ وإدخال الأفكار الهجينة تحت شعار الدّين الثّائر على الفساد مثلاً، أو الأفكار الثورية الهادفة الى التّغيير وتحت مسميات مختلفة الوطنية والمقاومة والممانعة، ولكن إضافة إلى ذلك يكون دائما وراء ذلك قائد يتمتع بكاريزما، يبهره ويحتل مكانة كبيرة في مخيلته كمثال الأنا، من حيث هو قابل للانتماء.

ولأنه مضعضع النفسية لأنه لم يصل بعد إلى التّوازن العقلاني، فهو ما زال في مرحلة القلق، والهيجان الانفعالي الثائر، يتمرد على والديه ولم يستقرّ بعد على نموذجه الخاص، هنا الخطورة من أن تتلقفه جماعات معينة تدخله في مجالها الجاذب، وبذلك يصبح القتلى بهذه المرحلة معرضاً لخطر الانهيار الذاتي إلى تبعية والديه، أو القفز إلى خارج دائرتهما إلى أفكار كبيرة تعطيه الدافعية لثبات مقدرته على الاستقلال من بوتقة الأسرة إلى العالم الأوسع، فلذلك يجد في الانتماء أي القائد "مثال الأنا" ملاذاً له، ويجد فيه يقيناً يأخذ على عاتقه قلق الوجود ومصيره في الحياة وفي الممات. وإذا التزم بها القائد الذي نصبه مكان المثال الأعلى، كونه يتمم صورته الذاتية، أي أنه يجد الكمال في هذا الوجود، عندما يختزل ذاته في موضوع يتمم الآخر الكبير، وهو بالمقابل يكتمل به.

ولكن يبدو لنا على ضوء هذا العنف المعولم، أن الأمور تتعقد في اتجاه تجاوزه أو التقليل منه، لأن العنف هنا هو بمنزلة نتيجة هذا التكامل بين المثال والأنا يلتقي الآخر حتماً، لأن هذا التكامل يأخذ منحى القدسية ويجب دائماً الحفاظ على نقائه، ولو كلف ذلك عمليات انتحارية.

حيث يطغى الدين على السياسة أو (تسييس الدين) فلا بدّ عندئذ من أن يندلع صراع مسلح يؤدي إلى حرب أهلية، تحت تأثير جاذبية المثال (العقيدة) المتجسد بالقائد، أو بسبب القائد المثالي الكاريزمي، وهذا التقسيم الحدودي على أساس المثال الأعلى له تداعيات كارثية على الساحة العالمية، فابن لادن مثلاً لم يكن يختلف عن بوش الابن، فالأول قسم العالم إلى قسمين: المؤمنين والكفار، والثّاني قسم العالم إلى محورين الشر والخير، فالبنية الفكرية واحدة وتنطلق من الالتزام المبرم بالمعتقد الديني كمثال أعلى سواء كان من جهة أم من أخرى، حيث في النهاية العلاقة بين الطرفين هي علاقة: مرآتية أو أشبه بالبارانويا أي صراعية، إما أنا أو أنت، لا وجود لوسيط كطرف ثالث، ونتيجة ذلك حتمية: حرب ودمار وضحايا بمئات الآلاف وتشرد بالملايين.

إن الخطاب المدّمر يتميز بغياب الأفق الذاتي، فيترك المجال للمثال الأعلى لكي يتكلم نيابة عنه، فيصبح ليس لدينا المجال للقول: إما الخير أو الشر، لنتمكن من القول: لست ضد الخير ولست مع الشّر، يصبح عندئذ الحوار ممكناً لأن الذاتية، وجدت مكانها وحلت مكان الحكم الصارم للمثال الأعلى، مما يمكن دخول طرف ثالث، فبدل أن يكون الخطاب ثنائياً بين مثالين، كخطاب صدامي وعنفي ليصبح قائماً على ثلاثية قابلة للتحاور دون المس بالقدسية.

على ضوء ما تقدم ثلاثة أسئلة تتبادر إلى الذهن:

1- لماذا قدر الإنسان المتكلم السعي الدائم وراء المثال الأعلى؟

2- لماذا يكون الشّباب اليافع أول ضحايا هذه المثالية؟

3- لماذا المثال والمقدس يستمران رغم تآكل الزّمن ولا يتأثران بالمنطق العقلاني؟

وفي حالة غياب الجواب عن كل هذه الأسئلة يتوجّه نحو الآخر الكبير لكي يجد الإجابة، ولا يبقى من سبيل أمامه سوى تنصيب مثال أعلى على قياس نرجسيته سواء باللجوء إلى الملل الدينية (Sects) أو المجموعات والعصابات التي يترأسها قائد، أو اللجوء إلى إدمان الكحول والمخدرات، أو الانخراط في مجموعات إرهابية تمكنه من إنقاذ الآخر الكبير من التفكك والتلوث، وقد يكون الدافع النفسي وراءه كل ذلك الانتقام للأب الذي يعاني الذُّل.

وذلك عبر تفكير لا واعٍ والتفكير اللاواعي، كما وصفه "فرويد" ليس سلة مهملات للغرائز والموروث البدائي الهمجي، فهو المكان الغائب عن وعينا الذي يحمل في طياته الإبداع الفكري والفني، إضافة الى النزوات الجنسية والعُنفية وهو متواصل باستمرار مع الأنا الحاضرة، لكن ما يجعله مستغلقاً، وبعيداً عن متناول معرفتنا هو أن المقاومة المكونة في الأنا دون إدراكه ويعود ذلك إلى الاكتشاف الثاني وهو الكبت اللاواعي المتكون في الإنسان منذ الطفولة انطلاقاً من الكبت الأولي الذي يعود تاريخه إلى بداية دخول الإنسان الأول في حقل اللغة أي أن

اللغة هي التي تشترط تكوين اللاواعي... اللاوعي في المفهوم الشعبي والديني، هو من علم الله، وكفكرة تريد أن تكتشف عن هذا اللاوعي تصبح دخيلة وتدخل في منافسة مع الدين، وكلما زاد التزمت ضاقت فسحة تحرر الأنا واكتشاف اللاوعي...

إذاً "الأوديب" بنية تكوينية للذات تمكن الإنسان من خوض الحياه عبر التحكم باللغة، وتحجيم مخاوفه عن طريق الترميز وتخفيف توقع المجهول، كل ذلك يتحقق بنسب مختلفة عندما يتمكن من اجتياز مرحلة الخصاء الرمزي.

فالخوف من الخصاء لا يعادله خطر، من كونه يشكل سطح المخاوف المتخيلة، فقد اعتبر "فرويد" أنّ الخصاء يشكل أكبر صدمة يواجها الإنسان في حياته، أي بمفهوم أخر يشكل المتخيل الأقصى للمآسي، وكي يخرج من عقدة الخصاء يجب أن يودي بدينه الرمزي، أي التضحية بمتخيل المتعة اللامتناهية، أي أن يصل إلى حدود لا يتجاوزها، حتى أفكار الموت تدخل أيضاً في هذا الإطار، فهنالك من ينكر الموت على أنه حدّ لا يمكن تجاوزه، ويترك للآخرة الوعد في هذه المتعة اللامتناهية.

من هنا نصل إلى الربط بين المثال الأعلى المتجسد بالقائد وما بين المتعة اللامتناهية، يصبح حينها كل أمر متاح بغية الوصول لهذه المتعة، فيعود ذلك بالدرجة الأولى إلى أن التماهي، يوفر عليه ضريبة الخصاء (والتي تتجلى واقعياً عبر التقزيم الاجتماعي ومحو الهوية تجاه الأكبر، تجاه السلطة بأي شكل تبدت) من هنا يكون التماهي بالجلاد صمام أمان لعدم البتر من خلال الاندماج كأن يكون ضارباً وليس مضروباً، مما يؤمن له نرجسيته المتكاملة وأي نقد أو أي إساءة يعتبرها موجهة له...

الإنسان يدخل في صراع مميت مع أخيه الإنسان في حرب تقليدية أو أهلية أو يستبيح دماءهم في أعمال إرهابية ليس للدفاع عن الناس أو لإقناع الضّالين إنما لكي يبرر لنفسه أمام المثال الذي يذعن له ويدين له بالولاء، ويبعد عنه هذا الانقسام الذاتي التي يفتح المجال للاعتراف بالآخر، لأن العالم موحد في معتقده،

وكل هذه الأعمال العنيفة تهدف إلى إحياء المثال الأعلى كي يحميه من عملية الخصاء الرّمزي. وهكذا يحل الأب المثالي ويأخذ حيزاً أكبر في الحداثة على حساب الأب الواقعي.

وهنا نعود إلى المراهق الذي يقف على مفترق طرق ويتساءل: هل هو رجل أو امرأة؟ (بمعنى أدق السؤال عن ماهية هويته الجنسية) ما هو العمل الصّالح وما الفائدة منه كي يصبح مواطناً صالحاً؟ وكيف يمكن أن يجسد القيم المتوارثة ويحافظ عليها؟ ...إلخ.

وفي نهاية الأمر نجد أن الأرض الخصبة لتنصيب الأب المثالي ينمو ويكبر في البلاد المتخلفة، والتي لم تعرف الدّيمقراطية أو التي أفرغتها من محتواها، فنرى أن الحاكم يستمد سلطته المطلقة من تجسيده لصيغة الأب المثالي، الذي يعشش في المتخيل الجماعي، فينشأ من جراء هذا الموقع هوة بين الحاكم وأفراد الشّعب، فهو بمنزلة الأب وهم بمنزلة الأبناء.

وما بين تقاطع المفاهيم ما بين الشّرق والغرب، نجد أنّ المثالية في مفهومها الإيديولوجي تفرز العنف المميز سواء في الاستهداف العنصري أو في الحرب ضد الإرهاب، وارتكاب العديد من الجرائم ضد الإنسانية تحت شعار الحفاظ على القيم الإنسانية، ولكن الجميع من أي جهة كانوا نراهم يذهبون ضحية على مذبح الأب المثالي المتخيل، سواء أكانوا فاعلين أو منكوبين، وهنا مربط الفرس في ضرورة تقبّل الحاكم للنّقد والمراجعة وقراءة انعكاس صورته في عيون جمهوره بجرأة وبحس ديمقراطي منفتح مع منطق العصر ومنطق العقل...

الفصل السابع

الإحباط السياسي والاجتماعي
وآليات مقاومته

تمهيد

إنّ ما نعيشه ونعايشه في الواقع اليومي للبلاد العربية هو إحباط شبه كامل نحسّه ونلمس نتائجه عند كل المستويات التّعليمية والشّرائح الاجتماعية، وكذلك عند السياسيين انتهاء بالمنعكسات على الأسرة. وحيث إنّ العلاقة التي تراجعت وتتراجع باستمرار مع معظم القائمين على إدارة شؤون البلاد أو الحديث عنها مردها كما أجد، أنه كان في بلادنا دائماً إهمال للمواطن، وفي أحسن الحالات كان يتم الاهتمام بالبنى التحتية من طرق وكهرباء وهاتف ولو كان ذلك بالحدّ الأدنى، وليس ضمن خطة متوازنة لكل الأماكن في المدن والضواحي، على حين كانت تهمل شؤون المواطن الحياتية، مما يجعل هذه المشاعر تتأجج وتربك أصحابها، ومما جعل ويجعل العلاقة مع القانون والسلطة في بلادنا علامة مشوبة بالحذر والشّك كونها تميز بين الناس عموماً، ولا يتساوى الجميع أمامها.

فلما كانت العلاقة مع القانون في بلادنا علاقة غير مبنية على أسس تربوية بحيث تبدأ مع الأطفال كي يصبح القانون الخارجي قانوناً داخلياً، لأجل ذلك نجد أن القانون له صفتان خارجية رادعة تعتمد على السلطة وداخلية نفسية رادعة تعتمد على الضمير والعرف الاجتماعي، لذا الملاحظ أن الإحباط النّاجم عن عدم تطبيق القانون ناجم من عدم فهم القوانين ووظائفها، فما هو معاش في بلادنا وعلى كل المستويات هو حالة الخلط بين السلطة والقانون، وحالة الخلط بين الممنوع والقانون أيضاً، إذن قانون المنع يؤدي إلى الحرمان والإحباط، أما القانون الثاني فيفترض أن يؤسس على

فهم اجتماعي نفسي يؤدي إلى تأسيس الرغبة وتطبيع العلاقات الاجتماعية. من كون العلاقة الثنائية بين طرفين يمكن أن تتطور فتصبح صراعية عنفية، ولكن بفضل دخول القانون كطرف ثالث لا شك سوف تحدث نقلة نوعية من ميدان الخيال العنيف إلى الرمزي ليجد كل فرد مكانه تحت ظل دولة القانون، من دون أن يضطر لإلغاء أحد... بالنسبة إلى السّياسيين فإنهم يعولون إحباطهم بسبب ضعف الإمكانات المتوفرة لديهم، فكل طرف يلقي بالشّكوك على الطرف الآخر، لحد يضيع الهدف المشترك بينهما، وبهذا تكون الإمكانات للالتقاء تبعاً للمواقف لهم مقيدة بأطر محدّدة.

ولمحاولة فهم ظاهرة الإحباط الشبه معممة في بلدنا، هناك أسئلة تحتاج إلى التفكير والتأمل حول العلاقة القائمة بين المواطن، حول مفهوم الوطن، الوطن في كل منا، ومحبة هذا الوطن ومفهومه النفسي؟

ما نلمسه أن هذا الفهم مختلف بين عموم الناس. فالوطن بالمعنى النّفسي إما عطاء مستمر في اتجاه واحد، وإما عطاء ودَين يتوجب على كل مواطن سواء بهويته وانتمائه، أو من خلال الاستمتاع بموارده أن يتمكن من إيفائه (حب الله، 2006) والسّؤال الذي أجد طرحه مهماً أيضاً، كيف يمكن لكل مواطن أن يؤدي دَينه لوطنه؟

إنّ البنية الأساسية للمجتمع لا بدّ أن تقوم على علاقة ثلاثية بين السلطة والقانون والمواطن، حيث أن كل طرف مرتبط بالآخر، فعندما يحل المواطن محل القانون كائناً من كان هذا المواطن الحال واحد والنتيجة تكون بأن تعم الفوضى، لأن لكل واحد قانونه، وفي حال حلّت السلطة محلّ القانون لا يعدّ الحكم ديمقراطياً، وإن أي خلل يطاول هذه العلاقة يؤدي إلى سوء فهم لكل دور، وإلى اضطرابات على الأرض وإلى تململ اجتماعي.

والإحباط لا بدّ أنه تأتى من الإهمال لحياة المواطن وحاجاته، مما يشير إلى أنه ناجم عن فقدان الحب بمعانيه الاجتماعية بين الحكومة والمواطن، وبين الوطن والمواطن.

فمثلاً إنّ تعقد تدبر شؤون الحياة اليومية، والإحباط الناجم عنها في فترة من الفترات كان يُغيّب عن الناس الاستمتاع، حتى بلذة طعم الفاكهة النّاضجة في صيف بلادنا، والحصول على حاجة الأسرة من ثمرة شجرة الزيتون الذي تتبوأ سوريا مرتبة متقدمة في زراعتها وإنتاجها، والسبب في ذلك الأسعار المرتفعة من جهة، وبسبب أن أغلب المناطق التي تعطينا هذه المواد الغذائية في غالبيتها كانت في اضطراب أمني، والملاحظ حتى في حال توفر هذه المنتجات في بعض المناطق الأخرى أن أسعارها ترهق الزبون وتجعله مثقلاً بالإحباط نتيجة لارتفاع الأسعار اللامنطقي، لا يخفي ذلك اضطراب المزاج العام الذي يمنع الاستمتاع واللذة بنكهة ما يؤكل، كما أن تبادل النكت الشعبية يعطينا دلالة، رغم أنها اليوم باتت رفاهية مخجلة... وهذا ما ألمسه عند أصدقاء على صفحات التواصل الاجتماعي عبر النت، فقد نشرت منشوراً في إحدى المرات خلال الأزمة في سوريا، في مضمونه فكرة بروح النكتة، قال أحد الأصدقاء الافتراضيين بالحرف: ضحكت رغم أني لم أكن أريد الضحك أبداً، إذ إيقاع الحياة اليومية من حيث الاندفاع والحيوية والحب والبهجة والنّشوة الداخلية، فقد تبلدت هذه المشاعر والانفعالات الإيجابية، لدرجة أنني سمعت في الأيام الماضية عبارة تتردد هي: «لم أعد أحس بشيء» من عدة أشخاص من مراجعي عيادتي النفسية، كما كنت أسمعها من متدربين على العمل التطوعي للدعم النّفسي، حيث تكررت لدى خمسة من الشّباب والصبايا بعمر النّضج والعطاء عمر المرحلة الجامعية من أصل عشرين شخصاً، وقد سمعت عبارة وقفت عندها كثيراً لصبية جميلة مفعمة بالطاقة للحياة قالت: «عندما أشاهد شخصاً ميتاً بات الأمر عادي لا أحزن ولا أفرح»، هذا الجمود العاطفي الذي أتلمسه يومياً، من الدواعي التي حرضت كتابتي هذه، كما بات الكثيرون يعيشون في تذمر مستمر، وحتى في كلامهم نلمس ونسمع أنهم باتوا يقولون إن طعم الحياة، لم يعد كما كان في السّابق، ليس لأنهم راضون عما عاشوه في السّابق، ولكن لأن القلق يعصف بهم تجاه المستقبل... مما يجعل الفراغ حاصلاً بين الماضي والحاضر والنظرة للمستقبل.

وكأن هناك حاجز ما، يحول بيننا كأشخاص وبين الاستمتاع، ورغم الإمكانات المتوافرة لكل فرد على السّواء، كي يستمتع بما يتيسر له لنفسه دون أن يطاوله شعور بالذّنب قد يتحول في مرحلة ثانية، إلى شعور بإحباط مجهول المصدر، في فترة الأحداث القريبة التي عاشتها بلدنا سوريا، ومن خلال تواصلي مع محللة نفسية سورية، زميلة لي تقيم في فرنسا سألتني عن حالي، وقبل أن أجيبها أردفت رغم أني أعرف نصف الجواب، ولكن لا بدّ أن أسأل، ما لمسته من كلامها هذا، ليس جوابها عني، بل لمست أنها هي أيضاً وبحكم انتمائها الدّاخلي لما يعاش في البلد هي أيضاً غير مرتاحة، وهذا أيضاً ما نجده لدى السّوريين المهجرين بدافع طوعي أو قسري، سواء هاجروا في ظروف مرتاحة، أم في ظروف خاطفة، الكل لديه حسرة ويعيش مستوى من الشعور باللوم والتقصير. هذا الغياب الحاصل في بلادنا للتحليل الفكري والواقعي بعيداً عن النقد والتقريع وإلقاء التهم، هي عوامل أساس تترك آثارها علينا، ولها أغراض اجتماعية ونفسية، لا يمكن أن تمحى بمجرد توقف القذائف، وفتح المعابر الإغاثية، وإقامة الجسور والدعوة إلى المحبة والعيش المشترك، فهذه الأحداث العنيفة اللامسبوقة فعلاً في تاريخ المنطقة، لا يمكن أن تنسجم مع أي منطق عقلاني أو إنساني، وهذا الشعور أساسه من أن الجميع يشاركون بهذه الأحداث، إن لم يكن بالفعل فبالهوام والخيال، فمن يشهد على الموت يحمل شعوراً بالذنب حيال من فقد حياته ممن حوله، وهذا ما يسمى "بعقدة الناجين من الموت"، وما يحصل من دمار في البلاد، وتهجير للسكان وتعطل الأعمال من خلال اضطراب إيقاع حياة الناس. وبذلك نجد أنه حين تتعب نفسيتنا نقسو على الجميع دون ذنب حتى أولئك الذين نحبهم كأطفالنا وأصدقائنا، وبما في ذلك أنفسنا، من هذه المقولة: لا بدّ من الوقوف عند "عقدة الناجين من الموت" التي يمكن أن تُفسر بأن هذا الخيار، قد أتى تلبية لأمنية تضمر في النفس، فخروج الشخص سالماً وأخيه قتيلاً، لا بدّ أن يولد شعوراً بالذّنب، لأنه لم يكن بريئاً حيال هذا الخيار القدري، من هنا تصبح العلاقة مع الحياة قسريّة، والعلاقة بالاستمتاع بملذات هذه الحياة تصبح مقرونة بالألم والحزن الداخلي.

فقد أصبح المواطن في بلادنا من جراء هذه الأحداث المشحونة، ومآلات دوامة العنف، كالطفل الذي يحتاج إلى المؤازرة والمؤاساة، وبحاجة إلى من يحسن فهمه، والاعتراف بأزمته بات ضرورة ماسة أكثر من تلبية بعض من حاجاته المادية الملحة، بما في ذلك المثقف والمتمثل بالقارئ والكاتب والفنان والصحفي والأستاذ... بمعنى آخر المثقف هو «كل مواطن اعتبر الثقافة وطناً له»...

فالمثقف يعاني من تهميش لحقل الثقافة في معالجة الأحداث، والتكلم عنها بحرية، وهذا ما زاد ويزيد معاناتنا، لأنه السبيل الوحيد بتقديري الذي يمكن أن يخرجنا من صدماتنا من خلال ما يعاش من جراء الأزمة السياسية التي تعيشها بلادنا، وأحداث العنف الدامية المرافقة، حيث إن هذا الخروج عبر الثقافة يكون عن طريق الترميز، بدلاً من أن يأخذ الإحباط شكل النقد والنق والنكد، يمكن أن يتجه نحو التعبير الفكري الكتابي، فمهمة الكاتب المسرحي والروائي تتمثل باستقراء الآلام الداخلية، باستخراج التعابير اللازمة لها، وكذلك الفنان والرسام والشّاعر وعالم الاجتماع وعالم النفس، وغيرهم من التخصصات والمواهب القريبة من ألم الناس. الإحباط عند المثقفين واضح المعالم، فمن معالمه أنّ أي مثقف لا يقدر اليوم أن يُحيّد الموضوع السياسي عن اهتماماته، حيث صار الحديث السياسي، ورجالات السياسة الفعليين على الأرض يقاسمون المثقف تفاصيل حياته، كما لو كانوا الظل الذي لا يمكنه الانفصال عنه.

خلاصة القول: إنّ عامل الزمن هو الأمل الوحيد لتصحيح الرؤية للنّفس، ومن ثم للوطن والمواطن وهوية الانتماء... لذا هناك سؤال أجده وجيهاً، هو: لماذا موقع الخطاب السياسي يستقطب كل اهتماماتنا؟

فجميع أطراف النزاع اليوم يحاولون إيجاد موقع لهم في الحدث السياسي، إذ يجدون لهذا الموقع أفضلية، ويعملون على تبوء هذا الموقع.

فإن سنحت الفرصة يتخلون عن اختصاصاتهم سواء العلمية أو الثقافية أو الدّينية، فتجيّر كل الأمور إلى المجرى السياسي ويجعل فرص استقلال الخطاب

الثّقافي معدومة، وذلك لأن خطاب المثقف يتسم بالعدمية في هذه المرحلة بالمقارنة مع الخطاب السياسي والمالي، لأنه بصورة أكيدة تفعيل دور المثقف في حياة الناس، هو ما يشكل أكبر الخطر على الموقع السياسي، مما يدفع جميع الأطراف إلى محاربتهم أو احتوائهم لصالح خطاباتهم، إن أسوأ ما يعاش في الواقع الثّقافي اليوم، أن يكون المثقف مرهوناً بالسّياسة ورجالها، بدلاً من أنه من المفترض البحث عن سبل لتفعيل المحتوى الثّقافي، واستثماره شعبياً، لأنّ الثّقافة في حياة الناس هي الانفتاح على ذاتية الآخر، فهي بذلك اعتراف على المستوى الرمزي، لتصبح كل تفاعلات حياتنا الفكرية والنفسية تتجاوز الحاجات الحياتية...

يبقى المثقفون والمفكرون قديماً وحديثاً هم القوة غير المنظورة لأي بلد، الثّقافة التي يتحلى بها شعب ليواجه بذلك الأخطاء المحدقة ببلدهم، فأهمية المثقف إن تم تفعليها، قد تتجاوز قوة أكبر الجيوش، وبذلك كان لهذا الواقع المخيم على الجو الثّقافي، مما أدى بالكثير من العقول إلى الهجرة.

إذ إنه رغم قسوة الغربة يتم تفضيل فراق الوطن والأهل على العيش في ظل جهل أو غوغاء أو فساد. ولاسيما أنه لم يكن للمثقف أي دور أو مكانة، حيث ينظر للكلمة الفصل تلك المتأتية من السّاسة والسياسيين، هذه الكلمة في مفهومها الضيق المسيطر، تغدو من الدّواعي الأبرز لإحباط المثقفين اليوم. وقد نستطيع حصر أحد أهم الأسباب أيضاً لهذا الإحباط المتجلي بتدني الوضع الاقتصادي، ولكن من وجهة نظري أن عدم الاكتفاء عند المثقف من عدم حصوله على التّقدير لما يكفيه، والفنان لما يرسمه، حيث لو حصل ذلك لكان التّقدير لما كتبه الأديب والمثقف، ولما يرسمه الفنان من خلال الاعتراف بفنه، وبذلك يكون الاكتفاء عند المثقف يعاش عندما يجد أن الرّسالة قد وصلت إلى هدفها، فاكتفاؤه في مكان رمز بينه وبين المجتمع من خلال إعادة مكانته واعتباره. من هنا يكون إحباط المثقفين مضاعف مرة بسبب الوضع الاقتصادي لهم وأخرى بتهميش دورهم في الحياة العامّة.

من تجربتي العملية في برنامج العمل النّفسي لضحايا العنف في الفترة الأخيرة، فأبرز ما أجده أن الأمور متجهة إلى رؤية الظّاهر من مشكلة الأحداث، بما تخلفه من دمار وخراب وتعطيل للبنى التحتية، ويغيب وبشكل مؤسف عن الذّهن الخراب غير المنظور للطّاقات البشرية، هذا الخلل الحاصل هو بتقديري، له انعكاساته المباشرة في التّعامل الاجتماعي، والخلل الذي حصل لا يزال يحمل آثاره بين الناس أنفسهم، الثقة مفقودة بين التّاجر وبين المستهلك وبين الأصدقاء وبين المريض ومعالجه.

وفقدان الثقة هذا يعود في الدرجة الأولى إلى ذهنية الحرب، وما كانت تبيحه من انتهاكات للحقوق الإنسانية والقانون المدني والعرف الاجتماعي، ويبقى السّؤال المركزي الذي أجده قد يكون مدخلاً للعمل على هذا الإحباط الحاصل، هو: كيف يمكن أن تعاد العلاقات الاجتماعية إلى مسارها الطّبيعي في بلادنا؟

هذا الأمر لا يمكن من وجهة نظري أن يعاود الاستقرار دون إعادة الاعتبار إلى ما يسمى الفكر الثّوري، بكل إنتاجاته الثقافية والعملية. بعد أن عانى المثقفون في كل مواقعهم الفكرية من تهميش دورهم في الحياة الاجتماعية ولم تكن لهم الكلمة الأقوى.

كما أن مكمن الخطورة في الحرب على الذات في بلادنا، يأتي من كونها تعطل الطاقات والإمكانات ولا يتم توظيفها جيداً وما زالت بخسة، لأنه مهدور واكتئابه يضاعف من هزيمته، ويرسخها من خلال النّظرة التّبخيسية إلى الذات وإمكاناتها وطاقاتها، لتصبح الهزيمة التي كانت تعاش خارجية في الأصل لتعاش كهزيمة داخلية، وهذا ما يضاعف من سوء حاله، من خلال هدر الطاقة ثنائي المصدر: خارجي وداخلي في آن معاً حيث إن جلد الذات يعطل العقل والسعي للخلاص من هزيمة الهدر، أو الحد مما يحمله من خسارة من يجلد ذاته يغرق في العطالة بدلاً من النهوض إلى التحدي والاستجابة له، فهدر الطاقة الذاتية يتعزز بشكل مضاعف من خلال صب النقمة على الدنيا وقوانينها وعلى الناس كل

الناس، من خلال النّظرة التّشاؤمية، للوصول لأمل يرتجى، حيث بات الحال هنا، فليس من سبيل إلى الفعل والتّدبير ولا مجال للخلاص، لا تتعطل عندها الطاقات الذاتية وحدها، بل يصيب العطل لكبت وطمس المشاعر، حيث لا جدوى من ذلك في نظر المكتئب الذي يسدّ على ذاته، كل منافذ الفرص وإمكانات الحل، وهو حين يفعل ذلك يكرس هدره من جديد، بحيث يتحول إلى أداة هدر كيانه، ويجعل من ذاته أسيراً للقيد المزدوج.

ومما لا شك فيه أن جلد الذات وتبخيسها من جانب، وسد آفاق الدنيا الواقعية من الجانب الآخر، يُنتج الإنسان المهدور وفقاً لرأي "مصطفى حجازي" حيث يقع ضحية فخ الاكتئاب الوجودي من خلال تجمد الديمومة، وتعليق التاريخ واجترار المأساة، ليقترب الهدر من فعل الصدمة النفسية (truma)، إذ تحدث الصدمة النفسية كرد فعل على حدث مفجع ومفاجئ، وبدون إنذار أو استعداد من قبل الشخص، كي يتهيأ للدفاع والمجابهة حيث تحصل الصدمة، عندما لا يتوقع الشخص حصولها بتاتاً، ويظل الشخص مذهولاً إزاءها كي يكتشف بعدها، أن مجرى حياته قد انكسر وتاريخه قد بتر ولا يعود بعدها أي أمر كما كان سابقاً، فيحصل لقاء فاشل بين الشخص المصدوم والواقع، بحيث تصل درجة الإحباط نتيجة الهدر لحد الصدمة، حسب هدر الطاقة المتعرض لها، بحيث يخترق الواقع الموضوعي قلب الواقع النفسي فيحدث فيه ثغرة وتمزقاً في الأنا، ويترك الشخص مهزوماً بلا دفاع حسب هدر الطاقة المتعرض له.

في تاريخ العرب البعيد العائد لما قبل الإسلام كانت ولادة شاعر أهم من ولادة فارس مغوار، وحسب تصنيفات اليونسكو الشاعر هو فيلسوف...

من هنا لا بدّ من التأكيد أن المثقفين والفنانين أو المفكرين بصورة عامة، هم القوة لأي بلد، لذا إحباط المثقف ليس مشكلة شخصية، لأن هذا الأمر يطاول المجتمع بعناصره كافة، وذلك كون المثقف هو سفير لبلاده إلى ما وراء الحدود ومراسل لبلاده، بحيث يستقي منهم ويعطيهم لنجد أن كيفية توظيف الكلمة بعيداً

عن المال، وتغلب المعادلات من توظيف الكلمة من خلال تفعيل المال ليخدم الكلمة والفكرة، وليس العكس.

آليات مقاومة الإحباط وهدر الطاقة

ومن هذه الآليات التي قد تتفاوت فعالياتها أذكر:

1- آلية الاحتماء بالماضي: إذ من الشائع أن نجد اللجوء إلى ذكريات الماضي سواء المتصل بالأفراد أو الأمم، الاحتماء بالماضي شائع في أوقات الهزيمة الجماعية من حيث الجماعة تنشد العيش في الأمجاد التاريخية ووهم إمكانية استعادتها بما يوفر توازناً وجودياً بديلاً – ولما كان الماضي لا يستعاد بل يندمج مع الذات، ولا قيمة له بالتالي إلا بمقدار ما يحفز على النهوض إلى مواجهة المصير وصناعة المكانة، أن يتجنب الإنسان المُحبط الحاضر الذي يضعه أمام مأزقه وعجزه عن التعامل معه، إما بالهرب في أحلام اليقظة المستقبلية أو من خلال أمجاد الماضي، وهنا يتم التخلي عن المسؤولية الذاتية في المجابهة والفعل تاركاً الأمر للظروف التي تأمل أن تأتي فيها اللحظة المواتية – هنا يتم التحول إلى حالة الانتظار تماماً كالمحتاج مادياً، الذي يحلم بضربة الحظ التي تغير وضعه من حال إلى حال.

2- الاحتماء بالقدر والمكتوب والامتحان والبلاء دفاع جماعي آخر في مواجهة الهدر: يتجاوز الأمر في هذه الحالة مسألة الاحتماء وصولاً إلى إسقاط المسؤولية الذاتية، فليس للإنسان إلّا التسليم وليس عليه من ذنب أو غضاضة وليس له أن يعاني من تفجيرات الأزمة الذاتية ما دام لا سلطة له أو إدارة أو حول لما حل به، حيث يتخلى الإنسان هنا عن مركز الضبط ويترك ذاته للأقدار تفعل ما تشاء.

يشكل الكلام واحدة من آليات التمويه وملء خواء الكيان الأكثر شيوعاً في بعض الأوساط، الثرثرة والإفراط في الكلام الفارغ من المحتوى لتضليل الآخر حول

القيمة الذاتية، فمن خلال الكلام يعطي المتحدث لذاته القيمة، والمكانة والقدرة كونه يبهر من يستمع إليه.

3- الهروب في العموميات والتّنظير: وهنا تتحول اللغة إلى أداة لتزوير الواقع المدقع بالموت العنيف، فيعاد إنتاج الهدر المعبر عن الإحباط، والقلب إلى الضّد إحدى آليات الدفاع البارزة ضد الإحباط، من مثل الاستعراض الذاتي للمعرفة، والادعاءات المبالغ فيها على مستوى المعرفة والمقدرة عند من بعض المتحذلقين ممن يتعاطون للشأن السياسي كحرفة بكلام اجتراري ليس إلا.

4- ادعاء التّمكن من التّدبير: من خلال التّسيير في إيجاد الحلول للمشكلات وإيهام الآخرين بالقدرة على القيام بما يعجزون عن القيام به، والقفز إلى الاستئثار بالكلام مع تطاير الأفكار "fligh of ideas" البعيدة كل البعد عن مسببات الحدث الحقيقية. لذا بهذا القطع عن فهم المسببات يغدو التفصيل في الحدث لا يعدو كونه ثرثرة.

يقلب العجز إلى قوة موهومة والفشل إلى ادعاء النجاحات، والجمود والسّلبية إلى مبادرة غير مدروسة، لا تقوم على أساس من القدرة والفاعلية، حالة إلغاء الضّعف واستبداله بوهم القوة، وإيهامها من خلال الانضمام إلى الوجهاء، من ذوي السلطة والنفوذ، ليس هذا التقرب المقصود منه الكسب أو تحقيق مصالح بل هو مجرد تباه بالانضمام إلى حلقات تؤمن إطار مرجعي، بحيث نسمع كثرة الادعاءات لدى الواحد من هؤلاء بأنه يأخذ على عاتقه همّ الجماعة، لأن لديه الكثير من الغموض في انتماءاته وولاءاته.

5- الإدمان على الكحول والمخدرات: أحد آليات القلب إلى الضّد المعروفة، لما فيه من تغيير لدلالة الوجود ذاتها، وبالتالي دلالة الذات من حيث أن المخدر يقوم بدور التّعويض عن خواء الوجود، وبؤس انعدام القيمة.

6- الاحتماء بالمقدس واللجوء إلى حلقات الذّكر وشعائر التّطرف: حيث تتغلّب دلالة الوجود على الفراغ والخواء والفشل إلى انعدام القيمة، والمعنى من

خلال تراكم التعرض للعنف المتراكم داخل الصّدور بأشكاله المختلفة، يعدّ واحد من المسببات الأساس لعيش الإحباط حين تتراوح الطاقة ما بين نبض الحياة المبدعة، ونار العنف المدمرة ما بين طاقة الحياة وطاقة الموت.

حيث إن فعل الطاقة المتراكمة التي تتحفز لكي تكون آلة فعل، يمكن أن يكون إبداعاً خلاقاً وعنفاً مدمراً بفعل الطاقة المتراكمة التي تتحفز للانفجار بعد ضغط الظّروف السّيئة، ويمكن أن يستثار بفعل حادث مساعد أو مفجر يحمل الكثير من عناصر المفاجأة، إنها طاقة تتحول من وجود بالقوّة إلى قوّة تحوّل وجود الطاقة الكامنة إلى وجود بالفعل، من حيث القوى المركزية السّاعية إلى التّجمع في نقطة مركزية تغذيها طاقات متناثرة تجمع أشلاءها وتتراكم في نواة صغيرة وقريبة في آن واحد، وفي صلب عملية التّخزين هذه، يُخزّن ما يمكن أن يكون قوى خير أو قوى شر، قوى حبّ وحياة أو قوى نار وعنف "قوى مبدعة أو قوة مدمرة".

هذا الصّراع ما بين قوى الحياة وقوى الموت، ما بين قوى الحبّ وقوى التّدمير حيث لا شيء يضيع، وإنما كل شيء تتحوّل مسار حركته، ليكون متدرجاً ومتعرجاً ومتداخلاً، وفي اتجاهات عديدة منها ما ينطلق، ومنها ما يستدير ويعود لكي يعاود الانطلاق. والمعادلة التالية هي: معادلة حركة الطاقة المخزنة والمتحركة.

وبذلك يكون اضطراب المزاج الناشئ عن الأسباب العلائقية المختلفة التي تم الإشارة إليها كونها، فعلاً نكوصياً نتيجة الصدمات الهلعية التي خضعت للكبت الطويل، وجاء حدث مفصلي ليحركها، وأتاح ظهور حالة نكوصية برزت معها معالم العزلة والاكتئاب والانهيار.

ومن أسباب الإحباط أيضاً:

إن المعركة الحاصلة في الواقع المحيط، والانكفاء على الذات، نتيجة ضعف الثقة والإحجام عن التبادلات الاجتماعية، ما يعني تداعي قنوات الاتصال، والدخول في متاهات الاتصال الذاتي وغياب القدرة على الإدراك، والحكم على الأشياء مما قد

يصل مرات إلى حدّ الهلوسة والهذيان، هذه البيئة النفسية والاجتماعية هي ما تؤسس لحالات مرضية نفسية خطيرة، من حيث إن صفة التّكيف تسيرها النزوات والغرائز المختلفة المنفلتة من عقالها، التي لا تعرف الضوابط ولا الحدود، إلى سلوك الانكفاء والانكماش دون الدخول كلياً في دائرة الذهان، ليغدو الفراغ تربة خصبة لحالتي الاكتئاب ونوبات الهلع... وبذلك يكون الكلام أو التبادلات العاطفية استخراجاً للمعاناة، وعدم إبقائها كداء قاتل يستبيح الموت.

فالدّخول في مرحلة من العبثية، وغياب الأمل وضياع الوعي بملذات الحياة، تعاش خلالها عقدة الذنب كحالة نفسية اكتئابية غير مرضية، هو ما يسمى بالإحباط، كما أن تجمع الطاقة في نقطة معينة يؤدي إلى حالة شحنة متوترة تؤدي بدورها إلى حالة توتر ميكانيكي، هو بمنزلة بؤرة عنف منطلقة مادياً ومعنوياً.

ومن خلال إفراغ الطاقة من هذه النقطة المركزية، يتم في اتجاهات عديدة مما يؤدي إلى إذابة الشحنة، كما يؤدي بدوره إلى استرخاء ميكانيكي.

إذ في نهاية الاسترخاء تعود الطاقة لكي تتجمع تدريجياً في المراكز، وذلك بعد إعادة تجميع القوى المتناثرة في جهات متعددة، بحيث لا يتم الإفراغ بالكامل، فما يتبقى من الشّحنات المتراكمة غير المفرغة، يتقدم فيتحول إلى طاقة عنف وغضب مدمرة للذات وللآخر، مع أنه يمكن لهذه الشحنات أن تكون بقايا طاقة مبدعة وخلاقة.

إن كل سجن للطاقة يؤدي إلى تشويهها وإتلاف نبض الحياة فيها.

- وهناك احتمالات ثلاثة لآثار سجن الطاقة العنيفة هذه من مثل:

عنف القمع "repression": وهو فعل اجتماعي خارجي قد يخضع له الفرد في بيئته المادية والبشرية، كأن يُمارس عليه مثلاً من السلطة الخاضع لها، ويتراوح عنف القمع ما بين أشكال عديدة كالتجويع والتهميش إلى التمييز والمصادرة إلى الضرب والاعتقال ...إلخ أي سائر مستويات ممارسة سلطة القوة مادياً ومعنوياً. هذا العنف لا يلبث أن يستثير عند الضعيف الضحية كل مقومات الصد والتجلد

والمكابرة، وممكن أن يصل إلى الثأر، حتى ولو بعد حين وفق تركيبة البنية النفسية لبعض البيئات الاجتماعية.

لينشأ ويتمظهر **عنف الكبت** "refaulement": وهو فعل نفسي داخلي ذاتي تتحول بموجبه سلطة القوي والظالم إلى سلطة ذاتية بواسطة آلية التمثل والامتثال، وذلك بتمثل السلطة الخارجية، وتحويلها إلى جزء لا يتجزأ من الشخصية والامتثال لهذه السلطة كونها تخيف وتهدد وتحاصر، وتعرض الأمن الداخلي والذاتي للخطر، إلّا أن الكبت الذّي يطال الطاقة المقموعة لا يلبث أن يتلاشى، وتنهار عند أول مناسبة متاحة وممكنة. وعندها يعود المكبوت بشكل ناري ومدمر فيجتاح، ويبيد ويهدم ويقتل، وكما هو معلوم وفق المنظور النّفسي التّحليلي أن: "لكل مكبوت عودة".

عنف الصدّ "inhibition": وهو فعل عضوي جسدي فيزيولوجي وبيولوجي عصبي وعضلي وحركي وأحشائي، إن الآخر الذي يوجد في الخارج، ونتفاعل معه بالإحساس، لا بدّ أن يتحول إلى إدراك، حين يصبح معطىً مدركاً، تصدر عليه أحكامنا، وتُعطى أوامرنا بالاستجابة له سلباً وإيجاباً، ونحن نتخذ منه مواقف تستثير حركة عضوية فاعلة، ويصدر عنها آلية عصبية وعضوية سلبية وإيجابية، من هنا يحصل التقاطع ما بين النفس والجسد، ويمكن لهذا التقاطع أن يكون على شكل تواصل عضوي سليم وصحي وبنّاء، كما يمكن أن يكون سلبياً وصادراً على شكل توتر أو نسيان أو عوارض نفس جسدية بالغة التعقيد، مما يشار إليه حالياً تحت الضغوط أو التشنج "stress".

وقد يتحوّل عنف الكبت إلى عنف الصّد لحركة الجسد، ولوظائف الجسم ليظهر ذلك في صورة أمراض نفس جسدية عبر نواة علائقية تبادلية تسمى /السّد/ التبادلي الذي تحدث عنه "د. سامي محمود علي" والتي تُعد نظريته في الأمراض النّفس جسدية، إحدى المداخل العلمية المهمة لفهم آلية حدوث الكثير من الأمراض العضوية الخطيرة من مثل أمراض السّرطان، واضطرابات وظائف الجسد المتنوعة إلى أمراض الضغوط على أنواعها على قاعدة وحدة النفس والجسد.

وتجدر الإشارة إلى أن أخطر أشكال العنف المسببة للإحباط من شدات نفسية عالية هو "فقدان الذات والنرجسية":

إذ كثيراً ما يلاحظ أن الشخص المعنف يمر بفترات عابرة يتغيّر أو يتبدّل فيها الإحساس بالذات وبالتالي يحصل فقدان لقوام الشخصية "depersonalization" وفي هذه الحالة يدرك الفرد أنه أصبح مختلفاً جذرياً، وبدرجة كبيرة عما قبل، من حيث يشعر الشخص بوجود تغيّر حقيقي في نفسه بالنّسبة للعالم الخارجي، ويشعر بتغيير كبير قد طرأ على صورة جسمه، فيرى أن ملامحه متغيرة، فلا يتعرف عليها أو يستهجنها عندما ينظر إلى المرآة، فالشخص يخبر نفسه متجمداً بليداً، فتصبح صورته غير مألوفة له، ويتبدى له جسده، وقد أصبح خفيفاً هشاً، هذا الإحساس العام بفقدان الذات، يكتنفه أيضاً إحساس عام موازٍ بالامتعاض من كل ما يجري وباستغراب لكل ما يحدث له من جمود انفعالي.

"Von Gebsttle" يقول: إن فقدان الشخصية هو اضطراب في ذاتية النفس "autopsycho" حتى أنها ترى كل شيء حولها وقد أصبح ميتاً، إنه صورة من الخلل في الذاتية النّفس جسمية "psycho-somatic" بحيث أن الشّيخص يشعر وكأنه لم يعد ممتلكاً لذاته، وفي رؤيته لفقدان الشخصية يرى "Akner" أن الفرد الذي يمر بهذه الخبرة، لا يمكن أن ينساها، وهو يعتبرها خبرة تتسم بتغيير على المستويين الدّاخلي والخارجي، وهذه الظاهرة في مجملها هي خبرة غير سارة بالمرة، وقد تمتد لتشمل أيّاً من الوظائف العقلية الأخرى. أما "Schider" فيصف حالة فقدان الشخصية بأن المريض يشكو أنه: لم يعد ممتلكاً لذاته وأنه أصبح آلة ميكانيكية تلقائية التّسيير، وكأنه أصبح دمية كل ما يفعله بلا إرادة فلا يشعر باللذة، أو حتى بالإثم، لا يكره ولا يحب، وفي قمة الإحساس بفقدان الشخصية يفقد الشّخص مدركاته الجسدية. فلا يشعر بالجوع أو العطش، وبذلك يصبح غير قادر على التّصور، أو التّذكر حيث عند فقدان الشخصية يبرد الوجدان، ويتلاشى. ولكن تبقى البصيرة متألمة متحسرة على ما يحدث في هذه الحالة، من

ذلك نجد أن الخبرات والمعلومات، التي تأتي من خارج الشّخص إليه يتم إنكارها كذلك، تهمل الأحاسيس التي يشعر بها الشخص داخل جسده، وتقتحم انطباعاته وانعكاساته الذاتية "reflective impressions" كل المساحة أو كل الحيز المتاح لكافة الإدراكات الأخرى الخارجية والداخلية، حتى يفقد كل شيء حول شحنته الانفعالية، لتصبح كل المؤثرات القادمة من الداخل أو من الخارج متعادلة حيادية تفتقر لأي طابع مميز، ويصل التّمادي في امتصاص الذات لنفسها إلى منتهاه حتى يهمل الشّخص الطّبيعة والبيئة، بحيث يصبح فقدان الشخصية صورة من صور إهمال كل الخبرات الآنية، من الدّاخل والخارج، من الشّخص ذاته ومن محيطه الاجتماعي.

هذه الخبرات التي يختبرونها تجعل من المستحيل عليهم أن يشعروا بذواتهم، من خلال فقد الإحساس بالنّفس، وكنتيجة لانعدام إحساسه بالآخر، فحين يرفض الشّخص قبول كل ما هو غير ذاتي، فإنه بالضّرورة يفقد ذاته.

إن من أوجه اضطراب الإحساس بالذات، تعاظم هذا الإحساس، لدرجة أن يرى الإنسان فيها مركز الكون، وأنه لا بدّ وأن يقع في موقع البؤرة من اهتمامات وعلاقات الآخرين، حالة من النكوص إلى مرحلة مبكرة بدائية من الإدراك المعرفي العارض التي تسود عند الأطفال الذّين لم يتجاوزوا العام السّابع من العمر. "التفكير ما قبل الإجرائي "preoperational thought" أو حالة التّمركز حول الذات "ego-centricity" تبعاً لعام النّفس التّربوي الشهير "جان بياجيه" فهذه الحالة يمكن قبولها من طفل في مرحلة الطّفولة الأولى، ولكن من يتصرف حسب معطياتها، وهو بالغ لا يتردد الناس بوصفه أنانياً – نرجسياً، ومن الخطير حقاً أن يكون من يستأثرون في مراكز مرموقة في المجتمع مازالوا متثبتين، على هذه المرحلة في نموهم النّفسي، وحيث إن النّرجسية هي حالة يوجه فيه الإنسان لذاته كل طاقات وسهام الحبّ، التي كان من الحريّ به أن يوجهها أو يصوبها تجاه الآخرين، لأن النّرجسية حالة من النّكوص إلى إدراك مبتورة فيه العلاقة بالآخرين، وإلى وجدان مقيد توجه

فيه سهام الحبّ إلى الذات، وليس أخطر على نمو بزوغ الشخصية من أن تطلق في قلبها سهام حبها، فتصاب في مقتل لا شفاء له ولا دواء، وحيث الكل يحبّ نفسه، ويحبّ الآخرين أيضاً، ولكن في حال فقدنا حبنا لأنفسنا، نعجز عن حبّ الآخرين، لأن فاقد الشّيء لا يعطيه...

يرى ياسبر عالم النّفس المعرفي "Jasper" أن هناك أربع وظائف يجب أن تؤدى بكفاءة حتى تتم عملية إدراك الشّخص لذاته.

الوظيفة الأولى: هي إحساس الشّخص بنشاطه.

والوظيفة الثانية: هي إدراكه لوحدة ذاته، وعدم تبعثرها.

والوظيفة الثالثة: هي إدراك الذات لاستمراريتها في الزمان.

والوظيفة الرابعة: تتمثل بإدراك الذات لكل ما هو شخصي في مقابل كل ما هو غير شخصي.

الكدر والغضب والعنف مآل لكل إحباط

إنّ الاكتئاب الذي هو في النهاية مآل كل إحباط يتضمن ردود أفعال من توتر، ونزق وغضب، كما أنّه يتضمن جلداً للذّات ولوماً، ومن كون هذه الانفعالات عدوانية مرتدة إلى الدّاخل والنيل من صورة الذات الفاشلة وصولاً إلى تحطيمها، والقضاء عليها في مكافآت الانتحار الوجودي، أو حتى الانتحار الجسدي، الذي يشكل أقصى اعتداء على الذات عندما يتعذر التعبير عن الغضب أو انفجاره، فتكون النّتيجة أن يتحول إلى الدّاخل، ويتخذ شكل الاكتئاب والميل إلى الحط من قيمة الذات، وتحطيمها فمن يثور لا يكتئب ومن يكتئب فهو عاجز عن الثورة، أو محروم منها.

كما أن ابتلاع الغضب والحنق، يتحول إلى اكتئاب وحقد وبمقدار اشتداد الغضب، وتصعيد العدوانية التي تغذيها يزيد الاكتئاب والنيل من الذات وتحطيمها.

وفيما يلي سوف أعرض التفسير النّفسي التّحليلي الفرويدي للإحباط كما يلي:

ينظر "فرويد" إلى الإحباط على اعتباره عدوانية مرتدة إلى الذات، بعد أن اجتافت موضوع الحبّ، ما يهمنا هنا هو هذا الارتداد إلى الذات تحديداً بدون المجادلة، بشأن واقعية القول بإجتياف صورة المحبوب، وصبّ العدوانية عليها على مستوى ذاتي داخلي. وخير مثال عليها الأمراض السيكوسوماتية النفسية الجسدية مثل ضغط الدم وقرحة المعدة وارتفاع منسوب السّكر في الدم، مما يرافق عادة الشدائد، فكل هذه الاضطرابات، لا تعدو أن تكون غضباً مكظوماً ممنوعاً عليه أن يتجلى في الظّاهر، وبالتّالي يرتد إلى الذات...

ومن المعروف لدى المشتغلين أن من تعرَّض من الأشخاص لحوادث صدمية، نجدهم أثناء الصّدمة يصبحون خارج الزمن، ومعلقين في هذه النقطة ومحكوم عليهم بالعجز إزاء الواقع العصي على الاستيعاب، هذا هو الحال في وضعية الهدر العنيف للمصدوم.

فعندما يتدهور الوجود إلى حالة التّكرار لمأساة الهدر، التي قد تتفاقم إلى مستوى الاجترار القهري في حالة من تبلد الذات، وتعطل القدرة على الفعل، أنه يظل مثبتاً Fixted تبعاً لأدبيات التّحليل النّفسي على صدمة الهدر وتعطل الدّيمومة، التي تصنع وتصير عادة بمقدار التقدم في إنجاز مشروع الودّ مع المحيطين.

وبذلك تغدو ثقافة النق والندب والنواح، هي مصدر السّلوى والعزاء والتّفريج عندما يحتقن في النّفوس ويجيش في الصدور، إلّا أن ما يستوقف الباحث هو مقدار شيوع ثقافة النّدب هذه، ومقدار انخراط الناس المهدورين فيها، وميلهم للاسترسال في أنينها وآهاتها، وحرماناتها وإحباطاتها، إنّه فعلاً تقييم للاكتئاب يصدُّ من جاذبيته وقدرته على نشل الناس المهدورين، من دوامة اليأس هذه.

أخيراً أصل إلى القول: إنّ هدر الطاقة المتسببة للأشخاص نتيجة الإحباط، هو: اعتداء غير مستحق، يتخذ طابع الظلم، وعدم الإنصاف من قبل شخص ظالم، مؤذ لإنسانيتنا، أو على الأقل غير منصف، ليكون الهدر الذي يحط وزره

علينا، نتيجة هدر الطاقة الفعّالة بالحياة فينا، هو شكل يهدد وجودنا، من حيث القيمة والاعتبار الذاتيين، أو هو شكل إعاقة لصناعة مشروع الوجود والصيرورة...

تلك هي الدلالة على الهدر، وضياع الطاقات الإيجابية، على اختلاف ألوانها، ودرجات شدتها، إذ يتم تحريك الجهاز العصبي السمبتاوي، والنظام الهرموني لتعبئة الجسم للدفاع والتكيف مع المؤثرات المفاجئة، فإذا كانت القوى على شيء من التكافؤ أو الهروب، وإذا كان ميزان القوى على قدر عالٍ من الاختلال لصالح التّهديد الخارجي، ومؤشرات الغضب الجسدية والسلوكية والانفعالية والعقلية، فهذا ليس سوى مظاهر لهذه التعبئة الحيوية، التي تُصعّد الطاقات والقدرات بشكل غير مألوف، في حالات الاسترخاء والغضب. لتكون هذه التعبئة النفسية ضرورية للمد بالطاقة، والقدرة على التكيف والمجابهة، وبذلك نصل إلى أنّ الهدر في الطاقة الحيوية للإنسان، يطابق هذه الآلية بالضرورة كدفاع حيوي وطبيعي، وعليه فالآليات الدفاعية على اختلاف ألوانها المادية والنفسية دفاعاً عن الكيان الذي تعرض للأذى من خلال الهدر المتسبب بالإحباط كدافع غريزي، بما يتعلق بالقوى البيولوجية للبقاء، ويشكل إحدى وظائف نزوة العدوان التي إن استحكمت وطغت على، كل معاني الحياة المضادة للإحباط فينا... حينها يغدو لزاماً العمل على الذهنية والجوانب الوجدانية التي تغذيها الروحانيات والقيم المختلفة المستمدة من كل أبجديات التراث الإنساني بآدابه وفنونه وفلسفاته الروحيّة كمنطلقات لشحذ الطاقات والهمم بغية استعادة نبض جديد للاستمرار بأهداف حياتية بديلة تليق بالمرحلة الذي يقف عليها هؤلاء الأشخاص المتأذين.

الفصل الثامن

التعاطي السياسي

ما بين المعرفة والانفعال

تمهيد

ما بين المعرفة الواعية، والمعرفة المؤدلجة تضيع الحقائق وتضطرب المشاعر وكذلك الأفكار، من دواعي كتابتي بهذا الموضوع، ما ألمسه وأستنتجه من اختلاط الأوراق الذي بات واضحاً في التعامل مع مشكلة واقعنا السّوري السياسية خلال السنوات الأخيرة، والتي أوصلتنا إلى حد الهلوسة ببعض الأصوات والتصريحات التي لا تكل ولا تمل من إعطاء تفسيرات، وإبداء خطط واقتراح مبادرات... وما بين هذا وذاك على أرض الواقع، هو عدّ للشّهداء من الضّحايا المدنيين وحتى العسكريين الأبرياء أيضاً، وترقيم المدن والبلدات المنكوبة، إذ في كل وقت تطالعنا التقارير والصور التي تجعل مخيلتنا لا تقدر على تصور حجم نكبة بلدنا الإنسانية والعمرانية. من هنا بات ضرورة التمييز بين نوعي المعرفة التي تحكمنا: وتحديد أين نحن من كلٍّ منها.

للخوض بهذا المبحث، لا بدّ من توضيح المفاهيم التالية:

– ما أرغب في البدء بالحديث حوله هو: "المعرفة الواعية المعتمدة على المنهج العلمي" التي نفتقدها في معطى تعاملاتنا والأشد خطورة لها، إغفالها في تنشئتنا للأطفال، ونحن في القرن الحادي والعشرين عصر العلم والمعرفة التي تنهال علينا من كل صوب، ونحن نغض عنها النظر، ونحيد عنها السمع، ونؤثر الطاعة...

ولكن هل باتت الطاعة للجهل بدواعي ملحة من خوفنا على حياتنا، هو ما ننجذب له مؤخراً، ونخاف الانعتاق منه؟

حقيقة لست من هواة الحديث المتشائم، ولست من دعاة الحديث النّظري بعيداً عن الواقع، ولكن هذا المبحث الذي يسيطر على ذهني مؤخراً، هو بحد ذاته مدعاة لليأس من هول المصاب الذي نقف عليه، ونسير عبره.

التّعريف بالمعرفة الواعية والمعرفة المؤدلجة

1- المعرفة الواعية: تتمثل بأنها معرفة فاعلة، تغير وتبدل وتؤثر وتتأثر، لذلك فإن النّموذج الواعي، لا يرتبك إزاء التحولات والتبدلات، إنما يستطيع أن يحافظ على توازنه، ليقيم الأوضاع تقييماً سليماً... ولما كان الوعي متصلاً بالمنهجية للوصول إلى الحقيقة، كان وفقاً لذلك المنهج العلمي، هو أداتنا للوصول إلى المعرفة، يعني ذلك أننا لا بدّ أن ننتهج المعطيات التي نجمعها من خلال حواسنا، وذلك من خلال قربنا من المحيط، الذي يسعى إلى المعرفة الواعية حول ذلك الأمر، الذي يستدعي منا ضرورة البحث والتقصي، في سبيل مقاربة الحقائق العلمية وتطوير مناهج البحث والكشف والاستكشاف، وتأصيل وعقلنة المقاييس والأحكام، ليكون أكثر دقة وأكثر قدرة على تشخيص الحقائق، وبانتهاجنا للمعرفة الواعية، نكون أكثر قدرة على الاستمرار والتألق، والأهم أننا نكون أكثر مصداقية مع أنفسنا والآخرين، حيث طريق المنهج العلمي في التفكير للوصول إلى الحقائق تعتمد المواجهة، وليس الهروب وتحوير المعطيات وتأويلها لحساب طرف دون آخر، حيث من يتبع هذه الطريقة في المعرفة، يتقبل ويجهد للنّهوض بواقع الحال، في حال سوء المآل... ليبقى يسعى بدون كلل، وغير مقتنع بالصدفة إلّا كحجة لعدم اكتمال الأسباب، ومن كون النموذج الواعي للمعرفة مرتهن بمنهجه، الذي يتطور بدوره ليتواصل مع العلم، ويفتح كل سبل التواصل، غير هيّاب ولا خائف.

ولغته موحدة متجانسة صريحة، متوافقة منسجمة يستطيع التواصل من خلالها بسهولة، حيث من خلال اعتمادنا المنهج العلمي في معرفة الحقيقة، يمكننا كشف مثالبنا قبل مثالب الآخرين، كما يساعد هذا المنهج في التفكير على تأصيل

ما لدينا من صفات، إذ يجعلنا بذلك نضيف علم الآخرين إلى علمنا، فنأخذ ما نراه مناسباً عبر تحولات منطقية واضحة مدعومة بالدلائل والبراهين، ومبنية على المعطيات العلمية في اتساعهما المستمر...

2- **المعرفة المؤدلجة:** تتسم بالانفعال حين التعاطي مع الموروث العلمي، وبذلك تعيش المعرفة المؤدلجة مع مخاوف وهواجس تجاه المعرفة، بحيث تحرم من يتبعها من اتخاذ تدابير متوازنة، وبذلك تكون المعرفة هذه من كونها انفعالية لا تميز الأفراد، ولا المجتمعات بل تبقى أسيرة أسس وقواعد تؤطر رؤيتها، فالتفكير الإيديولوجي هو نوع من التثبيط الفكري، لأنه يتعاطى مع العلم ضمن قيود وظروف ومصالح آنية، حيث إن الإيديولوجيا ورغم أنها تنطلق من نظرة عقلانية تتبع العقل عند تأسيسها، فإن النّموذج المؤدلج مهما اتسعت معارفه لا يستطيع الخروج من ضيق أفقه، لأنه يحيل هذه المعارف إلى مقاييس، وأحكام ثابتة وفق ما يعرف بالسياسية بطريقة "بروكوست".

"بروكوست" هو شخصية أسطورية، كان من قطاع الطرق، ففي حال كان ظفر بضحيته مددها على السّرير، فإذا كانت أقصر منه مطّها حتى تصبح بطول السّرير، وإن كانت الضّحية أطول من السّرير قصها، فتزهق روح الضّحية في كلتا الحالتين، إلّا إن كان بطول السّرير نجا من شر "بروكوست"...

وبذلك فإن المعرفة المؤدلجة تكون دائماً في مواجهة محمومة مع كل ما يعارضها حتى لو كان علماً، لأن دأبها يتحول من تتبع المعرفة والعلم، إلى إخضاع المعرفة والعلم للمعتقدات والفرضيات، التي تكوّن الإيديولوجيا التي يتبعها، بحيث تغدو هذه المعرفة متناقضة باستمرار كلغة حوار، من حيث إنها متزمتة تفضي بحوارها إلى حالة دوغمائية اتكالية تابعة، تجعل متتبعها مرات ينزل إلى الحضيض ليركب مركبها إن هبط، ولا يستطيع رفعه وشده للأعلى...

على حين أن النّموذج الذي يتبع الوعي والمنهجية العلمية يفضي بذلك إلى الإبداع والحضارة، وإلى مدارج السّمو والرفعة والسّعادة، والأهم ما يفضيه من

طمأنينة وعدم عيش التّناقض، وهذا ما كنا نجده واضحاً في أحاديث بعض رجال السّياسة، وكذلك رجال الدّين، الذين يحاولون أدلجة الإسلام رغم أن الإسلام لا يتحمل تبعية من يؤدلجه، تبعاً لمعرفة مسبقة، والمتمعن بعلوم الدّين الإسلامي، وروح الفكر الإسلامي يجد أنها تحث على الاجتهاد، والبحث في آليات الآفاق والأنفس، وتأمل مظاهر الكون وتعليلها تعليلاً وفقاً للقرآن والسّنة...

وهناك آيات قرآنية عدة تدعم ذلك من مثل قوله تعالى: [وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَاب] وقوله تعالى: [إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء] وغيرها وغيرها...

إن مشكلتنا كمهتمين بتطوير السّلوك الحضاري لبلادنا، وكتربويين معنيين بمواكبة المعارف والعلوم وإدراجها في المناهج المقدمة للناشئة، أجد أن دورنا يتجسد بحصر هذه المؤثرات والتّخطيط لكيفية العمل على خلق جيل واعي، من خلال العمل على توجهات مرنة واقعية للتكيف مع ما يعترضنا ووفق معطيات الحياة العصرية، التي لا نقدر على تحييدها، إن كنا لا نريد أن نبقى مغردين خارج الزمن، وفقط نتباكى ونتشاكى لبعضنا من ظلم الزمن والأمم لنا ولقضايانا.

إذ إن الحلول دائماً في حال كبر المصاب، وعمت المشاكل على عينة واسعة من المجتمع المحلي، لا بدّ أن تكون من خلال الاهتمام بالسّياسات التربوية التي تعنى بالإنسان أن غاية الاستثمارات اليوم هو الاستثمار في الموارد البشرية، وهذا ما سمعناه مؤخّراً يردّد ويشدّد عليه في البرامج الانتخابية، لأكبر دول العالم من قبل المرشح الأخير لرئاسة أمريكا، وما لفت انتباهي في خطاب الرئيس الفرنسي "هولاند" قبيل ترشيحه الذي استرعاني الاهتمام بحديثه هذا، إشارته للاهتمام بانتشار اللغة الفرنسية والاهتمام بالنّاطقين بها، والعناية بهم كونهم يمثلون وجه فرنسا الجديدة، من هنا فالتعاطي السياسي اليوم يفترض أن له أجندة عملية مقنعة تحترم العقل ويطمئن لها الفؤاد، وليست مهاترات وتحديات، وإشهار المدافع والقذائف، وإطلاق السُّباب والشّتائم.

أما آن الأوان لتغيير هذه المواجهات؟! إلّا أن قناعتي أن هذا لن يتحقق ويعاش ما لم تقم التربية بدورها الفاعل في تنشئة الفرد نشأة واعية، ليكون فرداً واعياً بحقوقه ومن ثم واجباته، ويحمل الآثار الإيجابية للنموذج الواعي، وينبذ الآثار السّلبية للنّموذج المؤدلج، ومن هنا تجدر الإشارة إلى أن تنوع مصادر تربية الفرد، وتعدد فنونها لا تكون إلّا من خلال نشر الوعي الأكثر دقة والأكثر مسؤولية من قبل مؤسسات المجتمع المدني، والأنظمة الدّيمقراطية الحديثة...

وذلك إدراكاً للخطورة من سيطرة مصدر واحد على التربويين، واستبعاد المآخذ الأخرى من خلال النقل فقط عن ثقافة الآخرين، حيث إن اقتصار الأخذ بالمعرفة المنهجية في التنشئة التّربوية، يشكل عقبة عسيرة أمام طموحاتنا لمجتمع مزدهر منفتح مواكب لمسيرة العلوم، لا أن يبقى زاحفاً وراءها لا يمكن له أن يلتقي به.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن التربية ليست فقط تحصيل معارف وقيم، بل هي بناء لشخصية خلاقة لها المقدرة على تمييز المعارف والقيم، من خلال إخضاعها للمنطق والمحاكمات العقلية، ليتاح لهذه المعرفة المتحصلة أن تثمر وجوداً إبداعياً، عبر مسيرة التاريخ الحديث، وبعيداً عن التنظير.

وهذا لن يكون إلّا من خلال تناسق الفكر والعمل عبر هذه المعرفة الممنهجة للوعي، فارتباط العمل والفكر سمة أساسية من سمات الوعي، وهنا يمكن لنا أن نعيش نعمة العطاء الفكري لا نقمته حسب قول الشّاعر، "القول المكرس في بلدنا" والمردد في كل ضيق... يقول المتنبي:

ذو العقل يشقى في النّعيم بعقله

وأخو الشّقاوة في الجهالة ينعم

من خلال إبرازنا "أن غاية كل ثقافة يتمثل بفتح مسارات الإبداع"، لأن قتل روح الإبداع يعني: عطالة المجتمع وعقمه وعجزه ثم نكوصه، ليصبح بذلك عالة

على غيره، كما هو واقع حالنا اليوم، من هنا فإن النّظر إلى الثّقافة بنظرة شمولية من خلال ربطها بمختلف مجالات العمل والفكر والواقع، بطريقة تكفل للثّقافة تحسنها باستمرار، بالاعتماد على القدرات الذاتية ما أمكن لذلك سبيلاً، لأن التنشئة الفكرية ضرورية للنّهوض من العثرات أو الاستمرار في مسيرتنا بدون عثرات تذكر، حيث إن معظم مشكلاتنا الرّئيسية المتصلة بالسّلوك اليومي، لا يمكن أن تحلّ بواسطة التّكنولوجيا الفيزيائية، والبيولوجيا وحدها، الأمر الذي نحتاجه، وفقاً لعالم النفس السلوكي الأمريكي "سكينر" الذي يوضح رأيه في كتابه تكنولوجيا السلوك، من أننا كنا بطيئين في تطوير العلم الذي يمكن أن تستمد منه مثل هذه التّكنولوجيا، فالعلوم السّلوكية بصورة عامة وعند كل الشّعوب، كانت بطيئة التّغير، بالقياس لعلوم الميكانيكا والعلوم البيولوجية... لأن المكونات التفسيرية كثيراً ما تبدو ملحوظة على نحو مباشر، كما أن للبيئة جانباً كبيراً من الأهمية، ودورها ظل مبهماً أو خفياً، فهي لا ترفع أو تسحب بل تصطفي وتختار، ومن الصعب أن تكتشف هذه الوظيفة وتحلل من حيث أن دور الاصطفاء الطبيعي في التّطور لم تتم صياغته، إلّا منذ ما يزيد قليلاً على مئة عام، الدّور الإصطفائي للبيئة في تشكيل وحفظ سلوك الفرد، لا يمكن أن يتحقق إلّا ببدء مرحلة الاعتراف به من خلال دراسته، وما نجده أنه عندما أصبح التفاعل ما بين الكائن الحي، والبيئة مفهوماً ومعمولاً عليه بكثرة في العصر الحديث، بدأت النتائج التي كانت تعزى إلى حالات الذّهن، وإلى المشاعر والسّمات ترتد إلى تردي الظّروف التي يمكن التّعرف عليها...

الفصل التاسع

الإدمان كظاهرة اجتماعية وكانحراف في السلوك

مقدمة

يعدّ الإدمان كظاهرة فردية ومجتمعية، مشكلة عالمية ذات جوانب متعددة، ولا تختلف الرؤى المسببة لهذه المشكلة لدى المدمنين إن كانوا من بلد متقدم أو بلد نامٍ، من هنا نجد أن مواجهة ظاهرة الإدمان، لا تجد أية مرجعية تستطيع وحدها مواجهة الطوفان الذي يغمر أصحابها من المدمنين، كما قد يجتاح مؤسسات الدولة، وأجهزتها ومؤسسات اجتماعية عدة...

إن ظاهرة الإدمان هذه التي قد تبدأ من سوء الاستعمال، لبعض الأدوية الرخيصة، إلى استعمال المنشطات، ولاسيما الأمفيتامينات، حيث وصل استعمال هذه المنشطات في إحصاءات عالمية في سنة 2003م، إلى ثمانية ونصف مليون حالة، أما الحشيش الذي يعد من أكثر المواد استعمالاً عبر العالم، إذ يقدر المتعاطين بحوالي (22 مليون حالة، فقد بلغ عدد المتعاطين للمهلوسات حوالي 3 ملايين شخص، والمسكنات والمهدئات التي تستعمل عادة بالإضافة إلى الكحول فقد وصل عدد المتعاطين إلى حوالي 22 مليون حالة حتى عام 2003م) (ناجي منصور، 2003). أما لجنة أمريكا اللاتينية عام 2010م، المعنية بالمخدرات والديمقراطية، فبينت أن العنف والفساد أمران أساسيان مرتبطان بتجارة المخدرات، وهما يشكلان خطراً على الديمقراطية في العالم، فتجارة المخدرات غير المشروعة، سوف تستمر مادام هنالك طلب على المخدرات، حيث إن أغلب الثقافات والحضارات على مر التاريخ، لم تخلُ من استهلاك نوع ما من المخدرات، كما اليوم

لا يخلو مجتمع من استخدام المخدرات، بل الناس بمختلف طوائفهم، يستخدمون المخدرات لأسباب عديدة، بدءاً من القناعة الرائجة من كون هذه المواد تخفف الألم، وتجلب الاستمتاع إلى الهروب من الواقع، وبذلك نجد أن تغييراً لا بدّ أن يحصل ليتحول النهج السياسي من القمع الحياتي للمتعاطين، إلى التركيز على الصحة العامة، وبذلك يصبح مستخدمو المخدرات أكثر انفتاحاً على التّماس العلاج، كما أن تجريم الاستهلاك الشخصي، يعمل أيضاً على الحدّ من القوة التي يتمتع بها التّجار في التأثير على سلوك المستهلكين والسّيطرة عليهم يمكن أن يشكل خطوة مهمة إلى الأمام على الطريق، نحو التعامل مع استخدام المخدرات باعتباره مشكلة صحية، وليس بوصفه مسألة مرتبطة بنظام العدالة الجنائية والقيم الأخلاقية.

دواعي العمل على هذا الموضوع

تبعاً لما تقدم من الوجهة النفسية أجد أن:

أسوأ أشكال الحظر هو الحظر على التفكير، وحيث أن تعاطي المخدرات يؤدي إلى قمع الحريّة الشخصية للمتعاطي، كون السّياسات القمعية في التعامل مع مستخدمي المخدرات، تضرب بجذورها من خلال التحيز والخوف، التي تكرسها المعتقدات الإيديولوجية المختلفة الدّينية، وغير الدّينية، قد لا تقل خطورة وتهديداً للحريّة... فمنذ انطلاق الحركات الاحتجاجية في المجتمعات العربية تردّد سماع المخمرين والمحشّشين والمحببين والخارجين عن القانون، في خطابات وتفسيرات كثيرة، هذا الكلام الذي فُسّر بأن متعاطي وتجار المخدرات، هم بالدرجة الأولى القائمون على حركات الاحتجاج والمسؤولون المغذون لها.

هذه هي الدّواعي المباشرة الأساسية لاشتغالي، على هذا البحث، لأن هذا الكلام يأتي تأكيداً على أن تاريخ الشّعوب العربية، هو في الغالب تاريخ معاناة، وبالتّالي إحباط، مما يجعل هذه المعاناة حياة يومية متمثلة بالرّقابة على حركة الإنسان العربي الرّامية لتحقيق العدالة الاجتماعية، والعيش الكريم، الإنسان ابن

مجتمعه، كما بات معروفاً ومكرساً، في فهم عامة الناس قبل المتخصصين، وبذلك فالإنسان العربي في مثل هذه الأماكن وغيرها، هو ابن الإحباط، فتكون الحركات الشّعبية في كثير من الأحيان ضرورة لصالح الاتزان النّفسي، ونمو الخصائص النفسية البناءة. فإن لم تأخذ الحكومات خططاً للإدماج الاجتماعي للمهمشين، سوف يبقى طريق الإدمان والتّعاطي، هو الأسهل عليهم لحل مشاكلهم.

سيكولوجية الإدمان

كما هو مثبت في دراسات حول المتعاطيين، أن جميع المشاكل الوجودية، تصبح في حال التخدير قد حلت، وجميع الأمور المتناقضة تتحول إلى وحدة من الانسجام... في دراسة لـ "كوبرا وكوبرا" تظهر: أن التخدير يثير حالة عقلية شبيهة بالهوس، ويعني تحولاً في الشعور بالذات نحو الرضا عنها، والقدرة والأهمية، كما يقولون: إنه يعمل على إزالة الشعور بالنقص، والصعوبات المزاجية، مما يعني الانتقال إلى حالة من الرضى عن الذات، والشعور بالكيان والأهمية، فقمة اللذة في سياقها الإيجابي السّوي أمر ممتع، إذا كانت في حدود شعور الفرد المتعاطي، بأنها ليست آخر متعة، وإنما تفسح الطريق لتجديد الرغبة بالمادة المخدرة باستمرار... والوصول إلى السلطنة الزائفة، أو كما تسمى في قاموس الحشاشين (الزقانا)، فمتعة التخدير لا تعدو أكثر من أن تكون نوعاً من الاستمتاع بكل ما هو سلبي، لتحقيق مفهوم جديد مغاير للذات لدى المتعاطي، يحقق له إشباعاً من ناحية، وخفضاً للقلق والتّوترات من ناحية أخرى. فمن خلال هذه الخبرة الشعورية للتّخدير، يكون احتمال الإقبال على الإدمان قوياً وضعيفاً، بقدر ما تؤدي خبرات الشّخص مع المخدر إلى تغيير موقفه تغييراً، يمكن وصفه بأنه تكيفي وظيفي، أو تغييراً نحو التناغم في وظيفة الذات. ومن الآثار المباشرة لتغيير تعبيرات المتعاطين "الوصول إلى السلطنة والنشوة" مما يؤثر على تغير موقف المدمن من حيث التّخفيف من الأعراض، المصاحبة لتعاطي المخدر بصورة عامة، إذ إن جميع أعراض القلق أو

التفكير الوسواسي بالهم والكدر والمشقة، جميعها تخفف وتعدل أو تُستبعد بتعاطي المخدر، يقول "ويكلر" أحد الخبراء والباحثين في مجال المخدرات: إن المتعاطيين للتّخدير، أكثر قدرة وراحة وأقل توتراً وقلقاً، في ممارسة نشاطهم العادي وعلاقاتهم اليومية، بعد أن كانوا قبل التّخدير يعانون من مشاعر الخجل والانسحاب، وعدم القبول والكف الاجتماعي، فهذه الخبرة من السّعادة أو المرح أو النّشوة، ليست في حقيقتها كذلك بالمعنى الحقيقي، للمرح والنّشوة والوصول، ذلك لأن المفروض في هذه الحالة أن تكون نتيجة لتحقيق إشباع الرغبات، على أساس من الاتزان النّفسي وحل الصراع، حلاً سليماً فضلاً عن الإشباع الايجابي للرّغبة أو الحاجة. والتّعود على العقاقير تزيد الرّغبة في الاستمرار بتعاطيه، مما يسبب شعوراً بالرّاحة وتحقيق اللذة، وتجنب الشعور بالقلق والألم، كما يحدث تعوداً للجسم بحيث تظهر على المدمن اضطرابات عضوية ونفسية شديدة، عند امتناعه عن تناول العقار فجأة.

من هنا نجد أن مشكلة تعاطي المخدرات، تتمثّل إلى حدّ بعيد في الإحباط أو العدوان المكفوف، وما يترتب عليه من شعور دفين بالعجز، وعدم الكفاية أو الاعتبار للذّات، فالعدوان المكفوف يعني الضّعف والخوف والسّلبية والحاجة الدّائمة إلى السّند، حيث إن منافذ الحركة وأساليب التعبير عن الطاقة للعدوانية، تقوم بدور كبير في تكوين مفهوم الذات، ذلك المفهوم الذي يعني الشعور الدّاخلي بالفردية، بحيث يمثل المعنى المجرد لإدراكنا لأنفسنا، جسمياً وعقلياً وانفعالياً واجتماعياً في ضوء علاقتنا بالآخرين...

ويكون ضعف الذات ناتجاً عن عدم القدرة أو الكفاية، وشعوراً بذاتية خالية من المعنى والقيمة والقدرة، كما يدفع الشعور المنخفض بتحقيق الذات إلى ضروب من السّلوك، يوصف أحياناً بالانحراف، وتعاطي المخدرات خير مثال على ذلك، حيث إن فقدان الحب والثقة وضعف التواصل بين المتعاطي، وموضوع الحب الذي يحرك سلوكه، أي بين الذات والآخر، فالكف والإحباط وعدم تحقيق الذات، يؤدي إلى التّشاؤم وعدم الثقة، ثم الانسحاب. ومشاعر عدم الثقة والخوف والتّشاؤم وسوء

التواصل، هذه المشاعر السّلبية هي التي تدفع إلى التماس الإشباع عن طريق التّخدير، كما ينتهي الأمر إلى قدر من السّلبية وعدم الاكتراث، وإلى ضروب من السّلوك يحددها التّكوين الجبلي للسّلوك، وظروف الحركة في المجال الحيوي (الأسري والاجتماعي).

العوامل المسببة للإدمان

إن تعاطي المخدرات، يؤدي إلى خفض القلق وتخفيف التّوتر الناشئ عن مشاعر القصور والكف والإحباط، والعودة بالمتعاطي إلى حالة من الاتزان السّار، الذي يحميه من التّردي أو اختيار ضروب أخرى من السّلوك، تضفي عليه مزيداً من الكفاءة ومقاومة الإحباط... ولذا كان من الضّرورة المنطقية بدايةً، التّوقف عند العوامل المتعددة لسلوك الإدمان، التي يمكن أن نستعرض بعضاً منها من مثل:

- الحالة الاجتماعية والأسرية.
- الأمراض الجسدية المزمنة في العائلة.
- إهمال الطّفل أو إفراط أحد الوالدين أو كليهما في تعاطي الخمر.
- تذبذب الحنان الأمومي وإهمال الأب للأم، مما يؤدي إلى سخط الأم لدورها الأمومي، حيث إن الصعوبات الأسرية تخلق دائماً إحباطات فمية نوعية في الطّفولة، وهذه الإحباطات توّلد تثبيتات فمية عند الصّبيان أدت إلى تحولهم عن الأم المحبطة إلى الأب، وهذا الأمر له من الخطورة الشيء الكثير، حيث إن الأولاد يلزمهم أن ينموا في موقع اعتدالي بين الأبوين، لا أن يميلوا في نشأتهم إلى أحد الأبوين، ويلغوا الآخر، مما له دور كبير في اضطراب الهويّة الجنسية، ونمو نزعات جنسية مثلية مكبوتة بدرجة أو بأخرى، المحفزات اللاشعورية عند مدمني الخمور، هي بصورة نمطية ليست فمية فحسب، صحيح أننا نجد الأشخاص الذين تظهر لديهم الجنسية المثلية، تتجلى عندهم عادات الشّراب للكحول، المعبرة بصورة مباشرة عن الإحباطات الاجتماعية، لذا أحد التّأثيرات السّمية للخمر هو انحراف في

نمو الهويّة الجنسية، متمثلاً في المثلية الجنسية، فالشّخص الذي يلجأ للخمر نتيجة شقاء خارجي، أو داخلي اكتئابي، إذ تكون النزعات الاكتئابية لديه، ما هي إلّا كفوف لها أهمية قصوى، في تفسير الانحراف، إذ إنّ الاهتمام بالخمر يحلّ محل أي اهتمام بالموضوعات، لاسيما الموضوع الجوهري موضوع العلاقة بالأم. وبالتّالي اللجوء لشرب الخمر مثلاً، يعود إمّا لوجود إحباطات خارجية، وإحلال آخاييل لاذة محلها، أو كفوف داخلية وحالات، لا يجرؤ الشّخص على التّصرف حيالها، أي التّصرف ضد الأنا العليا المتمثلة بالنّمو القيمي الاجتماعي، وذلك من خلال هذا المعين الاصطناعي.

يقول المحلل النّفسي الشّهير "توسك": هتر السّكارى الارتعاشي، هو تعبير عن هياج جنسي، عند المرضى الشّبقين جنسياً، ولكنهم في الوقت نفسه يغدون كعاجزين جنسياً، بسبب الخمر، أما الذين هم في مستوى أعمق للمثلية الجنسية والنرجسيون. فالإدمان بمخدر أم غير مخدر عندهم، ما هو إلّا محاولات فاشلة للسّيطرة على الإثم أو القلق، عن طريق النّشاط المتصل بالاتجاهات ضد المخاوف والشعور بالذنب، الذي نما لديهم من جراء التجاوز للأنا الأعلى، حيث نجد المرضى المدمنين يحاولون أن يعيشوا من جديد بشكل لعبي، مع الأخطار التي يرهبونها ومن ثم يتعلمون السيطرة عليها، ولكن كثيراً ما يحدث أن تنقلب اللعبة إلى واقع، فيغمرهم الخطر الذي حاولوا السيطرة عليه ولم يقدروا. حيث إننا نجد السلوك العام للمريض إزاء الواقع الاجتماعي، يقدّم علاقة دالة على مدى تفكك علاقاته مع الموضوعات، فالذين يشربون بصحبة الأصدقاء مثلاً، يكون تشخيص التطور المقبل عندهم أفضل منه من حالة السّكارى الانعزاليين، لأن الطّابع الدّوري للاختلال عند السّكارى يتبع الخطوط العامة نفسها التي تتبعها دورية الحالات الهوسية الاكتئابية، عندما يستخدم الخمر للهرب من شقاء داخلي، فهذا الشقاء يبدو أكثر سوءاً بعد النشوة. وهناك أسباب أخرى غير ذاتية كالأسباب المتصلة: بالكوارث والظّروف المفاجئة في تربية الطّفل.

المراحل الثّلاث التي يمرّ بها المدمن

1- مرحلـة الصّـدمة، حيـث يشـعر الأشـخاص بالـذّهول والحيـرة، وتقلـص التّركيز وتبلد الانفعالات.

2- مرحلة الارتداد وتبدأ مع زوال الحدث الصّادم، وتظهر أعراض اكتئاب.

3- مرحلة ما بعد الصّدمة وتتمثل بالحاجة لوجود الآخرين بجوار الشّخص المدمن.

ولكن الأمـر البارز فـي كـل حـالات الإدمـان، وفـي كـل المراحـل أنهـا تـؤدي للقلق والاكتئـاب، وتدفع الأشـخاص لتعاطي المخدرات والخمور، للتّخفيـف من هذه المشاعر، نتيجة الانهيار الاجتماعي الذي تخلفه الحروب بعد انتهائها، والذي يؤدي إلى كساد اقتصادي، ومن ثم إلى زيادة في استهلاك المسكرات والعقاقير، حيث إن زيـادة التّوتر والقلق، يـدفعان بـالمرء للبحـث عـن حـل للتّخفيـف مـن الشّـدائد والآلام بالأدويـة المهدئـة. فالإدمان ظـاهرة نكوصـية إلـى مرحلـة سـابقة تحصـل نتيجـة تهديد وصراع نفسي، كما يعزى الإدمان إلى أنا ضعيفة، وشعور بعدم الأمان... كما أن اللهفة على المخدر، تعدّ عنصراً مهماً في عملية الإدمان، وهذه الشّدة في التّلهف، تختلف وفقاً لتاريخ الاعتماد، ومدة وحجم الخبرة مع المخدر، وردة الفعل هذه تجاه نقـص المخـدر بالجسـم، ليسـت عمليـة فسـيولوجية آليـة منعزلـة، وإنمـا هـي عمليـة معقدة، تحدث نتيجـة لبنـاء وسياق نفسـي بين الذات والموضـوع، المخدر فيها يقوم بدور التّعزيز والتّثبيت على أساس من تأثيراته، في تخفيض عتبة الإحساس بالألم وتقليل الـوعي، والشعور بـالخوف والقلق والكدر، الـذي يعـاني منـه المـدمن أصـلاً، شخصـية المـدمن تتجلـى فيهـا السّـمات التّاليـة التـي تجعلـه يتلهـف علـى المخـدر، لتعطيه الإحساس بالذاتية الشخصية.

أما انخفاض اعتبار الذات، ومشاعر القصور والعجز، اللهفة على المخدر والاستغراق فيه، فتعبر عن حاجتين مهمتين:

- الحاجة للشّعور بالحياة والوجود عن طريق إحساسه بالذاتيـة الشخصـية،

من ناحية ونشوة التّخدير من أخرى، حيث إن الحاجة الملحة والمزمنة، للتّخفيف من عناء الكدر والقلق والخوف والفشل وخيبة الأمل هي الشّرط الضّروري، لقيام ونمو ظاهرة اللهفة على المخدر، تتناسب طرداً مع درجة الكدر، والقلق والاكتئاب والمشاعر الدّفينة، للقصور والعجز وانخفاض اعتبار الذات والموضوع، وبالتّالي هي عملية ديناميكية تكيفية وظيفية، ترجع إلى كف الميول والدّوافع العدوانية، بالمعنى الواسع البنّاء للعدوان.

وكف العدوان عند المتعاطي، يمثل نمواً ضعيفاً للذّات، واعتباراً منخفضاً لها، كما يؤدي كف العدوان إلى اضطراب في النّمو النّرجسي، والنّقص والضّعف في سلوك الدور الذّكري... بعض الباحثين يربطون بين الدّوافع الأساسية، في خلق النكتة وبين العدوان، غير أنه عدوان مكفوف لأن التعبير عنه صراحة، أمر يثير الخوف والقلق، مثلما هي النكتة حيلة يلجأ إليها الفرد في المجتمع، ليريح نفسه من عناء الواجبات الثّقيلة، وفي أوقات الألم والضيق والمشقة، ليعبر بها عن رغبات الناس ودوافعهم المكبوتة المكفوفة... فالنكتة مثل التخدير يخلقان من مرح ونشوة، يقومان أساساً على ميكانزم واحد هو الإنكار، حيث كلاهما أسلوب دفاعي عن الذات، واستعادة لقدرها، وقيمتها والإحساس بالكيان والاطمئنان، على قدرة الذات واستعادة الثقة بها... فالذات القوية النّاضجة المستقلة، تستلزم حداً أدنى من العدوان الصّحي الناضج، لتأكيد هذه الذات، وتمكين الفرد من اختبار الواقع الخارجي والدّاخلي والسّيطرة عليهما، كما يعني كف العدوان تجنباً للخوف وعدم الشعور بالأمن، والشعور بالعجز والقصور وعدم الكفاية (مصطفى زيور، تعاطي المخدرات)...

الإدمان بين التّورط والصّدفة والخلل في البناء النّفسي

بصرف النّظر عن مادة الإدمان يجدر بنا التّوقف عند بعض الملاحظات تتصل بكيفية التّورط والتّوريط بالصدفة أو بالمناسبات، وكيفية تكرار التّعاطي يجعل الواقع صعباً واحتمال الضّغط والصّبر عليه متعذراً، ويصبح الإدمان همزة

وصل بين الواقع المر والخيال التّعويضي (joint)، وينشأ الارتهان ومعه التبعية للمادة عبر الإفراط في التعاطي الموصل إلى الإدمان، وإلى التعتيم عن أشياء أخرى، يترافق الإدمان مع الاضطراب العاطفي والانحراف الجنسي على أنواعه، والأمراض العامة والجنسية المعدية. واستغلال نقاط الضعف الوجودية والنفسية عند المتورط، والتّمادي في ابتزازه.

من هنا نجد أنّ الدّافع الذي يحكم الحفزات المرضية الأخرى هو نفسه فعّال عند المدمنين في الحاجة للحصول على شيء، فليس هو مجرد إشباع جنسي، بل هو البحث أيضاً عن جو أكثر أمناً وطمأنةً على قيمة الذات، فهو أساسي لوجود الشّخص نفسه، فالمدمن عندما يستشعر هذا التّهديد بفقدان المدد النّرجسي ينطلق لديه وجدان الهيلة ويسعى لمواجهته، ولكن بحكم عجز الأنا، فإنّها بذلك لا تستطيع التّغلب على تلك الوجدانات بآلياتها الدّفاعية المتمثلة في الإنكار وبالتّالي يسعى المدمن إلى بديل للإشباع والإمدادات النّرجسية، فيكون المخدر بمثابة البديل الذي يمنح الحب والأمن، كما يستطيع من خلاله أن يخلق حالة من الهوس الصناعي الذي يدعم آلية الإنكار ويجعله أوسع انتشاراً.

تعرض مارجريت ماهلر (M. Mahler) ثلاث مراحل للنّمو النّفسي تبدأ:

1- من الميلاد حتى السنة الرابعة، فاضطرابات الشخصية تنتج عن اضطراب العلاقات.

2- المرحلة الثانية من مراحل النمو حيث يتصف البناء النفسي للمدمن بالقصور الذي يتضح فيه قصور في تنظيم الذات، كون أن المدمنين يمثلون أكثر أنواع الاندفاعيين وضوحاً في المعالم...

3- الإدمان في المرحلة الثالثة يشير إلى الحاجة وعدم الكفاية، لكل محاولات إشباعها وإدمان المخدرات، تختلف في نقطة واحدة عن هذه الإدمان بغير مخدرات، وهي نقطة تجعلها أكثر تعقيداً، ونعني بها التأثيرات الكيميائية.

من أهم التأثيرات المألوفة للمخدرات نذكر:

1- **التّسكين:** المخدرات المبهجة هي حماية ضد حالات نفسية أليمة ضد الاكتئاب مثلاً، وغالباً ما تكون في الواقع جد فعالة، طالما بقي استخدام المخدرات مجرد إجراء حماية، فهناك لن يكون إدمان.

2- **التنشيط:** في حال الإدمان ما يميز المدمن، أنه شخص يكون التأثير المخدر لديه ذا دلالة مرهفة مع الأسرة في البداية، فربما لم يكن المريض يسعى لشيء غير العزاء، ولكنه ينحى إلى استخدام أو محاولة استخدام تأثير المخدر إشباعاً لحاجة داخلية أخرى ويغدو في الشخص تبعية إزاء هذا التأثير، هذه التّبعية تعدو غالبة لكونها تلغي كل الاهتمامات الأخرى، ومن الجدير بالذّكر أن الإشارة من خلال غالبية الدراسات، التي أجريت على المدمنين لمعرفة خصائصهم النفسية المدمنين، هم أشخاص لديهم استعداد للاستجابة لتأثيرات الكحوليات كالمورفين، أو غيرهما من المخدرات بطريقة نوعية، وعلى وجه التحديد بطريقة قوامها محاولة استخدام، هذه التأثيرات لإشباع الصبابة الفمية، والحاجة إلى الإبقاء على تقدير الذات في الوقت نفسه، لذا منشأ الإدمان وطبيعته لا يحددهما التأثير الكيمائي للمخدر فقط، بل البيئة السيكولوجية للمريض، بحيث إن الشخصية المهيئة للمرض هي العامل الحاسم، فالأشخاص الذين يصبحون مدمني مخدرات هم: أولئك الذين يكون لتأثير المخدر لديهم دلالة نوعية، وهذه الدلالة هي تحقيق أو أمل في تحقيق رغبة عميقة وأولية، يستشعرونها في الإلحاح، يزيد عن إلحاح الصبابات الجنسية أو الغريزية الأخرى عند الأسوياء، هذه اللذة أو الأمل بها تجعل الجنسية الإنسالية، لا تثير اهتمامهم فالانتظام الإنسالي يتحطم، ويستمر الليبيدو في صورة طاقة توترية شبقية عديمة الشكل، ليس لها خصائص فارقة أو أشكال انتظام، فمن خلال الاندفاع نفهم أي نوع من اللذة، يسعى إليه المدمنون، المرضى مستعدون للتّنازل عن كل موضوعات الليبيدو، فهم بالضرورة الأشخاص من لم يبلغوا قط أي تقدير عال للعلاقات مع الموضوعات، من كونهم مثبتون على هدف نرجسي سلبي، ولا يهتمّون إلّا لإشباع نزواتهم فحسب،

دون أن يهتموا قط بإشباع الرفيق، أي أن الموضوعات بالنسبة إليهم، ليست إلّا موردي إمدادات من النّاحية الشبقية والمناطق المتزعمة، هي المنطقة الفمية والجلد، هاتين المنطقتين الخاصتين بالحصول على الدفء والطعام، فتأثير المخدر يستند لكونه يستشعر على أنه هو الطعام وهو الدفء، والأشخاص من هذا النوع يستجيبون للمواقف، التي تخلق الحاجة إلى التسكين، أو التنشيط بطريقة تختلف عنها عند غيرهم، فهم غير متسامحين إزاء التوترات، إذ لا يستطيعون تحمل الألم والإحباط ومواقف الانتظار، فهم ينتهزون أية فرصة للهرب، ومنهم من يعيش تأثير المخدر كشيء أعظم إشباعاً من الموقف الأصلي، الذي قطعه عليهم مقدم الألم والإحباط، بعد تحقيق الزهو والمرح والسلطنة، فيصبح الألم والإحباط أكثر استحالة على التحمل، مما يتمخض عن تصعيد استخدام المخدر، وشيئاً فشيئاً يختفي الاهتمام بالواقع، إلّا أن الاهتمام المتصل بالحصول على المخدر، بحيث أن الواقع كله يتقلص، فيغدو إبرة تحت الجلد، النزعة في مثل هذا التّطور المتأصلة في تبعية فمية لإمدادات خارجية، هي صميم إدمان المخدرات، وكل الملامح الأخرى عارضة، مدمني المخدرات تحليلهم يكشف عن الزعامة الإنسالية، التي تتجه إلى الانهيار عندهم، فزعامتهم الإنسالية دائماً مزعزعة من خلال هذا التّوتر النّهائي عديم الشكل الذي يشبه أكثر مراحل النمو اللبيدي بكوراً، ويشبه الوجهة الفمية للرضيع، الذي كان يتطلب الإشباع دون أية قدرة على العطاء دون أي اعتبار للواقع، والنّزعات الفمية والجلدية تكون صريحة في تلك الحالات، التي يكون تعاطي المخدر فيها بالفم أو الحقن تحت الجلد، كما أن المحقن يمكن أن تكون له دلالة إنسالية رمزية، حيث اللذة تتحقق من خلال الجلد لكونها لذة سلبية استقبالية، أهم من كل لذة شبقية، فسلطنة التّخدير هو ذلك التّصاعد العجيب في تقدير الذات، فأثناء سلطنة التّخدير، تلتقي بشكل واضح الإشباعات الشّبقية والنّرجسية مرة أخرى، وتلك هي النقطة الحاسمة.

ويشير "سميل" إلى أن استخدام المخدر يمثل استمناء إنسالياً مصحوباً بآخاييل، ومضامين ملائمة، يعدها لقهر صراعات تنتمي لمستويات أعمق من

النمو، تبلغ في امتدادها للوراء المرحلة الفمية، وهذا الحال يناظر التّفكك النّكوصي التّدريجي للجنسية، كما أكدّ "سميل" أن موضوعات البدن يمكن لها أن تكون موضوعات مستدخلة، مثل الأمر الذي يساير النّكوص الفمي، ويؤكد "جروس" على أنه عند المدمنين يحدث تفكك وظيفي في الأنا الأعلى، لعدم التّطابق في العلاقة مع الموضوع في المرحلة الفمية.

العلاقة بين الإدمان وحالات الهوس الاكتئابي

لما كان "سميل" يشير إلى أن سلطنة التّخدير هي: هوس اصطناعي، لدى مدمني المخدرات في المراحل الأخيرة، وأن مدمني المخدرات يعيشون حالات متفاوتة عديمة الموضوع من السّلطنة، ومن الاكتئاب، هذه الحالة تشبه إلى حدٍ كبير، آلية تناوب الجوع والشّبع عند الرضيع، وهو لم يزل غير متمايز نفسياً، فعندما تستخدم الحقنة تحت الجلد ليس بهدف الحصول على اللذة، بقدر ما هو وسيلة غير كافية للحماية ضد توتر لا يحتمل يتصل بالجوع وشعور الإثم، وتأثير المخدرات لها أصل فسيولوجي، ولكن لها أيضاً في بعض الأحيان أصول سيكولوجية فالأفعال الاندفاعية التي تؤثر بغرض الحماية ضد أخطار مزعومة يمكن أن تصبح نفسها خطرة، ومن ثم يمكن أن تتولد حلقة مفرغة في حياة المدمن، هذا هو واقع ما يحدث للمدمنين في بداية التّعلق بموضوع حب بديل لن يشبع النّقص العاطفي المتشكل أبداً، لذلك حين يصبح المدمنون واعين بتفككهم، ومن ثم يمكن أن تتولد حلقة مفرغة هذا هو ما يحدث للمدمنين، فحين يصبح المدمنون واعين بتفككهم النفسي المتزايد، فإنهم ولاشك يدركون ذلك على أنه خطر، ولكنهم لا يملكون وسيلة أخرى لمواجهة هذا الخطر، إلّا بزيادة كمية المخدر، والدّورة الهوسية الاكتئابية بين السّلطنة والهمود تغدو أقل فأقل انتظاماً، فالسلطنة تغدو أقصر فأقصر، وتختفي في النهاية بينما الاكتئاب يصبح مستمراً، أما ما يتصل بالتأثيرات النوعية لواحد من أنواع العقاقير على بنية الشخصية. هذه المشكلة لعلاجها لا بدّ من إضافة التحليل النفسي، إلى التأثير بالعقاقير النوعية. "برنامج شيلر" القائم على تحليل نفسي عقاقيري، يقول "شيلر": السّلطنة النوعية التي

تولدها الكحوليات تتميز بكون الكفوف واعتبارات الواقع المفيدة تختفي من الشعور، قبل أن تنطفئ المحفزات الغريزية، بحيث إن الشّخص الذي لا يجترئ على إتيان أفعال غريزية، يمكن أن يكتسب من الكحوليات الإشباع والتّحرر معاً، حيث إن الأنا العليا قد عرفها البعض بأنها الجانب من النّفس الذي يذيبه الكحول. من هنا اشتهرت الخمور بقدرتها على طرد الهموم، فالعقبات تبدو أقل ضالة وإشباع الرغبات أقرب عند البعض لتضاؤل الكفوف وعند بعضهم الآخر بالانسحاب من الواقع إلى أحلام اليقظة اللذيذة، إذ ليس التأثير الكيميائي للمخدر هو الذي ينبغي محاربته، بل الرغبة المرضية في نشوء السكر، من هنا نؤكد أن أهم اعتبار من الوجهة العلاجية، هو أن نحدد مرحلة التّفكك التي عندها يبدأ العلاج النّفسي التّحليلي عند مدمني المخدرات، هذا العلاج الذي يطبق على أفراد علاقاتهم بالواقع جد متنوعة ومعقدة، وقدراتهم على إقامة الطّرح جد متفاوتة، إذ إن الإدمان يبدأ كبحث عن حارث يطلع بالحماية ضد إثارة أليمة عند الكثيرين ممن نسميهم سكريين، فيكون الشّراب بصفة أساسية انسحاباً من ظروف خارجية لا تحتمل العلاج، ولا جدوى منه ما بقيت هذه الظّروف الخارجية، ولا تكون له حاجة حتى لو تغيرت هذه الظّروف، ومن خلال الدّراسات المتعددة حول الوقت الملائم للبدء بالتّحليل لمرضى الإدمان، يفضل أن يكون أثناء العزل أو بعده مباشرة، ولكن ليس لنا أن نتوقع أن يظل المدمن ممتنعاً عن المخدر طوال التّحليل، فإذا ما أتيحت له الفرصة من المحتمل أن يعود إلى المخدر من جديد، كلما هيمنت عنده المقاومة أثناء تحليله، في المؤسسات، وليس عند المرضى المتنقلين، ليس من الممكن وضع قواعد عامة تحدد في حالات الانتكاس، متى يتم التوقف عن المخدر، كما أن قابلية عدم التّسامح إزاء التّوتر للعلاج من خلال نوع من العلاج التّمهيدي، يعطي مفعولها زيادة في وعي المريض بأنه مريض، وزيادة رغبته في أن يشفى قبل أن يبدأ التّحليل النّفسي بمعنى الكلمة، وكذلك فإن شيئاً من الإيجابية من جانب المحلل، قد يكون ضرورياً في تناوله لعدم التّسامح إزاء التّوترات ونزعة المريض للخروج من هذه الحالة..

حالات عيادية

الحالة الأولى:

الأعراض تتلخص بما يلي:

– الصّدام الدائم مع الأهل – قلق عميق – فشل جامعي – اضطراب في العلاقات الأسرية مطالب مالية ملحة، وغير ملحة مما يدفعه للسرقة – متمرد في الطفولة. أول مرة تعرَّف على المخدرات، كان في الصف الأول الإعدادي حيث بدأ التدخين مع أحد زملائه، في الثالث الإعدادي بدأ بتعاطي "الماريجوانا" في أسوء الأحوال، التي آثارها سيئة بالقياس للضرر الناتج عن استخدام الكحول أو التبغ، منذ الصف الثالث الثانوي بدأ بالهروئين مع شاب صديق له كان عائد من دبي، وقد دخل المستشفى عدة مرات بهدف التّخلص من المخدرات، وقد عرفت والدته بذلك منذ البداية، وكانت تعطيه الفلوس خوفاً من دراية الأب، حيث إن الأب لم يعلم حتى بدء جلسات المتابعة النفسية له وإعادة تأهيله النفسي، رغم أن ولده يتعاطى المواد المدمنة منذ أكثر من عشر سنوات.

"والدّي" الشّاب طارق متعلمين، حيث الأب مهندس والأم تملك مدرسة خاصة، والأخ الأصغر يعرف ذلك وكذلك الأخت الأكبر وزوجها وقد يعاني من الاستخفاف به من قبل صهره، حيث كان يقول: يخانق أختي أمامي.

الشاب طارق في أسرته، يحاول أن يأخذ دور الأب، رغم أنه يعيش علاقة عاطفية مع فتاة جميلة، وهي طالبة جامعية تحبه ومعجبة بشخصيته، كونه متحرراً، شهماً، ويعجبها جماله وترتيبه، إلّا أنّها تكرهه حين يضعف أمام المخدر، وتخاف كثيراً عليه.

اشتغلت مع طارق عشر جلسات، وأخذ موعد لجلسة أخرى، ولكن لم يأتِ وعلمت منه أنه أخذ فلوس الجلسة وتعاطى المورفين، وجلسة أخرى مع عشيقته وأخوه قبل أن أبدأ معه العمل النفسي، الفكرة الأساس التي دارت حولها الجلسات هي كيفية إعادة التكيف بالحياة اليومية من خلال الالتزام ببرنامج من عدة أنشطة

الهدف منها قتل الوقت، وكذلك تحريك الفعالية الجسدية عند طارق، وذلك من خلال الرياضة المساعدة ببعض الأمور على مستوى المنزل، التفكير في إمكانية مساعدة الأم في عملها في مدرستها مع دفع مرتب له مهما كان صغيراً من أجل تنمية روح الاستقلالية، وكذلك شراء المستلزمات ودفع الفواتير، لقد تحمس طارق جداً لذلك رغبة منه أن يكون أفضل...

تبدى طارق خلال هذه الجلسات باعتداد بالنفس واسم العائلة رغم نفوره واستخفافه بوالده، كما أبدى خوفاً على عشيقته لين، وذلك من خلال محاولة إبعادها عن أي نشاط مع زميلاتها، وحتى مع الشباب، في أحد المرات خرجت مع أخيه وصديق آخر مشوار، الغاية من هذا المشوار كما وضح من كلام لين هي البحث لطارق عن مخرج والتفكير المشترك بكيفية المساعدة، ولما أخبرته لين تأزم الأمر بينهما...

طارق يسرق من الأبوين النقود، ولكن عندما يسرق من الأب يسرق مبالغ صغيرة، ويسرق من الأم مبالغ كبيرة دون شعور بالذنب، حدثني مرة عن حلم له وكان مصدوماً به، صور حلمية تظهر أمه مدمنة ويطلب منها أن تعطيه عقاراً من حقيبتها، ولكنها أخرجت منه مادة لا تشبه الهروئين، فأخذها واستيقظ خائفاً، ومنذ اللحظة الأولى الذي أتى فيها العيادة بعد هذا الحلم، وهو واقف في مدخل مكتبي وقبل أن يأخذ موضعه على "الديفونة" بدأ بالحديث عن حلمه هذا، في الجلسة الرابعة كان يتحدث عن أمه، وعن أمور البلد وكان مستغرباً مما يحصل، يكره التّدين، ويخاف من السلطة... حيث إن الإدمان ظاهرة نكوصية إلى مرحلة سابقة نتيجة تهديد وصراع نفسي، يعزى الإدمان إلى أنا ضعيفة وشعور بعدم الآمان، التوتر والقلق يدفع المرء للتخفيف عن ألمه بالأدوية المهدئة، لذا نجد الإدمان يكثر عند المنبوذين والمنعزلين الذين فقدوا الأعزاء، وفشلوا في طموحاتهم العاطفية أو مشاريعهم التجارية، ومن العوامل النفسية الفضول والتحدي والرفض، فالإدمان ظاهرة نكوصية لمرحلة سابقة نتيجة التهديد والصراع النفسي... في الجلسة الخامسة: كان

قد أتى لي معه بدفتر كتب عليه خواطره يصف بها ضعفه وكيف يحب أن يكون، كما تحدث عن أخته وأولادها ومحبته لهم... أما الجلسات الخمس الأخرى فبدأ يتحدث عن الوقت، عن الأخ والأب، عن العمل وقد بدأ بدوكرة (عمل ديكور) لمحل ورثته أمّه من والدها، وكان يستخدمه أخوها قبل ذلك أي (خال طارق).

في أحد الأيام تشجع طارق وفتح موضوع المحل مع خاله، وطالبه بمحل والدته وهو الآن يفكر باستثماره، كمحل للحلويات والشوكولا الفاخرة كما قال...

الحالة الثانية:

الاسم: عبد الملك، عمره 23 عاماً، بعد أن التحق بالخدمة العسكرية الإجبارية، وقبل ذلك من عمر 18، كان قد سافر إلى السويد، وعاش بها ثلاث سنوات ونصف، خلال هذه الفترة تعاطى خلالها المخدرات بأشكال مختلفة، كانت المرة الأولى مع خاله، الذي هو في الأصل سافر إليه، كي يساعده في التخلص من خدمة الجيش. في السفر اشتغل عدة مهن من حلونجي إلى ميكانيكي إلى نادل في مطعم، كما اشتغل بالزراعة هناك، وقد عاشر نساء كثيرات ومنهم عشيقة خاله، وعلى أثر هذا الموقف أخبر الخال أهل عبد الملك بأمره، وكانت عودته إلى سوريا، عند العودة إلى البلد، أتى منهاراً ومصدوماً بالتغيرات التي أبعدته عن أهله وقد عانى لذلك من عزلة شديدة وعقدة ذنب كبيرة. دخل مشفى نفسياً خاصاً، وتعالج لفترة وعند السيطرة على الأعراض، دُعي إلى الجيش، وقد كانت فترة العسكرية كما يقول قاسية، فكان يتعرض لسخرية الجنود، مما دفعه للعودة إلى التعاطي ثانية، ففي أحد إجازاته تحرش بوالدته وهي في سريرها مع الأب يقبلها من فمها ومسك صدرها ومؤخرتها، ولم يكن لديه عقدة ذنب حينها حيث كان يقول لأمه: ليش ما بيعجبك "عضوي"... شو المشكلة، شو فيها، وراح يتمتم والله ما فيها شيء أنا ابنك.. بعدها صار يشكي لأمه أن لديه أفكاراً وسواسية، وأنه لديه ألم في منطقة الأعضاء التناسلية، كما كان يخاف كثيراً من بقائه لوحده، أو حتى الذهاب إلى

السوبر ماركت القريب الذي يعرفه منذ طفولته... حيث فقد الثقة بنفسه وبمقدرته على مواجهة أي موقف مهما بدا بسيطاً.

كان عبد الملك يحب التعري، وعرض جسمه أمام والدته، وحتى إخوته ويسأل أنا حلو؟ كما كان يردد كلمات بذيئة جداً بشكل لاإرادي من وقت لآخر ما دام هو في المنزل، يرددها في سياق الكلام وكأنه مهووس، كان لديه حلم متكرر، أنه دائماً يسقط من مكان مرتفع، ولكنه لا يصل إلى الأرض، ودلالة حلم السقوط في التحليل النفسي إشارة إلى عقدة الخصاء التي لم تحل، والعلاقة بالأب وفحولة الأب، كما كان يحلم حلماً متكرراً بشابة سويدية كانت في يوم من الأيام قد تخلت عنه، وطردته من منزلها إثر سؤالها له عن دينه، كما كان له علاقة جنسية معها، ومع صديقتها في اليوم نفسه، ويحس لغاية الآن أنه قد تعرض لاغتصاب منهن، فهو شاب لطيف جداً وحساس، يكره الظّلم، يعمل أي شيء لأخيه الصغير كي لا يبكي، لديه قلق كبير كيف يثبت نفسه في أي أمر، يحب المديح كثيراً، كما أن لديه رغبة كبيرة في السفر ثانية إلى السويد، رغبة منه باللقاء مع الذين ضعف أمامهم هناك، ولاسيما الفتيات، وخاله أيضاً الذي كان ينعته باستمرار بأنه ولد، مما كان لوقع هذه الكلمات الكثير من الاستفزاز عليه... في أحد الأيام، هرب من بيته ليلاً، وذهب إلى المطار، وكان الأب قد أساء العلاقة مع زوجته (والدة عبد الملك)، وهددها بسبب أن أخاها كان السبب في مشكلة ولده "عبد الملك"، ولكن أمه متسامحة مع أخيها، ومؤمنة بقدرات ابنها ومستعدة لفعل أي أمر لا يغضب الله لمساعدته، وهذا الأمر وجدته نقطة مهمة في علاج عبد الملك. شَاهدتُهُ 7 مرات منفردة، وجلسة مشتركة مع والده وأخيه الأكبر، كما قابلت الأبوين في جلسة منفردة، وحينها لمستُ ضعف الأب وعاطفته، حيث انهار بالبكاء، ولكن لمست ثقة الأم بولدها، ووجهتها أن تعطي هذه الثقة لعبد الملك من خلال كلامها معه، من خلال التعامل معه ومطالبته بالاعتماد على نفسه واعتمادها عليه في قضاء بعض الأمور المنزلية لِحثّهِ على عيش رجولته، كما طلبت منها أن تمشي معه يومياً في

نشاط مشي في حديقة مجاورة لمنزلهم الكائن في وسط مدينة دمشق، وذلك قتلاً للفراغ وتباهياً به أنه رفيقها، وكذلك حثه على الالتزام بأي أمر بداية، حيث أتى إلي وهو خمول لا يريد فعل شيء ولا أن يمارس نشاطاً رياضياً في نادٍ قريب من منزله، لا يريد فعل شيء حتى لو كان ذلك نشاطاً بسيطاً، ولكن قيمته النفسية والتربوية عالية... كما طلبت منها تخصيص أعمال له في البيت، يسأل عنها باستمرار وكذلك لأخيه الأصغر منه بسنة، كما وجهت الأب لعدم انتقاده، بل بث الثقة في نفسه، والجلوس معه يومياً والتفكير معه بمشروع، ولو صغيراً للمستقبل حيث لدى الأب عقارات، ومحل تجاري في منطقة صناعية بعيدة عن المدينة، اقترحت على الأب استغلال هذا المحل بأي نشاط تجاري لعبد الملك وبصحبته بداية... لكن عبد الملك لم يكن يعجبه هذا المحل، كونه بعيداً ويذكره "بالسويد" حيث الشغل خارج المدينة، لذلك فضل أن يعمل مع صديق له من الطفولة في محل أكلات شعبية (فول وفلافل ولسانات وسجقات...)، واقترحتُ على الأب أن يجعله في شركة مساهمة مع رفيقه، حيث كان وضع الأب يسمح بذلك، لأن ذلك بتقديري سوف ينعكس إيجاباً، على موقفه من العمل والالتزام به، وبالتالي يكون دافعاً له لتأكيد نفسه باستقلالية وثقة... وقد انقطع لمدة شهر ونصف، ومن بعدها أتى ليخبرني بأنه شارك صديقه بالمحل ويفكر بالزواج، ويريد أن يطلب من صديق أن يساعده في الزواج من أخت زوجته وطلب رأيي، قلت له لا تضيّق على نفسك الخيارات، ربما تكون لك فرص أفضل من ذلك، أجّل الموضوع قليلاً وشاهد أكثر من فتاة، اطلب من والدتك المساعدة، حاول أنتَ التعرّف، ولكن الأهم أن تعرف ماذا تريد من المرأة التي تريد الارتباط بها، ماذا تنتظر منها في حياتك، ماذا يمكنك أن تقدم لها، هل تريد أن تشارك عائلتك السكن، فكر في كل هذه الأمور، وطلبتُ منه أن يعاود استكمال جلساته حتى يستقر في حياته العاطفية والاجتماعية، لأن ما وصلنا إليه يحتاج إلى تثبيت ورعاية، ليأخذ منهجا ثابتاً في الحياة، ويكوّن مناعة نفسية له ضد أي صدمة أو ظرف يطرأ...

ما وجدته في الشّاب عبد الملك من خلال جلساتي معه، أنه شاب يريد التّميز عن أقرانه وإخوته ومن خلال سفره إلى السّويد تعلم أموراً كثيرة في ثقافة الحياة، مما ميزه عن شباب حارته، ولكنه في الوقت نفسه كان يغار كثيراً من رفيقه الذي شاركه في العمل، حيث كان يقول هو رجّال... موضوع الرجولة كان عقدة حقيقية له، وهذا يتضح من حلم السقوط المتكرر، كما كان بعد عودته من السفر من "السويد" عندما يأكل يطلب إذناً من والديه، كما تعلم الكثير عن الخصوصية الشخصية لدرجة أن مشاعر والديّه كانتا تتأذى من جراء ذلك، ولاسيما عندما كان يطلب إذن أمه أن يفتح الثلاجة، أو أن يطلب إذناً من أبيه لإمكانية أن يشرب نسكافيه وغير ذلك... أو يطلب إذناً من والدته في غسل وكي ملابسه، والدته كانت تعدّ هذه الأمور قاسية عليها، حيث تشعر وكأنه يعتبرها غريبة عنه، ليس له حق عليها، ولكن هذا الأمر عائد لثقافته الحياتية الجديدة والضوابط التي تعلمها في السويد، ودفع ثمنها غالياً حيث كان الالتزام بالضوابط والقوانين، السبب الرئيس في مشكلة الإدمان، لدى عبد الملك...

الخطوات الأساسية لعلاج الإدمان

الإدمان يعتمد على شدة اللهفة، المتصلة بتاريخ الاعتماد وحجم الخبرة مع المادة المخدرة، واللهفة عملية معقدة تحدث نتيجة بناء نسق نفسي معقد بين الذات والموضوع، كما أن التخدير يقوم بدور التمكين والتعزيز، على أساس من تأثيراته في تخفيض عتبة الإحساس بالألم وتقليل الوعي، والشعور بالخوف والقلق والكدر.

كما أن الرغبة في المخدر والتلهف عليه خبرة تعني شيئاً أكثر من مجرد رغبة، كما يرغب الإنسان في لون معين من ألوان الطعام أكثر من غيره، وفي امتلاك شيئاً ما، واللهفة عند متعاطي المخدرات، تنتقل من مفهومها العادي إلى المفهوم النّفسي، الذي يعبر عن ظاهرة تقوم على حالة متكررة من الرغبة أو الحاجة الملحة لشيء ما، أو موضوع ما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بكيان الفرد ووجوده،

لذا اللهفة عنصر مهم في عملية الإدمان. مما لا شك فيه أن هناك درجات بين الرغبة بالشّيء والتّلهف لهذا الشيء، فاللهفة تتضمن شدة غير عادية في الاستجابة الانفعالية للفشل، في تحقيقها كالغضب والغيظ والتّهجم والعبوس والانسحاب.. وبالتالي العمل العلاجي النّفسي يجب أن ينطلق بتقديري من هذه النقطة الضعيفة عند المتعاطين، وذلك في وضع تصوّر لتعديل الرغبة في ترك هذه المادة من خلال مراحل عدة:

1- النفور منها من خلال ارتباطها بأعراض مزعجة من مثل الإقياء، أو غير ذلك من التأثيرات المزعجة الناتجة عن سحب المادة المخدرة من جسم المتعاطي أو التخفيف من حدتها، وهذا يتم في المشفى.

2- مرحلة المشفى: هذه المرحلة تعدّ مرحلة لا بدّ منها لانسحاب المادة المخدرة من الجسم بإشراف طبي مناسب، درءاً للمضاعفات الجسدية المتوقعة.

3- ومن ثم البدء بالعلاج النفسي الداعم الذي يجب أن يبدأ من المشفى، ولابدّ منه ليستعيد المدمن حالة اليقظة بعد تخلص جسمه من المادة المخدرة، وهو بذلك يتطلب رعاية مكثفة ومستمرة داخل المشفى، حسب طبيعة المادة أو العقار، وشدة الإدمان، فلا مكان لعلاج آثار انسحاب تأثير العقارات المخدرة من جسم المدمن، إلّا المشفى، ومن ثم علاج حالته النفسية التي أدت به إلى الاعتماد على أسلوب دفاعي خارجي، بديلاً لفشل دفاعات الذات في وضع حلول ملائمة (موسوعة علم النفس والتّحليل النفسي، مصطفى كامل، ص78)، وهذه المرحلة الأولى للعلاج يلزمها اختصاصي بالطب النفسي... ولا بدّ من المشاركة ليتم العلاج والتعافي من الآثار النفسية التي تسببت في التّعاطي والإدمان على العلاج النّفسي غير الدّوائي، وهناك مدارس وأساليب عدة لذلك أذكر منها:

العلاج النّفسي الجماعي: وهذا أسلوب علاجي مفيد للمدمنين، كونه يساعد المتعاطي المدمن على إدراك مشاكل أخرى مشابهة، أسوأ أو أقل من مشاكله، مما ييسر له النفاذ لحقيقة وضعه وموطن الضعف في مواقفه الحياتية، هذا الأسلوب

العلاجي النفسي يتيح الفرصة لإعادة التأهيل الاجتماعي، الذي يقتضي وجود عمل بعيد عن الإغراء والمطاعم والملاهي، كإدخاله بنادي رياضي بقصد تحويل الاستمتاع لمواضع أخرى، وصرف الطاقة المحبطة من جسده والإحساس بقوة الجسد، وليس بضعفه (فيصل عباس، 212).

ما هو مأمول أن يعم الشعور بالمسؤولية بدلاً من الشعور المغرق في الفردية، في حالة التعاطي. وأن يحس هؤلاء الأشخاص بمعاني الخلود من خلال العمل المنتج المؤثر في المجتمع، وأن يحس بوجودهم بدلاً من فقدان هذا الإحساس بالنّفس إذ يعيش المدمن شعوراً باللانهائي وينسى وجوده، وتظفر العينان بمنظر الخلود كما تظهر كتابات "بودلير" الشاعر الفرنسي و"تيوفيل جوتييه" والأديب الأمريكي "لدلو" الذي يقول: التّخدير شعور، حيث الرغبات غير نهائية، وليس هناك إشباع مطلق للرغبات فنحن البشر لا ننتمي إلى العيش الدّائم في الفردوس، بل قدرنا يتحقق من خلال النشاط والكدّ، ومن خلال اللذة والألم معاً تُصقَل إنسانيتنا وتتعمق...

الرؤية النفسية العلاجية للمدمنين من منظور التّحليل النّفسي: ما يزال هناك كثير من الجدل حول العلاج النفسي لاسيما التحليلي، للأشخاص من ذوي السلوكيات الاندفاعية، ومنها الإدمان، حيث توجد من وجهة النظر العملية، مشكلات خاصة ينبغي التغلب عليها، فلا يقتصر الأمر على العرض ذاته، كونه ملاذاً وظيفياً أحياناً لتحقيق الاستمرارية في حياتنا اليومية، فهذه الجبلة النرجسية قبل الانسالية (قبل الأوديبية)، تحتم على العمل التّحليلي، أن يرجع إلى أعمق الدقائق في البنية النفسية، كما أن عدم التّسامح إزاء التّوترات، يستلزم بعض التّعديل بفنيات العلاج، فالمبدأ هو السّيطرة على الرغبة المرضية في نشوء الانحراف، من هنا يعتمد العلاج التّحليلي على زيادة وعي المريض بمشكلته، وزيادة رغبته في أن يشفى، قبل أن يبدأ التّحليل النّفسي بمعنى الكلمة، وقد يكون ضرورياً في تناوله لعدم التّسامح إزاء التّوترات، ولنزعة المريض إلى الخروج من هذه

التّوترات، من هنا يمكننا القول إن الكحوليين مثبتون على المرحلة الباكرة، من النّمو النّفسي التي يكون فيها النّضال من أجل الإشباع الجنسي، والنضال من أجل الأمن لم يتمايز بعد أحدهما عن الآخر، فهم في تبعية يحتاجون إلى الحب والاستحسان، ويحتاجون إلى أن يأتيهم الحنان والتقدير وحقيقة كونهم يحتاجون إلى أن يأتيهم الحنان والتقدير، وحقيقة كونهم يحتاجون إلى هذه الإمدادات من أجل وجودهم ذاته، إنما تفسر الشدة التي بها يناضلون من أجل هذه الإمدادات وبالنظر إلى تثبيتهم على المرحلة الفموية، فإنهم ينزعون إلى العنف في استجابتهم للإحباط المتكرر. إن صراعهم الرئيس هو صراع بين هذه النزعة إلى العنف ونزعة إلى الكبت.. لتكون كل عدوانية تعبيراً واضحاً بسبب الخوف من فقدان الحب، أي الخوف من أن ينقص أكثر ما يتلقونه ويستمتعون به في المستقبل.

صحيح أن العلاج النّفسي التّحليلي يتطلّب من المريض، والمحلل النّفسي جهوداً وعناءً كبيرين بقصد التغلب على المقاومات الداخلية، ومن ثم الظهور على هذه المقاومات الداخلية، ومتى تم الظّهور على هذه المقاومات تغيرت الحياة النفسية للمريض، تغيراً دائماً وارتفع مستوى التّطور، فالتّغلب على المقاومات هو المهمة الأساسية للعلاج التّحليلي، وهي مهمة يتعين على المريض القيام بها، ويمكنّه من ذلك المحلل مستعيناً بالإيحاء، الذي يكون في هذه الحالة بمنزلة تربية للمريض، ومن هنا يعدّ العلاج النّفسي التّحليلي، نوعاً من التربية المتجددة. والعملية التي يتم بها الشّفاء من الإدمان كونه لا يستطيع الاستمتاع، لأن اللبيدو عنده لا يتعلق بموضوع واقعي، ويعجز عن الإنتاج لأنه يستنفذ قسطاً كبيراً من طاقته كي يحتفظ باللبيدو في حالة الكبت، وهو لا يشفى إلّا حين ينتهي الصراع بين الأنا واللبيدو، أي عندما تمس اللبيدو في قبضة الأنا مرة أخرى، ومن ثم تتلخص مهمة العلاج في تحرير اللبيدو من متعلقاته السّابقة التي ليست في متناول الأنا، وتطويعها للأنا من جديد، لكن أين يوجد ليبيدو العصابي...؟ علينا حلّ الأعراض والسيطرة عليها، فلا مناص من أن نعود إلى أصولها، بأن نطلع على الصّراع الذي

نجمت عنه، ثم نوجه هذا الصراع إلى حل جديد مستعينين على ذلك بالقوى الدّافعة، التي لم تكن في متناول المريض عندما نشأت الأعراض، لتكون الصّلة الأولى بالعلاج التّحليلي تبدأ:

من الطرح فتبعث من ثنايا صلة المريض صوراً جديدة من الصراعات القديمة، يحاول المريض أن يتصرف حيالها، كما كان يتصرف في الماضي، لكنه يحشد في هذه المرة كل ما في وسعه من قوى نفسية، كي يصل إلى حل يختلف عن الحل الأول، بحيث يصبح الطرح الجبهة التي تتلقى فيها جميع القوى المتصارعة، بحيث تنحصر الصّراعات في طرح اصطناعي، هو شخص المحلل، وهو موضوع خيالي أيضاً قد حل محل الموضوعات المختلفة غير الواقعية التي يتعلق بها اللبيدو... هذا الصراع الجديد الذي ينشل المتحلل منه إيحاءات المحلل، إذ هذه الإيحاءات ترفعه إلى أعلى مستوى في الحياة النفسية من خلال تفادي كبت جديد مما ينعكس على الأنا ويحرر طاقة اللبيدو، لنجد من خلال ذلك الوحدة النفسية قد ردت إلى المريض، بحيث نجد في المتابعة النفسية التّحليلية متى فطم اللبيدو عن هذا الموضوع العارض، وهو شخص المتحلل لم تعد تستطيع أن ترتد إلى موضوعاتها السّابقة، بل تظل الآن في حوزة الأنا.. عواقب العلاج نفور الأنا من نزعات ليبيدية معينة، هذا النفور عائد لنزوع الى الكبت، أي من تشبث اللبيدو أو جمودها، الذي يجعلها لا تنفصل في يسر عن الموضوعات التي كانت عالقة بها من قبل.

وهنا العلاج النّفسي التّحليلي له طوران، الأول: تكره اللبيدو بأسرها على أن تنسحب عن الأعراض كي تثبت وتتركز في الطّرح الثاني: تدور المعركة حول هذا الموضوع الجديد لكي تحرر اللبيدو منه، حيث من خلال عملية التأويل التي تستدرج المواد اللاشعورية إلى الشعور من شأنها أن يكبر الأنا ويربو على حساب اللاشعور...

كما أن النصائح المتلقاة من شأنها أن توفق بينه وبين اللبيدو، فيرفض أن يمنحها شيئاً من الإشباع بالإضافة إلى ما يكسبه الأنا من قدرة جديدة على إعلاء

قدر معين من اللبيدو، ومن شأنه أن يخفف عنه بعض ما كان يشعر به من ذعر حيال مطالب اللبيدو، وصعوبة العلاج الناجح هو جمود اللبيدو واستقصاؤها على الانفصال عن موضوعاتها، حيث إن تصلب النرجسية عند المريض، لا يسمح بتحول اللبيدو إلى الموضوعات إلّا بقدر معين، أي يستحوذ على كل اللبيدو التي لم يكن يهيمن عليها الأنا، إذ يجتذب إلى نفسه جزءاً منها، عن طريق الطرح. وبذلك فتشخيص التّطور المقبل أكثر بعثاً على التّفاؤل، كما أن تشخيص التطور المقبل للحالات الاندفاعية يتوقف على قابلية عدم التّسامح إزاء التّوترات، ولنزعة المريض إلى إيجاد مخرج، وذلك من خلال العلاج التّمهيدي بزيادة وعي المريض بأنه مريض، وزيادة رغبته في أن يشفى كما كنت قد ذكرت في فقرة سابقة...

والجدير بالذكر أن من الأشكال العلاجية النفسية التي أثبتت فعاليتها في علاج المدمنين هو العلاج النّفسي الجماعي والعلاج بالسيكودراما، وذلك من خلال اجتماع عشرة من المدمنين والمعالج النفسي في جلسات تستغرق الواحدة ساعة ونصف وتستمر هذه الجلسات لمدة عام ويعمل المعالج على إثارة التفاعل حول وصف خبراتهم الأخيرة وكل شخص يتحدث بحرية عن إخفاقاته ونجاحاته والحوادث المؤثرة في حياته مما يساعد على الفهم والصلابة في اتخاذ القرارات القوية وكذلك فإنّ تنمية مهارات الاتصال بالآخرين تساعد على التخفيف من سلوك الإدمان من خلال تحقيق الذات وسط الجماعة، إذ نجده يجرب طرقاً أخرى في التعامل مع المجموعة العلاجية وهو متأكد من أن أدائه وسلوكه لن يكون محل نقد أو احتقار من الآخرين، كما أنه يواجه الخبرات والانفعالات المؤذية في وقتها، حيث إن الجماعة تعمل ككل في حل صراعاتها، الجماعة تجعل المدمن يرى المواقف التي يمر بها، من خلال ردود الأفعال المختلفة لأعضاء الجماعة العلاجية الأمر الذي يسمح بتنمية قدرة المدمن على أن يقف موقف غيره، إذ بتنميته لِحسِ الآخر يستطيع استعادة موقعه من ثم في أسرته، التي تمثل البيئة الاجتماعية الأولى التي تشكل انعكاساً أساسياً لقيم أي مجتمع...

الفصل العاشر

مهارات التواصل الفعال
والتربية على قبول الآخر

تمهيد

التواصل مع الآخرين فن من أجمل الفنون النفسية، ومهارة لا يقتصر نتاجها على التواصل مع أسرتنا وأصدقائنا، بل أيضاً على عملنا، وحياتنا في جميع أنشطتها، إذ لا يقاس التواصل الفعال بحسن ترتيب وتنميق الكلام، بل بقدرته على أن يكون مفهوماً وحاضراً. التواصل الجيد له تأثير قوي ليس على الآخرين فقط، بل على صحتنا العاطفية والعقلية، والتواصل الجيد يُعرف علمياً اليوم على أنه وسيلة فعالة لتحسين الأداء العقلي بوساطة تغيير كيمياء الدّماغ، وذلك من خلال النّظام العصبي اللمبي "Limbic System".

ويعرّف التواصل الفعال كمفهوم بأنه: شكل من أشكال تبادل الأفكار العميقة، أما التواصل الجيد فهو المهارة الاجتماعية التي ينبغي تطويرها إلى أقصى حدّ، بهدف جعل الحياة أكثر نجاحاً وتناغماً، وبذلك مفهوم التواصل يتضمن التّفاعل الإيجابي الناتج عن استعمال حواس التواصل في إرسال الخطاب وفي استقباله، النابع من رغبة صادقة في الصلة بالآخر، والاتصال بوجدانه عن طريق الفهم والإفهام، المنطلق من إرادة الوصول إلى المعرفة الحقيقية، وبذلك تعد المقدرة على التواصل الفعال مؤشراً على نضج في العمر العقلي حيث وتبعاً لـ "مصطفى صفوان" فإن التواصل ما هو إلّا وسيلة اجتماعية للاتصال بين الأنا والآخر، عندما يصل الإنسان إلى مستوى نضج اجتماعي تتمكن الأنا عنده من الانفراد وتمييزها

عن الآخر، وفي مرات كثيرة، يتبين رغم النّضوج، أن البنية النفسية القابعة في أساس الأنا، تؤخذ في استعراض الآخر القرين، فيحصل تماهٍ في شكل غيرة منافسة، إما أن تكون غيرة محببة، أو تحبب في غيرة بحيث يتماهى الثاني بالأول، وكأنه في وضع مرآتي يتأمّل نفسه في الآخر، ويتحكّم بهذه العلاقة ما بين الذات والذات الأخرى، انقسام أساسي داخلي خاص بكل طرف، بحيث هذه البنية تبقى قابعة في أساس الأنا، ولا تُلغى كلياً وهي تبعاً "للاكان" متحكمة بعلاقة السّيد والعبد، كما ورد أيضاً في إشكالية "هيغل" لتصبح علاقة عشقية، عندما يقول العاشق للمعشوق: أنا أنت وأنت أنا، وهنا الحوار يصبح معدوماً، كونه منغلقاً ليس فيه مستقبل ومرسل بل افتقد عناصره وهنا مقبرة الدّيمقراطية، وعيش الاندماج والتّبعية اندماج العبد بالسّيد والضّحية في الجلاد لتعاش متلازمة "استوكهولم" حيث تضيع المعاني، وتعاش مرضية القهر والاستلاب... فوفقاً "لفرجينيا ساتر" اختصاصية العلاج النّفسي العائلي الأمريكية الشّهيرة التي عرّفت الاتصال بأنّه: "عملية أخذ وعطاء للمعاني بين شخصين"... وحيث المعاني تصلنا عبر التواصل اللفظي، وغير اللفظي، فإن الكلمات يلزمها أن تنسجم وتتناغم، مع نبرة الصّوت وحركات الجسم وتعبيرات الوجه، إذ ليس للكلمات أي معنى سوى المعنى الذي نعطيه لها.

في العقد الفريد ذكر "ابن عبد ربه" عن بعض الحكماء العرب قوله لابنه، يا بني: تعلم حسن الاستماع، كما تتعلم حسن الحديث. وقول أحد حكماء العرب: إذا جالستَ العلماء فأنصت لهم... وإذا جالست الجُهَّال فأنصت لهم أيضاً؛ فإن في إنصاتك للعلماء زيادة في العلم، وفي إنصاتك للجُهَّال زيادة في الحلم.

ويخطئ بعض الناس بالمبالغة في الإنصات لدرجة عدم الكلام. وهنا أشير إلى الدّقة في فهم الجاحظ لذلك، حين قال: (ليس الصمت كله أفضل من الكلام كله، ولا الكلام كله أفضل من السّكوت كله، بل قد علمنا أن عامة الصمت أفضل من عامة الكلام للآخرين).

وأجد من المفيد هنا التذكير بالقاعدة الأساس في تعلم اللغات، والتي تؤكد على ضرورة التّعلم وفق التّسلسل التّالي: "الاستماع – التّحدث – القراءة – الكتابة".

وتبعاً لذلك فإن الإصغاء الفعال هو: من أهم المهارات التي يمكن تعلمها، ويعتمد عليه تقدمنا في العمل، وفي إقامة علاقات نوعية متطورة المستوى مع الآخرين، مهارة الإصغاء الذي تختلف عن مهارة الاستماع، هذه المهارة التي تبدأ من التّركيز على الحديث، ومحاولة تفسير أصواته، وإماراته وكل حركاته وسكناته، أما السّماع فهو عملية فسيولوجية تولد مع الإنسان، وتعتمد على سلامة العضو المخصص لها، وهو عضو السّمع (الأذن)، في حين تعد كلّ من مهارتي الإنصات والاستماع مهارتين مكتسبتين.

– ففي حين يعتمد الإنصات على الأصوات المنطوقة لا غير، نجد أن الاستماع يتمثل بربط هذه الأصوات، بالإمارات الحسية والحركية للمتحدث، وتقاس جودة مهارة الاستماع من خلال معطيات عدة، تتصل بتوظيف لغة الجسد بدءاً من الأذن، وطَرْف العين، وحيوية الوجه، إلى التعبيرات المعنوية من مثل الحضور العاطفي الإيجابي، المتمثل بعدم الانشغال بتحضير الرد، والتّحفز للانقضاض على محدثنا قبل أن يستجمع أنفاسه، ويكمل فكرته، وبذلك لا يمكن تفهم حقيقة مراد من نحاورهم، ما لم تكن لدينا رغبة جادة في الإنصات إلى حديثهم... وهنا نقطة مهمة يجب الإشارة لها، من حيث إن معرفتنا بحديث المتكلم لا تغنينا عن الاستماع إليه...

ووفقاً لما يقول "إلبرمهارابيان" أستاذ علم النفس في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلس ومؤلف كتاب البلاغ الصامت "إن وسائلك الصامتة قد تناقض أو تعزز، ما تقوله بالكلمات، وهي بطبيعة الحال أبلغ من الكلمات في الاتصال"...

وفي التّعريف الذي أعتمده هنا لمهارة الإصغاء الفعال أركز على أنه: أحد أهم مهارات التواصل الفعال، التي يحسن استخدامها البعض، ولكن في الغالب يفشل آخرين، في المقدرة على تحقيق هذا المستوى من الإصغاء الفعال منه أو

حتى الجيّد، إذ لا يمكن للإصغاء الفعال أن يكون مزيفاً، لأنّه يستوجب حضوراً تاماً للمشاركة.

ثلاثة أنماط للإصغاء: الجسدي، الذهني والانفعالي...

وعبر التّوكيد الصّامت أثناء الإصغاء وعبر التّفهم لمشاعر المتحدث، وتجسد مفاهيمه، ومواقفه، بدلاً من اجتزاء فكرته. وفي حال عدم المشاركة الفعالة لهذا التواصل (الجسدي والذهني والانفعالي) قد يحصل الكثير من المشكلات النّفس اجتماعية، وفق استنتاجاتنا، يعود ذلك لضعف تحقق مهارة الإصغاء الفعال، ولما كان الإصغاء لا يعني الصّمت، وتلقي الحديث فقط، ليشمل إصغاء تتفاعل فيه الرّوح والجسد.

كما لا بدّ من الإشارة هنا إلى أن مهارة الإصغاء الجيد، غالباً ما تعطي ثمارها في المقابلة الأولى، وفي اللقاءات العابرة؛ لما في ذلك من أثر جيد ينعكس على إيجابية هذه اللقاءات في النّفوس؛ من حيث إن الحوار في هذه اللقاءات منصب على الوصول للآخر! حيث من خلال الموقع نوجه خطابنا للآخر بتحديد العلاقة الاجتماعية انطلاقاً من هذا الموقع الذي تحتله الذات لكي تخاطب الآخر... فالعلاقة مع الآخر كثيراً ما نراهن على كل تطابق الآخرين مع الصورة التي رسمناها عنه، فنريده كاملاً بحسب مقاييس كمالنا، وحين لا يلبي هذه المقاييس نرديه قتيلاً في فكرنا ومشاعرنا، فلا يهدأ لنا بال حتى نلغيه، وفي أحسن الأحوال نتجاهله.. وننسى أن الآخر في النّهاية هو كائن حر، فيعلق في شِباك رغباتنا وتوقعاتنا منه...

خطابات التحليل النفسي

هناك أربعة أنواع من الخطابات، تبعاً لموقع الخطيب أو المتصل:

الأول: خطاب المعلم أو المرجعية الدينية والعقائدية.

الثاني: خطاب الجامعة أو الخطاب العلمي.

الخطـاب الثّالـث: خطـاب الهسـتيريا أي خطـاب الـذات المرضـية، بسـبب انقسامها ما بين وعي ولاوعي.

الخطـاب الرابـع: خطـاب الرّغبـة المتمثـل فـي موضـوعها مـن احـتلال أي خطاب مكان الصدارة، هذا التّصنيف للخطاب أي لمسار التواصل مع الآخر، لـه فوائد عدة كوننا من خلال هذا التّنسيق، نجد أن المتكلم لا يستطيع أن يحدد موقع الأنـا النّفسـي الخـاص بـه، والنتـائج لكلامـه إلّا مـن خـلال موقـع الخطـاب الـذي يحتلـه، وحيث هذه الخطب الأربعة موجودة دائماً في العمل النّفسي التّحليلي لا تنفصل عن بعضها على اعتبار أنها محركة ومنسقة لشبكة الدّوال، أو المدلولات فـي التعامـل مـع الآخـرين ضـمن منطـق يخضـع لقـانون اللغـة كونهـا مبنيـة كاللاشعور، حيث إن عمل التحليل النفسي، يقوم أساساً على لغة الكلام، ولكن لغة الجسد تكون في التحليل إشارة لأعراض مرضية حيث إن العارض المرضي يتكون من سلسلة دوالٍ لاواعية.

تستدرج آلية التّداعي الحر الدوال من حقل الوعي، كي يمتلكها المتحلل بدلاً من أنها كانت سابقاً تتحكم به. فنظراً لاحتكام الإنسان إلى اللغة، يتبين أن ما يتفوه بـه المرء يتعدى حدود المعرفة التي انطلق منها، ويقول بذلك دائماً أكثر مما كان يبغي، أي الكلام يحمل في طياته انقساماً ذاتياً، يعود مصدره إلى اللاوعي أي إلى رغباته المكبوتة، التي تكونت منذ مرحلة عقدة الخصاء... عندما يخاطبنا شخص ما، نقول له استنتج من كلامك أنك تعني غير ما قلت، فهذا الاستنتاج في السمع، هو ما يميز العمل التحليلي على اعتبار أن كل خطاب كلامي يحمل في طياته انقساماً ما بين ذات في البيان الظاهر، وذات في المبين كقطعة النقود، هي واحدة في الأصل ولكن تحمل انقساماً ما بين وجهٍ وخلف...

سار "لاكان" هنا على خطى "فرويد" عندما حدد أن الأنا منقسمة في أداء وظيفتها، إلى قسم واعٍ على علاقة بالمخاطب، وقسم لا واعٍ على علاقة بالمكبوت، هذا ما تؤكده الأفعال المغلوطة وهفوات وزلات اللسان. فقد عبر "لاكان" عن هذا

الانقسام في الرمز التالي ($) الخط القاطع، يشير إلى الانقسام الحاصل في الذات المكتملة، يشير "فرويد" إلى أن الكلمة قبل أن تعرّف عن مضمونها، كان هذا المضمون شيئاً، والشّخص قبل أن يصبح ذاتاً تعرّف عنه، كان شيئاً... هذا الشيء حسب "لاكان" هو بمثابة الموضوع الضّائع (objet a) ففي مجال آخر، يقول: إن الرّمز هو قتل الشّيء، أي يحل محله بعد استغنائه عن وجوده، الشّيء خارج إطار اللغة، ولكنه قابل أن يؤدلج حقل ما قبل اللغة عندئذ يمكن أن توضع التّسمية (أو تقال الكلمة).

الإنسان منذ ولادته يرتبط بعقد دين تجاه المجتمع، على غير علم منه، لأن دخوله وارتهانه بحقل اللغة يقتضي ذلك، فكل إنسان مديون للغة التي كونته..

سمات الاتصال الفعال

هناك سمات عدة للاتصال الفعال من أهمها: فهم الكلمات التي يقولها الآخرون من حيث إن التواصل لفظاً، يشير إلى مرسل ومستقبل ورسالة، ووسيلة نقل هذه الرسالة، كما أن للاتصال هدفاً، والهدف له مستويات ومعايير لتحقيقه، ومن الأهداف الموضوعية للاتصال نذكر:

- التّأثير الإيجابي بالآخرين.
- إقناعهم بوجهات نظرنا.
- إقناعهم بمساعدتنا من خلال التّعاطف معنا، من هنا فإن النّظرية الأساسية للاتصال، تنطلق من وظائف معالجة المعلومات، كما وصفها "مايكل هول" وفق ما يلي: المعالجة نفسها تكون من خلال التفكير، والمحاكمة العقلية والتّأويل، إذن تتم عملية الإرسال، سواء عبر اللغة أو عبر السّلوك، من حيث إن الاستقبال أو التلقي، ويحدثان كحد أدنى من خلال الاستماع... وبذلك نخلص إلى أن: القدرة على الاستماع تعد من الأدوات الرئيسة للوصول إلى عقول من نعتني بهم قبل قلوبهم، لأن الإصغاء يخفف من الميول العدوانية في لحظات التّوتر

والانفعال، لخاصية هذا المستوى من الإصغاء التي تحمينا من الوقوع أسرى أفكارنا المسبقة، وانفعالاتنا المحمومة...

ضرورة التّأكيد على ضرورة التّفرغ للمتحدث والإصغاء إليه، بغرض الفهم لا المناقشة... وأيضاً الانتباه لكل كلمة تقال، من حيث إن الإصغاء، مهم لفهم الغرض من الكلمات المتلقاة في مواقف الخلاف والصّراع... وأن محاولة قراءة ما لم يقله المتحدث بوضوح، تجنبنا تصنيف المتحدث بأي تصنيف سياسي أو اجتماعي أو إطلاق أية صفة شخصية عليه، قبل إنهاء كلامه صراحة، فالمقاطعة وإلقاء الأسئلة قبل إنهاء المرسل لكلامه، تفسد التواصل وتفقده أهدافه، وذلك من خلال تبديد هذه الأفكار، بدلاً من تنميتها وتماسكها عبر تأصيلها في السّلوك الهادف، وذلك عبر دوام الإشارة إلى ضرورة التّدرب على ضبط النّفس تجاه الكلمات المثيرة، هذا المنهج الذي يحتاج إلى استمرارية التنبه والالتزام، كما أن التواصل غير اللفظي هو شكل من أشكال التواصل الرّئيسية.

إن التلمس لأهمية ذلك يوجب علينا البحث عن أدلة في حركات الشّخص الآخر، وعدم التّجاهل لهذه الرسائل عندما تحدث، لنبحث لدى من يسمعنا عن علامات تشير إلى الفهم، أو الارتباك أو التّشتت أو الملل، وتبعاً لهذا نكيّف سلوكنا. فإذا رأينا الآخر يكتف ذراعيه على سبيل المثال، أو يتجنب النظر في أعيننا مباشرة، هنا إشارة مهمة، تفيدنا بأن نغيّر طريقتنا في التواصل معه.

وإذا رأينا رد فعل لا نستطيع فهمه تماماً، فلنسأل محدّثنا عما تعني كل حركة يبديها، حيث إن بعض الحركات من مثل فرقعة الأصابع، واللعب بالقدم وفرك العيون والدّق بالرجل، والتّثاؤب، تعد من العوائق السّاذجة للاتصال الفعال.

أخطاء الحوار

هناك بعض الملاحظات التي يمكن حصرها ويجتمع عليها الدّارسون لفعالية الحوار، وآليات النّجاح المتحكمة نذكر منها:

إن المناورة ومحاولة إقناع الآخر بسرعة بصحة نظرنا، يجعلنا أمام الآخر مركزين على أنفسنا، وأفكارنا الخاصة بعيداً عنه. ومن الملاحظات المهم ذكرها أيضاً للمستمع، والتي تبرز كثيراً في الحوارات العادية، التي نسمعها من السياسيين أو المتحدثين باسمهم، المتمثلة بعدم المقدرة على "محاولة الفهم من خلال وجهة نظر المتكلم"، أو المقدرة على الابتعاد عن وجهة النظر الخاصة به، والأمثلة على ذلك كثيرة فيما تقدمه البرامج السياسية في الفضائيات العربية التي يسمعها ملايين المشاهدين العرب كونها تتوافر لها كل الخواص الدعائية وتحظى بامتياز على أعلى نسب متابعين رغم تفاهة المستوى الحضاري لميكانيزمات الحوار، أذكر هنا على سبيل المثال برنامَجَي الاتجاه المعاكس على قناة الجزيرة، وبرنامج بانوراما على قناة العربية، فرغم امتلاك كل مقومات المهارة الإعلامية وكاريزما التّأثير النّفسي، لمقدمي هذين البرنامجين، وتبعاً لخصوصية هذين البرنامجين على سبيل المثال لا الحصر، تحدث المآسي من هذه الحوارات، والمؤسف أننا نشاهد ونتابع أصداء لهما في حياة الشّارع في اليوم التّالي لهذه البرامج، حيث يُنسى الحدث الجوهري المعاش ويتم التّركيز على الحوار الذي سمعه الناس كنسبة متوسطة من المشاهدين والمتابعين، من خلال المهاترات في طريقة ردود المتحاورين لبعضهم مرات، والتي تسهم بصورة جلية في تحزب الأشخاص انفعالياً تبعاً لما يمثله كل طرف، وهذا الأمر أعرضه هنا بعد متابعة لآثار هذه اللقاءات، في تشويه الفهم للقضايا لاسيما غير النّاضجين انفعالياً وسياسياً، إذ عايشت آثاراً عكسية لحالات عدة خلال متابعتي العيادية القريبة، وكذلك من خلال ما أسمعه من كلام لأصدقاء ومقربين في محيط التعامل اليومي منذ بداية الأحداث الصّاخبة التي عرفها الشّارع العربي، منذ عام 2010 م ولغاية الآن.

حيث إن كثرة المفاهيم الممجوجة في الحديث، كان يسهم من وجهة نظري الخاصة بمنع المتلقي من التّركيز على كلام محدثه، الأمر الذي كان يوقع المتحاورين بأخطاء أخلاقية بحق بعضهم مرات، ما يهمني هنا هو الإشارة إلى كيفية

الابتعاد عن الأخطاء في الحوار في حياتنا اليوم الخاصة والعامة، وذلك من خلال الانتباه لمشاعر من نخاطبهم، وإمكانية تبادل الأدوار معهم حتى نتجنب الأذية لنا ولهم، وكذلك التركيز على محتوى الأفكار المطروحة وغض النظر عن أسلوب العرض، وهنا ألفت النظر لفكرة مهمة: تتصل بكيفية تحقيق التواصل عبر الحوار لغاياته، وليكون ذلك، لا بدّ من الابتعاد عن الوقوف عند مفردات بعينها، وحجب النّظر عن سياق الحديث بصورة كلية، كما أن لتلخيص الأفكار التي يعرضها من نحاوره أهمية من حيث الإحاطة ذهنياً بمنظومة تفكير محاورنا، ومقدرتنا على حبس الأنفاس، والردّ الموضوعي والعقلاني عليها بصورة كاملة غير منقوصة، لما في ذلك من حل وقائي لإنضاج لغة الخطاب بين أطراف الحوار... كما أن عدم الاكتفاء بالتّركيز على التواصل البصري فقط، أمر في غاية الحيوية، إن كنا نبتغي الاهتمام بمعرفة أبعاد منطقه اللغوي، من خلال الإحاطة بكل تعبيراته، وسوف أقدم مثالاً ساطعاً على صواب فكرتي هذه ما قالته: "هيلين كيلر" التي عاشت وماتت، وهي عمياء، حيث قالت يوماً: إنني حين ألمس يد من يصافحني، أشعر بما في قلبه من حنان ورحمة أو شدة، جفاف أو قسوة، فبعض الناس عندما أضع يدي في أيديهم، أحس بأنهم خَلوا من المرح، وأحس كأنني أستقبل ريح الشّمال الباردة، وبعضهم الآخر كانت تشع من أيديهم حرارة تغمر قلبي وتدفئه...

النقاط المؤثرة التي تسهم في إنجاح الحوار

لغة الجسد التي يمكن رصدها من خلال حركات الأيدي والأرجل، وكل تفصيل جسدي يتبدى لنا ولمحدثنا، الأمر الذي يعطي الثقة لكل طرف بالطّرف الآخر المعني بالحديث معه، من كون هذا الأمر يوحي للمتحدث بالاهتمام من قبل من يستقبل كلامه بأهمية ما يطرحه، حيث إن تعبيرات العيون، تفوق القدرة على الحديث، فمما لا شك فيه أن تفعيل كل قنوات الإحساس أمر في غاية الحساسية لإغناء التواصل الفعال... من النقاط المؤثرة التي تسهم في نجاح أي حوار أذكر:

- عدم إطالة الأفكار والإجابات المعقدة والمتشعبة، التي تسهم بعزوف الآخر عن جودة الانتباه، وتشتت التّركيز على التّفاصيل المطروحة، وتضييع الوقت...

- البدء بالكلام عن خبراتنا، أو خبرات الآخرين، أمر مهم لتحسين التواصل، إذ من خلال التّعريف بخبرتنا، ومعرفة خبرات محدثينا، يجعلنا ندرك المستوى المناسب للغة الخطاب الممكن اعتمادها معاً، والتي تسهم في إتمام الحوار والالتقاء مع مفاهيم الآخر وخبراته.. ومن الإيجابيات النّاتجة عن جودة مهارة الاستماع أيضاً، أنها تمكننا من اكتشاف المتناقضات، والاستمتاع بأساليب الدعابة التي يقوم بها محدثنا... من المهم لخلق تواصل فعال الابتعاد عن المصطلحات غير المألوفة في حديثنا العادي أو المتخصص، لما له من الأثر الجيد في الابتعاد عن مواطن التّشتت الذّهني.

كما لا يخفى ما للمناقشة بعد أي حديث يحصل بين الأشخاص أو في لقاء المجموعات، من دور بالغ الأثر من كون النّقاش يمهد الأجواء لنشوء الفهم المشترك بين الأشخاص، لأن النّقاش يسقط الالتباسات الشّائبة في الذهن عند كل طرف، بما يسهم في تطوير لغة مشتركة تسهم في تحسين التواصل، وعيش آثاره اللطيفة الأثر على المتحاورين.

معيقات التواصل

يمكننا أن نذكر عوامل أخرى مختلفة من مثل:

- الضّوضاء المبددة للاستماع، فالبحوث العلمية تثبت أن الاستماع يستغرق ثلاثة أمثال الوقت الذي نمضيه في الكلام، وهناك دراسة علمية تربوية حول ذلك تظهر: أن المرء يستمع يومياً إلى ما يعادل كتاباً متوسط الحجم، أو يعادل كتاباً كل أسبوع، كما يقرأ ما يعادل كتاباً خلال شهر ويكتب ما يعادل كتاباً كل عام.

- إبراز أهمية القدرة على الاستماع، باعتبارها الأداة الرئيسة للوصول

والتواصل الاجتماعي الطّبيعي البعيد، بدلاً من التّناحر وبث العداوات بين الناس، وخاصة في مواقف الخلاف والصراع، هذه الآثار الموجبة العناية بها في حياتنا مع من نعتني بتنشئتهم ومع من نقاسمهم لحظات من عمرنا، لما لها من مقدرة على التخفيف من ميولنا العدوانية في لحظات التّوتر والانفعال التي يتسم بها سلوك البشر عموماً. الإصغاء الفعال الذي أؤكد عليه هنا يحمينا من الوقوع أسرى أفكارنا المسبقة، أو انفعالاتنا المحمومة. وأشير مجدداً من باب التّثبيت على ما نرمي إليه، في العمل على التواصل الفعال بين الأشخاص لمهارات ثلاث، تؤطر الأفكار التي نبغي البناء عليها في نشر ثقافة الدّيمقراطية والاهتمام بالآخر، بدلاً من نبذه أو السّيطرة عليه:

- التهيّؤ للتّواصل مع غيره يساعد في إنجاح عملية التواصل.
- الالتزام بالقيم وإرساء الضّوابط الاجتماعية السّائدة في أعراف مجتمعنا.
- حصول تفاهم مبدئي بين مختلف أطراف التواصل هو المعيار السّليم الذي

من المهم الإشارة إليه إذ هدف التواصل والاتصال صلة الأرحام وصلة المودة "وتواصوا بالود، وتواصوا بالخير" لأصل معكم إلى ختام القول، حول التواصل وأبعاده وضروراته وذلك بعد أن تحدد من خلال معالجة هذا الموضوع المشاكل المختلفة التي تعيق التواصل والاتصال داخل الجماعات والمجموعات التي تمت الإشارة إليها قبلاً في متن الدّراسة مثل: عدم وجود هدف واضح للالتقاء بالآخرين، أو عدم معرفتنا بتأثير كلماتنا وسلوكنا، أو النّظر إلى الأمور من منظورنا الشّخصي، والفشل في مجاراة من يتحدث إلينا، مما يترك من أثر ملحوظ في صعوبة فهم الآخرين، حيث إن الناس يختلفون في فهم المقصود كل حسب خريطته الذّهنية...

لذا لا بدّ من مخاطبة محدثينا بلغتهم وباهتماماتهم، وأستذكر هنا قول حكيم للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه يدلل على أهمية الفكرة التي أبغي إيضاحها "حدّث الناس بما يعرفون" من كون الناس يختلفون في فهم المقصود، كل حسب خريطته الذّهنية وساحة شعوره ووعيه.

تؤكد تجارب من يعملون في تدريب الكوادر، والعاملين في برامج التّنمية البشرية على أن: معظم حالات الإخفاق في الاتصال، لا تحدث نتيجة للخطأ في تقديرنا لتأثيره في الآخرين، بل نتيجة لعدم اهتمامنا بهذا التأثير في المقام الأول..

ففي حال لم نرغب في إحداث أي تأثير في الشّخص، الذي نلتقيه صدفة أو نبغي لقاءه قصداً، إن كنا لا نرغب في إحداث أي تغيير في فهمه، أو لم ندرك ما الذي يرغبه هو من لقائنا به، كل ذلك يحدث عبر فهم المشاعر والسّلوكيات وحتى المعتقدات، كلٌّ منا للآخر.

فلماذا نتصل مع بعضنا أو نتحاور معاً؟.. سؤال برسم الإجابة من كل شخص تصله كلماتي هذه، وللنّفسانية الأمريكية القديرة "فرجينيا ساتر" مقولة شهيرة: كل شخص يتنفس وكل شخص يتصل بغيره، والسّؤال هو كيف؟ وما الذي يحدث تبعاً لذلك؟

فعالية حضور المرأة وإشكالياته

مقدمة حول الذّكورة والأنوثة

ما زال خلط المفاهيم بين الناس حاصل حول الأنوثة والذّكورة، فالفهم المكرس يرى أن الأنوثة والضّعف متلازمتان، كما يتم الخلط بين الذّكورة والعدوانية، فلا الوصف الأول صحيح ولا الثّاني صائب، أما آن الأوان لتخرج من الأذهان هذه التّصنيفات والمصطلحات البالية المشوهة للفهم السّليم لمعاني الأمور، الذي ما زال يرادف الحديث عن المرأة بصفات مثل (الدّونية، اللامساواة، السّطحية) فإن كان الفارق التّشريحي بين الجنسين يكرّس قوة الرّجل العضلية، فالمرأة حسب عالم النّفس التّحليلي "جونس" تعرف أن نقصانها هو ثروتها وموضوع رغبة الرّجل فيها، فلذلك تحاول أن تستثمر أكبر قوة عبر مظاهرها الجذابة، والفاتنة التي تكشف أنوثتها دون أن تكشف سرّها (حب الله، 283) حيث وتبعاً (لجاك لاكان) إن المعرفة الجنسية ليست بالضرورة مطابقة للمعرفة التّشريحية، حيث يبقى الموقع للآخر الكبير، وقوة الفالوس هي المحدد للهويّة وبذلك تنتفي الدّونية بين الجنسين، وتتحدّد القوّة تبعاً للطّاقة الأوديبية المؤثرة في مجريات النّمو النّفسي..

وهنا لا بدّ من التّوضيح الذي أورده "جونس" عبر دراسات حول المرأة من أن الأنثى ملتزمة أكثر من الرجل بقريبها، فاكتفاؤها الجنسي يصبح مقترناً بموافقته ورضاه على أخلاقيتها، أما الرجل عنده استقلالية لا نجدها عند المرأة، ولا يوازيها، إلّا إذا وجد تحت سلطة رئيس له موقف أنثوي بين رئيس ومرؤوس والمرأة تخاف زوال الرّغبة من خلال انتزاع اللذة الجنسية "Aphanisis" حيث إنّ زوال عقدة

أوديب عند المرأة لا يتم ولا يكون إلّا بإقرار نقص المرأة التّشريحي المتأتي عن الشعور بالخصاء، هذا الإقرار هو ما يمنحها شعور الأنوثة ويكون المؤسس لنمو الأنا النّفسي المتوازن بدون مشاعر ذنب.

إن صعوبة تأقلم الرجل الشّرقي مع تطور العصر والتّنازل عن حقوقه للمرأة، يأتي من نظرة الرجل للمرأة ومن مفهومه للذّكورة التّي تتميز بنرجسية القضيب، فالمرأة بالنسبة إليه غرض يقتنيه، وليست ذاتاً يتعامل معه بالتّساوي، نجد الرجل يدفع الزوجة إلى مستوى القدسية في النّظرة للمرأة – الأم، فالأم ليست مزاحمة ومنافسة للزوجة فقط، إنما تعلو بدرجات رغم علّو محبته لزوجته، وهناك الكثير من الحالات العيادية، ناجمة عن المنافسة الخاسرة نتيجة صراع ما بين الزوجة والحماة، والرجل الذي يمارس سلطته على زوجته يفرض عليها الخضوع، ولو كانت في بعض الأحيان من غير حق، فتنتقل من الوصاية الأبوية إلى الوصاية الزّوجية، لكي تديرها وتحدد مسلكها، فلذلك نجدها عرضة لكبت كلّ نزواتها خوفاً من أن تُلحق الإساءة بزوجها أو عائلتها...

إن علاقة الرجل مع المرأة، نراها تحافظ على موروثها التقليدي، وتحول دون إعطائها الحريّة بكاملها، لأن ثقافة التّعايش بين الجنسين، والتربية لتجريد العلاقة بين الطرفين من الجنس، لم تطل بعد البنية النفسية للرجل الشّرقي، من هنا تبرز المشكلة المركزية، وبوادر التّخلص منها من جراء توسيع المفاهيم التي تحكم بين المرأة والرجل بأنه يجب التّركيز على تنمية قواسم مشتركة متعددة، وليس الاكتفاء بالبعد الخاص بالذّكورة والأنوثة، أي فقط بعد العلاقة الجنسية التي هي المطلب الكبير التي تحكم واقع العمل مع المرأة في بلادنا، والنّظرة العامة لتحررها.. حيث كل النّظريات التي بنيت على أساس دونية المرأة، مستقاة من معتقد متخيل عبر التاريخ من أنها كائن ينقصه عضو، هذا الشعور بالدّونية في مجال واحد يتجلى كرد فعل المرأة إزاء الرّجال، من أعراضه: شعور بإحساس خفي بأن المرء يتصرف كما لو كان مجرماً، وانطباع أن المرء غير جدير بالحياة، شعور بأنه يكاد يكون

غير مقبول من الآخرين، الوجل والعدوانية المرضية، هما مفعولان مباشران لشعور الدّونية. (ببير داكو، 43).

فالعنصرية التي يعاني منها المجتمع الإنساني، بدأت أولاً وفتحت الطّريق فيما هي ناجمة عن التّمييز العنصري الذي طال الإنسان منذ أن اكتشف الفارق الجنسي بين الرجل والأنثى، فهذا الفارق تعمم على كل ما هو مغاير، لينتقل من الجسد في تكوينه الدّاخلي إلى لون الجلد الخارجي، إلى الفكر على صعيد اختلاف المعتقد ثم إلى الاختلاف الإيديولوجي...

كما أن النّظرة الاجتماعية السّائدة تذهب إلى أن المرأة أكثر خضوعاً للعاطفة من الرّجل، وهذه المزاعم لم تتحقق منها أبحاث جادة تتوافر لها شروطاً موضوعية من الدّقة والضّوابط العلمية المنهجية، تلك النّظرة التي تمايز الرجل عن المرأة، من كونها تسعى إلى تجريد المرأة من عقلها بزعم نقصان كفاءاتها بحكم وظائف بيولوجية تميزها، فكانت بذلك الغربة الأولى لعقل المرأة حيث ترتب عليها سهولة في حصارها وتحجيم دورها، في مواقع العمل والإبداع والإنتاج والمسؤولية. الذي ضَخّم دور الأنثى على حساب دور المرأة، وأبرز مظاهر هذا التّضخيم المغالاة الخطيرة، في تأكيد الأمومة من خلال تصوير الحمل، وكأنه صنو للعجز الكامل عن العمل، أو في أحسن الأحوال على أنه مرافق للتّقصير في إنجاز العمل، ليأتي الحمل للمرأة كونه ينطوي على شر مقصود ليسهم بتحويل الحمل إلى فترة عدم انجاز، بحجة الحمل ومن ثم الإرضاع والأمومة، فمفاهيم الأمومة، والأنوثة، والعمل، والإنتاج هذه، يجب أن تؤخذ كوحدة متكاملة للمرأة، كونها رحماً ينجب وعقلاً يبدع ويبتكر، ويداً تعمل وتنتج، حيث إن من أبرز مظاهر اختزال وجود المرأة، يتمثل في اختزال حياتها إلى مجرد الأمومة والإنجاب ورعاية الأبناء كما أشرت ليختزل بذلك حضور المرأة إلى أنوثتها لأنها مجرد جسد جميل مثير للشّهوات، هذا الاختزال ما هو إلّا ضرب من الاضطراب النّفسي اجتماعي، الذي ينتشر في أغلب الأوساط في مجتمعاتنا بحيث توظف المرأة الأنثى كونها سلعة،

هذا الاختزال الذي يزيد من معاناة المرأة الأنثى، المغتربة عن وجودها الحيّ والمكتمل وهذا الاغتراب للمرأة في مجتمعها، يقابله اغتراب مقابل بالتّالي للرجل في بلادنا... فهل سيبقى هذا الحال قائماً لمستقبل المرأة السّورية التي ننشد ونريد...

ومن الأمور التي تدعو إلى القلق، تلك الفتاوى الدّينية المختلفة في بلاد المسلمين التي تتدخل في التّفاصيل الدّقيقة للمرأة، ووضعها في غير مكانها المناسب، هذا النمط من العنف الثّقافي والتّربوي الرّمزي والخفيّ يجد له انعكاساته ليس فقط، في ممارسات الرّجال ضد المرأة، بل الأخطر من ذلك أن المرأة تعتبره قدراً، وتتفاعل معه إلى درجة الدّفاع الخفي عنه وعن مرتكبيه، بمعنى أوضح نجد المرأة مرات تدافع عن الجلاد...

وهنا يخطر لي طرح فرضيّة وتساؤل:

إذا كان الرّجل الشّرقي يجد في تحرر المرأة انتقاصاً لفحولته تحت غطاء الشّرف، كيف لنا أن نقيس شهامة هذا الرّجل اليوم "الرّجل الشّرقي طبعاً"؟

ووفقاً لحكمة قديمة تقول: "إن التّغيير يحدث ليس بسبب مرور الزمن، لكن بسبب ما يحدث أثناء مرور الزمن".

عالم النّفس الشّهير "ب.ف.سكينر" يقول في هذا السّياق: إذا كلنا كنا شاهدين على ما يحدث في بلدنا هذه الأيام رجالاً ونساءً، فعلينا أن لا نتفاجأ بطبيعة التّغيير الحاصل، فإن أردناه غير ذلك فلكي نكون فاعلين في أحداث هذا الزمن...

مما سبق يمكن القول إن مظاهر العنف في بلادنا التي تتلقاها المرأة نتيجة للتّصنيف الدّوني لأنوثتها، هذا التّصنيف المختلف عن العالم المتحضر، حيث العنف ضد الأنثى مُدانٌ وفق المنظور الحضاري، ويلقى الدّعم والإسناد من المنظومة الحقوقية والحياة الفكرية والقيمية المكرسة في العالم المتحضر، من أن المرآة مواطنة وليست فقط أنثى.

فرغم تعرض المرأة في مجتمعاتنا إلى مختلف صنوف التّعنيف المختلفة –

جسدية ونفسية وقانونية – يبقى العنف الرّمزي هو الشّكل الأكثر ضرراً وإيلاماً كونه يجسد معاناة المرأة بأوضح الصّور، ويتم أساساً عبر وسائل التربية وتلقين المعرفة والإيديولوجيا، وهو ما يصفه "بورديو" بأنه شكل لطيف وغير محسوس من العنف، وهو غير مرئي بالنّسبة للضحايا أنفسهم، والعنف الرّمزي من سيئاته أنه يمارس بتواطؤ مع المربين والمسؤولين على التّنشئة الاجتماعية، وأشكال التواصل الاجتماعي، حيث إن التربية الذّكورية ابتداءً من البيت والتّنشئة الأولى، وما تتركه من انطباعات سيئة عن الأنثى، بالنظر إليها كمخلوق ثانوي تلقي بظلالها على الكثير من السّلوكيات اليومية المذلة للمرأة، والمدرسة تخلق من خلال مناهجها وما تبثه من معلومات حول الفروقات بين الجنسين، واستخدامها بشكل سيئ لتوجيه الطّعون ضد المرأة وأهليتها الاجتماعية.

حقاً إن العواطف متغيرة هذه حقيقة، والأفكار تتغير هذه حقيقة... الحب يكبر والكره يكبر، والحب يخفت والكره يُبدد والأفكار تتطور وتتماسك، والأفكار تتراجع إن لم تتغذّ وتُختبر... والعنف يُحبط كل طاقات الحياة...

من أكبر حالات العنف ضد المرأة، مثال عائشة: عائشة هي امرأة أفغانية عمرها 18 عاماً، قطعت جماعة من المتشددين دينياً والتابعين لطالبان "أنف هذه الصبية وأذنيها" لفرارها من أهل زوجها... فقد أهلكوها بأشكال العذاب والضرب يومياً... هذا مثال علينا تذكره حتى ولو أن عمليات التجميل التي عُملت لعائشة والجهات التي تاجرت بالقصة فيما بعد كثرت، هذا مثال حيّ للعنف باسم الدين... الذي بات شماعة لإقامة الحروب بين الشعوب وافتعال العمليات الاستشهادية من خلال انتحاريين يفتقدون لمقومات الصحة النفسية وبذلك تكون الجريمة جريمتين إنسانياً، جريمة بحق المجنى عليهم وجريمة بحق من دفع لقنص حياة هؤلاء وهو يثق بمن أوكلوه وأعدوه لمثل هذه العمليات...

هكذا العنف، بحرٌ هائج بلا شطآن، لأن العنف ظاهرة عالمية عائمة، ليس لها لون، أو مقتصرة على شعب بل تحكمها ظروف ومسببات...

إشكالات التربية الأسرية الحديثة

من الثّوابت في قناعات الناس في بلادنا العربية، أن الأسرة وقيم المجتمع المتمثل في العمل الصالح المتوافق مع مبادئ الأخلاق العامة، تعدّ من المحاذير الذي لا يقدر أحد منا على الجدل حولها، فمن الثّابت أن نمط وأشكال تعامل الأسرة مع الأبناء هو وقاية من الجريمة والانحراف للأبناء، أما في تفكك الأسرة فهو سبب لسلوك الانحراف والتّهميش في مسيرة حياة الأبناء، فدور الأسرة المتمثل بتنظيم العلاقات فيما بين مكوناتها (أب – أم – أبناء – أقرباء درجة أولى – أقرباء درجة ثانية). هو دور علائقي، فتبعاً لنمط الأسرة المحكومة بقوانين الاستقلال في مجالات الحياة من جهة، والمحكومة من جهة أخرى بقوانين التّبعية في هذه الحالات.

وهذا لا يغير في الفهم شيئاً حول مركزية الأسرة في التّنشئة الأخلاقية والمجتمعية حتى لو تغيرت علاقات الأسرة فيما بينها، فإنه يمكن تصنيف هذه العلاقات الأسرية ضمن مستويين من العلاقات:

1- علاقة الأزواج بدءاً من قرار الزواج الذي تصل مفاعيله وآثاره على العلاقات، ما بين أسرتي الزّوجين في مجالات الحياة اليومية إلى الخيارات العامة.

2- علاقة الأبناء فيما بينهم، وهذه العلاقة عموماً محكومة بصورة عامة بعلاقة الكبار منهم بالصّغار، فإن لم تحصن الأسرة الأبناء بروح المودة والتّآخي والتّعاضد، لا يمكن أن تعاش العلاقات الأسرية.

إن العامل الحاسم في هذه التربية يتمثل بما يلي:

- إحساس الأبناء بمدى وعمق اقتناع الأهل فكراً وسلوكاً بالقيم والمبادئ التي ينادون بها مما يجعلهم قدوة حسنة فعلاً في نظر أبنائهم مما يسهم في حصول التّماثل والتّماهي.

- اقتناع الأبناء بصحة وصوابية هذه المبادئ.

- إن عدم قدرة الأهل على الحوار والنّقاش مع الأبناء، يتسبب بشرخ كبير، ونحن بأمس الحاجة إلى تكريس نموذج الأسرة التي تعطي الشّروح والتّرغيبات، بدلاً من الأسرة المتسلطة التي تكتفي بالتّعليمات المرهبة.

- الأب صاحب السلطة الفاعلة الحانية.

- الأم صاحبة العاطفة المنعشة وغير المخدرة.

بحيث تكون هذه السلطة مرجعية وبوصلة للسّلوك للأبناء، ولكنها تسلطية أو عنفية.

وعاطفة الأم وحنانها، بمنزلة غذاء ملهم للأبناء على تخطي العقبات الاجتماعية، لتكون الأسرة صمام الأمان لامتصاص إحباط الواقع اليومي ونقمه على المجتمع كسلوك انحرافي.

فعملية الوقاية من السّلوك المنحرف من خلال الأسرة، تعتمد على أهداف ووسائل تربوية متوافقة مع قانون المجتمع، يشرف عليها أب وأم، يحمل كلاهما صورة نموذجية إيجابية سليمة، ويقبل الأبناء قيم الأسرة بعد فهمها والتّكيف معها..

العنف واضطرابات العلاقة بين الجنسين

إن التّباين بين المرأة والرجل يكمن في التّناقض بين الفاعلية والسّلبية، والفاعل هو المرء الذي يسعى وراء الفعل الجنسي ويكسبه، والسّلبي هو الذي يستسلم إلى آخر هذه الفاعلية، والسّلبية ليست مقتصرة فقط على الحقل الجنسي، بل كما يقول "فرويد" معممة على الحقل النّفسي في كل مجالاته، فانطباع السلبية يتلقاه الطفل منذ بدء تنشئته الأسرية ليوقظ عنده ميلاً، كي يتحرك بفاعلية في حياته، أو يجعله يصدّر طاقاته السلبية هذه لخارج محيطه الأسري ليصبح بلا شك عدوانياً وعالة على محيطه القريب والبعيد.

في الحب نجد التّضاد نفسه، فالرجل يحب والمرأة تترك نفسها لكي تحب الرّجل السّوي، يتخطى جروحه النّرجسية، والسّيطرة على عقدة الخصاء، لكي يحقق

علاقة موضوعية واقعية عدوانية توظف في غزو المرأة وفي التّسامي ميوله السّلبية تكون مرتهنة لميوله الفاعلة.

أما المرأة السّوية فهي سلبية في حياتها الجنسية، أما ميولها العدوانية فترتد عليها داخلياً بشكل مازوشي، فأحداث حياتها من فض عذريتها إلى الولادة يوقظ الألم بحسب "هيلين دوتش".

والمرأة السّلبية تظهر القليل من عدوانيتها نحو الخارج في مجالات الحياة. التّباين النّفسي بين الفتى والفتاة، لا يتحقّق إلّا عندما يكتشفان الفارق الجنسي التّشريحي.

كما أن الفتاة تصاب بخيبة أمل نتيجة عدم وجود القضيب عندها، الشّيء الذي يبرر احباط أمها بنظرها من عدم امتلاك هذه الأم للقضيب ويجعل هذا التخيل بداية البنت تتجه بمشاعر عدوانية تجاه أمها كونها هي المسؤولة عن ذلك.

"جاك لاكان" يقول بأولوية القضيب في مرحلة أولى، وفي مرحلة لاحقة يحصل للوظيفة القضيبية، أن تطال الذكر والأنثى على السّواء، فالعلاقة الجنسية لا يمكن أن تكتب... القضيب هو الذي لا يمكن الكشف عنه هو دائماً يتخفى... ولذلك تسقط عندها الميول الفاعلة، وترتد عدوانيتها من الخارج، لكي يوظف جزء منها في الدّاخل ضمن هوامات مازوشية.

ولكن المرأة أنوثتها طاغية لا تحب، بل تترك نفسها تحب، فالحب الذي توجهه نحو الطفل، هو من النوع الفعلي الذي يدخل في صفات الرجولة، وهكذا تكون المرأة بموقع رجولي، عندما تهتم بتربية الأطفال بحكم غريزتها.

وبالتّالي يكون الإنجاب عند المرأة ارتباط قيمة وجودية للأنثى لأنّ ارتباط الوليد بالأم هو ارتباط عضوي لا مجال للشك به، أي أنه واقع يربط الجنين مباشرة بالمصدر الذي أخرجه إلى هذه الحياة، ولا يحتمل أي شك..

هذه العلاقة الاندماجية ترمز إلى أسمى ما يمكن أن تعطيه المرأة عن سر كينونتها، فلا يقبل أي تصور بيولوجي أو سيكولوجي نهائي.

ولكن انفصال المولود عنها يضع حداً لهذه النّرجسية لأن الصورة المتكاملة التي كانت تكونها تصبح ناقصة بمجرد خروج هذا المولود إلى العالم، وكي تتمحور العلاقة بين الطرفين حول هذا النقصان المشترك سواء من دواعي رغبة الأم لاستعادته إلى أحشائها، وحنين الثّاني إلى هذا المكان الذي تركه بحكم القوانين الطّبيعية.

فالإنجاب عند المرأة له قيمة رمزية عميقة الآفاق، تتفاخر بها على الرجل ويظهر ذلك من خلال الأساطير والدّراسات الأنثروبولوجية لبعض الشعوب البدائية، إن الرجل تنتابه الغيرة إلى درجة أن يحاكي المرأة أوجاع المخاض، كي يتهيأ له أنه أسهم في الإنجاب...

والأمهات الطّيبات في التّصنيف العام، هن الأمهات المتبلدات جنسياً، لأن اللبيدو غير المستعملة هي التي توظف في أغراض، يكون هدفها الفاعلية. أما بالنسبة للأنا الأعلى، فهو بحاجة إلى توظيف الميول الفعالة والعدوانية، ولكن المرأة السّلبية ذات الأنوثة النّموذجية لا يوجد عندها أنا أعلى، لتكون خلاصة التّباين بين الرجل والأنثى يأتي من باب السّلبية والفعالية (هيلين دوتش: Helene Deutch).

وبذلك فليبيدو الجنسية عند المرأة نحو الرجل له جذور بدائية، تعود إلى المرحلة الفموية في الطّفولة، التي تكوّن معادلتها في اللاوعي (اللاشعور)، ما بين القضيب والثدي وهذه المعادلة تتماشى بشكل متوازٍ مع النظرية الفموية حول العلاقات الجنسية الخاصة بهذه المرحلة، وحول الهوامات الفموية، ليصبح عضو السّيطرة والعلاقات الجنسية تفهم كأنها بهذه المرحلة وحول الهوامات الفموية للحبل والقضيب في مرحلة لاحقة السّادية – الشّرجية، يفقد خاصيته الفموية ليصبح عضو السّيطرة، والعلاقات الجنسية تفهم كأنها سادية والطّفلة تتماهى: إما بشكل فعال بالأب أو بشكل مازوشي بالأم، هوام الحمل في تلك المرحلة هو الطّفل الشّرجي، من حيث أن الشّرج يقوم بدور سلبي على غرار الفم في المرحلة الفموية.

كما أن للثّدي والقضيب والغائط دور فعّال، لتتمهد الطّريق نحو الاستثمار السّلبي للفرج (أي الفتحة الثالثة عند المرأة).

وعلى اعتبار أن خاصية الوضع الاستقبالي الذي يتميز به الفرج على غرار الوضع السلبي، بالنسبة لاستقبال الثدي في الفم وما يحصل من ردات فعل مزدوجة نتيجة الفطام، يمكن الفتاة تبعاً لهذا الاعتبار أن تتخطى صدمة الفراق والفطام.

حيث إن كل الأفعال المتاخمة للوظائف الأنثوية، تمكن المرأة حسب (هيلين دوتش) من تخطي العديد من الصّدمات... كما يمكن أن تعيش أشكالاً عديدة للانحرافات الجنسية من مثل:

الازدواجية الجنسية bisexualite وجذورها:

بالمعرفة التّشريحية والفيزيولوجية للبظر، نجد أن البظر جزء من تكوين الجهاز التّناسلي عند الأنثى، يظهر أن له مشتقات ذكرية، تكاد تشكل عقبة في الوصول إلى الأنوثة السّوية.

تقول جانين لمبل دي كروت (J.lampal–de–groot): إن الفتى والفتاة في المرحلة الأولى يتساويان في المسلك الذّكوري، وحتى في النّمو النّفسي فإنهما ينموان بشكل مشابه من حيث أن التّعلق بالأم واحد... فالفتاة كالفتى تتمسك بالأم، وتريد الاحتفاظ بها لوحدها عنوة عن الأب، الذي يصبح في مفهوم البنت المنافس الأول في هذا الموضوع...

ولكن عندما تكتشف الفارق بينها وبين الصبي، تصاب بالشعور بالدّونيّة وتتوهم بأنها كانت تملك قضيباً، ولكنها حرمت منه بسبب دوافعها المحرمة تجاه الأمم عقدة الخصاء تؤثر على الفتاة بنفس النّسبة التي تؤثر بها على الفتى، تولد عندها جرحاً نرجسياً نتيجة الدّونيّة التي تشعر بها وتحول أيضاً دون تحقيق رغبتها تجاه الأم...

عقد الخصاء تؤدي عند كلا الجنسين إلى انحلال الأوديب عند الطّرفين بالنسبة للفتاة أوديب سلبي، أما الخصاء فهو تهديد للفتى، أما بالنسبة إليها فهو أمر واقع محتوم حيث يحصل تطور بالنسبة إلى العلاقة اللبيدية مع الأم فبدلاً من أن

تتماهى بها تتجه نحو الأب المنافس السّابق التّعويضي، حتى يمنحها طفلاً بديلاً للقضيب المحرومة منه، وتتبلسم جروح نرجسيتها عندما تدرك أن أملها سيتحقق يوماً ما.

علماً بأن الرجال لا يحبلون والمرأة هي الوحيدة القادرة أن تضع طفلاً، في حال الأوديب السّلبي وتبقى الفتاة متمسكة بالأم وانحلال الأوديب لا يكون لديها نهائياً، من هنا نجدها دوماً تنكر واقع الخصاء.

وقد تعود إلى وضع نقوص سابق، مناقشة الذّكر وتحدي الأب بعد أن تكون قد أصيبت بخيبة أمل منه، وفي أقصى الحالات قد يؤدي هذا الوضع إلى المثلية الجنسية.

وغالباً ما يكون الإنكار جزئياً، فتتجه إلى نشاطات خارجية مهنية أو اجتماعية، تنافس بها الرجل، وتتحول في الوقت نفسه عن جنسيتها وفي أحسن الحالات تقيم علاقات مع رجال، ولكن من خلال برودة جنسية لأن غرضها الكامن يبقى الأم.

التّباين بين الرجل والمرأة يكمن في التّناقض بين الفاعلية والسّلبية، الفاعل هو الأمر الذي يسعى وراء الفعل الجنسي، ويكتسبه والسّلبي هو الذي يستسلم إلى آخر، فهذه الفاعلية السّلبية ليست مقتصرة فقط على الحقل الجنسي، بل معممة على الحقل النّفسي في كل مجالاته، فانطباع سلبي يتلقاه الطّفل ويوقظ عنده ميلاً لكي يتحرك فاعلياً في الحب لنجد التضاد الحاصل نفسه عند الفتاة، كون الرجل يحب والمرأة تترك نفسها لكي تحب.

وفي الواقع نجد أن الرجل السّوي يتخطى جروحه النّرجسية، والسّيطرة على عقدة الخصاء لكي يحقق علاقة موضوعية واقعية...

ويعيش عدوانيته بأن يوظفها في غزو المرأة وفي التّسامي، فتأخذ لديه الميول السّلبية شكلاً يكون مرتهناً بالميول الفاعلة لشخصيته في الحياة اليومية.

أما المرأة السّوية فهي سلبية في حياتها الجنسية، وميولها العدوانية ترتد عليها

داخلياً بشكل مازوشي، وأحداث حياتها، من عذريتها إلى الولادة يوقظ هذا الشعور بالألم ليصبح وكأنه جزء بنيوي من شخصيتها.

وحسب "هيلين دوتش" المرأة السّلبية تظهر القليل من عدوانيتها نحو الخارج يتباين موقفها ضمن سلبية وفاعلية في المرحلة الأولى من الحياة.

فإن لم تتمكن التربية والثّقافة الجنسيتين من جعل الأنثى تعبر في تكوينها للعمق الخاص المميز لها، ويتم الوعي والتّثقيف ليتم العبور إلى المعرفة بالفرج، الذي يتمثل به النّشاط الجنسي، والوظائف التّوليدية تبقى غير منفصلة عن بعضها، وتمكنها من تخطي العديد من الصّدمات، بمعرفة الفرج، تصل الأنثى إلى المعرفة بأن دور البظر ليس سوى دور الكف عن الفرج..

وهنا يكون البدء بالحديث عن الجنس عند المتكتمين، يبدأ من الحديث حول الأشياء الجنسية ليتم التجرؤ من ثم للحديث عن الأمور الجنسية الحقيقية. فقد وُجِدَ أنّ هناك نساء باردات جنسياً رغم كل المغامرات الجنسية.

بحيث يتضح المعنى الرّمزي للعذرية، حتى عند المومسات، لأن الزمن النّفسي لا يرتبط باللحظة الحاضرة فقط، بل يرتبط بالماضي أيضاً وهو حدث حتمي، من هنا نجد في الأمراض النفسية كيف أنّ اللاوعي يتحرك بدون زمن حيث اللاوعي يجهل الوقت.

حيث لا شيء ملغى في حياة الإنسان الطّفل الذي يبقى دائم الحضور فينا. ويكون الحديث عن موضوع الصّحة العاطفية بناء على التّعاقب السّلالي، بمعنى آخر "تقاطع الإنسان مع كل التاريخ البشري، من المواضيع الشّديدة الحساسية والأهمية" لأنّ الواقع النّفسي له علاقة دائماً بالبدايات الأولى لتكوين الوعي الإنساني المقترن ببدء التفاعل الاجتماعي من خلال التنشئة الأسرية والمجتمعية، وهذا يكون فاعلاً وخارج سياق الحدث الواقعي.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى آليات العمل النفسي التّحليلي قبل كل شيء يكون انطلاقاً من ثنائية ويوجد لكل شخص واقع نفسي وواقع خارجي.

والإنسان عندما يشعر أن واقعه الداخلي، لا يتناسب مع واقعه الخارجي عند ذلك يبدأ الهذيان بإحداث الانغلاق بالدّاخل النّفسي لديه. والشيء الذي يحدث عند فصل الواقعين النّفسي والخارجي، نجده بوضوح عند الهستيريين.

ومن المهم الإشارة إلى فكرة مهمة تتصل بالعمل العيادي، تبدأ الجلسة النفسية على الدوام عند المريض النّفسي من بدء حصوله على موعده، ومن المكالمة الهاتفية ومن رؤية الشّخص في غرفة الانتظار.

حيث إن لقاءات ما قبل الموعد هي لقاءات مؤثرة، حيث أن المحلل النّفسي مثلاً يتساءل عن المطلوب من الشخص، وعن تخيله ولو لم ينطق بكلمة.

المرضى الذين يأتون للعلاج غالباً لا يكتفون بالشّكوى، بل يوجهونها ضد أحد ما، واذا أردنا أن نعرف جهة الشكوى ممن، ولمن لا نجد تردداً في الجواب.

كما أن ظاهرة "حمل الطفل اسم شخص ميت" في العائلة هي ذكرى ساترة، الذكرى الساترة هي ذكرى لها وضوح كبير في الذاكرة، تغطي ذكرى أخرى لا يستطيع الشخص أن يتذكرها.

والسؤال هنا لماذا تسبب حادثة تافهة أزمة قلق شديدة لاسيما عند النساء؟ وهنا يبدو أن المرأة، لا تدري لماذا؟ لأن ظاهرة حرمان المرأة من الكثير من حقوقها الإنسانية يحول القهر والكبت المتحصل عندها نتيجة ذلك إلى عرض مرضي، تتقارب بشدة من خلال الذكرى الساترة ليتجلى العرض النفسي لديها وبغرابة لافتة مرات.

فالنّموذج الأصلي لجنس المرأة هو المرحلة الفموية، فإن الفتاة خلافاً للفتى أمام اكتشافها لهذا الواقع، لا تستطيع أن تتقبل هذا الفهم، فأملها باستحصال القضيب يبقى الدافع الذي يحرك رغبتها في هذا الاتجاه، وهذا في تحولها من الأم إلى الأب في طلبها، فليس إلّا نتيجة اكتشافها بأن هذه الأخيرة التي تشاركها هذا المصير، غير قادرة أن تعوض عليها، سيما إذا ما تبين لها في الوضع السّوي أن الأم تتجه في طلباتها نحو الأب، وأن هذا الأب هو الذي يؤمن لها المتعة في علاقتهما الجنسية.

وبالتّالي يبدو من هنا أن استخفاف الفتاة بواقعها الجسدي وشعورها بالضآلة يتعمم على كل النّساء وبالأخص أمها، أمام هذه الأسباب نجدها تتصرف عن الأم وتتحول إلى الأب بدافع التعويض والمنافسة، ولذا فعندما تدرك أنها لا تستطيع الاستمتاع بقضيب الأب كما هو الحال عند الأم تتجه نحو المعادلة المعروفة:

فالوس = ولد.

أما علاقة الرجل بالمرأة فيتحكم بها هذا الوجه المخفي: التّهديد بالخصاء والشّيطان، المتمثل بتحقيق الرغبة الجنسية، وذلك عبر الإغراء، كون هذه الدوافع تقفز إلى مسرح العلاقة لتخفي وراءها الخوف الكامن، فإذا كانت المرأة تشعر بالنقص، فإن الإغواء يستطيع أن يعوضها عن ذلك بعلاقة جنسية عن طريق امتلاكها لقضيبه، وهذا الالتحام النّاتج عن المضاجعة يمحو الفارق المهدد ولبرهة، ولذا فكل علاقة يتحكم بها الإغراء الجنسي، إذا مالم يستطيع الرجل أن يسقط هذا الحجاب ليكشف عن الصورة الإنسانية للمرأة أي يرضى بتكوينها والاقتناع بأنوثتها، دون أن يثير ذلك في نفسه الخوف والقلق، أو النقيض أي الإغراء والمعادلة التي نصادفها في الحياة العامة، أي أن المرأة معادلة للجنس، ما هي إلّا النتائج المترتبة عن هذا الموقف الأساسي.

الفارق الجنسي بين المرأة والرجل، يجد له الرجل مخرجاً في العقدة الأوديبية المدخل الذي تدخل منه المرأة الى هذه العقدة، والذي يؤدي إلى شهوة القضيب والتي انطلق منها "فرويد" في نظريته حول الأنوثة...

وفي حال لم تستطع المرأة أن تضع حداً لملاحقة غرضها، فإنها لا تكف عن شهوتها في القضيب التي تتمثل في كثير من المواقف المسلكية، وهكذا يتضح لنا مفهوم الغيرة كصفة خاصة عند المرأة، كأنها متلبسة بشعور دائم بالدّونية وحاجة مستمرة إلى التّعويض.

وفي هذا السّياق يبرز موضوع الحمل والولادة، بوظيفته النفسية عند المرأة كدافع ذكوري حماية لها من الخصاء، أي من الانعدام والسّلبية، فالعقدة الخصائية

عند المرأة لها أثر مهم في تحويل، وتشجيع اكتشافها لأنوثتها، ويخلص "فرويد" إلى القول إنّ الفارق الذي يكمن في هذا القسم من التكون الجنسي عند الرجل والمرأة، هو نتيجة طبيعة للتّمييز بين الأعضاء الجنسية، ومن الموقف النّفسي الملتزم به، ويختصر الموضوع بإظهار الفرق ما بين التّهديد بالخصاء وما بين الخصاء.

وهكذا يؤكد "فرويد" على أن مرحلة القضيب التي تمرّ بها الفتاة، والتي هي بحكم أولويتها تستأثر بكل التّوظيفات اللبيدية، وباكتشاف الخصاء فعلاً، يصبح الأوديب بعقدته تركيبة ثانوية، كان مدخلها الخصاء.

ويبدو أن زوال العقدة الأوديبية عند الذكر هو نهائي وشبه تام في المرحلة الثانية من الطّفولة، باعتبار أن الأنا الأعلى قد يصبح وريثه الشّرعي، فإن الحال يكون مختلفاً عند الفتاة لأن تحطم العقدة الأوديبية لا تزال عملية نجهل مصيرها، فهي تتحطم ولكن يشملها الكبت والتّخطي عنها تدريجياً، ونتائج تأثيرها في حياة المرأة تستمر بشكل كامن، مما حدا بـ"فرويد" إلى الاعتقاد بأن غياب الصّرامة الأخلاقية وارتباط مسلكها الخلقي والخلافي بجذور عاطفية يعود إلى عدم تحطيم العقدة الأوديبية، وهذا يفسر في أحكامها العرفية ومن ميوعة شعورها بالعدالة والنّقص في قرارات حاسمة واستخفافها بما يفرضه واقع الحياة بالإضافة إلى كونها قابلة للتّأثر بغيره في أكثر القرارات التي تتخذها لا يوجد مثال أنثوي أو مثال ذكوري صرف فكل مثال يوجد به مزيج من الأنوثة والفحولة، ولذا لا يمكن أن يؤخذ إلّا من النّاحية النّظرية...

وللمال اليوم قيمة علمية في تطور فهم حالة المريض، كونه يضع المال في هوامات قد صنعها الشخص نفسه.. كما أن طريقة الدّفع في الجلسات النفسية مهمة في كل مرة، كأن يكون المال جاهز، أو بحاجة للعد، فذاك مرتبط بالمرحلة الشّرجية، هذه المرحلة غير المستهلكة من قبل الذات... كما لكلام المريض دلالة أخرى مهمة، كأن يقول المريض لن أبقى وحدي مع هذا القلق، إذ هذا إعلان إشارة لخلق نوع من الرّابطة لكي يكمّل عليه المعالج يمكن أن يكون ناصحاً أو مساعداً،

أي لا مكان لشيء مجهول، حل المقاومة والخروج من الانغلاق الثّنائي وفتح العلاقة لتنتقل إلى فضاء التّحليل ليستطيع حل المقاومة.

وقد ذكرت هنا هذه التّفاصيل النّظرية في المتابعة النفسية التّحليلية لمراجعينا من الذين يتوجهون إلينا بطلب المساندة النفسية العلاجية، كونها أكثر ما تتكرر فعلياً لدى النّساء عبر جلسات التّحليل النفسية المتتابعة التي يعيشونها كخبرة حياتية فيها من التّحدي والانتصار على الواقع، وذلك عبر تمثل الوعي الذاتي لفهم ماهية الهوية الأنثوية، ومفاعيل هذا الوعي تنعكس على التّكيف السّليم المعبر عن الصّحة النفسية...

العنف ومعاناة المرأة المتواصلة

يُنظر الى العنف بأنه إشكالية معقدة لما لها من أبعاد اجتماعية وسياسية، وذلك من خلال بنى نفسية خاصة لمفتعليها، فكل ممارسة للعنف، يصاحبها ممارسة خطابية وترويج اجتماعي، وأحياناً ثقافي ليتم تبنيها والعمل عليها.

العنف violence الذي يغذي حضارة الإنسان المعاصر، تلك القوة الطّاغية التي عجزت البشرية عن معالجتها والحدّ من انتشارها، لأنّ العنف ظاهرة ملتبسة ومتداخلة العوامل والأسباب، طرحت حولها تصنيفات وتفسيرات مختلفة من مثل: هل العنف مظهر لصدام الحضارات، أم هل هو ردة فعل ضد الهيمنة العالمية، أم هو أزمة العقلانية ومقتضيات الحداثة، أم هو تعبير عن عدوانية الإنسان وعن بنية المجتمع وثقافته...

وإن كان العنف ظاهرة إنسانية تعمّ المجتمعات فإنها تلقي بأعبائها الكثيرة على الشّعوب بكل الفئات، وعلى الجنسين من الرجال والنّساء ولو اختلفت المعطيات والنّسب.. إلّا أن المرأة ومن خلال دراسات عديدة تكون لها حصة كبيرة من التّظلم والتّعنيف الاجتماعيين، ممّا له عظيم الدّلالة على حياتها وتطورها الاجتماعي، وإعطائها المكانة التي تستحقها في الحياة لتسهم في البناء والتّطوير

جنباً إلى جنب مع الرجال، حيث لا يمكن لمجتمع أن يبنى ويلحق ويسير بركب التّقدم، ونصفه غير مشارك ببنائه وتطوره... فكيف والحال هذا إذا ما أسقطناها على المجتمع السّوري في رصدنا وتأملنا لما هو ملقى على المرأة السّورية في ظل أحداث العنف في السنوات الأخيرة، المتمثلة بأعباء وآلام تثقل لحملها الأجساد والعقول، كما كان حال المرأة الفلسطينية والجزائرية والعراقية والصّومالية واليمنية من قبل وما زلن، ولو اختلفت النّسب قليلاً في بعض الدّول العربية الأخرى...

فالمرأة في مجتمعنا تعاني من اضطهاد مزدوج في ظل الظّروف والأحداث السياسية السّورية الأخيرة، فبالإضافة إلى معاناة القهر والإهمال المزمنة، فقد تشكل للكثيرات من النّسوة في بلادنا متلازمة تسمى "متلازمة التّعب النّفسي Chronic Fatigue Syndrome" فالمرأة التي قد تكون مضطرة إلى الحضور الدّائم في بيت الزّوجية، وحقوقها مهدورة في غالب الأحيان، من حيث أن جهدها مهما بلغ يصنف باللاقيمة له، فإن كان عملها ضمن المنزل فقط، فهو عمل لا أجر ولا قيمة له في نظر الكثير من الأزواج، بل هو واجب عليها الالتزام به، وكفى المؤمنين شرّ فِعالهم.

إن معاناة المرأة السّورية مؤخراً النّاتجة عن تلقيها الأسيّة، من جراء الظّلم العنيف الموجه لها بصورة مباشرة من خلال حوادث كثرت كالاغتصاب والاعتقال وحتى الاستشهاد، وهذا الحال إن لم يكن لها بصورة مباشرة فهو لأولادها، وزوجها لتكون معاناتها قسوة الحياة القاسية في ظل ظروف الحرمان العاطفي، وأبسط أشكال الاستقرار...

الملاحظ في بلادنا حتى في حال دخلت المرأة الحياة العملية، وسوق الإنتاج فإن أولوية الأعمال في حياتها لعمل المنزل، حيث يبقى الزّوج في غالب الأحيان غير معني بتدبر شؤون المنزل، بل يتعامل كأنه مساعد، وفي حال قامت بمساعدته، يظل يعدّ نفسه رجلاً حضارياً يقوم بأعمال ليست من طبيعة عمله، ومجال اهتمامه، فيبدو ذلك وكأنه يتبرع بجهده لزوجته...

من هنا لا بدّ من الإشارة إلى أن العمل هو المتغيّر المستقل، وأشكال الحياة

جميعها بما فيها الأسرية هي المتغير التّابع، بحيث إن ظروف النّشاط الإنتاجي، هي التي تتحكم في أشكال وصور الحياة جميعها، العقلية والأخلاقية والعاطفية بما فيها العلاقة بين الجنسين، إذ بلغة العلم: الجنس متغير تابع وليس متغيراً مستقلاً، في هذه الحالات، كيف يكون ذلك؟ دعوني أوضح ذلك بما يلي:

- لكي يعيش الإنسان لا بدّ له أن يأكل، ولكي يأكل لا بدّ له من طعام، ولن يحصل على الطّعام إلّا بالعمل، ولكي تستمر الحياة بتعاقب الأجيال، لا بدّ من الإنجاب، ولكي يستطيع من ننجبهم أن ينجبوا بدورهم، لا بدّ أن نعيلهم بطعامهم وتنشئتهم بهدف المحافظة على حياتهم بأحسن المعطيات وفق الاستطاعة المتاحة بصورة فردية أو عبر الإمكانات الاجتماعية الميسرة والمتحققة...

من هنا نجد أن الاقتصاد يتحكم في الإنجاب، والعمل والإنتاج هو ما ينقص في التعبير عما يلزم للتّخفيف عن المرأة معاناتها، وإرساء قواعد المواطنة والاستقلالية والتّنشئة على العطاء المتبادل.

وهذا يقتضي منا نحن المهتمين بقضايا تحرر الإنسان في بلدنا، امرأة كانت أم رجلاً من خلال التّركيز على إعادة التربية على أسس العلم، ومفهوم حقوق الإنسان والمواطنة، سواء كانت إعادة التربية عن طريق الوعظ، ومن خلال تلقي دروس الدّين عبر الجوامع، أو الأخويات أو العلاقة برجل الدّين، ووعظه إلى إعادة التّذكير باستمرار من خلال وسائل الإعلام المختلفة، ونشرات التّوعية من خلال الهيئات والجمعيات والتّجمعات التي تعنى بشؤون الأسرة، والتربية على المواطنة، وذلك عبر اللقاءات والنّدوات التي علينا، ومن الآن التفكير بالعمل عليها بكل الجدّية والإحساس بالمسؤولية.

ومما لا شك فيه أن الأنثى بتكوينها البيولوجي، والعاطفي تحتاج إلى تفهم من قبل من يهتم بتنشئتها من كلا الأبوين، حيث ونحن نعيش القرن الحادي والعشرين بعد الميلاد من عمر الحضارة، ما زلنا لم نعطِ في تنشئتنا الأسرية والاجتماعية إلّا الأهمية الضئيلة، لخصوصية متغيّر الجنس...

إذ والحال هذه للثّقافة مقتضيات عديدة تسهم في النمو بمراحله المختلفة، وهذا الحال ينطبق على كلا الجنسين من حيث التهيئة لأدوار الرجولة والأنوثة بروح التّوازن والاستقرار، لا الإقدام على كل مرحلة بروح الحماس والانفعال فقط.

كما تؤكده آراء عالمة النّفس الشّهيرة "هير– ماستين" في استعراضها لمكامن التّحيز ضد المرأة في العلاج النّفسي، إذ تجد أنه برغم من أن دور المرأة في العائلة هو مركزي في شخصيتها من حيث التّكريس الاجتماعي لذلك، إلّا أن المسألة المعقدة التي لم تعط أهمية في الدّراسات والأبحاث النفسية، حول طبيعة ما يحدث فعلاً في مؤسسة الزواج، فغياب (المرأة الذات) في الدوائر الأكاديمية تشير إلى أن التّحيز ضد المرأة مرده إلى قصور في المعلومات حول المرأة ومشاكلها.

إذ وجد أن هناك تلازماً عالياً بين التّعصب الجنسي، وبين نقص في هذه المعلومات عند النّساء، أو حتى غيابها في أحيان كثيرة...

فهناك من لديه قناعات راسخة من أنّ آلام النّساء متضمنة، في تكوينهن البيولوجي من خلال آلام الحيض والولادة وإمكانية التعرض للاغتصاب، وهذه القناعات ليست فقط في بلادنا فحسب، بل ما تجده "كابلان" التي رأت في أبحاث لها في أكثر من بلد أن هناك جملة سلوكيات يطلق عليها تسميات خاطئة، ولاسيما تلك التي تسم المرأة بإهمالها لنفسها، من حيث وضعها لحاجاتها كأمر ثانوي مما يتسبب في تأخير اشباعاتها إلى ما بعد إشباعات الآخرين، متجاهلين بذلك الرفض المجتمعي الذي يكرس تبني مثل هذه السّلوكيات، والمواقف التي أملاها المجتمع عليها، والتي تتضمن نكران الذات، في الحياة الزّوجية ودينامية العلاقات بين أفراد الأسرة، الأمر الذي يجعل المعلومات عن واقع الحياة الأسرية عند كثير من الشّعوب غامضة، وتناولها مخجل في ظل غياب ثقافة الحقوق الإنسانية وثقافة المواطنة، حيث إن استقرار الزواج عند الشّعوب يعتمد كمؤشر للفعالية النفسية دون الالتفات إلى الكلفة النفسية، التي تدفعها المرأة ثمناً لذلك الاستقرار، من حيث تكريسهم أن المرأة هي المستفيدة من الزواج برغم تراكم الإثباتات التي تشير عكس

ذلك، ويمكن أن نعطي مثالاً لما يحصل وحصل للمرأة السّورية، من طرح الزواج أن يكون حلاً لأسرتها في ظل غياب الأمان والقانون وضيق الحال، في ظل ما عانته مؤخراً في مخيمات وبلاد اللجوء، إثر اضطراب الأحداث السياسية وأحداث الشّارع السّوري في عام 2011م، حيث يطرح الزّواج حتى وإن لم يكن مناسباً ومستوفياً لمقومات جيدة تنبئ ببناء أسرة سليمة، فهو يحصل وينجز كونه ستراً لها من العار وانتهاك العرض...

وهنا لا بدّ من ذكر أن الرّضات النّاجمة عن الطّلاق أو موت الزّوج، ما زالت في بداياتها من حيث الرّصد والدّراسة، وتسليط الضوء الإعلامي عليها، وكذلك المآزم النفسية الناجمة عن تأخر زواج بعض النّساء والعزباوات الكبيرات في السن، وكلها فئات نسائية تعاني في مجتمعاتنا لأن الزّواج هو الحالة المعيارية النّموذجية لوجود المرأة . وهنا أجد من الجدير ذكره أن: المظالم المجتمعية التي تخيم على حياة قسم من النساء في بلادنا قد سببت لهن المزيد من الأزمات النفسية، ومنها المآزم التي تتعرض لها الإناث من جراء الاعتداءات الجسدية، أو الجنسية عليهن... فالعنف الأسري الذي بات علنياً في السّنوات الأخيرة، والذي أخذ أساساً شكل ضرب الزوجة أو الاغتصاب الزّوجي قبل أن يكون من أي شخص آخر في ظل عدم الحماية القانونية والفوضى الحاصلة في بلادنا في الآونة الأخيرة، كأن تجبر الزّوجة على ممارسة الجنس، فقط متعة للزوج وواجب عليها، حتى وإن لم تكن راغبة بذلك، بفعل التعب أو عدم رقة أسلوب المعاشرة وإنسانيته، أو ما يسمى شبه الاغتصاب كون بعض الرجال لا يهتمون، بمتعة المرأة أثناء العلاقة الجنسية الحميمة، إذ تكون أنانية كبيرة من طرف الكثير من الرّجال، حيث يعيشوا رغباتهم ويركنوا للنوم أو الانصراف لأمور أخرى بدون الحرص على استمرار المعاشرة، والودّ وتطوير العلاقة والانفتاح على المرأة بالحديث والمشاركة، هذا ما تؤكده حالاتنا العياديّة وأيضاً لقاءاتنا مع النّساء في أنشطة مختلفة...

ومن المظالم التي يجدر لفت النظر إليها:

العلاقات الإثمية الشّاذة في البيئات التي يحكمها الجهل، وسوء الأوضاع المعيشية، كون الأب أو الأخ أو أي قريب آخر قد يستبيح فتيات صغيرات، مما قد يتسبب لهن برضات هلعية تتعرضن لها النساء خاصة بعد الزواج، فتعود لهن مكبوتات اللاوعي المتشكل في مراحل عمرية أدنى، وتكون النتيجة لذلك، حالات عديدة للمعاناة من البرودة الجنسية مع الزوج، وكذلك عدم الاهتمام لأجسادهن، وكذلك الشعور بالقرف والرّفض للجنس، حتى لو كان ضمن شروط الأمان وفق التّشريعات المناسبة لعقد الزّواج، والتّقديرات الرّقمية تشير إلى أن 10% وفق تقدير "هيرمان" من أن النّساء الأمريكيات الصّغيرات تتعرض لنوع من الاعتداء الجنسي العائلي هذا في أمريكا، ولكن ما هي نسبة مثل هذه الممارسات المنحرفة في بلادنا...

وتبعاً لإحصائية هيرمان فإن 1% من الفتيات الصّغيرات تعرضن لاعتداء من الأب نفسه، والدّراسات حول فعالية العلاج النّفسي، وأشكال تدخله في هذه الحالات ليست كافية، أما كوس "Koss" فتشير إلى حدّة أو تواتر العنف الذي تتعرض له المرأة في إطار العلاقات الشخصية التّبادلية لتذكر أمرين غير موثقين بشكل صحيح في الإحصاء المسحي الوطني الأمريكي للجريمة...

فلجنة الطوارئ المنبثقة عن الجمعية السّيكولوجية الأمريكية لدراسة الخور لدى النّساء، تذكر أن مساهمة التّعنيف المتواتر بالاعتداء الجسدي أو الجنسي على الأولاد بنات كنّ أم ذكوراً، أو تعرض النّساء للاغتصاب من قبل الزوج، أو أحد المعارف أو ضرب الزوجة أو التّحرش الجنسي، حتى من قبل بعض المعالجين النّفسانيين مرات، أو أي مصدر آخر للعناية الصّحية، يسهم في توليد العوارض الخورية، وهو أمر مهمل، ولا يلتفت إليه وما يتم تشخيصه بالمزاج الخوري، لنشير إلى أن هذا الأمر قد يكون في الواقع استجابات على مدى زمن طويل لما بعد الصّدمة النفسية المعاشة في مثل هذه الأحوال تجاه العنف من محيط المرأة الحميم، بحيث لا يزال ماضي التّعنيف الذي تعرضت له المريضات والمرضى النّفسيون، بحيث يكون مجالاً للتأويل غير الصائب أو للإهمال، لذلك فإن من آثار العنف

المترتبة على الصّحة النّسائية تبقى بعيدة عن التّداول العلاجي المناسب لتعم الصّحة النفسية في حياة المرأة عموماً...

ما سوف أذكره أخيراً من المآزم النفسية التي ترهق المرأة، وتعد من آثار العنف المجتمعية التي ترخي بظلال المظالم الاجتماعية على كاهلها: حالتي العقم والإجهاض التّلقائي فهذه الإمراضيات الصّحية قد تعدّ إمراضيات منفصلة عن سياقها النّفسي، من حيث قلما يلتفت الأطباء من تخصصات مختلفة في بلادنا، إلى الخصائص الدّفاعية البناءة للمرأة ليكون العقم والإجهاض، تعبيرات في مواجهة زواج فاشل أو تنشئة ظالمة... حيث إن جمهورنا الشّعبي ما زال لا يصدق المسببات النفسية لمشاكل العقم والإجهاض، بل نجد النّفي هو القائم بدلاً من التّصدي لمثل تلك المظاهر...

وبذلك لا يكون من آثار هذه المآزم للنّساء، إلّا المزيد من الاستجابة الفورية للحزن والكآبة، لما بعد التّعنيف وفي حال لم تعالج، تتحول أنماطاً من الأعراض المتنافرة والمزمنة والمتناسقة، مع مؤشرات الخلل النّاجم عن ضغوط ما بعد الحدث الصّادم (ptsd)...

ولا بدّ هنا من الإشارة المتأتية من خلال خبرتي النفسية العيادية أن أذكر أن عدم الإقرار بالفروقات بين الجنسين، ولاسيما في البيئات التي تدّعي التّحضر والعصرية، أجد أن في هذا التفكير تظلم للمرأة من بيئتها، ومن ثم من نفسها فيما بعد، إذ هذا نوع من التّحيز ضد المرأة، وهو من آثار الجهل بإرساء ما يلزم من قواعد التّنشئة...

عالمة النّفس النّمساوية (الأمريكية) دوتش Helene Deutsch، والتي تعد من رفقاء "سيغموند فرويد"، مؤسس النّظرية النفسية التّحليلية، تركزت اهتماماتها حول فهم مرحلة الأمومة. فبحسب "هيلين دوتش" الشّخص الذي يعرض خدماته لمساعدة الآخرين، فإنه يتوقع أن يحصل على ثناء، وإشادة تشعره بالقوة والسّعادة رغم التّعب والإرهاق، الذي قد يتعرض له ثم يشعر بالسّيطرة على الآخرين، من خلال ذلك

المجهود المقدم. إنها تفسر هذه الحالة على أنها مازوخية Masochism اجتماعية.

وقريباً سيتعلم هذا الشّخص أنه كلما عرّض نفسه للتّعب والإرهاق لخدمة الآخرين، تحققت له اللذة والقوة والسّيطرة عليهم، فهو يسيطر على الآخرين من خلال تعريض نفسه للألم، والتّضحية والتّعب.

ووفقاً لـ"هيلين دوتش"، فإن الأم التي تتعب جداً مع أطفالها، وزوجها ومنزلها، تستطيع أن تسيطر على العائلة بطريقة لاشعورية من خلال مازوشية Masochism اجتماعية، ونجد أن الأسرة والزوج والأطفال سيمجدون هذه التّضحيات، وسوف تسيطر على قوام ومقومات بيتها من خلال تضحياتها.

ولكن حسب رأي "فرويد" عبر قوله الشّهير "إن من يعطي أكثر مما يملك يكون سارق"، ففي هذا الحال نجد أن الكثير من الأمهات اللواتي لا زلن في مجتمعاتنا يسرقنَ من تعب أعصابهن، وطاقة أجسادهن في إيثار كبير لعوائلهن، وفي المؤدى تعيش هؤلاء النّسوة الإرهاق بصمت وتعيش معاناتهن بدون المقدرة على التعبير، وهذا هو السيناريو السيّئ الذي يحوّل عطاءهن إلى ميكانيزمات نفسية مرضية كامنة بل مكبوتة، تتفعّل إثر أي حادث صادم، وهذا ما نجده اليوم بكثرة في حياة النّساء السّوريات، لأن الأمور تتجاوز المرأة بمقدرتها على العطاء، وهؤلاء النسوة يعطين فلذة أكبادهن وأزواجهن لينعم الوطن.

فأي حياة بتقديركم ستعيش هذه النّسوة في المراحل المقبلة؟ ما الذي ينتظرهن بعد كل هذه المآسي المعاشة؟

تعطي "هيلين دوتش": توضيحات لهذه الحالة، فتؤكد أن اللذة من جراء السّيطرة العاطفية على الآخرين تكون فوق طاقة الأم، لأنها تعتمد على تسخير، وإرهاق للنّفس، التي ستنفذ طاقتها الكامنة قريباً.

كما يرى "فرويد" مؤسس العلاج النّفسي التّحليلي في توضيحه لمهام العمل النّفسي عبر المنهجية العلاجية، الذي اكتشفها، وبرع في إظهار النتائج العلاجية بممارسته لها...

يقول "فرويد" في هذا السياق: إن المهمة الأساسية في التّحليل النّفسي هي الوصول إلى المشاهد البدائية، التي يمكن أن تظهر مباشرة، أو بوساطة الهوامات التي هي بناء دفاعي تسمح بعدم التّذكر الكامل للواقعة النفسية الأساسية، وهي تدمج التّجارب بسياق هوامي دفاعي، يحتوي ما حصل عند الأهل، والجدود أيضاً وتربطه بما شاهده المريض نفسه، بقايا الذّكريات المثيرة للحالة الانفعالية، ويتم ذلك في إطار مركب ومعقد ومتكامل، وتأخذ الهوامات بعدها وهندستها عبر إعطاء صيغة التّفكك للذّكريات الحاصلة...

وبذلك في حال لم تعد تَقدر النّسوة على تقديم المزيد من التّضحيات، لأنهن لا يقدرن على التّخلي عن أسرهن، فسيكون الحل أيضاً ماسوشياً عندئذ، أي أن "التّعب النّفسي" سيكون من خلال الآلام والمعانة حلاً مرة أخرى لهن.

إنه حل سوف يسيطر على الأسرة من جديد، من كونه يجعل أفراد الأسرة ملتّفين حولها، وسيكون أيضاً مقبولاً من وجهة نظر المجتمع، وسيعدّ قبل ذلك كله متنفساً لاشعورياً لمكبوتات ترفض الواقع، وإرهاصاته السّاحقة، وسيكون هذا الحل بالنّكهة الماسوشية المتألمة والمتلذذة نفسها!

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن الماسوشية لدى المرأة في مرات عديدة تتطور لتكون شكلاً أيضاً من "النّرجسية التّدميرية Destructive Narcissistic" التي ستحب الذات محبة سلبية، وستتلذذ بغير وعي بتعذيب الذات لتحصل على رضا والتفات، وانتباه من الآخرين، إنها لحظة للتلذذ بالمعاناة، وحب النّفس المتألمة التي يلتف نحو أنينها، ومعاناتها الآخرون.

إذ من خلال جلسات الاسترخاء والتّداعي الحر بداية قد تكون بداية جديدة وجيدة، لتخرج هذه المرأة الكثير من المكبوتات، ولتبذر نواة التّصالح مع الواقع. وأن تتعلم فيها أنها من الممكن أن تحب نفسها، وتحب أطفالها و زوجها، دون أن تغوص في الألم بماسوشيتها، ودون أن تبحث عن السّيطرة على أفراد أسرتها.

وهنا أجد لزاماً علينا أن نعمل هنا على تقديم الجزء الذي يمكن أن يتحكم،

ويخدم عالم المرأة وحياتها، وذلك عبر نشر الوعي والثقافة العامة بمراحل النمو والحاجات المرافقة ونشر الثّقافة الجنسية الميسرة للجنسين فبيل البلوغ وقبيل الزّواج بصورة خاصة، فنقوم من خلال ذلك باستبدال قوى المكبوتات اللاشعورية المسيطرة على حياة تلك النّساء بقوى العقل الشعوري الواعي الذي تصحح مدركاته، ويعطى فرصة أكبر في ممارسة دور القيادة للحياة النفسية والشخصية، في حياة المرأة وحياة أسرتها وبالتالي مجتمعها...

أما تناول حالات الاضطرابات النفسية من منظور السّببية التّحليلية القائمة على فهم قوة اللاشعور، فتجعل المتتبع لهذا الاضطراب يشعر بأن هناك فوضى في كل مكان من عالم الإنسان، لكن علاج اللاشعور يشكل أحياناً مفترق طريق لبعض المرضى، والمريضات ممن تنبع مشكلاتهم النفسية من سبب لاواعٍ، وليس من سبب واعٍ، وما أكثر توارد ذلك في خبراتنا النفسية العيادية...

هذه الاضطهادات آتية من تفاقم الإيديولوجيا الدّينية، وتراجع القيم الأخلاقية السّامية، من خلال الإسقاط على كل شؤون النساء وجعلهن تابعاً للتّعليمات من دون وعي أو حتى إدراك، فالعلاقة الهامشية بين الرّجل والمرأة داخل البيت، تجعل للمرأة وصفاً خاصاً مهمشاً، لأنها تفقد صفتها الإنسانية، وتجبر أن تحافظ على العادات والتّقاليد التي تكرس استلاب المرأة الاجتماعي alienation، وتحجر المؤسسات المختلفة التّربوية والاجتماعية هذا الوعي، بيد أن العادات والتّقاليد التي ترسخها المؤسسات هي بحد ذاتها انعكاس للوضعية الاقتصادية للمرأة في المجتمع، فهي سلاح ذو حدين في السّلب والإيجاب، فمثل هذه المؤسسات قد يكون لها دور فعال في تغير البنى الاجتماعية، ونشر ثقافة المشاركة والوعي المنطقي لحاجات الجسد، عبر المعرفة العلمية السّليمة لذلك...

وهنا لا بدّ من التّركيز والتّوضيح أن السّمات النفسية الأنثوية، ليست سلبية وغياب المبادرة والعزلة، يتم تحميل مسؤوليتها للتركيب العضوي وليست إلّا التعبير عن وضع اجتماعي وثقافي معين، وبذلك الوضع البائس للمرأة العربية الذي

لا يمكن تخطيه باتجاه تحرر فعلي، ما لم يتم تغيير البنى الاقتصادية والاجتماعية والإيديولوجية التي هي أساس المجتمع الطّبقي التشكل في غالبية بلدان عالمنا العربي.

وتبقى الإشارة إلى أن التّحرش الجنسي، يعدّ شكلاً بارزاً من أشكال العدوان على المرأة في بلادنا.

إن سلوك التّحرش الجنسي، هو إشارة إلى سلوك نفسي اجتماعي مركب يلزمه علاج على المستوى الشّخصي، ومحاربته اجتماعياً كسلوك مهين لإنسانية الجنسية، كون الجنس تجانساً وتشاركاً وتفاعلاً مريحاً وليس تحكماً وغدراً وسرقة...

فالعقل الحر لا يلد إلّا حريّة، وهي حريّة سليمة ومسؤولة، فلا النقاب يزيدنا قرباً من الله ولا العريّ يزيدنا قرباً من الحريّة... فنحن كشعوب عربية بحاجة إلى فكر ورؤية جديدة لأزماتنا السياسية والاجتماعية والفكرية... لذا لتكون المرأة محررة تماماً ومساوية للرّجل، ينبغي أن تكون هناك شراكة في تبعات الحياة الزوجية بدءاً من أعمال المنزل لتكون الشّراكة عملية وحيوية إلى إسهام المرأة في الإنتاج، مما يعطيها إسهاماً وموقعاً لائقاً في الحياة الزّوجية، لينعكس بالتّالي على سلامة تنشئة الأجيال، وبالتّالي على تقدم المجتمع.

التّحليل النّفسي للرّغبة والحب عند الجنسين

يمكن البدء لدى الصبي بحيث لا تكبت العقد النفسية لديه، بل يتاح لها أن تتفجر تتطاير شظاياه تحت صدمة التّهديد بالخصاء، إن لم تتم التّنشئة على المعرفة النفسية الضّرورية لذلك، ومن ثم فإن توظيفاتها اللبيدية تهجر، ويخرج من طابعها الجنسي ويتم تصعيدها جزئياً من خلال موقع الطّفل بين أبويه، ولداً كان أم بنتاً من حيث التّقبل لجنسه، والتربية الإيجابية على تقدير الذات ونعمة الاختلاف والمشاركة.

من هنا تفهم المعاناة النّسائية من وجهة نظر التّحليل النّفسي، فإذا كانت بنية الأنا الأعلى الأنثوية واهنة ومفككة، فإن التّحليل النّهائي لهذه الظاهرة يشير إلى أن

السلطة الأنثوية، ليست سوى تمثيل عميق لا واعٍ للسلطة الأبوية، وهذا "التّمثل" representation لا يتم إلّا في أجواء الغياب المادي لهذه السلطة، بعد أن تؤدي دورها في عملية التّشريط الانفعالي لحضور الأبوين الواعيين في حياة أبنائهم خلال مرحلة الطّفولة، دون أن تتحول إلى سلطة ذاتية، على شكل أنا أعلى اجتماعي، يكرس بحكم المحرم والمنوع والمسموح به في أي مجتمع، من هنا يمكن تفسير فخامة انحراف الأسرة عن إطار القيم الأخلاقية السّائدة، في حياة النّاشئة في أي زمان ومكان وعند أي مجتمع لا على التعيين، من حيث محتوى السلطة الأبوية المحابي للذّكر، يسمح للأهل بالثقة بأبنائهم الذكور وبسلطتهم الذاتية المتمثلة بالأنا الأعلى، فانعدام الثقة هذا بالأنثى هو ما يقف خلف هوامات الأهل المتعلقة بغواية المرأة وشيطنتها.

لذلك من الأمور التي أجد من المهم الانتباه إليها هنا، في حال التّخطيط لمستقبل المرأة السّورية، هو كيفية تعزيز السّلامة الأسرية من خلال الاهتمام بالصّحة الإنجابية بمعناها النّفسي والسّلامة العاطفية، وتفاصيل التّنشئة المبنية على خصوصية الذّكورة وخصوصية الأنوثة والتّحفيز على المساواة، وأهمية كل طرف للآخر من كلا الجنسين حتى يحصل النمو السّليم وتعاش الحياة لكليهما، بأفضل السبل للاستمتاع والسّعادة ..

في بلادنا هناك مقولة شائعة "المرأة لا تحقّق ذاتها إلّا إذا أصبحت أمّاً" من الوجهة النفسية قد تكون هذه المقولة صحيحة، لأن الإنجاب ضرورة لتحقيق الذات النّسوية، ولكن هذا لا يجب أن يغفلنا عن الألوان المختلفة للإحباط، والمآسي التي يسببها الإنجاب للمرأة، هذه المعاناة قد تحصل نتيجة أسباب عدة، منها ما هو بيولوجي ومنها ما هو نفسي اجتماعي، أما الأسباب البيولوجية للإنجاب فقد تحصل من خلال آلام الولادة ومصاعب الحمل عند بعضهن، أما الأسباب النّفس اجتماعية من مثل الفوضى والضّغوط الاجتماعية والاقتصادية التي ترافق أحياناً عملية الانتقال من وضعية الأنثى إلى وضعية الأم...

وإذا كانت المرأة تحيا بالإنجاب كضرورة لصحتها النفسية، فالرجل يعطي للإنجاب من حياته الكثير كضرورة مستقبلية مجتمعية لاستمرار النّسل، والاسم والمرجعية... وبذلك الصّحة الإنجابية مطلب نسوي ملحّ ومطلب ذكوري غير مباشر، ومن هنا أيضاً لا بدّ من الانتباه إلى الشّروط السّليمة للإنجاب الصّحي، وقوننتها حتى لا تورّث مشاكل اجتماعية تعم البلاد مستقبلاً.

هذه الشّروط كثر الحديث عنها سابقاً، ولكن لم أجد لذلك تطبيقاً ملزماً لأية جهة عنيت بالمرأة والأسرة، بأن تُركز على تثبيتها في ثقافة النّاشئة.

ويمكن تبويب ذلك وفقا لما يلي:

1- معرفة المرأة، معرفة علمية بالعلاقة الجنسية، وبخصائصها عند الرجل، وعند المرأة وفيما بينهما..

2- القدرة الجسدية والنفسية والاجتماعية على تحمل مسؤولياتها تجاه قرار الإنجاب والقيام بمستلزمات هذا القرار.

3- معرفة المرأة بتبدلات الجسد ووظائفه، وكذلك معرفة الرجل الزوج الشّريك لتبعات هذا القرار والمسؤولية الكاملة في حال حصول الحمل عند الزّوجة.

4- تنفيذ قرار الإنجاب وإجبار الزوج (المرأة) على الحمل، له مخاطر نفسية عديدة على الجنين، من كونه سيصبح مستقبلاً ابناً غير مرغوب فيه، ويجعله عرضة لأنواع مختلفة من الهزات والصّدمات..

ومن المشاكل المحتملة عند المرأة والتي تؤثر على الصّحة الإنجابية أذكر:

- اختيار قرار الإنجاب برغبة أهل الزّوج، وبدون رغبة الزّوجين بذلك، نظراً لعدم جهوزيتهما بعد، لتأسيس أسرة مع أبناء... مما يجعل استهلاك العلاقة الزّوجية، بخروجها عن مسارها كعلاقة شراكة لأهداف وطموحات الشّريكين.

- صعوبة الحمل والولادة والمشاكل الصّحية، التي قد تظهر وتغير صورة الجسم لدى المرأة، وآثاره على الرّجل وتحميل المرأة مسؤولية ذلك.

- إنجاب أطفال كثيري العدد، يجعل العلاقة الأسرية تستنزف الأم، من

خلال تراجع صحتها من مشاكل تكثر في بلادنا، ترقق العظام نتيجة عوز الكلس والإجهاد، وكذلك مشاكل هبوط الرّحم، والنّزيف المزمن. إضافة إلى عدم الرعاية المناسبة لكل طفل في الأسرة، لافتقار العلاقة الأمومية والأبوية معه.

إذ من الأمور التي تسبب معاناة المرأة في أسرتها، وكنتيجة لتداعيات الصّحة الإنجابية النّفس اجتماعية أذكر:

- إن الزّواج من قريب، قد يتسبب بولادة أطفال لديهم إعاقات، مما يسبب للمرأة انهيارات نفسية واجتماعية.
- الإجهاضات المتكررة.
- ومن الأمور المسيئة لصحة المرأة الإنجابية: إرغام المرأة على الزّواج من شخص لا تريده.
- ومن الأمور المسيئة للصّحة الإنجابية أيضاً: الإنجاب خارج إطار الزّواج الشّرعي الرّسمي، مما يعرض المرأة لإدانة أخلاقية، يكون سبباً في مشاكل نفسية عميقة قد تعاني منها، ويعرض الوليد لرفض لاحق، وسوء نظرة له كذات حية.
- إنجاب المرأة الكبيرة في السّن، بعد سن الخامسة والأربعين، له مشاكله ومحاذيره.
- حالة المرأة النفسية كونها ترفض الأطفال وتعيش انحرافات جنسية يعيق الصّحة الإنجابية في حال حصل الحمل.
- إنجاب التّوأم وقد يتسبب ذلك بمشاكل مختلفة على صحة الأم، وكذلك تنشئة الطّفلين التوأمين مستقبلاً.

وأخيراً لا بدّ من التّركيز على أن الآثار النفسية المختلفة من جراء تعرض المرأة للعنف، وما تتركه من آثار على الصّحة الإنجابية تتمثل بالعديد من الأعراض النفسية لا بدّ من التّوعية لها.

ولما كانت الطاقات النّسائية من أكثر الطاقات تعرضاً للعنف، وخضوعاً له، والعنف الذي تتعرض له المرأة يصيبها بأعراض عديدة من مثل:

1- أمراض نفس جسدية كارتفاع الضّغط، والتّشنجات العصبية، حالات الهستيريا، والانهيار العصبي النّاتج عن فقدان الشّهية، الشّراهة في الإقبال على الطّعام لحدٍّ غير مقبول إنسانياً...

2- الغيرة والحقد وتصلب الطّباع، والبنية الجرمية كسلوك دفاعي عن جروحها النّرجسية الكثيرة.

3- العنف قد يؤدي إلى العقم ورفض الإنجاب.

4- العنف قد يكون يسبب إعاقات جسدية ونفسية للجنين.

وبذلك نصل من خلال ما تقدم لحجم الأذيات الحاصلة للمرأة، وبالتّالي الخسائر المجتمعية المترتبة من هدرنا لطاقة المرأة، وحضورها في التّنمية، إن لم يتم تدارك وعلاج آثار المظالم والعنف المكرّسة والمستجدة على حياة المرأة التي بطبيعة الحال ستنقل وترخي بظلالها على الرّجال...

إشكالات التربية الأسرية كعائق للدّيمقراطية

قد لا يختلف أحد منا في الجدل حول المسؤولية المهمة للأسرة والمجتمع بمؤسساته التربوية، في زرع قيم العمل الصّالح المتوافق مع مبادئ الأخلاق العامة، فمن الثّابت أن نمط وأشكال تعامل الأسرة، مع الأبناء هو وقاية من الجريمة والانحراف للأبناء، أما تفكك الأسرة فهو سبب لسلوك الانحراف والتّهميش في مسيرة حياة الأبناء، فدور الأسرة المتمثل بتنظيم العلاقات فيما بين مكوناتها، يمثل دوراً علائقياً تبعاً لنمط الأسرة كونها محكومة بقوانين الاستقلال في مجالات الحياة كافة من جهة، ومحكومة من أخرى بقوانين التّبعية حول هذه الحالات.

وتتمثل العوامل الحاسمة في نمط التربية الأسرية بما يلي:

- إحساس الأبناء بمدى وعمق اقتناع الأهل فكراً وسلوكاً بالقيم والمبادئ التي ينادون بها مما يجعلهم قدوة حسنة فعلاً في نظر أبنائهم مما يسهم في حصول التّماثل والتّماهي.

– اقتناع الأبناء بصحة وصوابية هذه المبادئ.

– إن عدم قدرة الأهل على الحوار والنّقاش مع الأبناء يتسبب بشرخ كبير، فمن الأسرة التي تعطي الشّروح والتّرغيب، بدلاً من سيطرة أجواء الأسرة المتسلطة، التي تكتفي بإعطاء التّعليمات المرهبة والتّحذير من الخروج عنها إلى الأب صاحب السلطة الفاعلة والحانية، والأم صاحبة العاطفة المنعشة وغير المخدرة.

بحيث تكون هذه السلطة مرجعية، وبوصلة لسلوك الأبناء وغير تسلطية أو تتسم بالعنف. فعاطفة الأم وحنانها، بمنزلة غذاء ملهم للأبناء على تخطي العقبات الاجتماعية، لتكون الأسرة صمام الأمان لامتصاص إحباط الواقع اليومي ونقمة على المجتمع كسلوك انحرافي.

فعملية الوقاية من السّلوك المنحرف في الأسرة، يعتمد على أهداف ووسائل تربوية متوافقة مع قانون المجتمع، ويشرف عليها أب وأم يحمل كلاهما صورة نموذجية إيجابية سليمة، ويقبل الأبناء قيم الأسرة بعد فهمها والتّكيف معها...

مشاكل الأسرة المعاصرة

تعددت مشاكل الأسرة في عصرنا الحاضر، لأنها فقدت نتيجة التّغيرات الاجتماعية كثيراً من وظائفها التي كانت تقوم بها عن ذي قبل.

فأدى ذلك إلى تفكك عرى الأسرة، وانهيار الروابط التي كانت تربطها فيما سبق. ومن المخاطر الرئيسية في المجتمعات الحديثة، أن الدّور الطّبيعي الذي كانت تقوم به الأسرة قد تضاءل نتيجة لاستيلاء مؤسسات أخرى على كثير من مسؤولياتها، ونخشى نتيجة التّضاؤل أن تفقد الأسرة الأثر الفعّال الذي هو أهم قوى الاستقرار في مجتمعنا...

فالمرأة في السّابق كانت مستقرة في بيتها وتعتني بتربية أولادها، والقيام بشؤون زوجها، وكانت تقوم مقام المعلم بين أبنائها، تشترك مع الرجل في ذلك. أما في عصرنا الحاضر فقد خرجت الزوجة لتقوم بأعمال تشابه أعمال الرجل خارج المنزل،

وأصبحت شؤون المنزل والقيام بمهامه عملاً ثانوياً بالنسبة لها، كما وأصبحت المرأة في كثير من الدول ترى أن إنجاب الأطفال يتعارض مع قيامها بتولي الوظائف العامة، وهو الأمر الذي نجم عنه تحديد النسل، وعدم التفكير في إنجاب الأطفال.

وما لا شبهة فيه أنّ المرأة مسؤولة عن تهيئة الجو الاجتماعي والنّفسي لنشأة الأطفال نشأة سليمة متكاملة. فقد نجم عن تخلِّيها عن هذه الوظيفة كثير من المضاعفات السيئة، وكان من أهمها (انهيار الأسرة)، فقد أصبح التقاء المرأة بزوجها وأطفالها التقاءً سريعاً، وأصبحت الأسرة في نظر الكثيرين أكثر شبهاً بـ(الفندق)، من دون أن يوجد ذلك الرباط الاجتماعي والنّفسي الذي يربط بين أفراد الأسرة، والذي يدعوهم دائماً إلى وضع مصلحة الأسرة فوق كل اعتبار.

كما أنّ خروج المرأة من البيت قد أوجب حرمان الطّفل من التّمتع بحنان أمه، وذلك لمزاولتها العمل، وتركه لها أكثر الوقت، ومن الطّبيعي أن تغذيته الاصطناعية وتعهد شؤونه لمربية ما، لا يسدّ حاجته لحنان الأم وعطفها، فقد أثبتت التّجارب العلمية أنّ الطّفل لا ينمو ولا يترعرع على حليب أمه فحسب، بل على عطفها وحنانها كذلك .

وهذا الغذاء العاطفي لا يقل أهمية عن الغذاء الجسدي في تنمية شخصيته، ومن هنا جاءت أفضلية التّغذية الطبيعية من ثدي الأم على التّغذية الاصطناعية، ففي الأولى يتمتع الطفل بأمرين هما الغذاء والحنان، وأمّا التّغذية الاصطناعية، فإنها تخلو غالباً من شعور الطّفل بحنان أمه، والأمان الوجودي من خلال حرارة جسد والدته الحاني.

ومن هنا يستحسن لأجل الأطفال الذين يحرمون من التّغذية الطّبيعية، أن تضمهم أمهاتهم إلى صدورهن، حسب ما ينصح به أطباء الأطفال فإن حرموا من الغذاء الطّبيعي، ينعمون بدفء العلاقة مع الأم من خلال نبض حرارة جسدها الذي لديه سجل معروف في ذاكرة الطّفل، بدءاً من المرحلة الجنينية.

وعلى أي حال فإنّ الطّفل لا ينشأ نشأة سليمة، إلّا إذا أخذ حظه من الحب

والحنان من أمه، وهو قد حرم من ذلك أو قلّ تأمين رعايته العاطفية بصورة مستقرة حين انعزلت والدته عن دورها المعتاد في التربية.

وقد أعاب على المرأة خروجها من بيتها جمع كبير من العلماء، نذكر آراء مجموعة من بعض هؤلاء تبعاً للتالي:

بدءاً من الفيلسوف الإنجليزي الكبير (برتراند رسل) الذي يقول: إن الأسرة انحلت باستخدام المرأة في الأعمال العامة، وأظهر الاختبار أن المرأة تتمرد على تقاليد الأخلاق المألوفة.

إلى قول العالم الاقتصادي (جون سيمون) الذي يوضحه كما يلي:

النساء قد صرنَ الآن نسَّاجات وطبَّاعات، وقد استخدمتهن الحكومات في معاملها، وبهذا فقد يكتسبن بعض المال، مقابل ذلك قد قوَّضن دعائم أسرهن تقويضاً، نعم إنّ الرجل صار يستفيد من كسب امرأته، ولكن إزاء ذلك قلَّ كسبه لمزاحمتها له في عمله.

والكاتبة "آني رورد" لها قول مميز حول هذا الأمر: لأن تشتغل بناتنا في البيوت خوادم أو كالخوادم خير، وأخف بلاءً من اشتغالهن في المعامل، حيث تصبح البنت ملوثة بأدران تذهب برونق حياتها إلى الأبد، ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة، والعفاف والطهارة، الخادمة والرقيق ينعمان برغد عيش ويعاملان كما يعامل أولاد البيت، ولا تمس الأعراض بسوء.

لتكمل: نعم إنّه العار على بلاد الإنجليز أن تجعل بناتها مثلاً للرذائل بكثرة مخالطة الرجال، ونوافق كل عمل تقوم به بفطرتها الطبيعية كالقيام بأعمال البيت وترك أعمال الرجال، سلامةً لشرفها.

– وقول (ساmويل سمايلس) المأثور: إنّ النظام الذي يقضي بتشغيل المرأة في المعامل مهما تنشأ عنه من الثروة للبلاد، فإنّ نتيجته هادمة لبناء الحياة المنزلية، لأنّه يهاجم هيكل المنزل، ويقوّض أركان الأسرة، ويمزق الروابط الاجتماعية.

هذه بعض الآراء التي أدلى بها عدد من المفكرين، المعبرة بمستوى ما عن الرؤية العلمية عبر المحاولة الجادة للإقناع بها، ولكن تبقى آراء لها من المحدودية التي لا تعيننا على التكيف مع ايقاع الحياة العصرية الحديثة، ليكون خروج المرأة من بيتها ودخولها في المعامل، ومزاحمتها للرجل في عمله واقتصاده، قد أدى إلى عجزها عن القيام بوظيفتها في التربية، فهذا الأمر يمكن أن نتداركه ويُخفّف من تأثيره بإجراءات تنصف المرأة وتعاد صياغة تفاصيل الشراكة في الحياة الأسرية، حتى نقي الأبناء والحياة الزوجية من ارهاصات عمل المرأة بتبعاته المؤثرة على راحة الحياة العائلية...

فإن لم تعد المرأة إلى المنزل إلّا وقد أضناها العمل، واستنزف التعب قواها كلها، فكيف تتمكن من تربية أطفالها تربية سليمة وهنا صلب عمل التربية الحديثة وإشكالاتها؛ حيث إنه من الطّبيعي أن ذلك يشكل خطراً جسيماً على تربية الطفل، كما يعرِّضُه إلى الإصابة بكثير من الأمراض النفسيّة، وعدم الاستقامة في سلوكه، حسب ما دلَّل عليه علماء التربية والنّفس...

وهنا سوف أعرض لمثل نيجيري بهذا الصّدد يقول: "يمكننا أن ننال الرّاحة والشّفاء فقط عبر التّكلم وتبادل الآراء، أما العزلة فتزيد من الهم". وتبعاً للتّعقيدات التّربوية في العصر الحديث كان لا بدّ أن ينشط العمل النّفسي التّربوي الاجتماعي، ليكون عمل النّفسانيين والتّربويين والاجتماعيين موازياً لحضور الأبوين في حياة أطفالهم، ففي حال شعر الأبناء بأنهم يحتاجون إلى توجيه ونصائح في مختلف الحالات الحياتية، فيمكنهم طلب المساعدة اليوم من عاملي الإرشاد النّفسي والاجتماعي بصورة ميسرة ومخطط لها لتكون مرممة للفراغ الحاصل من انخراط المرأة الأم في سوق العمل.

وبذلك يصبح واجباً اليوم أن يقوم عاملو النفسي والإرشاد الاجتماعي بمناقشة عن وضع من يطلب الاستشارة، من أجل التّعاون معه والعمل معاً، لتحديد المساعدة التي تحتاجها عائلته من مثل:

- كالدعم المادي أو الرّعاية اليومية للأطفال.
- مساعدة في العناية بالبيت أو نشاطات إجازة الأطفال.
- أو حل المشاكل الزّوجية والأزمات العائلية.
- أو طلب معونة استشارية لمشاكل تربية الأطفال.

أمّا حالات مشاكل العلاقات الثّنائية، والعلاقات الزّوجية فتتم معالجتها حسب طبيعتها، فقد تكون مثلاً من نوع فقدان الاتصال وعدم التّكلم بين الزّوجين أو مشاكل الخيانة الزّوجية، أو الغيرة أو المشاكل النفسية الناجمة عن المشاكل الزوجية، أو مشاكل الإدمان على الكحول أو مشاكل النمو للمراهقين.

ومن الأمور التي أجد من المهم الانتباه إليها في التّخطيط لمستقبل المرأة السّورية في ظل متغيرات العصر الحديث والظّروف المضطربة التي عاشتها الأسرة السّورية في السّنوات الأخيرة من جرّاء أعمال العنف التي استفحلت في البلد، أعرض لما يلي:

كيفية تعزيز السّلامة الأسرية من خلال الاهتمام بالصّحة الإنجابية بمعناها النّفسي والسّلامة العاطفية.. صحيح أنّ موضوع الأمومة موضوع له إشكالاته، وما هو منتظر من هذه الحالة من أنّ المرأة لا تحقّق ذاتها إلّا إذا أصبحت أمّاً على رأي الكثيرين، من الوجهة النفسية قد تكون هذه المقولة صحيحة، لأن الإنجاب ضرورة لتحقيق الذات الأنثوية، ولكن هذا يجب أن لا يغفلنا عن الألوان المختلفة للإحباط، والمآسي التي يسببها الإنجاب للمرأة، هذه المعاناة قد تحصل نتيجة أسباب عدة، منها ما هو بيولوجي، ومنها ما هو نفسي اجتماعي، أما الأسباب البيولوجية للإنجاب فقد تحصل من خلال آلام الولادة، ومصاعب الحمل عند بعضهن، أما الأسباب النّفس اجتماعية مثل الفوضى والضّغوطات الاجتماعية والاقتصادية التي ترافق أحياناً عملية الانتقال من وضعية الأنثى إلى وضعية الأم، فلها معانٍ عميقة عن الجنس الأنثوي في العقود الأخيرة...

فإذا كانت المرأة تحيا بالإنجاب كضرورة لصحتها النفسية، فالرّجل يعطي

للإنجاب من حياته الكثير كضرورة مستقبلية مجتمعية، لاستمرار النسل والاسم والمرجعية... وبذلك الصّحة الإنجابية مطلب أنثوي ملح ومطلب ذكوري غير مباشر، ومن هنا أيضاً لا بدّ من الانتباه إلى الشروط السّليمة للإنجاب الصّحي، وقوننتها حتى لا تورث مشاكل اجتماعية تعم البلاد مستقبلاً.

هذه الشّروط التي كثر الحديث عنها سابقاً، ولكن لم أجد لذلك تطبيقاً ملزماً لأية جهة عُنيت بالمرأة والأسرة.

1- معرفة المرأة، معرفة علمية بالعلاقة الجنسية وبخصائصها عند الرجل، وعند المرأة وفيما بينهما...

2- القدرة الجسدية والنفسية والاجتماعية على تحمل مسؤولياتها، تجاه قرار الإنجاب والقدرة على القيام بمستلزمات هذا القرار.

3- معرفة المرأة بتبدلات الجسد ووظائفه، وكذلك معرفة الرّجل الزّوج الشّريك لتبعات هذا القرار والمسؤولية الكاملة في حال حصول الحمل عند الزّوجة...

4- تنفيذ قرار الإنجاب من خلال إجبار الزّوج (المرأة) على الحمل، له مخاطر عديدة نفسية على الجنين، لأنه سيصبح مستقبلاً ابناً غير مرغوب فيه، ويجعله عرضة لأنواع مختلفة من الهزات والصّدمات.

ومن المشاكل المحتملة عند المرأة، والتي تؤثر على الصّحة الإنجابية أذكر:

- كأن يكون اختيار قرار الإنجاب برغبة أهل الزّوج، وبدون رغبة الزّوجين بذلك، نظراً لعدم جهوزيتهما بعد، لتأسيس أسرة مع أبناء... مما يجعل استهلاك العلاقة الزّوجية بخروجها عن مسارها كعلاقة شراكة لأهداف وطموحات الشّريكين.

- صعوبة الحمل والولادة والمشاكل الصّحية، التي قد تظهر وتغير صورة الجسم لدى المرأة، وآثاره على الرجل وتحميل المرأة مسؤولية ذلك.

- إنجاب أطفال كثيري العدد، يجعل العلاقة الأسرية تستنزف الأم من خلال

تراجع صحتها من مشاكل تكثر في بلادنا، كترقق العظام نتيجة عوز الكلس والإجهاد، وكذلك مشاكل هبوط الرحم، والنزيف المزمن.

إضافة إلى عدم الرعاية المناسبة لكل طفل في الأسرة لافتقار العلاقة الأمومية والأبوية معه...

الآثار النفسية المختلفة من جراء تعرض المرأة للعنف

لما كانت الطاقات النّسائية من أكثر الطاقات تعرضاً للعنف وخضوعاً له، فالعنف الذي تتعرض له المرأة يصيبها بالأعراض التّالية:

1- أمراض نفس جسدية مثل ارتفاع الضّغط، والتّشنجات العصبية، حالات الهستيريا، والانهيار العصبي الناتج عن فقدان الشّهية، الشّراهة في الإقبال على الطّعام لحد غير مقبول إنسانياً...

2- الغيرة والحقد وتصلب الطباع، والبنية الجرمية كسلوك دفاعي عن جروحها النرجسية الكثيرة.

3- العنف قد يؤدي إلى العقم ورفض الإنجاب.

4- العنف قد يسبب إعاقات جسدية ونفسية للجنين.

إنّ التّأكيد التّام والدّائم على الأمور التي أثرتها هنا للنّقاش، لاسيما في الأسرة النواة الحقيقية والرئيسية في المجتمع، وضرورة وجود عيادات متخصصة لمثل هذه المواضيع لاسيما قبل الزواج، ولتكن زيارة تلك العيادات التّأهيلية ضرورية وملزمة، كما الفحص الطّبي قبل الزّواج، وذلك من أجل النّهوض بواقع الأسرة السّورية والزّوجين معاً من أجل حياة زوجية سعيدة وإنجاب آمن وصحي.

وكوني أنطلق دائماً من منهجية التّحليل النّفسي في معالجتي لأي أمر متصل بالنّفس النّسائية، لا بدّ من التّوضيح إلى أنّ خطاب التّحليل النّفسي هو: خطاب الواقع وخطاب الحاجات والرّغبات وخطاب النّطق بالعجز لتتم السّيطرة على هذا العجز من خلال الوعي.

لقد كان لكل من فرويد ولاكان طروحاتهما الخاصة المتصلة بموقع المرأة في الحياة كذات مستقلة في ارتباطها بالرجل. ونجد "جاك لاكان" قلما تطرق في سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية، إلى النقاش حول الأنوثة، ومن خلال عبارات قليلة يتطرق لوظيفة الأم في عُقد الأسرة (Lacan، 1938). وفي سنوات الخمسين يتعرّض للموضوع من خلال مصطلحات صيغت بمفاهيم يستقيها من كلود ليفي شتراوس، ويتم إدراك النساء (إنثروبولوجياً – ملاحظة المترجم) كموضوع مقايضة يتنقل بين مجموعات القرابة كدوالّ (Levi Strauss، 1949b): "المرأة في النظام الواقعي تُستخدم [...] كموضوع للمبادلات المطلوبة للبنى الأساسية للقرابة" (E، 207). يدّعي "لاكان" أنّ هذا الوضع الذي تُدفع فيه المرأة كي تُستخدَم كموضوع للتبادل، هو في الحقيقة مصدر الصعوبة في الموقع الأنثوي: "من وجهة نظرها هناك شيء ما، قاهر، أو لنقل لا يمكن الدفاع عنه، حقيقة أنها توضع في منزلة الموضوع داخل النظام الرمزيّ، الذي تنصاع له كما ينصاع الرجل"(S2:262).

تحليل لاكان لحالة "دورا" يُبرز هذه النقطة: الشيء الذي لا تستطيع دورا أن توافق عليه هو هذه المنزلة التي تضعها كموضوع تبادل بين والدها وبين السيد "ك" (Lacan، 1951a). وضعية المرأة في هذا الموقع كموضوع للتبادل تعني أنّ للمرأة "علاقة من درجة ثانية مع النظام الرمزيّ" (S2:262، يُنظر أيضاً: S4:95-96).

يضيف جاك لاكان في توضيح نظرته للمرأة إلى أنّه: لا يُشير مصطلح امرأة، إلى ماهية بيولوجية ما، وإنّما لموقع في النظام الرمزيّ، والمُساوي في المعنى لـ "الموقع الأنثويّ". ويدّعي لاكان أيضًا أنه "لا وجود لأيّة إمكانية لترميز جنس المرأة بحدّ ذاته" إذ إنه لا وجود لمقابل "للرمز الشائع بكثرة" لدى المرأة والذي يزوّده الفالوس (S3:176). إنعدام الموازاة في الترميز يؤدّي بالمرأة إلى المرور، في عقدة أوديب، عبر الطريق نفسه الذي يمرّ فيه الطفل، أي عبر التماثل مع الأب، ولكن الأمر أكثر تعقيداً لدى المرأة، إذ إنها مجبرة على استخدام تصوير (image) من الجنس الآخر لتكون قاعدة التماثل (S3:176).

يرجع لاكان في هذا السمينار إلى معادلته المثيرة للجدل من السمينار عام 1970-1971: "المرأة غير موجودة" (la femme nexiste pas Lacan 1973a:60)، والتي يعيد صياغتها ها هنا من جديد كـ "لا وجود لـ أل- مرأة" (S20:91،Lacan).

(il n`y pas La femme). وكما هو ظاهر في النص الفرنسي فإنّ لاكان لا يشكّك بوجود اسم العلم "امرأة" وإنّما بإمكانية تعريفها من خلال الـ التعريف. في الفرنسية يشير التعريف إلى التعميم، وهذا بالضبط ما ينقص النساء: "لا يمكن التعميم لدى النساء ولا حتى تحت التعميم الفالوسي"(1975b،Lacan). لهذا فإنّ لاكان يضع خطاً شاطباً على الـ التعريف كلما سبقت مصطلح femme، أي كما يفعل عندما يضعه على الحرف (A) لكي يخلق رمز الـ آخر المتشظّي، إذ إنه كما المرأة، كذلك الـ آخر غير موجود (يُنظر، خط الكسر). ولكي يؤكّد على الأمر فإنّه يتحدّث عن المرأة على أنها "ليست كلها" (pas toute،S20:13)؛ فعلى عكس الرجولة، وهي وظيفة كلية وتتأسّس بالخروج عن القاعدة الفالوسية (الخِصاء)، المرأة هي لا- كُلية (non-universal)، لا تتّسع لأيّ استثناء. تقارن المرأة هنا مع الحقيقة، إذ أنهما يشتركان بمنطق الـ "ليس الكل" (لا وجود لـ "كل النساء"، لا وجود لـ "كل الحقيقة") (1973a:64،Lacan).

يصرّح لاكان في عام 1975 بأنّ "المرأة هي عارض" (Lacan 1974-1975 Seminar 21-01-1975) ولمزيد من الدقّة: المرأة هي عارض لرَجُلٍ، بمعنى أنّها يمكن أن تدخل الاقتصاد النفسي للرجال فقط كموضوع هوام (a) بسبب الرغبة لديهم.

أصبحت ملاحظات لاكان بما يتعلق بالمرأة والجنسانية الأنثوية مثارَ جدل، ومحطّ انقسام في النظرية النسوية. النشيطات النسويات اختلفن حول السؤال، هل يجب إعتبار لاكان حليفاً أم عدواً لأهداف الحركة النسوية؟ يرى قسم منهن أنّ لديه توصيفًا حادّ النظرة للنظام الأبوي البطريركي، وأسلوباً لتحدّي المفاهيم المتحجّرة عن

الهويـة الجنسـانية (مـثلاً Rose ،Mitchell). لكـنّ أخريـات يـريْنَ فـي مفهـوم النظـام الرمزيّ ضمانة لاستمرار البطريركية الأبوية على حالها، كمعطى عابر للتاريخ، كما أنّ الموقع المفضل الذي يمنحه للفالوس ما هو إلا تكرار لكُره النساء (Misogyny)، المزعومـة لـدى فرويد (مـثلاً؛ Grosz،Gallop ;1982،1990). لمزيـد مـن الأمثلـة والنقاش، يُنظر في Adams and Cowie، (1990) وBernnan، (1989) ولتفسير وشرح لاكان عن الجنسانية الأنثوية يُنظر Leader، (1996).

فإن كان هو الرأي العلمي لموقع المؤنث "المرأة" من منظور التحليل النفسـي، بهذا القدر من الإشكال والتداخل والاندماج مع مواضيع عدة ولاسيما الجنس الآخر المذكر، يمكن الاستنتاج أنّ الفصل للمرأة قضية منفصلة عن الرجل أو عن مشاكل الحياة الإنسانية عامـة مـا هـو إلّا تجزيء للنظـر للمسـائل المركزيـة برؤيـة مبتسرة تسطيحية لا تعطي الفهم الكامل للواقع بل تصور نماذج سالبة مرات، ومرات نماذج ناصعة القوة، مثلما هو واقع الحال في الحديث عن الرجولة ومشاكل الرجال...

كم نسمع عبارات مختلفة من مثل:

وراء كل امرأة حزينة: رجل.

وراء كل امرأة محبطة: رجل.

وراء كل امرأة مترملة: رجل.

وراء كل امرأة معلقة: رجل.

وراء كل امرأة مطلقة: رجل.

وراء كل امرأة مكسورة: رجل.

وراء كل امرأة مجنونة: رجل.

وراء كل امرأة تعاني من الاهتمام الهوسي بعمليات التّجميل: رجل.

وراء كل امرأة غير قادرة على استخراج بطاقة أحوال شخصية: رجل.

وراء كل امرأة ممنوعة من العمل: رجل.

وراء كل امرأة يائسة: رجل.

وراء كل مَن ينكر هذا الكلام: رجل.

ومع هذا، وراء كل رجل عظيم امرأة!

كيف تتحقق هذه المعادلة؟

وبكل تأكيد إنّ العبارات التي استعرضتها سابقاً، لا تعبر عن قناعتي بها، بل آثرتُ عرضها لأنّني سمعتها وقرأتها مرات لعلنا نتفكر في ثقافتنا الشفاهية المكرّسة والمعيقة للتغيير والتجديد في السلوك ليأتي متناسباً مع روح العصر...

لأجل كلّ ذلك أحببت وضع هذه النقاط أمام ناظرينا هنا لنتأملها، وحتى لا نحيّد أنفسنا ونقبل بتعذيب النفس كوننا مظلومين لنصل مرات إلى الاستمتاع بتعذيب النّفس لأن المرأة مضطهدة. هناك علاقة جدلية بين الجنسين، وظلم الرجل للمرأة لا شك ناشئ من حالة انسحاب لدور المرأة الاجتماعي الذي تكرَّس على مر السنين، ولموقع الرجل في المجتمعات المتأخرة التي تجعله ليس بأحسن حال من المرأة...

حيث إنّ تبعية المرأة للرجل في مجتمعاتنا العربية والمسلمة، بحكم وضع المرأة في المجتمع كتابع أزلي للرّجل حسب التشريع، وحسب الأعراف الاجتماعية، وأيضاً بحكم أنها ليست وليّة نفسها، وإنّما هي دائماً بحاجة لولاية ووصاية الرّجل عليها، مهما بلغت شأناً رفيعاً في المجتمع.

ما هو إلّا انعكاس لرؤية المشهد الاجتماعي بنظرة قاصرة على المعطى الجنسي، وليس على معطى الحضور الحضاري والثقافي للدور المنوط بالمرأة، إنّ للمرأة أدواراً من الحضور الناجح المستقل مشابهة للرجل في حالات كثيرة، ولكنّها لا يمكن أن تصل لدور الرّجل الواقف وراء الكثير من آهات المرأة كأم وأخت وزوجة وابنة وحبيبة وصديقة.

فعيش الدّيمقراطية في حياة الأشخاص، هو عيش الكرامة... الكرامة تعني: أن رأي الشّخص له قيمة، ومن لرأيه قيمة هو شخص محقق لذاته، وليس تابعاً، الديمقراطية تعني المواطنة، وبعد هذه المعاني وفرز الحقوق، تعيش المرأة كما الرجل، تقدير الذات...

الثورة لنيل مزايا سياسية، لا بدّ أن ترافقها ثورة تربويّة واجتماعيّة، كي تؤتي ثمارها، أن يسير هذان المحورين بشكل متوازٍ جنباً إلى جنب، لأن عيش الحريّات لابدّ أن يربى عليه ويؤسس بثقة من سنوات التّنشئة الأولى، لأجل ذلك لا بدّ من السّعي الحثيث لتأخذ المرأة دورها الاجتماعي المؤسس لكثير من المسارات المؤثرة في تطوير المجتمع.

فمازال مفهوم العذرية بمعناه النّفسي يعاش لدى فتياتنا، وكأنّه علامة الأب على جسد ابنته، وكذلك اسم الأب المحافظ عليه من قبل الأم والمدموغ بجسد البنت... وكأن جسد المرأة مكون من أجزاء ثقيلة مثبتة، لا تحتمل فقدانها لغشاء البكارة الذي هو مسؤول عن هذا الوضع... بحيث إن فقدان العذريّة عند المرأة يمثل لديها ضياع جوهرة ثمينة منها، وبدون هذه الجوهرة يصبح الجسد مادياً لا قيمة له، وغير طاهر وأي عملية تطهير تغدو مستحيلة، ويتحول الشعور بالذّنب عندها في حال فقدت عذريتها قبل الزواج، أو تعرضت لتحرش جنسي لم تخبر به أحد، فيتحول هذا الحدث الثقيل إلى مرض نفسي يلازمها، هذا ما نجده في العيادة النفسية بما يسمى الوساوس القهري المتصل بالنّظافة وحتى الوساوس المتصلة بهواجس فكرية حول الجنس وتبقى تعاني منه حتى تستطيع معالجته من خلال البوح، ووعي الحدث لتستطيع تخطيه، وينتظم في ذاكرتها بسياق زمني، وليس فقط مخبّأ ويثير خوفها أن تكشف تخبئتها لهذا الحدث...

إن هذا المرض منتشر كثيراً في بلادنا لدى النّساء ولدى الرجال أيضاً، ولكن تبقى نسبة النّساء أكثر بكثير كدلالة إحصائية على هذه الظّاهرة الاجتماعيّة المرضيّة.

كما أن الإنسان بطبعه يأنف التّكلم عن موضوع الجنس، فهو من المحرمات التي لا يلمح إليها إلّا من بعيد.. وتقابل إذا تم الحديث عنها بالقمع، اعتباراً أنّ الأخلاق المتعارف تنقضها... إن الفعل الجنسي بكل انحرافاته وشذوذاته شيء متعارف عليه منذ أقدم العصور. ولكن التكلم عنه بالذات هو فضيحة بحد ذاتها،

حتى مع المرضى، مرات نجد هذا الحرج والممانعة، الاسترسال في سرد الأفكار بعد التغلب على مثل هذه المقاومة يؤدي إلى انحلال هذا العارض وزواله فيما بعد... هذا ما تؤكده المتابعة العيادية...

فعندما يرتفع الضّغط الجنسي في الجسد إلى درجة ما، يخلق في النّفس رغبة جنسية... سماها "فرويد" مؤسس علم النّفس التّحليلي (الليبيدو).

فالحالات الجسدية الملازمة لهبات الخوف مثال اللهثة وخفقات القلب والعرق المتصبب والاحتقان، شبيه بما يحصل في حال العلاقة الجنسية (الجماع)، وهذه النّواة الجنسية هي مؤدى أو فكرة عن الكبت المسبب للضّغط النّفسي والتّوتر الانفعالي، الذي يقابل بعمل نفسي دفاعي يؤدي إلى كبت الرّغبة في حال كان، الإنسان بطبعه يأنف التّكلم عن موضوع الجنس، فهو من المحرمات التي لا يلمح إليها إلّا من بعيد... وتقابل بالقمع، إذا تم الحديث عنها، واعتبار الأخلاق المتعارف عليها بين مجموعة بشرية وأخرى بمنزلة...

إن الفعل الجنسي بكل انحرافاته وشذوذاته شيء متعارف عليه منذ أقدم العصور. "الاستثارة الجنسية" في جو غير آمن وجو قهري، وتؤدي إلى عيش الرّغبة في حال توافر الأمان واحترام الشّريكين للقاء الجسدي والنّفسي لكليهما هذه هي ثقافة التّجانس والتّزاوج التي يلزمنا العناية بها والتّرويج لعيشها بتراثنا الأخلاقي العريق...

يقول نزار قباني الشّاعر السّوري الدّمشقي الشّهير رحمه الله: "كلمة واحدة تجرحك... لا تمحوها ملايين الكلمات الجميلة"...

فما بالنا بالفعل المشين؟

إن صعوبة تأقلم الرّجل الشّرقي مع تطور العصر، والتّنازل عن حقوقه للمرأة، منشأ ذلك يأتي من خلال نظرة الرجل للمرأة، ومن مفهومه للذّكورة التي تتميز بنرجسية القضيب، فالمرأة بالنسبة إليه غرض يقتنيه، وليست ذاتاً يتعامل معه بالتّساوي، نجد الرّجل يدفع الزّوجة إلى مستوى القدسية (المرأة – الأم) فالأم ليست

مزاحمة ومنافسة للزّوجة فقط، إنّما تعلو بدرجات رغم علّو محبته لزوجته، وهناك الكثير من الحالات العيادية، ناجمة عن المنافسة الخاسرة نتيجة صراع ما بين الزّوجة والحماة، الرّجل يمارس سلطته على زوجته يفرض عليها الخضوع ولو كانت في بعض الأحيان بغير حق، فتنتقل من الوصاية الأبوية إلى الوصاية الزّوجية، لكي تديرها وتحدد مسلكها، فلذلك نجدها عرضة لكبت كلّ نزواتها خوفاً من أن تُلحق الإساءة بزوجها أو بأسرتها.

إن علاقة الرّجل مع المرأة، نراها تحافظ على موروثها التّقليدي، وتحول دون إعطائها الحريّة، بكاملها، لأن ثقافة التّعايش بين الجنسين، والتربية لتجريد العلاقة بين الطّرفين من الجنس، لم تطل بعد البنية النّفسية للرّجل الشّرقي، من هنا تبرز المشكلة المركزية، وبوادر التّخلص منها. من جراء توسيع المفاهيم التي تحكم بين المرأة والرجل بأنّه يجب التّركيز على تنمية قواسم مشتركة، توسيع المفاهيم التي تحكم بين المرأة والرجل، كالتّركيز على تنمية قواسم مشتركة متعددة، وليس الاكتفاء بالبعد الخاص بالذكورة والأنوثة، فقط بعد العلاقة الجنسية التي هي المطلب الكبير التي تحكم واقع العمل مع المرأة في بلادنا، والنّظرة العامة لتحررها.

إنّ كل النّظريات التي بنيت على أساس دونية المرأة، مستقاة من معتقد متخيل عبر التاريخ من أنّها كائن ينقصه عضو، فالعنصرية التي يعاني منها المجتمع الإنساني بدأت أولاً، وفتحت الطريق فيما هي ناجمة عن التمييز العنصري الذي طال الإنسان منذ أن اكتشف الفارق الجنسي بين الرجل والأنثى، فهذا الفارق تعمم على كل ما هو مغاير، لينتقل من الجسد في تكوينه الداخلي إلى لون الجلد الخارجي، إلى الفكر على صعيد اختلاف المعتقد، ثم إلى الاختلاف الإيديولوجي.

كما أن أسوأ أنواع القهر، هو القهر المتمثل في إخماد الكلمات في الصّدور، مما يولّد كبت لذة الكلمة، وسحرها بأن نؤثر بها بمن حولنا، ونقطف ثمارها... الباحثة النفسية "نوال السّعدواي" والنّاشطة السياسية المصرية البارزة منذ سنين، تقول السّعداوي: "قهر المرأة في بيتها، هو العائق الأساسي أمام مشاركتها في الحياة

السياسية"... هذا القهر في بيت الزوجية، وحتى في بيت الأب، يتجلى بعدم مشاركة المرأة في القرارات المتصلة بها، بدءاً من إكمال الدراسة أو اختيار الزوج وتربية الأولاد وتغيير السكن، هذه الحالة تُعاش عند نسبة ليست بالقليلة في بلادنا، وهذه الأساليب في إقصاء المرأة تكرّس تبعيتها، بحيث يصبح حالها كمن (لا حسّ لها ولا خبر) وتبعاً لالتزامها بذلك تصنف بالتهذيب، والطّاعة والرّضا، حيث فعاليتها يجب أن تنحصر، بما يروق للرجل.

إنّ العلاقة الهامشية بين الرجل والمرأة داخل البيت تجعل للمرأة وضعاً خاصاً مهمشاً؛ لأنها تفقد صفتها الإنسانية. من خلال السّلبية وغياب المبادرة والعزلة التي يتم تحميل مسؤوليتها، للتّركيب العضوي للمرأة كونه أضعف في بنيته مما لدى الرجل، ولكن واقع الحال أن هذا التّمييز لصالح الرجل وعلى حساب الأنثى، ما هو إلّا التعبير عن وضع اجتماعي وثقافي معين مبني على مفاهيم خاطئة للتّنظيم الجنسي القضيبي، المسجل في اللاوعي لأجيال سابقة يراكم مكبوتات عديدة حول دونية المرأة، أما آن الأوان لهذه الأفكار المكبوتة أن تأخذ طريقها إلى النور، وتفسح عن فراغات للعقل والوجدان أن ينضجا عند كلا الجنسين، وإن كان الرجل متنفذاً بسلطته القمعية على المرأة في عموم بلادنا، إلّا أنّه لمنَ المؤكد أنّ الحياة مع شخص مقهور لن تكون رحبة ومفعمة بالمعنويات والتّعاضد لإنجاح المشاريع المشتركة بين الجنسين وأهمها التنشئة الاجتماعية للأبناء مواطني المستقبل لأي بلد...

لذا البدء والمنتهى لا بدّ أن يكون من هنا، حسب رأي الشّيخ الأكبر "محي الدين ابن عربي": المرأة أصل الكون.

أما مهمة التّحليل النّفسي فيأتي بتحقيق تباعد مع الأصل بتجريد الذّاكرة من مخزون الطّفولة المكبوت، بهدف التّكيف مع معطيات العصر الجديد بآليات فكرية متماسكة منطقية، لا أن يعيش المرء أحداث العالم المعاصر بأفكار قديمة واهمة يعوزها البناء العلمي، حيث لا يمكن لأية قوة أن تعيد الزمن إلى الوراء، فالرغبة بالحرية بكافة أنواعها والرّغبة بالعيش بألق جديد للحياة، هما ما سيرسم ويبني

الهوية الجنسية السّوية... حيث إن للكلام أهمية في تحديد الفارق الجنسي، فالمرأة والرجل، لكل منهما رد فعل مختلف تجاه الكلام...

يأتي سحر الكلمة من الصّوت الذي يشكلها والمعنى الذي ينسب إليها، فهما يؤثران معاً في الانفعالات التي تستقبلها، الكلمة أقوى من حدّ السيف... ولما كانت الحركات هي كلمات الجسد، فالكلمات هي حركات الشعور، حتماً تغيير المفاهيم له نتائجه على السلوكيات المتصلة بهذه المفاهيم... فكل سلوك مدفوع بدافع ودوافعنا ليست فقط غريزية، بل حتى الحضارة تحدّ من الغريزة وتهذبها...

وسحر الكلمة وموسيقا الصوت عاملان مشتركان بين المرأة والرجل... وبالتالي لهما ذات الصدى بين كليهما، لكن الفارق بينهما أن الرجل يعلن موقفاً كي يداري ضعفه أمام سحر الجمال؛ فيما المرأة تداريه وتخشى من البوح به، لتكن الإشكالية موجودة لدى الطرفين إنّما ردات الفعل مختلفة...

إنّ اتخاذ القرارات السّليمة والفاعلة، والتي يرتجى منها أن تكون مساهمة في تنفيذ قرارات التّغيير المتصلة بواقع المرأة المجحف والمسيء لإنسانيتها، وبالتّالي لأسرتها وبالأخص أبنائها، لذلك ينتظر من العمل السياسي في بلادنا بما يتصل بقضايا المرأة، أن تكون حركةً وكلمةً وصوتاً وانفعالاً وتفكيراً حراً ومباشراً والبنية الذهنية الراهنة هي نقيض ذلك تماماً كما نعلم جميعاً.

إنّ العمل السياسي يتطلّب قناعة ونقداً حراً وذاتياً وإرجاع أثر للآخر مما يعني نقداً له، الفترة الراهنة هي فترة تاريخية في صنع الحدث السياسي بموجب ذهنية فاعلة وايجابية، وبمنطق تشاركي للبناء لكلا الجنسين، حيث لا يمكن للعمل السياسي أن يقوم بالمرتجى منه لبناء أمه منهارة في كل مفاصل الحياة، أن تأخذ بتماسكها إلّا بمشاركة للمرأة النفسيّة للاحتواء والعطاء والتّسامح من حيث مقدرتها على درء العنف الذي تراكم والذي لا بدّ أن يؤدي إلى إعاقة الإنتاج، واستنزاف طاقات المجتمع بصورة كبيرة لسنيين طويلة، إن لم تأخذ المرأة مكانها الصّحيح في قلب المعادلة السياسية، لتكون جنباً إلى جنب مع الرجل وفق قواعد اللعبة

الدّيمقراطية المؤثرة في تحرير الطاقات والانفتاح على الآخر مع ثقافة تحمل مسؤولية الاختيار.

ما يلزم تفعيله في الحياة السياسية لسورية الجديدة من وجهة نظر خاصة بما يتصل بالمرأة، وانطلاقاً من منظور نفسي اجتماعي لبنية المرأة النفسية والمعرفة بالظروف التي شكلت بنيتها هذه:

إقامة ورشة عمل شاملة في مجال تغيير التّصورات الذّهنية والقيمية في اتجاه العدالة الاجتماعية، وفي التّخطيط والتّغيير والتّحفيز، وذلك من خلال الاستناد على القدرات والمهارات بشكل دائم التّغيير بما ينسجم مع قواعد الطّبيعة الثانية، من خصوصية تكوين المرأة والرجل البنيوية البيولوجية، والنّفس اجتماعية في إطار التكامل والتنوع، من حيث إن المطلوب اليوم، هو تحقق الأمن العسكري في بلادنا وجنباً إلى جنب مع تحقق الأمن الاجتماعي والأمن الاقتصادي.

والأمن النّفساني بطبيعة الحال حاضر في كل مفاصل أبعاد الأمن تلك من كونها تدخل في نطاق الأمن العام للبلد الذي حلمنا بأن نجده رحباً يتسع للجميع، وتتحقق العدالة الاجتماعية لكل أفراده بغض النظر عن جنسهم أو عرقهم أو حتى انتمائهم السياسي ليجتمع الكل على محبة البلد وبنائه ، فلأجل ذلك قُدمت التّضحيات.

وهنا يلزم الإشارة إلى أنّ يسير تلازم العمل على تطوير العلاقة بين الشخصية المرضية والسّلوك الاجرامي، حيث إن الشخصية المرضية المقهورة تنتج بعد فترة سلوكاً غير سوي يهدئ الأمن الفردي والأمن الجماعي، وبذلك لا بدّ من التّصدي لذلك بهدف علاجه إن وجد، أو الوقاية منه قبل حدوثه، وذلك عن طريق برامج إعادة التأهيل، وأجد مسؤوليتي تجاه قضايا بلدي كنفسانية مهتمة بالشّأن العام أن ألفت النّظر والعناية إلى ضرورة العمل على فلسفة جديدة في الرّعاية الاجتماعية، لتبديد السّلوك العنيف والعنف الرمزي من خلال فك رموزه ومعانيه، من خلال التّفاعل التام بين كل الفرقاء المؤثرين على الواقع الاجتماعي، للعمل

ضمن دينامية الجماعة للإسهام في تثبيت مفاهيم الأمان والانتماء المُركز، والدّور الأساس لتوكيد الذات والتّفاعل والعلاقات التّبادلية السّليمة بين كلا الجنسين في فترة إعادة التأهيل لبنى مجتمعنا التي أصابها العطب..

حيث إن لعبة الضّعف، والقوة باتت فلسفة اجتماعية اليوم وهي تكريس للضحايا وإبراز الضّعف في القوة أو قوة الضعف في مقابل قانون السلطة، وسلطة القانون الجائر الممارس على كلا الجنسين من جراء الاعتقالات، والإقصاءات لدورهما الاجتماعي في الحياة العامة، كل وفق مواهبه وطاقاته...

إن قوة الضّعيف غالباً ما تكون أقوى من سلطة القوي، وهنا تكمن إرادة التّغيير وإرادة التّطوير، التي تسهم بصورة كبيرة بتغيير البنى الذّهنية في حال وجودها وعيشها. ولكي تؤتي الجهود ثمارها نحو المسار الدّيمقراطي فإن ما يلزم في بلادنا اليوم، هو العمل النّفسي الاجتماعي بأطر سياسية واضحة، بحيث ينطلق بدفع تحقيق هذه الأهداف...

الفصل الثاني عشر

الذّكاء العاطفي

والتربية على الدّيمقراطية

تمهيد

وجدت ضرورة في الكتابة عن نوع مختلف من الذّكاء، والقدرات العقلية المختلفة المتداولة مؤخراً بكثرة، وذلك وفق جديّة اتبعتها أغلب المجتمعات. حيث إنّ برامج التّنمية البشرية، والتّدرب على تطوير الذات من خلال إدارة الوقت، وتنشيط القدرات والمهارات المختلفة تُسهم في تحسين التّكيف مع متغيرات العصر الجديدة. لذلك فإنّ اهتمامنا بموضوع الذّكاء العاطفي في عالمنا العربي، أجده من مقتضيات التّغيير التّربوي المهم للسّنوات القادمة...

المقصود بالذّكاء العاطفي

تبعاً لبارون (2000م) عالم النّفس الأمريكي، هو مجموع القدرات المتعددة المرتبطة بالمكونات الانفعالية والشخصية والاجتماعية، بحيث تتكامل محاور الذات، في بناء العلاقات مع الآخرين، والتّكيف مع المتغيرات البيئية المحيطة بنا، لتتّسع إلى مفهوم الصّحة العاطفية المتمثلة في إدارة العواطف.

إن تعريف "بارون" هذا يستند إلى الأبحاث المبكرة لعالم البيولوجيا الشهير "داروين" حول التعبير الانفعالي، لبقاء الكائن الحي وتكيفه مع البيئة، كما تأثر "بارون" بأفكار "ثورندايك"، حول الذّكاء الاجتماعي، وأهميته في أداء الفرد، وكذلك أبحاث "فكسلر" (1940م) حول القدرات اللامعرفية للذّكاء، والمقصود بها العواطف

الشخصية والاجتماعية، التي تعتبر مستوى هذه القدرات اللامعرفيّة، عاملاً أساسياً في التنبؤ بقدرة الفرد على تحمل المسؤوليات، ومن الجدير ذكره، إن تعليم الطّفل للدروس العاطفية، يتم في وقت سابق على تعليم دروس اللغة، بسبب سرعة نمو وتطور الجزء من الدماغ الخاص بالحوار اللاكلامي، والذي يتعلق بحركات الوجه، وطبيعة الأصوات، ونبرتها وبالتّالي فتأثير الآباء في عواطف أطفالهم، له الأثر الكبير والعميق في شخصياتهم، وردود أفعالهم مستقبلاً...

والإنسان بطبيعته يبحث دوماً عن التجارب العاطفية بشتى الطرق والوسائل، لذلك يتعرض وبشكل يومي لاحتمال إصابته بالصدمات العاطفية، حتى من الأمور البسيطة، ولولا المعرفة والذكاء العاطفي سنصبح أكثر جموداً، ولا نعد نشعر بعواطفنا أو لا نستطيع التحكم فيها؛ مما يسبب لنا الألم والانزعاج، والطفولة يمكن أن تكون ممتلئة بالصدمات العاطفية وسوء المعاملة، فلا يعطى الطفل الحنان والرعاية التي يحتاجها إلّا عندما يتصرف كما يريد الكبار. رغم أنّ المعالم الأساسية لشخصية الإنسان تأخذ شكلها مع بلوغه سن السادسة من العمر، ولكن يمكن للتّجارب والجهد الفردي أن يشذب ويغيّر من بعض هذه المعالم الشخصية، وخاصة في المراهقة، أما عند بلوغ الإنسان سن النّضج فتغدو صفاته الشخصية ثابتة تقريباً ويكون سلوكه عموماً متوازناً، وهذه هي أهم مظاهر الصّحة العاطفية، التي تعدّ مطلباً موضوعياً وهدفاً لا بدّ من السّعي لعيشه إذا أردنا أن ننجح ونستمتع في حياتنا اليومية عبر مسيرة الحياة العصريّة اليوم.

يشمل الذّكاء العاطفي الـ EQ جوانب متعددة منها:

1- الثقة في النّفس، والوعي الذاتي بالمشاعر وإدراك شعور الآخرين وتقدير ردود الأفعال وحسبان العواقب.

2- التّحكم في المزاج وإدارته بشكل سليم، وتحقيق التّوازن بين رغبات الشخص، ورغبات الآخرين.

3- الدافعية الذاتية والقدرة على تحديد الأهداف، واتخاذ القرارات، والتّوجه نحو تحقيقها برغم الصّعوبات، أو القصور في الإمكانيات الأخرى.

4- المشاركة الوجدانية مع الآخرين فمثلاً يتفهم، يتعاطف، يتقبل، يتنازل، يكون مرناً مع الآخرين في تقبل أفكارهم، وتشكيل أفكار مشتركه مع الآخر، أي أنّه لا يفرض الرأي بفظاظة أو تسلط.

5- حسن إدارة العلاقة مع الآخرين أي مع الأصدقاء، ومع الزوج أو الزوجة، الأبناء، الوالدين، ومع زملاء العمل، ومع الرؤساء والمرؤوسين...إلخ.

6- جودة التواصل مع الآخرين، التواصل اللفظي وغير لفظي.

إنّ الأهمية المنتظرة للذّكاء العاطفي Emotional Intelligence في الوقت الذي يركز فيه الآباء والتّربويون، وحتى الأطباء على ذكاء القدرات العقلية للأطفال Intelligence Quotient، هناك في المقابل جهل أو تجاهل منا نحن المختصين بدور وأهمية الذكاء العاطفي للأطفال.

لن أتحدّث هنا عن الـ Intelligence Quotient فأنا "متحاملة عليه" بصيغته وطريقته التي قُدمت لنا في العالم العربي... لكني سأوجز الأهمية التي يتوارى خلفها الذّكاء العاطفي.

هناك مقولة في الغرب تقول:

"A lack of emotional intelligence is basically a lack of emotional maturity"

وتعني أن القصور في الذّكاء العاطفي هو أصلاً طريق إلى قصور في النضج مستقبلاً!

وظائف العواطف

للعواطف وظائف مختلفة من خلال ما تقوم به من مثل:

- ترتب المنظومة الفكرية للشّخص، وتوجهه للمعلومات الأكثر أهمية.

– العواطف الفعالة، تؤثر في عمل الذّاكرة، من حيث ما يسمى بالذّاكرة الاصطفائية.

– الحالة العاطفية التي يعيشها الشّخص، تؤثر على تقبله لوجهات النّظر المختلفة، الصّادرة من الأشخاص المحيطين به، والذين يتفاعل معهم حسب المواقف المُعاشة، وكذلك من خلال التّوجهات العاطفية التي يبدونها له.

فالمواقف المريحة تشجع على ابتداع الحلول الجديدة في الحياة اليومية، والعواطف في حياتنا اليومية كشرقيين تعدّ المحرّك الأهم لاستمرار وجود الأشخاص، في حياة بعضهم البعض، كون العلاقات الاجتماعية تشكل محكاً أساسياً في معاشنا وقيمنا العامة، لأجل ذلك من المفيد الوقوف عند العواطف المتداخلة، والمعقدة عند الأشخاص، كما هو الحال في اقتران مشاعر الحب بالكره، واقتران انفعال الخوف بعنصر المفاجأة، لأن المقدرة على ملاحظة تبدل العواطف، من حال إلى حال، والتّمكن من ضبطها حسب ما تقتضيه المواقف، كمؤشر مهم من مؤشرات السّلامة العاطفية والنّضج العاطفي.

وما يعيق تحقّق السلامة العاطفية، الأخطاء العاطفية التي تنشأ في التعاملات اليومية: حيث إنّها تسبب مضاراً كبيراً في حياة الشخص، وتنم حتماً عن ضعف في الذكاء العاطفي، مما يتسبب بخسارة اجتماعية تتعدى الفرد. من ليس لديه ذكاء عاطفي يتربع على عرش هرم سلطوي.

وتبعاً لذلك فإن الذّكاء العاطفي سمة مهمة من سمات الشخصية المناسبة لترشحها لتحمل مسؤوليات متصلة بالشأن العام...

فالذّكاء العاطفي يعدّ مفتاحنا للتّنبؤ بقدرات الطّفل الاجتماعية، الشخصية، المهنية، الحياتية وكل المهارات الأخرى ما عدا المهارات الأكاديمية.

إنّ رؤساء الدول، مدراء و رؤساء المؤسسات الكبرى والبنوك، والقادة والقياديين لا يشترط أن يكون ذكاؤهم الـ IQ عالياً! بل قد يكون غالباً ضمن المعدل الطّبيعي، ولكن بشرط أن يكون الذّكاء العاطفي لديهم عالياً مقارنة بأقرانهم.

ومـن الدّراسـات العالميـة فـي هـذا الشـأن، دراسـة وولـف ودراسـكت (druskat،wolf) عام 2001م، والبرامج التي تبنتها الدّراسة، بهدف تنمية المهارات العاطفية المختلفة، والتي تدل على أهمية امتلاك إنسان العصر الحديث لمهارات الذّكاء العاطفي في تسيير شؤون حياته اليوميّة، لأن امتلاك الأفراد لهذه المهارات، تمكنهم من امتلاك أدوات النّجاح المهني والاجتماعي والأكاديمي، وبالتالي تكون الثّقافة حول حياتنا العاطفية عوناً على التّكيف مع الذات، ومن ثم مع الآخرين من حولنا، وتجعلنا أكثر استمتاعاً وتمتعاً بحظ أوفر بمقومات الصّحة النفسية... ومن الجدير ذكره أنّ عواطف الإنسان تزداد، أو تنضب تبعاً لأمور عدّة منها تجربته الشخصية فمن خلال تنوع خبراته ومحطاته الاجتماعية منها والعملية، تعمل العواطف على تعديل السّلوك، وتوجيه الدوافع الفطرية والمكتسبة، بما يتفق مع قيم المجتمع الذي يعيش به الشخص، كما أنّ العواطف تُكسب الإنسان القدرة على الانتظام والثّبات في سلوكه العام، مما يسهم في التنبؤ بمواقفه تجاه الأمور المهمة التي تواجهه في حياته، سواءً كانت نحو عائلته أو أصدقائه، وحتى مهنته وانتمائه الإنساني العام، وبتآزر كبير حتى يتحقق تكيفه الانفعالي للمستوى المطلوب لأداء ما هو منتظر منه...

الأبعاد التي تتصل بالذّكاء

هذه الأبعاد تعدّ محكات لقياس، وتحديد سوية الذكاء العاطفي ونسبها

1- البعد الذاتي: هو المحك الأهم عند تحديد معيار الذّكاء العاطفي من حيث:

أ. مستوى المعرفة بهذه الذات، وذلك من خلال حصر نقاط القوة والضعف لدى الشّخص.

ب. التنبيه المباشر، لما يدور في النفس الخافية عن الآخرين، والمكشوفة على داخل الشخص.

ج. إدراك مدى قوة عواطف الشّخص تجاه أمر مادي أو معنوي.

د. هذه المعرفة لذواتنا، كلما كانت واقعية متفائلة وغير متشائمة، كلما كانت بناءة.

2- احترام الذات من خلال:

أ. الشعور بقيمة ذاتنا، بالقدر الذي نحقق فيه النجاح فيما نعمله ونعيشه.

ب. الشعور بالانتماء للجماعة، والابتعاد عن شعور الوحدة.

ج. امتلاكنا لهدف واضح نعيش لأجله.

د. الشعور بالأمان الجسدي، وكذلك العاطفي، وعدم الشعور بالتّخلي العاطفي، وعدم التّقبل لمن نعيش معهم.

3- التعامل مع العواطف من خلال:

أ. فهم ما وراء المشاعر، التي نعيشها بالسّلب أو الإيجاب.

ب. إعطاء دائرة الأهمية المناسبة لهذه المشاعر، وذلك من خلال قدرتنا على السّيطرة على أنفسنا، إزاء التّقلبات التي نعيشها مع من حولنا.

ج. مدى القدرة على الاسترخاء، والبعد عن التّوتر والانقباض، من خلال تفاعلنا مع مثيرات الحياة اليومية والضّغوط المعاشة.

د. مدى القدرة على التّخفيف من حالة التوتر، هو مقياس الذّكاء العاطفي بلا شك.

ه. القدرة على التّأقلم مع تأخر المكافآت المستحقة لنا، له علاقة بذكائنا العاطفي وتفهم الآخرين.

4- كيفية تحفيز الذات:

أ. بث التّفاؤل والأمل الدّائم في النّفس، وذلك من خلال المثابرة على متابعة هدف ما، بدأنا العمل عليه، فقدرتنا على التّركيز والانتباه، مؤشر أيضاً على ذكائنا العاطفي.

ب. التّعاطي المرن مع المستجدات والظروف القائمة.

جـ. القدرة على التّفاعل المرح مع من حولنا، بحيث يجعل السّرور يدخل بصورة دائمة إلينا، ولمن حولنا.

البعد الثاني المتعلق بالآخرين:

1- يكون من خلال التّعاطف الجاد مع الآخرين وذلك عبر ما يلي:

أ. شعور الغيرية الذي يبث للآخر، ويعطيه شعور بالطّمأنينة.

ب. التعبيرات الكلامية وغير الكلامية، أثناء تواصلنا مع الآخرين لبناء علاقة ناجحة، هو مؤشر مهم جداً على الذّكاء العاطفي.

ج. إدراكنا لحاجات الآخرين وتقديرنا لها.

د. طبيعة الصّلة التي نجدها بالآخر عند تفاعلنا معه، من حيث القرب، البعد، الحيادية وكلها مؤشرات مهمة، للضبط المتوازن للنمو الاجتماعي.

2- مستوى العلاقة مع الآخرين، وتفعيلها من خلال:

أ. المقدرة على الإصغاء لهم.

ب. المقدرة على طرح الأسئلة.

جـ. المقدرة على التواصل المرح والضحك، مع الآخرين من حولنا. المقدرة على التعبير باحترام تجاه من تربطهم بنا صلة ما.

د. المقدرة على التّسامح وتحمل الأذى.

هـ. المقدرة على التّعاون المثمر مع الآخرين.

و. المقدرة على تقبّل النقد خلال العمل في جماعة.

ز. المقدرة على مراجعة الخطأ أمام الفريق.

ح. المقدرة على المطالبة بالحقوق، وعدم المساومة عليها.

ط. المقدرة على قراءة المواقف الاجتماعية، بدقة وعدم الخلط في تفسيرها.

وأختم حديثي هذا بالتأكيد على ما أشار إليه عالم النفس الشّهير "أريكسون Arecson" الذي أكد في أبحاثه على أهمية الانفعالات في العمليات النفسية، وأبدى اهتماماً خاصاً بدور الانفعالات في نظرية حول النّمو الاجتماعي، كما أكّد على أن

المهارات الاجتماعية المعرفية، تقوم بدور رئيسي في السّيطرة على المهارات التكنولوجية في المجتمع الذي يعيش فيه الفرد. كما أنّ الانفعالات (emotion) أيضاً، هي التي تشكل الإحساس بالهوية، وفي التّوجه إلى الأدوار الاجتماعية والمهن المقبولة له مستقبلاً. وفي المقابل فإن الأشخاص الذين لا يُعار الاهتمام لنموهم الاجتماعي والانفعالي، يحصل لديهم اضطرابات متعددة في الشخصية الاجتماعية، مثال ذلك: اضطراب الشخصية اللااجتماعية.

هذا الاضطراب يتميز بعدم الاهتمام بالالتزامات الاجتماعية، وافتقاد الشعور مع الآخرين ويلاحظ عليه عنف غير مبرر أو لامبالاة واستهتار، كذلك تظهر لديه هوة كبيرة بين سلوكه والقيم الاجتماعية المتعارف عليها، كما لا يمكن تغيير سلوكه عن طريق العقاب، لأنّ الشّخص الذي يعاني من هذه الاضطرابات، يظهر عليه ضعف في القدرة على تحمل الإحباط وسهولة شديدة في تفريغ العدوان، ونجد الشخص الذي يعاني من اضطراب الشخصية الاجتماعية، أنه دائماً يقدم مبررات مقبولة ظاهرياً لسلوكه، مما يضعه في صراعٍ دائمٍ مع المحيط من حوله.

مثل هذه المشاكل في الشخصية تعدّ الأشد حين يكون التعامل مع المشكلات النفسية، ولكن كلما كان الشّخص صغير السّن كان تحسنه أفضل، إذا ما تم التّدخل معه ضمن محيط متفهم لخصوصية هذا الشّخص.

وكذلك تم العمل معه على الضّوابط الذاتية للشّخصية لإعادة الثقة والأمان المفقود لديه.

الشخصية النرجسية كعائق للعيش الدّيمقراطي

سوف أعالج تحت هذا العنوان الأفكار التّالية:

- مقدمة حول حب الذات وفق المنظور النّفسي التّحليلي (فرويد ولاكان).
- كيفية تكون الأنا.
- تشكل الشخصية النّرجسية.

- صفات الشّخص النّرجسي وفقاً لكليرنبرك.
- النّرجسية عند المرأة.
- سمات الشخصية النّرجسية حسب الـ DSM4.
- معايير السّلامة وفقاً لايريك فروم.
- أفكار مهمة حول النّرجسية كما يجدها ايريك فروم.
- النّرجسية والموقع الاجتماعي.

مقدمة حول حب الذات تبعاً لفرويد وجاك لاكان:

إنّ الإعجاب بالذات يعني الانغلاق وفقد القيمة التي نراها في عيون الآخرين عبر العلاقات الاجتماعية، حيث الحاجة للاعتراف بالشّخص من الآخرين، هي ضرورة من أهم الضّرورات، ولذا نجد التّذبذب في العلاقات يظهر على نحو مميز بين الإفراط في المثالية، وتبخيس الذات. ويكون حب الشّخص في بداية الطّفولة مركزاً على الأم، وعندما يكبر قليلاً، تتوزع دائرة ذلك الحب على الآخرين الأب والأخوة وهكذا... يبدأ الطّفل يتعرف على نفسه، وعلى هويته وعلى ذاته، عن طريق المرآة فيلتفت إلى الأم، لينتزع منها اعترافاً بأن هذه الصّورة المنعكسة من المرآة هي صورته هو، فالطّفل يرى نفسه دائماً بأعين الآخرين، وقد تبالغ الأم أو الأب في المديح، والثناء على الطّفل لجماله، أو تفوقه وإبداعه في مجال معين، ويظل يتأمل في المرآة مفتوناً بصورته فتتضخم ذات الطّفل، ويشعر بحب كبير لذاته، ويعجب ويفتخر بها، ويرى أنه أفضل من الآخرين...

من هنا تبدأ عوارض النّرجسية، والنّرجسية مصطلح يطلق نسبة إلى نارسيس (Narcisse) وهو ذلك الفتى اليوناني الذي ورد ذكره في الأساطير اليونانية، فقد كان نارسيس فتى رائع الجمال، نظر إلى صورته ذات مرة في ماء البحيرة فشاهد جماله، وشغله ذلك عن العالم، فعكف على الصورة يتأملها...

أما النّرجسية وفق "معجم مصطلحات التّحليل النّفسي" فهي الحب الموجه إلى صورة الذات، استناداً إلى أسطورة نرسيس اليونانية المشار إليها سابقاً...

والنّرجسية أو حب الذات، تعني تضخم مفهوم الذات، عند الشّخص والإفراط بالاعتداد بها فيعجب بنفسه، وبقدراته وصفاته و...إلخ. وعلم النّفس بشكل عام، والطب النّفسي بشكل خاص اهتمام جهة بالنّرجسية دون سواها من العلوم، حيث يرجع اهتمام علم النّفس بالنّرجسية إلى عام 1905، على يد العالم الشّهير "فرويد" وفي عام 1914 نشر فرويد مقالة عنوانها (مقدمة في النّرجسية) وفيها وصف النّرجسية بمعانٍ عديدة منها..

– إنّها مرحلة انتقالية لحب الذات والشذوذ والانحراف، ونمط لاختيار الموضوع، ومن إشارات "فرويد" للشّخصية النّرجسية بأنّها حبّ الذات المبالغ فيه، حيث اعتبر "فرويد" أن النّرجسية حالة أولية سابقة على تشكل الأنا، فأوضح أن النّرجسية الأولية تشير: إلى غياب العلاقة مع الموضوع، التي تتميز بحالة اللاتمايز ما بين الأنا والهو، ويمثل النوم استعادة لها، كما تم تبيانه في كتاب علم النّفس الجماعي، والتّحليل النّفسي للأنا، الذي ترجمه العلامة المصري المحلل النّفسي "سامي علي". والذي أكده الكثير من المحللين النّفسانيين بأن النّرجسية الأولية، هي مرحلة مبكرة تتوسط العشقية الذاتية، وحب الموضوع وتتميز بظهور الالتباسية الأولى للأنا، اكتشاف النّرجسية أدى "بفرويد" إلى طرح وجود مرحلة وسطية من التّطور الجنسي ما بين الغلمة الذاتية، وبين محبة الموضوع...

أمّا النّرجسية عند "جاك لاكان" فيعرفها بأنّها: عبارة عن امتلاك صورة الشّخص عن ذاته على غرار الآخر الذي هو الأنا تحديداً، ولقد أقام "جاك لاكان" الصلة ما بين هذه اللحظة الأولى من تكوين الأنا وبين تلك التّجربة النّرجسية الأساسية، التي يطلق عليها اسم مرحلة المرآة . واستناداً إلى هذا المنظور تعرف الأنا من خلال التّماهي بصورة الآخر، بل هي تشكل استدخالاً (interiorisation) لعلاقة معينة، حيث لا تبدو المرحلة النّرجسية كمرحلة تطورية، بل كحالة إحباس اللبيدو، لا يمكن لأي توظيف في الموضوع أن يتجاوزها أو يفرغها تماماً، ليصبح الأنا في النّرجسية بكليته موضوعاً للحب، وبناء على توصيف "فرويد" نجد أن

الشخصية النّرجسية، تتميز بالتّعجرف والنّقص في التّعاطف مع الآخرين، وفرط الحساسية تجاه آراء الآخرين، فهم لا يستطيعون تقبل آراء الآخرين، بأي شكل من الأشكال دون أن يتركوا الآخرين يلاحظون ذلك، ويسفهون بشكل غير مباشر من آراء واقتراحات الآخرين، بل ويدعون أنهم يعرفون ما يفكر به الآخرون، وأنهم ليسوا بحاجة إلى محاضرات الآخرين.

ويبالغ النّرجسيون في إنجازاتهم وميزاتهم ومحاسنهم، ويتوقعون من الآخرين أن يعترفوا لهم بالجميل بصورة خاصة، سواء كان هذا الاعتراف مبرراً أم غير مبرر. ويستحوذ عليهم، وهمُ النجاح والسلطة والتألق، ويعتقدون أن وظيفتهم هي ضبط الأمور تحت سيطرتهم، لأنهم على حق والآخرون على خطأ.

فرويد يتوصل في أبحاثه حول النّرجسية إلى اقامة التّعارض الإجمالي ما بين الحالة النّرجسية الأولى "حالة اللاموضوع" وبين العلاقات مع الموضوع، وتتصف هذه الحالة البدائية التي يطلق عليها اسم النّرجسية الأولية، بالغياب الكلي للعلاقة مع المحيط، وبحالة من اللاتمايز التام ما بين الأنا والهو.

وتجد هذه الحالة نموذجها الأول في الحياة الرّحمية، والتي يمثل النّوم استعادة لها تتفاوت في درجة كما لها.

أما فكرة النّرجسية التي تعاصر تكوين الأنا من خلال التّماهي مع الآخر، لم تهمل كلياً بما يسمى النّرجسية الثانوية المسحوبة من الموضوعات ليكون الأشخاص الذين يعانون من اضطرابات نرجسية، في الشخصية غالباً ما يمتلكون مشاعر مهزوزة بالذات، غير واثقين من أنفسهم داخلياً، ويبالغون نحو الخارج بإظهار ثقتهم الكبيرة، ويعتبرون آراء الآخرين حولهم مهمة جداً لهم، فهم يسعون دائماً لمعرفة: ماذا يفكر الآخرون حولهم...إلخ. وهم يستجيبون لأقل نقد سلبي بالغضب أو بمشاعر من المهانة أو الإذلال، وينتظرون الفرصة المناسبة لرد أبسط النقد بشكل جارح ومضاعف للنقد الموجه لهم، والمشكلة هنا أنه يصعب معرفة، ما هو الرأي الذي يعتبرونه سلبياً؟ وما الرأي الذي يعتبرونه إيجابياً؟ فهم ينظرون

للأمر من منظار نرجسيتهم الخاصة. وغالباً ما يسعون من أجل الحصول على إطراء، ومديح الآخرين بشكل مباشر أو غير مباشر.

ويميل النّرجسيون نحو إعطاء قيمة عالية لأفعالهم وأفضالهم، والبحث عن المثالية في آبائهم، أو بدائل آبائهم من حيث المركز والعطاء، إذ يعتقد النّرجسي أن الكمال يميز كل تصرفاته، فينتابه الغرور والتكبر على الآخرين ومن ثم احتقارهم..

- كما يتميز النّرجسيون باللامبالاة الباردة، أو المشاعر المميزة للحنق والدونية، وتبرز الضحالة كسمة بارزة في سلوك النرجسي، ويتجلى ذلك في استجابتهم للنقد بانفعال مبالغ به.

لكل ذلك، غالباً ما تعاني علاقات الأشخاص النّرجسيين الإنسانية من سلوكهم هذا بأي موقع وجدوا به، فنجدهم حاسدين للناس الذين يعتبرونهم أكثر نجاحاً منهم، ويضعون في طريقهم العراقيل، إذا ما أحسو أنهم أكثر نجاحاً، ويسفهون آراءهم، ويقللون من قيمتها وأهميتها، أو يشككون بنوايا الآخرين وأهدافهم.

والنّرجسيون يميلون لاستغلال الآخرين، ويستعملونهم وسيلة لتحقيق أهدافهم الخاصة، بالإضافة إلى ذلك فإنهم قلما يكونون متعاطفين مع الآخرين أو حساسين لهم، ويمكنهم أن يمتلئوا بالغيظ والغضب على أي شخص لمجرد أن له رأيه الخاص، أو لا يريد أن يكون تابعاً لهم أو يدور في فلكهم، ويتم استغلال العلاقات بين الأشخاص، كالاستفادة منهم في إشباع رغباته أو تعظيم ذاته، وعدم الاكتراث بالتّكامل الشّخصي لديه، وحقوق الناس الآخرين في مبادلة الاهتمام والتقدير...

ولكن هذا الشعور تجاه الآخرين، يسبب مشكلات كثيرة في الطفولة، تنعكس بآثارها سلباً على الطفل نفسه ومستقبلاً على المجتمع من جراء سلوك بعض أفراده، من هذا التكوين النفسي.

كما يمكننا القول إن الحالة النّرجسية هي بمثابة خبرة يرى الشخص فيها نفسه، بجسمه وحاجاته وتفكيره، بأنها كل شيء أما الآخرين وحاجاتهم، فليست لها أدنى اعتبار عنده، ومعظم الأشخاص لا يكون لديهم وعي وإدراك بنرجسيتهم، رغم

تلك المظاهر التي لا تكشف عنها بجلاء، من كون الميول الذاتية المبالغ فيها، تعوق الأغراض الحقيقية للآخرين، وتفسد العلاقات الشخصية معهم، وحيث وكما هو معلوم للجميع أن الطريق الوحيد الذي نحصل فيه على إرساء جذور الأمن الاجتماعي، وحفظ الكرامة الشخصية، لا يكون إلّا عن طريق الانتماء للآخرين في علاقة حب طبيعية سوية وناضجة...

حيث إن حياتنا النفسية تتشكل بكل تفاصيلها الخاصة والعامة وتشعباتها وحالاتها المفرحة والمحزنة، وملاهيها، وشيطنتها، تتكون عبر العلاقة بالموضوع "موضوع الحب المركزي الأول" العلاقة بالأم وبدائل هذه العلاقة، حيث من خلال استقرائنا لهذا المسار يتحدد سواء النفس ولا سوائها وفقاً للمنهجية النفسية التحليلية... كون التحليل النفسي هو العلم الذي يدرس تحولات الطاقة وتغيراتها المتبادلة في صميم الشخصية ووفقاً "لفرويد" تتضمن الدوافع شكلاً أساسياً من أشكال الطاقة سماه "اللبيدو" حيث يستخدم مصطلح اللبيدو هنا (للإشارة إلى الطاقة النفسية الخاصة بالدوافع الأوليّة الفمويّة والجنسيّة أو دوافع العدوان)، إذ إن مفهوم الطاقة لدى "فرويد" لا يتوجه نحو تفسير ظواهر من قبيل الانهاك الذّهني أو التّقلبات في النّشاط والحيويّة وما شابه ذلك، ولكن لإيضاح التّبدلات الحاصلة في الانتباه والاهتمام والتّعليقات الخاصة بهذا الموضوع أو في السّعي النّاشط نحو ذلك، إذ يجري استثمار مقدار معين من الطاقة "كوانتا" في التّوظيفات والتّمثلات الذّهنية للموضوعات، هذه الكوانتا هي التي تتباين في حركتها واستقرارها...

وكون واقع الحال عند النّرجسي، يتميّز دائماً بغياب الاهتمام بالعالم الخارجي، ويظن نفسه يعلم كل شيء، وأن ما لديه من مخزون علمي، وثقافي هو نهاية العلوم، بذلك تتحول (الأنا) عنده من حالتها الطّبيعية إلى حالتها المرضية المتضخمة كتابوت مؤطر، لا يشعر بها صاحبها أنها كذلك..

كيفية تكون الأنا؟

من خلال ما تقدم نصل إلى أن الشخصية النّرجسية تتشكل بدءاً من

الطّفولة، ولكن آثارها السّلبية الواضحة لا يمكن أن تختفي في البلوغ، لاسيما عند ظهور معالم الجسد عند الجنسين بفعل البلوغ، وعمل الهرمونات الجنسية...

وتبقى الوقاية أهم وسيلة للحد من النّرجسية، بالتربية السّليمة المتوازنة التي تجمع الثواب على الصواب، والعقاب على الخطأ بأسلوب حكيم ومتابعة أسريه واعية، هذه التربية التي تفسح المجال للموهوب لإخراج موهبته، وترعاه بالعقل والتّوجيه، وتجنبه انتقام الذات...

وهنا السّؤال يبدو وجهياً للحديث، عن تشكل الشخصية النّرجسية؟

الدّراسات العديدة حول تشكل الشخصية النّرجسية، تظهر أنها تتكون نتيجة تثبيت السّلوك في سن مبكرة، ولاسيما في سنوات الطّفولة المبكرة على نمو نفسي، لا تبرحه الشخصية مهما تقدم بها الزمن، بمعنى أن هذا النمو لم يتح له العبور، من حيز الأنا الجسدي إلى حيز الأنا الاجتماعي، حيث أن الطّفل يعي ذاته كشيء منفصل عن العالم المحيط به، ويبدأ الإحساس بأهميته، وإن العالم يدور حوله، وهو المحور، لهذا نرى الطّفل الصّغير يردد كل شيء لي، هذا ملكي في عمر معين، ويكثر من لفظ أنا الملكية في غالب كلامه...

والنّرجسي أيضاً وبسبب هشاشة تقدير الذات النّاتج، عن عدم تدعيم للأنا، هو شخص غير متكيف، وبذلك ينشأ عن هذه الشخصية فشل معمم اجتماعي وظيفي، ومعاناة ذاتية بسبب حبّ الذات الذي لا يشبعه إلّا بتجاهل الآخرين من كونه يستفزه كثرة النقد، فهو لا يعنيه إلّا المديح، وكلمات الإعجاب.

ومرحلة النمو النّرجسية عند الأطفال، مطابقة عند فرويد للمرحلة القضيبية، وفق النّظرية السّيكو – جنسية في نمو الشخصية، وهذا التّثبيت يحصل نتيجة تكرار تدريب على السّلوك بشكل مكثف، من قبل القائمين على تربية الطّفل أو الأشخاص المحيطين به، حتى يصبح السّلوك جزءاً من سمات شخصية الرّاشد... حيث إن تثبيت سلوك الطّفل، على هذه المرحلة من خلال عدم إدراك الوالدين لخطورة ما يحصل، يجعل هذا السّلوك يكرر في جميع مراحل حياته، مما يخلق

الشخصية النّرجسية ويعززها. ولما كان حبّ الذات ضرورياً للفرد كي يشكل شخصية منتجة وفقاً (لإريك فروم) وهو ضروري كذلك للثقة بالنفس، ولكن عدم تماهي شخصية الفرد مع الآخرين هو ما يفقد هذه الثقة تماسكها وثباتها، ولذلك نجد الشّخص النّرجسي بذلك يميل لانخفاض تقدير الذات، حيث الأنا العليا لديه ضعيفة، فلا مثال للأنا لديه، فهو غالباً ما يشعر بأنه أعظم حالاً، ويفتقد إلى تمثيلات الآخرين التّعويضية والنّاظمة للعلاقة بالآخر، ونجده غالباً ما يعيش مشاعر خجل وخزي بدلاً من أخلاقيات الشعور بالذنب، التي هي أي مشاعر الذنب بمستوى معين ضرورية للنمو الاجتماعي، والتي تتجسد بالتربية على معرفة الحق والواجب أي فعل ما يجب فعله، وهذا الحال غير نامٍ عند النّرجسي، لأنه يخشى خشية مفرطة النّقد لأنه وفق تقديره افتضاح، والتعرض إلى ما يسمى بالجرح النّرجسي، وليس خشية تقريع الضّمير، وبذلك يمكننا القول إن الافتقار إلى التعاطف عند النرجسي سمة لا يمكن بلوغها.

يقارب عالم النفس الأمريكي "ايرك فروم" شخصية النّرجسية بالشخصية البيروقراطية فيقول: الشخصية البيروقراطية هي شخصيّة تتمسك بالتّعليمات بصورة حرفية، وهي شخصيّة ذات تكيف غير منتج تخضع للسّلطة، حيث يوجد أشخاص من النوع الذي يتم التّحكم فيهم من شخص لديه سلطة عليا، وغالباً ما تكون شخصيته عدائية وساديّة نحو الآخرين، وتتحين الفرص لإغضابهم، وصاحب هذه الشخصية يقول: أنا موجود لأني أملك كذا، أو أساوي ما أملكه وما أنفقه، وغالباً ما تكون هذه الشخصية انتهازية متناقضة أقل إنتاجاً وضيقة الأفق وتمتاز بالبخل.

أما عالم النّفس "كيرنبرك" يحدد صفات الشّخص النّرجسي بما يلي:

1- عندما يكون الشخص مشغولاً بنفسه على نحو مبالغ به، من خلال مشاعر تعظيم للذات، وتضخيمها وامتلاك طموحات تفوق القدرات كثيراً.

2- عندما يكون استعراضياً ومتحوراً حول الذات، وأنانياً وميالاً الى التّأرجح بين مشاعر العظمة، ونوبات من الشعور الغامر بالنّقص والعجز عندما يتعرض

بالون العظمة إلى ثقب صغير، وعلى الرغم من أنه يبدو عاشقاً نفسه إلّا أن ذلك العشق واهن سريع الانكسار والتّشظي.

4- تكون علاقة الشّخص بالآخرين فيها مصاعب جمة في الوثوق بهم، وبذات الوقت بحاجة يائسة لإعجابهم لأنه يعتاش على ذلك الإعجاب، وليس على الاستقلالية الواقعية عنهم.

5- لديه حسد شعوري ولاشعوري، لا يمكن تبريره، وشعور الحسد هذا ناجم عن مصاعب فموية متبقية، من مراحل النّماء المبكر، وخصوصاً عدوانية فموية لم تتم تسويتها... هذا الشعور بالمعنى النّفسي التّحليلي يؤدي إلى جملة من الإشكاليات في النّمو النّفسي، من كونه يقلل مما يمتلكه الآخرون دفاعاً ضد الرغبة المضنية في امتلاكه، فهو يقلل من قيمة ما يظنه عظيماً، وما يرغب بشدة في امتلاك مالاً يمتلكه، وشعور التّقليل في القيمة هو عملية لاشعورية تؤثر على عملية التعلم، والاستقبال للأمور الخارجة عن الشّخص في أحيان كثيرة، حيث التعلم يقتضي التّقدير لشخص المعلمين أو الإعجاب بهم، والنّرجسي عاجز عن هذه التّبادلية في الإحساس بالآخرين، من شدة استغراقه بنفسه. فهو بذلك يميل إلى استغلال الآخرين وسرقة أفكارهم، حيث إنه يجد صعوبة في تقبل الأمور من الآخرين لأن ذلك يشعره بالنّقص، وبذلك علاقات النّرجسي بالآخرين موسومة بالسّطحية والافتقار إلى التّعاطف، والقدرة على الالتزام، لذلك هو يقع في الحب لكنه يحسد الشّخص، الذي وقع في حبه، وبذلك نجد النّرجسيين سرعان ما يدخلون في علاقات اجتماعية كثيرة وسرعان ما يخرجون منها...

نظريات علماء النّفس تشير إلى أن هنالك علاقة قوية بين التّقدير المنخفض للذّات وبين الاكتئاب، فمن يعشْ حياته لا يحترمْ ذاته ولا يحبها، يكون عرضة أكثر من غيره للإصابة بالاكتئاب الذي قد يؤدي عندما يكون شديداً إلى الانتحار...

بحيث يعتبر أنه محور حياة الراشدين من حوله والكل في خدمة ما يريد، وهو يعتبر من يقوم بخدمته من الراشدين في محيطه من حيث العناية به في

الطّعام والحمام، كأنه منة منه للرّاشدين، وهكذا نراه يختار من يقوم على خدمته من الضّعفاء، فيشعرهم أن خدمته شرف عظيم.

النّرجسية عند المرأة:

ترى "هيلين دوتش" المحللة النفسية المعروفة: أن الشخصية النّرجسية، تتشكل لدى المرأة في المرحلة العمرية ما قبل المراهقة، عند بدء تشكل الأنا الخاص بها كأنثى، وضربت لذلك مثالاً: أن العلاقة الحاصلة بين الفتيات الصّغار، ولاسيما العلاقة الثّنائية، تأخذ طابعاً نرجسياً، بمعنى أن الأنا الاجتماعي ينتفع من حبه للآخر من أجل ذاته، وعندما يحصل الاندماج ما بين الطّفلتين في علاقاتهما عبر التّشابه وعدم التّمايز، يغدو الأنا يبسط مجاله الخاص به، ويكتسب بعض الثقة بالنّفس، وازدياد القوى النّرجسية للأنا يقوم بدور مهم في تطور النّضوج، ونمو النّرجسية في مرحلة المراهقة...

– سمات الشخصية النّرجسية تلقى قبولاً لدى الذكور منها لدى الإناث في مجتمعاتنا حيث إن هناك هامشاً كبيراً من سلوك الشخصية النّرجسية تكون مقترنة بالسّادية، والمعلوم في بلادنا أن سمات الشخصية المازوشية هي الغالبة والمحببة في حضور المرأة في بلادنا أن تأخذ المرأة دور المستضعفة لتبرز شهامة الرجال واهتمامهم...

من ذلك نجد أن هناك تأثيراً بارزاً للآثار البيئية الاجتماعية على تشكل السّلوك، وتثبيته في الشخصية عند كلا الجنسين...

إذ وبالعودة لـ "دوتش" التي تجد أن هناك بعضاً من جوانب الاختلاف في بناء الشخصية النّرجسية بين الجنسين الذكور والإناث مَرده إلى تدريب الذكور على أن يكون شخصية سادية الحضور، من خلال اهتمامه بالقضايا العامة والخارجية منذ طفولته المبكرة، وبالمقابل تربية الفتاة وتعليمها على الخضوع وأن تكون تابعة، والاهتمام بالقضايا الداخلية الخاصة بالأسرة، وتعزيز حضور الطفلة في هدوئها وتبعيتها لوالدها أو لأخيها، ومن هنا تبرز معاناة المرأة بعدم نيلها لحقوقها

الاجتماعية في بلادنا وتعنّت شخصيات السياسيين واعتدادهم بأنفسهم بالمقابل في هذه البلاد..

الشخصية النّرجسية المرضية:

وفقاً لـ DSM4، معيار التّشخيص في منظمة الصّحة النفسية العالمية... يحدّد أن النّرجسي لديه عدة سمات وفق ما يلي:

– لديه إحساس متعاظم بأهميته مثلاً: يبالغ في حجم إنجازاته ومواهبه ويتوقع من الآخرين أن يُكبّروا شأنه، ويعترفوا بأنه الأفضل دون إنجازات قابلة للقياس، والمضاهاة بإنجازات غيره.

– تداعبه خيالات النّجاح غير المحدود أو النفوذ أو التألق أو الجمال أو الحب المثال بشكل دائم...

– يفتقر إلى التّمثيل الوجداني، لا يرغب في التّعرف على مشاعر الآخرين وحاجتهم...

– يبدي تصرفات تتسم بالغطرسة والتّعجرف.

لديه اعتقاد بأحقيته بالتّميُّز، وفي أن يعامل معاملة تفضيلية.

فالنّرجسي يشعر أنه أفضل حالاً من الآخرين مما يحرمه الانتماء الاجتماعي السّليم...

ويقترح بعض علماء النّفس أن جذور النّرجسية، تنمو عندما يتراوح سن الأطفال من 18 شهراً حتى 3 أعوام.

حيث يقولون إنه إذا لم يُسمح للطّفل في هذه المجموعة العمريّة، أن ينمي هويته وإذا تمَّ الاعتداء عليه لفظياً وانتقاده من والديه، فسيشعر بأن هناك خطأ ما وعليه سينمي بعض نماذج نرجسية لسلوك التّكبر وإحساساً مختالاً بالتّفوق – لحماية نفسه نفسها من مشاعر القصور...

فما بين السّواء وعدم السّواء في السّلوك يبقى مسعانا في الغوص في ثنايا النّفس.

وقد حدد "ايرك فروم" معايير السّلامة النفسية بأربعة عناصر بارزة هي:

- الحاجة الى الانتماء الاجتماعي هرباً من الوحدة وبحثاً عن شفاء.
- الحاجة الى الإرتقاء والتّعالي أي الحاجة إلى الخلق والإبداع.
- الحاجة إلى الإطار المرجعي.
- الحاجة إلى الانضباط الاجتماعي والتّجذّر.

كما يرى "فروم" أن: لكل إنسان القدرة على الحبّ، ولكن تحقيق ذلك صعب للغاية، فنحن نبدأ بتمركز الطّفولة الكامل حول الذات، ولا نستطيع التّمييز بين ذاتنا والآخرين، بأنه فوق الجميع وفوق كل نقد، لأنه لا يرى أنه يقوم بأخطاء...

فقناعته تتجلى بسؤاله الدّائم لنفسه: من هم الآخرون حتى ينتقدوه؟! ورغم كل الوصف السّابق لصعوبات التعامل والتّعايش مع الشّخص النّرجسي، تبقى المشكلة الكبرى لديه أنه لا يدرك أنه مريض، أو أنه يحتاج إلى علاج وتغيير، على الرغم أنه يلاحظ جفاء الآخرين وابتعادهم عنه، لأنه يرجع السّبب بذلك لسلوكهم هم وليس له هو... وهذه حالة في غاية التّعقيد والخطورة عند التعامل الاجتماعي وحتى العمل العلاجي مع هؤلاء الأشخاص...

- هذه الشخصية قد تتطرف لإقناعه بفكرة التّطرف، ولما قد يحصل عليه من أثر دنيوي من ممارسة تلك الفكرة، وما أسرع ما يتخلى عنها لو وجد مصالحه الشخصية في فكرة أخرى بغض النظر عن صواب تلك الفكرة من خطئها، إنه التّمركز حول مصلحة الذات لا حول الفكرة. من هذه الشخصية عادة يكون قادة التّطرف أكثر من الأتباع، ومن مقال "فرويد" وغيره من كتاب مدرسته "مدرسة التّحليل النّفسي" يمكن القول إن النّرجسية هي:

1. إن أسطورة (نرجس) الذي وقع في حب نفسه من خلال خياله هي السّبب وراء تسمية النّرجسية.

2. إن الشّخص النّرجسي منغمس مع الآخرين، ومندمج معهم ويعاملهم كما لو كانوا امتداداً له.

3. تعبر النّرجسية عن إحدى مراحل النّمو التي يمر بها جميع الأفراد ففي السنة الأولى من العمر، نجد الطّفل الصّغير متمركزاً حول ذاته بحيث يكون هو مركز الوجود للمحيطين به، وبعد عدة سنوات ينتقل ليتمركز حول الآخرين، أي يبدأ الإنسان بحب ذاته ثم حبه للآخرين، إحدى الدّراسات النفسية كشفت عن وجود خاصيتين مهمتين للأشخاص النّرجسيين وهما:

1. ميلهم إلى أن يكون لهم خط ثابت من الشعور بالعظمة، وإعطاء قيمة عالية لأفضالهم الشخصية.

2. الميل إلى البحث عن المثالية، في آبائهم أو بدائل آبائهم من حيث المركز الاجتماعي، أو العطاء إن كان (مادياً أم معنويّاً).

وأما الفروق بين الذّكور والإناث، في درجات النّرجسية السّوية أو المرضية فإنها أعلى لدى الإناث، وخاصة في فترة المراهقة ومن أبرز مظاهرها كثرة استخدام المرآة، وكثرة استخدام كلمة أنا، ولكن بعد الزّواج، والانشغال بالأطفال ينخفض مستواها الى الحدّ الطّبيعي!

حيث الرّبط بين النّرجسية والطّفولة، والوعي الجنسي المبكر صفات متلازمة، للنّمو الاجتماعي المبكر، وإحباط هذا النّمو بفعل ظروف التّنشئة.

بعض علماء النفس يشيرون إلى أن: جذور النّرجسية تنمو عندما يتراوح سن الأطفال من 18 شهراً حتى 3 أعوام، ليقولوا إنه إذا لم يسمح للطّفل في هذه المجموعة العمرية أن ينمي هويّته، وإذا تم الاعتداء عليه لفظياً وانتقاده من والديه فسيشعر بأن هناك خطأ ما وعليه سينّمي بعض نماذج نرجسية لسلوك التّكبر، وإحساساً مختالاً بالتّفوق لحماية نفسه نفسها من مشاعر القصور، لذلك تُناقش النّرجسية عادة في علاقتها بالأفراد، ولكنها لها مضامينها الاجتماعية والسياسية، ويمكن أن توجد في الجماعات أيضاً. ولقد اقترح "فرويد" أن الأفراد يمكن أن يركزوا اهتمامهم وطاقتهم (وبصفة خاصة الطاقة الشّهوانية أو الجنسية) في أي من الاتجاهين سواء كان تجاه العالم الخارجي أو تجاه النفس. فعندما كنا صغار كنا

نركز طاقتنا وجهدنا على أنفسنا وكلما نكبر نتعلم أن نعيد توجيههما في جميع الأحوال إلى الخارج.

كما ناقش "إريك فروم Erich Fromm" النّرجسية في كتابه "عظمة وقيود فكر فرويد" Greatness and Limitations of Freud Thought(1980) حيث قدم عدداً من النّقاط المهمة، واقترح أن العديد من الأفكار المهمة حول النّرجسية كونها:

1- لها قيمة خالدة، فنشعر بأهميتها لدرجة تجعلنا نعتني بأنفسنا ونحقق الأشياء وغيرها.

2- آراء "فرويد" عن النّرجسية قد تشوهت بآرائه عن المرأة، وطبيعة الحب.

- وبذلك ووفقاً "لفروم Fromm" الذي يجد أن "فرويد" لم يستطيع رؤية أن النّرجسية مضادة للحبّ، وذلك لأنه كانت لديه أفكاره الخاطئة عن الأسلوب الذي يحب به كل من الرجل والمرأة بعضهم البعض، ولقد نبع هذا جزئياً من النّظام الطبقي، والأسلوب الذي تعلمت به نساء الطّبقات الوسطى كيف يتصرفن.

- يعد معظم النّرجسيين من الأفراد الجذابين - ويقترح "فروم، 1980 Fromm" أن معظم الفنانين والكتاب المبدعين والرّاقصات والسياسيين من ذوي الشّخصيات النّرجسية، إلا أن هذه النّرجسية لا تتداخل في فنهم بل تساعدهم فيه. ووفقاً له فإن هؤلاء النّرجسيين يجسدون صورة لما يجب أن يكون عليه الإنسان العادي، وهو ما ينطبق على الإنسان العادي (والذي لا يقيم القلق الذي يعاني منه المريض بالنّرجسية).

- كما قام "فروم Fromm" أيضاً بالتّفريق بين النّرجسية والأنانية. فالأخير يشير إلى نوع من الأثرة والطمع، وهو ما يختلف عن الرؤية المشوهة للواقع الموجودة في النّرجسيين، والذين لا يكونون أنانيين، ولكنهم مصابون بحب الذات.

وقد يكون الشّخص المحبّ لذاته أنانياً، ولكنه قد يكون واقعياً في الوقت ذاته، ويوجه بعض النّرجسيين طاقاتهم نحو إخفاء حبهم لأنفسهم حيث يرتدون قناع

الخضوع، ويشتركون في سلوكيات غير أنانية مثل القيام بأعمال إنسانية عديدة كوسيلة لإخفاء نرجسيتهم .

– وأخيرا يطرح فروم (1980) مناقشة مهمة لما يدعو له "بالنّرجسية الجماعية" ونوع الشّيء الموجود داخل الناس، والذين يؤكدون كما يفعل معظم الأمريكيين (أو اعتادوا عليها على الأقل) مع إحساس بالتّقوى والأفضلية "نحن رقم واحد بالنّسبة لشعوب العالم".. وهذا الأمر أيضاً لدى مشجعي الفرق الرّياضية.

نلخص وفقاً "لفروم" فإن النّرجسية الجماعية ترتبط بالأنظمة الاقتصادية التي تقوم على الأنانية، وتحاول تحقيق الحد الأقصى من الأرباح على حساب الآخرين.

وهو ما يعني أن النّرجسية الجماعية ترتبط بالانحياز، الذي يجده الفرد في المجتمعات الصناعية الحديثة.

– إن الشّخص العادي يعيش في ظروف اجتماعية، تقيّد من تنمية نرجسية مكثفة، فما الذي يغذي نرجسية الفقراء الذين لهم مظهر اجتماعي أقل والذين يميل أطفالهم إلى أن ينظروا إليهم باحتقار؟ فهو لا شيء ولكن إذا ما كان يمكن أن يتعرف على دولته حينها يكون هو كل شيء.

وقد تعد النّرجسية مفيدة جداً للحكومات، عندما ترغب على سبيل المثال في حشد شعوبها وتجهيزها لخوض الحروب. ويتساءل "فروم" إذا ما كان الرجل والمرأة المعاصرين سيموتان من النّرجسية نتيجة لمشاركتهما بالأنا في المجتمعات الصناعية، شديدة الفنيات تماماً كما مات نرجس Narcissus نتيجة لوقوعه في حب صورته في بركة الماء.

ويهتم المعالجون النّفسيون بالنّرجسية، وعادة ما يرونها في الأعداد المتزايدة من المرضى، ومن الصّعب أن نقول إذا ما كان يوجد الآن نرجسية مقارنة بالعصور السّابقة، أو إذا ما كان المعالجون أكثر براعة في التّعرف عليها.

ومهما كانت الحالة فإن النّرجسية بأشكالها العديدة الخفية، تظل مشكلة لها أهميتها الكبيرة، لكل من الأفراد والثّقافات الأمريكية والتّكنولوجية الحديثة الأخرى.

وسواء ما إذا كانت أنانية أو نرجسية، أو مجموعة من كليهما وهو ما يعتبر أمراً خاطئاً، حيث إن التّركيز المتزايد في الثّقافة الأمريكية، وفي هيئاتها السياسية سواء كان على الفرد وحقوقه والشّركات الخاصة، والطّموحات الشخصية لاستثناء النّطاق العام وإحساسه بالمسؤولية الجماعية، والتزاماته الجماعية.

وكنتيجة لذلك يرى العديد من النّقاد عدم وجود، أي توازن في ذلك...

وبالمقابل نلاحظ ظهور نزعة ساديّة، مجاورة للنّزعة النّرجسية حيث إن هاتين النّزعتين تتعايشان في كيان واحد، وذلك نتيجة للتّعامل المزدوج تجاه الإحباط الذي مني به "المتنبي" شاعر العرب الكبير، فهو مرة يتعالى عليه ومرة يحس بالعبث واللاجدوى.

إن هذا التعامل المزدوج، يجعل الذاتي تتأرجح بين نوازع نرجسيّة، هي المولدّة للنّزعة الحيوية وحبّ الحياة، ونوازع ساديّة لحبّ الموت والفناء.

فهذه النّزعة الأخيرة هي التي أبرزت في شعر (المتنبي) ميولاً مبكرة نحو تدمير الذات، ولقد بلغت هذه النّزعة التّدميرية للذّات مبلغاً صريحاً في قوله:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا

وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وكما سبقت الإشارة إليه من أن حبُّ الذات يعدّ عند الشّخص النّرجسي مرضاً، فقد يتطور ليصل إلى معالم بنية نفسية سمتها الخيال الجامح عنوان رئيس لجنون العظمة، مع رغبة مفرطة للإعجاب به.

كما أنَّ بعض (النّرجسيّين) يوجِّه انتقاده إلى الآخرين ليتجنّبَ انتقادهم إيّاه، أما إذا انتقده أحدهم دون إساءة بالغة أو مقصودة أو بيّنَ خطأً في لغته أو أسلوبه أو فحوى مقاله، فالويل للمنتقد منه، فهو لا ينام ليلَه دون انتقام، وحتى إذا استطاع الانتقام منه مرةً فهو لا يملّ من الانتقام المتواصل، لأنَّ ذلك الانتقادَ (يصَدَّع) نرجسيّتَه، ولن تلتئمَ، حتّى ولو وافته المنيّة...

من هنا نصل إلى أن بؤس الإنسانية في معرفة النفس وتصدّعاتها العديدة وخوائها، لتسطر الحوادث عبر التاريخ أن: الإنسان النّرجسيّ العنيف، وهو القاتل والإرهابي، الذي يستعمل الآخرين، وخصوصاً النّساء والأطفال، لتنفيذ مآربه في الاعتداء والانتقام ولا يشعر بالخطيئة والإثم ولا بتأنيب الضّمير، وتكون أحكامه خاطئة، إذ أنه يبنيها على أسس وقواعد ضعيفة منهارة، ولا يستطيع السّيطرة على نفسه، كما أنه يتوقع دائماً الخيانة، وتكون في رأسه صورة نبذ الآخرين له، لذا يعاقبك على لا شيء ويضطرك أن تعمل له ما يريد بأيِّ ثمن، فلا يشعر بأيّ ندم أو أي حقٍ للآخرين.

– الرّقيب أو المستغل، الذي يوقع الخصومة بين الناس، ويبعد أصدقاءه أو حلفاءه عن نيل أهدافهم. يتصف بالمهارة في الحديث، والدّقة في الكلام أو التّلاعب بالكلمات، والأفعال، وعادة ينال مرامه، فعندما يكون همّه المال يكون قاسياً ولا يقرّ له قرار، كما يتظاهر بالمسكنة والحاجة إلى مساعدة، فيسرع أصدقاؤه لنجدته مادياً ومعنوياً، وبعد أن يستعيد عافيته، يدير لهم ظهره، من حيث يعلمون أو لا يعلمون. إضافة إلى التّفاخر بالعلاقات الجنسية، وكثرة تناول الكحول وربما المخدرات أو التّظاهر بكثرة ممارسة الرّياضة، والقوة البدنية، والذي يطلب من الآخرين تبجيله لصفاته هذه، إنَّ هذا النرجسيَّ المتقلب يختار ضحاياه ويخدعهم، فإما يكتشفونه فيتركونه، وإلاّ سينبذهم ويختار أشخاصاً آخرين.

الشّخص النّرجسي السّادي: هو الذي يُسَر لرؤية الأخَر مُعذباً فاقداً مالَه أو منصبه أو يقسو عليه نفسيّاً أو جسديّاً. وسعادته هي اختطاف ما يملك الآخرون لجرِّهم إلى حزن عميق.

– غاسل الدّماغ، يكون ذا هيئة جذابة محترمة، يستغل الأخرين لجلب الصّيت، والجاه والثروة إليه، عادة ما يكون النرجسيون من رجال السّياسة والدّين، بحيث يستهدفون السُذَّج والمغفلين من الناس أو ضعاف العقول، وأعداؤه هم المثقفون النّابهون!

من هنا تأتي نرجسية الفرد أو الذات، لترسم لصاحبها عوالمه الخاصة به، والتي كما قلت غالباً ما تركز على الشّكل بعيداً عن الجوهر أو المضمون، كأن يرى النّرجسي ذاته متميزاً عن الآخر في ماله، أو مسكنه، أو سيارته، أو جمال شكله، أو حسن لباسه...إلخ.

النّرجسية والموقع الاجتماعي:

بيد أنّ أعقد أشكال النّرجسية تلك التي يحققها منصب اجتماعي أو سياسي لشخص ما، حيث يجعله هذا المنصب يشعر بالتعالي على المواطنين من جمهرة الناس، ويرى فيهم عواماً ورعايا قد جُبِلوا من طينة غير طينته، بل غالباً ما تطغى النّرجسية والتعالي هنا ليرى المرء نفسه متعالياً حتى على زملائه وأهله، في مثل هذه الحالات من الشخصيات النّرجسية، يرى النرجسي نفسه معزولاً عن محيطه الاجتماعي، وتكون الطّامة الكبرى عند فقدانه منصبه الاجتماعي، أو مكانته السياسية حيث تتحقق عزلته عن محيطه الاجتماعي ليس برغبته هو كمسؤول، فقد مكانته الاجتماعية أو السياسية، وإنما برغبة الآخرين الذين تعالى عليهم فكان رد فعلهم تجاهله لنرجسيته تجاههم .

وبمعرض تحديدنا لخطورة الاشخاص النّرجسيين وضرورة التّدبر في التعامل معهم، والسّعي لعلاجهم النفسي إن كانوا في محيطنا القريب، أقول إن المواقف النّرجسية الأكثر خطورة وتعقيداً، هي تلك التي تمتلك المثقف أو الأديب الذي اكتسب قدرات ومهاراتٍ عاليةٍ، في التعامل مع الكلمة التي خُلقت لتوعية الآخرين وإرشادهم إلى القيم الإنسانية، من حبٍ وعدلٍ وخيرٍ وتعاون...

حيث إن المثقف، يمتلك المقومات التي تؤهله لقيادة المجتمع، وهذا ما برز بوضوح منذ بدء التاريخ القديم و دعوة أفلاطون لأن يكون الفيلسوف علي رأس السلطة السياسية، هي: أول دعوة تذكرها لنا كتب التاريخ... ومن ثم الدّعوة الواقعية "لأرسطو" للعمل التّكاملي بين المثقف والسلطة، من حيث أن المثقف يمتلك رؤيا ثاقبة، ولديه مقدرة هائلة تؤهله للقيام بالتّحليل والتّركيب إزاء أي ظاهرة، أو حدث،

أو موقف، ولعل رؤاه تتسم علي الغالب بقوة البصيرة، ومقاربة الموضوعية، كذلك أن المثقف الذي يمضي جُل ساعات يومه، وهو ينهل من بطون الكتب، ويكون ثقافة واسعة، ومعارف ثرية، غير موجودة البتة عند غير المشتغل بالثقافة، والجاهل بها، مما يمنحه آفاقاً لامتناهية تدفعه للانحياز إلي ثقافته، ومعارفه، وسعة مداركه بل وذاته مقارنة مع هذا الآخر، وهذا ما يجعله يتدرج شيئاً فشيئاً نحو حب الذات، ثم الشعور بالتّمايز عن الآخر، وربما دونيته في مواقع وحالات معينه، وقد يتضخم بالتالي هذا الإحساس لاسيما أمام رفض الآخر له، أو الاستعلاء عليه، بكل ما يملك من قوة، مما يدفعه بالتّالي إلي مهاوي النّرجسية، كردّ فعلٍ على هذا الإهمال والتّهميش والاستعلاء غير المسوّغ أن دراسة متأنية لسيكولوجية الإنسان هذه، تظهر إنها حالة غير سويّة على مستوى الفرد والجماعة، كونها تنتج خللاً داخلياً، وتعرقل النّمو، وتمنع فرص التّقدم، فلا بدّ من معالجة أسبابها، والسّعي لتجاوزها، لأنه عادة ما تكون الشخصية النّرجسية ثقيلة الظل على الآخرين، ويواجه أصحابها الكثير من التّوترات في علاقاتهم الاجتماعية، التي ترتد على نفسيتهم بالآلام والجراحات، ومن ثم على مجتمعهم...

البعد عن ثقافة الاعتذار كعائق لعيش الدّيمقراطية

نسمع كثيراً من يقول: ليس عيباً أن يخطئ الإنسان، ولكن العيب أن نستمر في الخطأ... وهنا مربط الفرس في لغتنا الدّارجة؟

ما هو الاعتذار؟ وماهي أشكاله؟ وماهي روابط المقدرة على الاعتذار بسمات الشخصية؟

هذا ما سوف أحاول البحث فيه، والذي أجد العمل على موضوعه أمراً بات من دواعي العلاجات النفسية الاجتماعية في بلادنا، حيث كثرت الأخطاء حتى أضحت كارثية بحقّ الكثيرين والأخطر بحق البلد بكل ما تعنيه هذه الكلمة.

الاعتذار: هو معنى من أهم المعاني والتّعابير التي تضفي على الحديث معنى إنسانياً، مما يزيد من درجة السموّ والرقيّ في التعامل مع الآخرين، والاعتذار يمثل سلوكاً ثقافياً إيجابياً، لأنّه يسهم في خلق مناخ من التّراحم والتّسامح والقدرة على تجاوز الصّعاب.

والاعتذار كقيمة إنسانية نبيلة لا يمكن أن تترسخ في ثوابت السلوك ما لم تكن هذه القيمة تعيش بالفعل داخلنا كأفراد وجماعات، لأن القدرة على الاعتذار تحتاج إلى تربية معينة، وقدرة على نسيان النفس والشعور بتقدير واحترام الآخرين، إذ ليس صعبًا أن يكتسب الإنسان صفة الاعتذار، ويجعلها طبعاً أساسياً في شخصيته، في حال كانت البيئة مهيئة لذلك، كون القدرة على الاعتذار غاية يمكن الوصول إليها من خلال التربية المعنية بتنمية الإحساس بالآخرين والتفكير في مشاعرهم وآلامهم وأحزانهم.

من الأمور المعيقة للاعتذار أذكر:

أولاً: التكبر والغطرسة:

فالإنسان الذي يشعر أنه غير قادر على رؤية الحقيقة طالما أنها لا تصب في مصلحته، ويتكبر عن الاعتراف بالواقع ويرفض أن يتعامل مع الناس من منطلق المصداقية والمنطق، هو إنسان يصعب عليه أن يقدم الاعتذار عن أخطائه، كذلك الإنسان الذي يحتقر الآخرين، ويستخف دائماً بما يقدمونه وما يدافعون عنه وما ينحازون له من مبادئ وقيم، لا يمكن له أن يتقدم لهم باعتذار لو صدر منه ما يؤذيهم كونه يريد أن يتغافل عن وجودهم، فلا يرى حسناتهم.

ثانياً: توقيت الاعتذار ومدلوله:

تَخير الوقت المناسب لتقديم الاعتذار عن الأخطاء يعدّ فعل ناجع، وقد يكون إعطاء الطرف الآخر الذي يستحق منا الاعتذار فسحة من الوقت حتى يستطيع أن يفرغ طاقة الغضب والانفعال في داخله، فيهدأ ثم نبدأ في تقديم الاعتذار، لأن عدم اختيار الوقت المناسب للاعتذار سيجعله بلا جدوى وغير ذي تأثير...

ثالثاً: كيفية الاعتذار:

يقول "جاك لاكان": الرجل هو الأسلوب، واستناداً إلى مقولة "لاكان" هذه أقول: لا تكفي النوايا الحسنة للتراجع عن أخطائنا، إذ لكي يتم تخطي الأفعال والسلوكيات الخاطئة، ولاسيما المتصلة بالآخرين من حولنا، يلزم اختيار الكيفية التي نقدم بها هذا الاعتذار، وذلك بعد تعدد وسائل الاتصال الاجتماعية في حياتنا المعاصرة وإمكانية الوصول للآخر، وهذا الأمر هو بحد ذاته قد يعرقل خطواتنا للاتصال بمن نريد، فالاتصال الهاتفي مرات أو عبر البريد الإلكتروني بمنزلة إهانة جديدة للشّخص الذي نعتذر له، إما لمكانته الخاصة أو لطبيعة الموضوع نفسه الذي يستدعي تقديم الاعتذار حوله بصورة مباشرة.

فمازال هناك من يعتبر أن الاعتذار تقليل للشّأن الشّخصي لمن أخطأ، على حين أن الاعتذار منطقياً يمثل قوة وثقة بالذات، لأنه دلالة لعقلانية التفكير من كون الخطأ لا يمكن أن يعالج بخطأ فمن يسيء يخطئ، وعدم استدراكه لخطئه من خلال الاعتذار يكرس استمرار الأخطاء... من هنا يُعدّ الاعتذار دلالة للقدرة على المواجهة للمواقف التي تلفها صعوبات حياتية مع الآخرين قربوا أو بعدوا...

فإن تمعنا بدلالة سلوك الاعتذار نستدل على أن الاعتذار يمثل تقويماً لسلوك سلبي سلكناه في لحظة قد تكون لحظة غضب وانفعال لزمن سابق قصر أو طال، من حيث إن العودة للماضي لإعادة ترتيبه يظهر ذلك مدى شجاعة الفرد في مواجهة الواقع... من هنا نجد تبايناً لأشكال الاعتذار بين الناس تبعاً لسوية ثقافاتهم، وخبراتهم وإدراكهم لدواعي وعواقب عدم الاعتذار عن أخطاء سادت سلوكهم، وسببت ضغينة لغيرهم... فنجد مثلاً من يسرع للاعتذار، من خلال مراجعة مباشرة عند وقوع الخطأ غير المقصود أو السّلوك السّلبي كما في حالات الغضب.

ونجد من يتعمد الاعتذار بعد مراجعة للذّات، فاعتذاره قد يتأخر نوعاً ما، من كونه يحدث بعد مراجعة للموقف، ومحاكاة النّفس.

وبالتالي قابلية الوقوع بالخطأ تكون أقل حدوثاً عند من يراجعون أنفسهم، ويراقبون سلوكهم.

الشّكل الثّالث للاعتذار بين الناس يُظهر لدى من يعانون من ضعف الثقة بالنّفس واضطراب في الشخصية، والذين سلوكهم العام يتجلى بالتّردد وعدم القدرة على مواجهة المواقف... ويمكننا تبعاً للتّوصيف الأخير أن ندرج المغرورين والمتكبرين في عداد الاشخاص الذين يعانون من صعوبة الاعتذار، رغم إدراكهم تماماً لحجم أخطائهم، نجدهم يكابرون ويمتنعون عن الاعتذار، ويطالبون الآخرين بتقبلهم كما هم، والعكس غير وارد عندهم.

العلاقة بين المقدرة على الاعتذار ومهارة الحوار

يشير مصطلح الحوار إلى درجة من التّفاعل والتّثاقف والتّعاطي الإيجابي بين الحضارات التي تعتني به، وهو فعل ثقافي رفيع يؤمن بالحق في الاختلاف إن لم يكن واجب الاختلاف، ويكرس التعددية، ويؤمن بالمساواة.

وعليه فإن الحوار لا يدعو المغاير أو المختلف له إلى مغادرة موقعه الثّقافي أو السياسي، وإنما يدعوه لاكتشاف المساحة المشتركة بينهما وبلورتها، وبالتّالي تبعاً لمفهوم الحوار يكون الاعتذار مستساغاً عند الأشخاص الذين يمتلكون مهارة الحوار، هناك مثل انكليزي يقول: "نتحاور أو نتقاتل" لأنّ ثقافة التّسامح لا يمكن أن تقوم إلّا على الحوار، ليثبت الفرد عبر الحوار قوة ذهنيّة، ومن ثم يستدرك أخطاءه من خلال تبيان الحجج المنطقية ليكون بذلك الاعتذار قوة من كونه يربط الأمور مع بعضها، ويستنتج الخطأ المستهجن منها، ولذلك يأتي سلوك الاعتذار هنا وكأنه قوة وليس إذلالاً...

ما هي الحدود المنطقية لكي يعتذر المسؤول؟

في مقالة لطيفة للكاتب محمد سلماوي تحت عنوان (لن أزور اليابان) كتب أنه كان في زيارة لليابان لإلقاء محاضرة وأثناء استقلاله لأسرع قطار في العالم المسمى بـ "قطار الطلقة Bullet train" الذي تشبه سرعته سرعة طلقة الرّصاص، ما بين طوكيو والعاصمة القديمة كيوتو.

يقول وقفت على رصيف القطار بصحبة صديقي الياباني، حيث كانت تذكرتهما تشير إلى أن مقعديهما سيكونان في العربة الخضراء وللعلم اليابانيون يطلقون الألوان على درجات القطار، فلا يقولون عربة الدرجة الأولى أو الثانية أو الثالثة وإنما العربة الخضراء والحمراء والصفراء، أشار إليه مرافقه الياباني أن يقف في المكان المخصص على الرّصيف لباب العربة الخضراء وفي الموعد المحدد بالضبط وصل القطار، وجاء باب العربة الخضراء في المكان المحدد له مع فارق

بضعة سنتيمترات من حيث يقف صاحبنا، فقال صاحبنا مداعباً صديقه الياباني وفي نفسهِ حرقة على فارق التقدم بين اليابان وعالمنا العربي لاسيما أنه لم يزر بلادنا العربية من قبل فقال له: كيف يقف القطار بعيداً بضع سنتيمترات وليس أمامي تماماً، كيف يُسمح بتلك الفوضى؟ لم يكن يتوقع أن الشاب الياباني لم يفهم تلك الدعابة فلقد كست وجهه الحمرة خجلاً، وأخذ يتأسف لما حدث مؤكداً أن هذا لا يحدث إلا نادراً، ووعد بأنه سيخطر المسؤولين حتى لا يتكرر ذلك ثانية، ويكمل: في الرحلة التي دامت أقل من ثلاث ساعات ظل يجيء ويروح للتحدث مع العاملين الذين جاؤوا واحداً وراء الآخر ليعتذروا له عما حدث وحين وصلا إلى كيوتو، وجد مدير المحطة ينتظره بنفسه على الرصيف ليقدم له هو الآخر اعتذاره، عما حدث في محطة طوكيو، ومؤكداً أن ذلك لن يحدث ثانية، اختتم الكاتب هذا الموقف بتأكيده: لصديقه الياباني (أنها مزحة) صديقه الذي بدا متعجباً وفغر فاه في دهشة! قائلاً: لماذا الاعتذار من قبلك لي؟ فأجابه كاتب المقال إنه كان يمزح، كون سلوك التأخير، مسألة عادية جداً بمقاييسنا العربية، وهي يمكن أن تحدث في أي مكان! فقال له صديقه الياباني ولكنها ينبغي ألّا تحدث في اليابان.

قد يكون في عالمنا العربي هذا الأمر ضرباً من الخيال، وقبل الاعتذار أترانا نستطيع معاتبة أحد المسؤولين، وقبل ذلك كله هل يمكننا أن ننسب له خطأ كون مسؤولنا لا يخطئ أصلاً؟!

وتتوارد التساؤلات: لماذا المسؤول الياباني يعتذر إن أخطأ؟ ولماذا يستقيل إن أخفق؟ وماذا يا ترى يصنع الياباني لو كان الأمر أكبر من ذلك؟

وبالتعريف للمسؤول هو من يخطط لسير الأمور بعناية حتى يتجنب الأخطاء وحتماً الاعتذار، فالاعتذار يعدّ أمراً غير مستساغ للشخص الجاد بأن يمارسه باستمرار، إذ هو علامة مؤشرة على عدم تخطيطه، وتحكمه الجيد بأمور مسؤولياته.

ويمكننا أن نستمر في المزيد من التساؤلات حول تبادل المواقع بين مسؤولينا ومسؤولي اليابان، فلو كان طرق التعليم وإخفاقاته تحدث في اليابان، كيف كان اعتذار مسؤول التعليم يا هل ترى؟

وأيضاً ماذا يفعل مسؤولو اليابان، لو كانت الأنفاق والجسور تبدأ مشاكلها قبل أن يبدأ تشغيلها؟ كيف تراه اعتذار مسؤول البلدية؟

لو ولو مئات المرات سنظل نثيرها، ولكن تبقى النتيجة واحدة دوماً والمتمثلة بالحسرة، وعلى رأي أحد الظرفاء لو كان ما يحدث عندنا يحدث في اليابان لأصبحت اليابان من دول جامعة الدول العربية!

وأختم في معرض الحديث عن حالنا واليابانيين، بذكريات عشتها في جامعة دمشق كنت حينها طالبة دراسات عليا، وكنت أعمل كموجهة تربوية في المعهد المتوسط للكهرباء في عدرا، أذكر ذلك لأني أجد هذا التفصيل مهماً لتوضيح فكرتي، وفي هذه المرحلة كان لي صديقة يابانية عرفتها من خلال ترددي الدائم على مكتبة الأسد الوطنية في دمشق لإجراء الأبحاث المطلوبة في مقررات دبلوم الدراسات العليا حينها، كان اسمها "جونكو" صبية جميلة ونبيهة والأهم جادة، كنت أتردد على المكتبة عادة بين الساعة الرابعة والثامنة مساء بشكل شبه يومي، وكانت "جونكو" تأتي من الصباح وحتى المساء وهي تقرأ في كتب اللغة العربية وتتبحر في فصول كتب لم أسمع بها إلا منها، في أحد المرات أتيت وكان عندي صداع ورشح وزكام، وكان بادياً عليَّ الإرهاق، قالت لي تلك الصديقة أنت مرهقة جداً عليك أن تذهبي وترتاحي وغداً صباحاً تأتين مثلي في العاشرة فيكون لك متسع أكبر من الوقت، قلت لها غداً عندي شغل ويصعب أن آخذ إجازة حيث كان لطلاب المعهد امتحان الفصل الأوّل، وكانت من مهامي في التوجيه أن الأسئلة يضعها المهندسون من المدرسين في المعهد لديَّ في المكتب، وأنا من سوف يشرف على توزيعها، والتأكّد من أن الظرف كان مختوماً أم لا يوم الامتحان لأية مادة مقرر لها الامتحان، ومن المعهد كنت أتوجه الى الجامعة في أوتوستراد المزة

حيث كان حضور المحاضرات إلزامي، ومن ثم إلى مكتبة الأسد مشياً إلى ساحة الأمويين، "جونكو" حينها لم تكن تعرف تفاصيل كثيرة عن حياتي، ولكن بعد ذاك اليوم باتت شديدة الاهتمام بي، فمرات كانت تحضر لي معها سندويشة صغيرة من البطاطا المسلوقة والبقدونس وقليل قليل من قطرات الزيت... تكرر ذلك مرات، وكانت دائماً تسألني كيف عملت اليوم؟ وأبادلها السؤال أيضاً، كانت "لجونكو" عبارة ترددها لي دوماً: أنت اليوم أعطيت للإنسانية، شكراً لك، وأنا أستغرب كلامها هذا، إلى أن مرَّ بنا يوم وجدتها حزينة غير راضية فسألتها ماذا بك يا عزيزتي؟ فأجابتني لقد تأخرت فلم أصل إلى هنا إلّا بعد الواحدة ظهراً، لا أعرف كيف أضعت وقتاً فارغاً عندما زارتني بعض الفتيات في المدينة الجامعية... ولم أقدر على الانسحاب نظراً لمودتهن، ولكن كنت غير مرتاحة، هذا هو المحزن لليابانيين إضاعة الوقت! و"جونكو" صديقتي نموذج خَبِرْته عن قرب...

وبالعودة لأزمة الحوار في بلادنا يمكنني القول إن: ثقافة الحوار التي نعاني من عدم إدراجها في معيشنا، ولاسيما في حياتنا المعاصرة حيث المشاعر والوجدانات تبدلت، ويأتي ذلك كنتيجة طبيعية لضعف ثقافة الحوار المتولدة عن تقصير جميع مؤسسات المجتمع في إرساء التربية الحوارية المتأسسة على الشّراكة مع الآخرين في كل تفاصيل الحياة، فهناك بعض التصورات والمفاهيم المغلوطة، التي أسهمت في تغييب الحوار عن ثقافة المجتمع بدءاً من المناهج التعليمية، التي واظبت لفترات طويلة على أسلوب التلقين والاعتماد على الذاكرة لا على التحفيز الذهني وتطوير التفكير المنطقي المبدع.

إن تفعيل التربية الحوارية، تُعدّ حاجة ماسة في الحياة العصرية ابتداءً بمؤسسة التربية الأولى (الأسرة) وانتهاءً بمؤسسات الدولة بلا استثناء، إذ يتحتم عليها تفعيل الحوار وتشجيعه ليصبح سمة عامة، وقبل إصدار القرارات والقوانين، وفي التعامل مع أصحاب الرأي الآخر، فالحوار لا ينتقص هيبة ولا ينقص سلطة، بل يزيدها قوة وشرعية، وعمراً مديداً بالفعالية ونجاح دورها. إن الممارسات التّقليدية

في المعاملات، بدءاً من البيت والمدرسة والمجتمع تؤدي إلى السّلبية، ومن هذه الممارسات يمكن ذكر:

- عدم التربية على الحوار وسيادة الطّرق التّسلطية.

- عدم منح الفرد فرص التّصرف، والتّدخل لحل مشكلاته والمساهمة في اتخاذ القرارات والعمل على تنفيذها.

- غياب الجرأة في مواجهة المشكلات المطروحة أمامنا داخلياً، لأن عدم تأهيل وتدريب أبنائنا على الحوار، يؤدي بهم إلى رفض الآخر، مثلما يُرفض رأيهم داخل البيت والمدرسة وفي الحياة الاجتماعية، ومن ثُم عدم الثقة بالنفس وبقدراتها، وسيادة عقلية المؤامرة والإحباط عوضاً عن عقلية الإرادة والإنجاز والفاعلية والمشاركة.

وتبعاً لهذه الممارسات لا يمكن تصور حوار من طرف واحد، لأن بديهيات الحوار أن يكون بين طرفين، وعندما يصبح الحوار حديثاً من طرف واحد، فهو يفقد أبسط قواعده. ومن هنا يجب أن يكون الحوار سعياً من جانبين، وليس من جانب واحد، لأن مقصد الحوار مع الآخر لا يعني أن أقول له ما أريد، ولكن أن نصل معاً إلى صيغة لما نريد، وإذا تحول إلى استجابة لمطالب طرف واحد فهو يدخل في نطاق الوصاية والهيمنة والتبعية وفهمكم كفاية، إن من خواص سلوك الهيمنة نكران الأخطاء أو بالأحرى عدم الاهتمام بها، فكيف يمكن للاعتذار أن يحصل؟ فثقافة الاعتذار يلزمها حتى تترسخ قائمة من التغيير، ولاسيما تغيير المواقف والاتجاهات تجاه الانتقاد وتجاه حرية الآخرين وتعبيراتهم حولنا، والانتباه لمساحة العدول عن آرائنا في موقف يتبين أن هناك ردات فعل غير خافية على سلوكياتنا ممن حولنا، ويبقى التساؤل مطروحاً بقوة لدي: هل يمكن اعتبار ثقافة الاعتذار منهجاً تربوياً مؤثراً؟ كون نتائجه مضمونة الأثر.

هل يوجد طريقة إلى حياة الكثيرين، ولهم الغلبة في كل الأمور في بلادنا؟ هذا الرهان لن يتحقّق إلّا عبر سياسات تربوية حصينة واعية لمشاكل الحياة العصرية وأيضاً متيقظة لحاجات الشّباب وكل أفراد الأسرة وفقاً لمرحلتهم...

التربية هي التي عليها المسؤولية الكبيرة والمشروع العظيم الذي لا مجال للمساومة على مدى تأثيره على الأمة ككل، لم يعد المربي قادراً على أن يديرها بأدوات بسيطة ومن طرف واحد، خاصة في هذا العصر المليء بألوان المحفزات وأصبحت الأبواب فيه مشرعة للولوج إلى الشّيهوات والشّيبهات بكل سهولة، كما صار المربي والمتربي يقفان أمام تحديات كبيرة تقاوم هويته وعقيدته وتشهر سلاحها في وجه قناعاته بكل ما أوتيت من قوة، ولأن الأحوال تغيّرت إلى هذا الحدّ فإن على المربي أن يكون مرناً بالحدّ الذي يجعله متواكباً دونما أن يخل بثوابته، وبالقدر الذي يجعله مؤثراً فاعلاً وبقوة في رعاية وتوجيه هذا الجيل الجديد، بحيث يسمح له بالانطلاق نحو الحياة وفق أطر وحدود تضمن له التّوازن والمرونة.

إذ لم يعد مستساغاً أن يمارس المربي أسلوب الفوقية، أو طريقة الإملاء والسيطرة، لأن أفق المتربي أصبحت أكثر اتساعاً بحيث تعلو وتبتعد عن هذه الأدوات وتجعلها تفقد فاعليتها بل قد تلغيها وتقضي عليها بالزوال، تماماً كماء النهر الذي إن بنيت أمامه سداً صلباً تحول إلى طوفان يهدم السد بل ويرتفع فوقه، وعليه فإن المربي لا بدّ أن يمارس دور التربية بذكاء.

التربية التي ترعى ولا تتحكم والتي تكتشف الطاقات والمواهب، فتسمح لها بالنّمو، والتربية التي توجه، لا التي تتسلط وتحاور باحترام للاختلاف ومن دون بث الفوقيّة أو السّطوة على الأجواء التي تجمع المربي مع المتربي.

التربية الذّكية، التي تحترم المتربي وتحفظ للمربي والمتربي حقوقهما وتنظر للمتربي على أنه طرف مشارك وأساسي في التربية فتفسح لقلبه وعقله وروحه الاختيار بقناعة وطاعة لله لا بعبودية للبشر...

وهي المرونة الحكيمة التي تضع الكلمة والإشارة والفعل في أماكنها وأوقاتها المناسبة وتصوغها في إيحاء يؤثر في المتربين. وهي بذلك تنأى عن الأنانية والمبالغة والالتواء عن القيم، تتكئ على الإخلاص في العمل والتعامل الاجتماعي

وتتحصن بـه... مبتعدة عن منطق الحظ والحظوة، بالتعامل مع أدوات العصر والانفتاح عليها من باب منافعها، والتحصن ضد مفاسدها.

كل ذلك بلغة العصر الواضحة الصّادقة، ومن خلال كل أركان العملية التربوية (المربي – المتربي – وسيلة التربية – مخرجات التربية) السبيل الوحيد للإنتاجية والإبداع...

فإذا ما أدرك المربون ذلك بتعمق ورؤية مستبصرة... خفّت بذلك الضّغوط وقلت المخاطر واتضح الهدف وتوحد الاتجاه وتوالت النجاحات.. وخفت بذلك عبر آليات الثّقافة النّفس تربوية الحديثة عوائقنا في السّير بالتّحول الدّيمقراطي لمؤسساتنا وتفاعلاتنا الاجتماعية، ومن جراء ذلك يكون البناء الاجتماعي للفرد والجماعة يسيران بتوازن واندماج لا بهيمنة وقهر، وبالتالي ضياع وتردّ في اللحاق بركب الأمم نحو التّحضر، والانفتاح بالأذهان نحو لغة العلم والمنهج المنطقي السّببي في الحياة.

ولا أجد أبلغ من قول "جاك لاكان" ختاماً لمؤلفي هذا لتعطي خلاصة دالة لما أردت البحث فيه عبر مبحثي هذا حول معوقات بلادنا في عيش الفكر الديمقراطي سلوكاً عملياً في حياة الأفراد والمؤسسات، يقول "جاك لاكان" المحلل النفسي المحدّث لفرويد بقراءاته العبقرية عبر استدلالاته اللغويّة وكناياتها، للوصول إلى كنه اللاوعي برؤية أبعد مما وصل إليها الرائد التحليلي الأول "فرويد":

"إذا كان التّحليل النّفسي قد ظهر في هذا العصر فليس ذلك إلّا لأن موضوعه هو موضوع العلم في الذات، فما وراء التحليلات العلمية لتكوين الإنسان من بيولوجية وكيميائية وجينية، تبدو الذات المتمثلة في الرغبة، بنية تميز الإنسان بخصوصية ويعجز العلم عن إدراكها"..

فمعرفتنا بذاتنا هي المنطلق لكل تغيير وخير نسعى إليه...

قائمة تعريف وشرح

للمفردات والمصطلحات النفسية التحليلية

الواردة في متن الكتاب

1- الأب المثالي: هو وفقاً لما حدده "مصطفى صفوان": من صنع الحقل المخيالي رغم احتوائه عنصراً رمزياً بما يخص التحريم.

تقاس أهميته وتأثيره: بالمسافة التي تبعد الأب المخيالي عن الأب الواقعي.

من موقعه ومكانته: هو أب ميت، نجد هذه الصفة في طيات المتخيل على اعتبار أنه صنم نعبده لوجوده ولعدم قدرته على التحرك.

هو أعمى تجاه حقيقة الرّغبة، لا يريد أن يعرف عنها شيئاً.

مجرد من الرّغبات الجنسية: ومما يحمي الشّخص من تأثير هوام المشهد الجنسي الأولي الذي يلغيه.

تتجسد به سلطة الأنا الأعلى: بحيث يصبح الشّخص تحت رحمة الممنوعات المفروضة عليه من الخارج، لأن الأب المثالي يتجاهل الرغبة "لا يعرف" (حب الله، التّحليل النّفسي للرّجولة والأنوثة:288)

2- الأب الواقعي: أيضاً وفقاً "لمصطفى صفوان" في الأساس بعيداً عن التّحكم الوحيد لقانون الجماع الشائع، يتبين أن تكاثر البشر يخضع بالدرجة الأولى إلى قوانين القرابة. على الرغم من اختلاف المجتمعات البشرية، إلّا أنّها تبقى مشاركة بصفة واحدة وشاملة وهي ما يختص بتحريم الأم. قبل أن تصبح رباطاً مفصلاً أو حتى موضوعاً للتّذكير. يبقى هذا يختص بتحريم الأم. قبل أن تصبح رباطاً مفصلاً أو حتى موضوعاً للتّذكير.

يبقى هذا التّحريم للأم مرتهناً باسم الأب، وتأخذ هذه الوظيفة أهميتها بقدر ما تعطي الأم وزناً للأب في خطابها الموجه الطفل، تظهر هذه الحالة جلية بوضوح عندما يتبين بأن القانون يستمر مرتبطاً باسم الأب كدال بغض النظر عن وجوده جسدياً. هذا لا يمنع بأن الرجل الذي يحمل هذا الاسم يدعم نفوذه بالقدر الذي يسمع به كلامه للأم. عندئذ يجد الطفل نفسه ملزماً بدين، من خلال علاقته بالأب الواقعي، ويحمل فحواه الخصاء الرمزي. فبنظر "لاكان" تكمن وظيفة الأب الواقعي كونه عميل الخصاء (Agent de la castration) (المرجع السابق).

3- الإحساس بالأمن Security Feeling: حالة نفسية داخلية يشعر من خلالها بالاطمئنان والهدوء، كما تتمثل خارجياً في تحقيق معظم مطالبه، وإشباع معظم حاجاته وشيوع روح الرضا عن النفس وتقبل الفرد لنفسه، وشعوره بالإنجاز ومشاركته الحقيقة في أنشطة تحقق لديه هذا الإحساس وتدعمه (فرج عبد القادر طه، المرجع السابق:68).

4- اجتياف (إدماج نفسي): عملية لاشعورية يتمثل فيها الشخص موضوعاً يصبح جزءاً من الأنا والأنا الأعلى لديه والاجتياف عكس الإسقاط وهما عمليتان نفسيتان تميزان الطفولة الأولى (فرانسواز دولتو، لعبة الرغبة:473).

5- الآخر الكبير Autre: يميز "لاكان" بين الآخر الكبير والآخر الصغير عن طريق المخاطبة. ويختلف موقع الذات حسب المرسل إليه إذا كان بمنزلة الآخر الكبير أو الآخر الصغير. يتكون الآخر الكبير في البداية عن طريق الأم، حيث توجه إليها كل الطلبات التي تؤمن له حاجاته الحياتية. وفي مرحلة لاحقة يأخذ الأب هذا المكان على اعتبار أن الطفل يدرك أنه نظراً لصغره غير قادر من أن يلبي كامل نقصها. موضوع رغبتها يتعدى وجوده لكي يطال الأب على اعتبار أنه يحمل القضيب الذي يتمم نقصها، هذه النقلة تؤدي إلى عملية يدرك الطفل من خلالها أنه نقص موجود وأن الأب كمؤسس أول للقانون، يعطي للرغبة حق انطلاقتها الأولى.

ويحصل على غير علم منه أن هذا الآخر الكبير حتى ولو تجسد في البداية بالأم إلّا أنه لم يكن ليحصل لولا نسيج اللغة التي أعطته قدرة التعبير وتكون منها في آن واحد.

انطلاقاً من هذه العلاقة تتكون الذات من شبكة دوالي لغوية، لكي يصبح الآخر الكبير المرسل إليه حكماً لكل طلب ولكل رغبة. هو المحطة التي تعطي الكلام معناه وتفك رموزه، وهو كنز الدوال، وهو موقع موجود في استمرار في كل مرة يتحاور طرفان. يقول "لاكان" إن بدا أن الآخر الكبير خارجي في البداية إلّا أنّه سريعاً ما يدخل في حوار الذات مع نفسها، لكي يصبح ذاتياً داخلياً، أو في مرحلة لاحقة مخزن الرغبات المكبوتة أي بتعبير آخر اللاوعي وممكن أن يسمى الـ هو (المرجع السابق: 292).

6- الآخر القرين / الصّغير Autre: هو القرين الذي نتعامل معه كل يوم ويمثّل الفرد من رابطة عائلية أو اجتماعية يدخل في بنية الذات منذ الطفولة الأولى على أساس أنه منافس وذلك حسب "لاكان" انطلاقاً من مرحلة المرآة التي تظهر له لأول مرة أن هذا الذي يحتل مكانه ويزيحه، هو آخر، من هنا المقولة المعروفة: بأن الأنا هي الآخر، وهو في البداية المؤسس الأول للصّراع الذاتي، لأنه يدخل إلى العلاقة الاجتماعية من باب المنافسة، ولكن إصلاح الأمور يأتي عن طريق اللغة، الآخر الكبير، الذي يدخل كوسيط لكي يعطل المنافسة المميتة. هذا الآخر الصغير يدخل في تكوين الحقل المخيالي للذات، عن طريق التّماهيات التي تحصل من خلال مقارنته بالآخر القرين أو من خلال إدماجه والحلول مكانه. إنها عملية نفسية مستمرة، لأن هذا الآخر الصغير يعكس دائماً صورة للأنا تتحكم بردات فعل عنده إن كانت حبية، كراهية أو صدامية. الآخر الصغير (a) يدخل دائماً في تكوين الأنا (المرجع السابق: 292).

7- اضطراب الواقعية De’realitation: هو اضطراب يصيب الشخصية بشكل عابر في الأعصبة، وقد يكون دائماً في الذهانات، وهو يعني الاحساس

بفقدان دعائم ارتكاز وجود الذات، وفي هذا العالم إنه إحساس بالضّياع الكلي وبفقدان أرض رجليه وحدود معرفية يقف عليها الشّخص ويمتدّ وهو يدل على إصابة عميقة في نرجسية الشّخص تعود غالباً إلى الطّفولة المبكرة، إذ عاش جواً من انعدام الأمن والأمان والطّمأنينة، انطبعت خبراته في جسده ونفسه، ويعود للظّهور في عمره اللاحق مع تكرار جوهر هذه الخبرات فيشعر من ثم كأنه لم يعد له وحدة تجمعه بعضه إلى بعض (دولتو، المرجع السابق: 480).

8- الأنا Moi: تشير إلى الهويّة التي لا يمكن أن تأخذ معناها إلّا عن طريق نفي الآخر، على اعتبار أنه غير الأنا. اعتبرها "فرويد" الأنا المجاور الأساسي عالآخر ومع الواقع الخارجي في مرحلة لاحقة (مقدمة في النرجسية) اعتبرها سلطة مضللة عندما تؤججها المشاعر الملتهبة. "لاكان" حسم الموضوع بين الموقفين واعتبر الأنا في بنيتها الأساسية مخيالية انطلاقاً من مرحلة المرآة، وهي مضللة إذا سلبت الصّورة المرئية الإنسان عن ذاته. وهنا ليس بعيد عن الموقف الفرويدي الثاني، ولكنه أكثر حسماً (حب الله، المرجع السابق: 282).

9- أنا مثالي Moi Ide’al: نجد اختلاطاً والتباساً عند "فرويد" في التوضيح ما بين الأنا المثالي ومثال الأنا والأنا الأعلى. بالنسبة "للاكان" الأمور أكثر وضوحاً: فالأنا المثالي هي حالة مثالية يريد الإنسان أن يتوصل إليها، تشعره بالاكتفاء التام ويحظى بها على محبة الآخرين، بالشّكل الذي يتمنى أن ينظر إليه.

هذا التّصور للحالة المثالية يدخل في إطار العمل الخيالي الميت على النّرجسية ويبين في العمل العيادي إذا ما تطورت لا تتحقّق إلّا على حساب إلغاء الآخرين (المرجع السابق: 289).

10- أزمة الهويّة Identity Crisis : حالة من القلق تنتاب الفرد بشكل أساسي في مرحلة المراهقة نتيجة لإحساسه المرير بغياب كينونته الخاصة، ووجود صعوبة كبيرة أمام تكوين شخصية محددة له في مجتمعه تقوم بدور له وزن، ولافتقاده الإحساس بالتميّز عمن يحيطون به، ولفقدانه الإحساس باستمرارية ذاته

الخاصة، وديمومتها حتى يحس بأنه هو... هو الذي كان بالأمس في تاريخ موصول إلى الحاضر فالمستقبل. وقد كان عالم النفس "إريكسون E.H.Erkson": إن صك هذا المصطلح والاهتمام ببحث مظاهره ودراستها عند الحديث عن مراحل نمو الفرد، وما يتعرض فيها من أزمات واضطرابات انفعالية ومشكلات نفسية. (فرج عبد القادر طه، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي: 133).

11- انشطار الأنا Splitting of the ego:

يستخدم هذا المصطلح في كل من التحليل النفسي والطب العقلي، للدلالة على واقعة انقسام الإنسان على نفسه بصورة أو بأخرى، تتضمن تعابير انشطار الوعي، وانشطار محتوى الوعي والانشطار النفسي... بالنسبة لفرويد وبروير، امتداداً لنفس الوقائع، انطلاقاً من حالات الازدواجية المتناوب في كل من الشخصية والوعي، كما تبينها الدراسة العيادية لحالات الهستيريا.

إذ أمكن الوصول واستناداً لأعمال "بيار جانيه وجوزيف بروير" وغيرهم إلى أن مركب الأعراض في الهستيريا يبرر فرضية انشطار الوعي مع تكوين مجموعتين نفسيتين منفصلتين.

أمّا انشطار الأنا تبعاً لـ "فرويد" فهو نتيجة للصّراع، ولكن فرويد كان يميل لاستخدام مفهوم الانقسام داخل النّفس، ولم يكن يستخدم مصطلح الانشطار إلّا عرضاً، وبدون أن يجعل منه أداة مفهومية، خلال إرصانه لأعماله، وبالذات حين يشير إلى واقعة انقسام الجهاز النّفسي إلى أنظمة، هي (اللاوعي، ما قبل الوعي، والوعي) وانقسامه كذلك إلى أركان هي: الهو، الأنا، والأنا الأعلى) وأيضاً ازدواجية الأنا، إلى جزء يراقب، وجزء آخر مراقب.

وقد استخلص "فرويد" فكرة انشطار الأنا، أساساً في مقالاته حول التميميّة وانشطار الأنا في العمليات الدّفاعية عام 1938، وكذلك في موجز في التّحليل النفسي عام 1938 في إطار تفكير حول الذهان والتّميمية، ورأى فرويد في كتاباته حينها أن الإصابات تضع أساساً علاقات الأنا والواقع موضع التساؤل. وانطلاقاً

من ذلك دعّم باطّراد استخلاصه لوجود أولية نوعية هي الإنكار: Veileugnung، التي تجد نموذجها الأولي في إنكار الخصاء.

هذا الانشطار ليس في الحقيقة دفاعاً صادراً عن الأنا، بل هو طريقة للحفاظ على تواجد دفاعين، يتوجه أحدهما نحو الواقع "الإنكار" بينما يتوجه الآخر نحو النزوة، وهذا الأخير يمكن أن يؤدي إلى تكوين أعراض عصابية (طه، فرج عبد القادر، موسوعة علم النّفس والتّحليل النّفسي: 215).

12- الانتماء Belonging: انتساب إلى جماعة معيّنة أو حزب معين أو ناد أو مؤسسة عمل معينة، أي يكون عضواً فيها أو واحداً منها، له ما لأفرادها من حقوق، وعليه ما عليهم من واجبات.

الانتماء يعنى بالمستوى الشّكلي أكثر من عنايته بالمضمون الجوهري التلقائي، بمعنى أن الفرد قد يكون عضواً في جماعة ومحسوباً عليها إلّا أنّه لا يرتضي معاييرها ولا يتوحد بها ولا يشارك معها ميولها واهتماماتها، فهو ينتمي إليها شكلاً وليس قلباً. وهذه الحالة يصبح منتمياً إلى هذه الجماعة بينما يكون ولاؤه لجماعة أخرى أو لزعيم آخر أو لمبدأ مغاير للجماعة المنتمي إليها (فرج عبد القادر طه، المرجع السابق: 205).

13- إنكار Denial: يمثل الإنكار ميكانيزم دفاعي يبدأ منذ الطّفولة المبكرة. والطّفل البازغ يرفض أن يكون على وعي بواقع غير وإنما يدير له ظهره بإنكاره. وكأنّه ميكانيزم ينتمي إلى مرحلة سويّة، من مراحل تطور الأنا الطّفلية عندما يقوم الأنا بإنكار الواقع عبر التّخيل أو الفعل أو القول، فهو يتخيّل نفسه مالكاً لأسد مستأنس (بديل الأب). ومن هذا القبيل أيضاً أحلام اليقظة، بينما الإنكار بالفعل يتمثل في تلك الصّبية، التي لا تفارق عصاها لتنكر وتعوض معاً إحساسها بالخوف والضّعف.

بينما الإنكار بالقول يكون هو الشّائع إذ ينسب الطّفل للأشياء ما ليس فيها تعويضاً عما افتقده. (فرج عبد القادر طه، المرجع السّابق: 219).

14- البنية الشخصية Underlying Personality Structure: هي البنية العميقة لشخصية فرد ما، وقد تكون على خلاف ما يظهر على السطح من شخصيته. كقولنا إن البنية الأساسية لشخصية المهووس هي بنية الشخصية الاكتئابية والمقصود هنا أن التّكوين النّفسي العميق أو الأساسي أو التحتي أو الأصلي واحد في كلا المرضين، وهذا ما يجعل المرضين يتعاقبان كثيراً على الفرد نفسه فيما يعرف بالجنون الدّوري (فرج عبد القادر طه، المرجع السابق: 244).

15- البنيان/ التركيب Construction: هذا المصطلح اقترحه "فرويد" للدلالة على قيام المحلل النّفسي بإرصان المادة التّحليلية بمعنى تثبيتها بشكل أوفى وأوسع مدى من التّأويل، ويكرس هذا الإرصان أساساً لإعادة جزء من تاريخ الشّخص الطّفلي في جوانبه الحقيقية والهوامية في آن معاً. وهذا المصلح يثير كل مشكلة البنى اللاواعية ومشكلة إعادة البناء بواسطة العلاج (مصطفى حجازي، المرجع السابق: 143).

16- تسامي Sublimation: افترض فرويد هذه العملية لتبيان النشاطات الإنسانية التي لها صلة ظاهرية مع الجنسية، ولكنها تستقي مددها من قوة النزوة الجنسية.

ولقد أطلق "فرويد" أساساً وصف التّسامي على النشاط الفني والاستقصاء الذّهني، تطلق تسمية التّسامي على النزوة بمقدار تحولها إلى هدف جديد غير منسيّ، حيث تنصب على موضوعات ذات قيمة اجتماعية (حجازي، المرجع السّابق:147).

17- التّماهي: هي عملية لاشعورية يتم فيها استدخال النماذج الأبوية إلى النّفس، وتمثل فصائلها فيكبر الطّفل على نمطها متغنيّاً بها وهي عملية تختلف جوهرياً عن المحاكاة (فرانسواز دولتو، المرجع السابق: 471).

18- حتمية نفسية Deteminsm: الحتمية مبدأ يقوم عليه العلم عامة، خلاصته أن لكل ظاهرة سبباً أو أسباباً وعوامل معينة، وكانت نتيجة الحتمية،

بمعنى آخر أن الظواهر لا تحدث مصادفة بل لكل شيء مقدماته وعوامله التي تكون بالصورة التي هو عليها.

وقد دلل "فرويد" على صدق هذا المبدأ وأيده من انطباقه على الوقائع النفسية المختلفة سواء في تفسيره الأحلام أو بيانه لكيفية تكوين الأعراض المرضية النفسية عند المرضى الذين عالجهم أو استشاروه للعلاج، بل إن طريقة "فرويد" في التّحليل النّفسي واستخداماته للتّداعي الطّليق مبنية على هذا المبدأ حيث تكون التّداعيات في سلسلة متصلة بالبناء النّفسي للمتداعين ومحتمة به وبظروفه وخبراته المختلفة، ومن هنا أمكن له تفسير التّداعيات واستنباط وظيفته لأغراض مرضية وكيفية تكوينها (فرج عبد القادر طه، مرجع سابق:478).

19- الجمود التّوتري Tomic Immobility: حالة من السّكون والامتناع عن النّشاط تحدث للكائن الحي من مواقف ضاغطة مثل حالات التعرض لمواقف مثيرة ضاغطة مثل حالات التعرض لمواقف مثيرة أو صادمة أو مهددة كنتيجة للرعب الشّديد المفاجئ والانفعال الغامر (المرجع السابق: 452).

20- خيالي (imaginary imaginaire): يستعمل "لاكان" المصطلح "خيالي" كاسم علم منذ العام 1936 (Ec،81). ومنذ البداية، يحيلنا المصطلح إلى الوهم، وإلى الافتتان والغواية، ويتصل تحديداً بالعلاقة المزدوجة بين الأنا والصورة المنعكسة. على أنه من الضّروري التّنبه إلى أنّ الخياليّ إلى جانب أنه يحتوي على إحالات إلى الوهم والغواية، إلا أنه ليس ببساطة مرادفًا لـ "وهمي"، بهذا المفهوم الذي يكون فيه الوهمي رمزاً لما هو فائض أو هامشي (Ec،723). فالخيالي بعيد عن أن يكون هامشياً إذ إنه يمتلك إسقاطات بالغة التّأثير على الواقعي، ولا نستطيع ببساطة إقصاءه جانباً متغلبين عليه. يغدو الخيالي واحداً من الأنظمة الثلاثة منذ العام (1953م) وصاعداً، ليشكل المثلث القائم في صدارة الأفكار "اللاكانية" متخذاً موقعه في مواجهة الواقعيّ والرمزيّ.

يواصل تَشَكّل الأنا، في طور المرآة تكوينَ قاعدة النّظام الخيالي، وبما أنّ

الأنا يتشكل في التماهي مع النّظير أو الصّورة المنعكسة، فإنّ التّماهي يمثل جانباً مهماً من النّظام الخيالي. الأنا والنظير يمثلان النّسق لعلاقة التّبادل الثّنائية وهما قابلان للتّبادل فيما بينهما.

إنّ معنى هذه العلاقة، حيث يتكوّن الأنا من خلال التّماهي مع الآخر الصّغير، هو أنّ هذا الأنا، سوية مع النّظام الخيالي بعينه، هما موضعا الاستلاب الجذريّ، "الاستلاب هو عنصر مكوّن للنّظام الخياليّ" هذه العلاقة، مزدوجة الطّابع بين الأنا والنّظير، هي علاقة نرجسية في أساسها، والنّرجسية سمة مميزة إضافية للنّظام الخيالي.

ويرافق النّرجسية دوما قسط من العدوانية، الخيالي هو دائرة الصّورة والمخيلة والأحبولة والافتتان.

والأوهام الأساسية للخيالي، هي تلك التي تتصل بالتّكامل والكمال والتّحكم الذاتي والثّنائية، وقبل كل هذا: التّشابه، ولهذا فإنّ الخياليّ هو مظاهر السّطح الخادعة، وهو هذه الظّواهر المرئية التي تُخفي البنى التّحتية، والتي هي مصدر هذه الظّواهر (هشام روحانا، مفاهيم لاكانية، موقع الآوان).

21- دال / دوالي Signifiant: استخرج "لاكان" هذا المصطلح من دراسة الألسنية. وفضل لكي يبين أن عمل التحليل يقوم أساساً على لغة الكلام. لمخرج للمتحلل الذي يعاني من أعراض إلّا عن طريق الكلام فبمجرد أن يطال هذا العارض عبر التّحليل بالكلمات التي تكون منها فلا بدّ عندئذ إلّا أن يتبدد هذا مع كل انفعالاته.

أفرد "لاكان" الدّال من الخبرة الفرويدية في علاجه للهستيريا لكي يجعل منه تكوينية لاواعية اعتباراً من أن العارض يتكون من سلسلة دوال لا واعية. وقد استطاع التّحليل النّفسي عبر فتح المجال للتّداعي الحر، أن يستدرج هذه الدوالي من حقلها اللاواعي إلى حقل الوعي كي يتملك بها المتحلل بدل أن كانت تتملك به سابقاً وأصبح واضحاً بالنّسبة إليه أن الذات لا تخرج إلى حيّز الوجود والتّعريف إلّا

عن طريق الدّال، ولكن الدال بحاجة إلى دال آخر يعترف بها، لذا قال "لاكان" التّحديد التّالي: الدال هو ما يمثل الذات بالنسبة لدال آخر، أي يستخرج الذات من العملية الانتقالية من دال إلى دال آخر ويشدد "لاكان" على استقلالية الدال وانفصالها عن مرجعية المعنى سيما عندما يرتبط بسلسلة من الدوال تكون في النهاية محتوى لا وعيه، حيث تكمن بها الذات حقيقتها الأولية وهذا هو هدف التحليل.

ولكن هذا الدّال يبقى مرتهناً بمدلوله وفي الوقت نفسه مفصولاً عنه بخط لا يمكن اختراقه إلّا في الذهان، دال – مدلول، ولا يعود ذلك إلى كون الإنسان حيواناً ناطقاً وكل كلمة تحمل في طياتها دالاً ومدلولاً، غائباً وحاضراً. عندما تقول فلان: فهو حاضر في الوقت نفسه الذي تلفظ اسمه، وفي الوقت نفسه أيضاً يعطي غيابه عن الحضور ما يميز الدّال في تعريفه عن الذات، هو الاختلاف عن الدّال التّالي. وهذا الفارق يشكل ميزة تجعله ينتقل من دال إلى دال آخر دون أن يلغي الفارق: د1– د2 – د3 – د4 ...إلخ كل واحد يختلف عن الآخر وهكذا.

وهذه ميزة اللغة لا تفتح آفاقاً واسعة لا يمكن لدال أن يستأصل المعنى النّهائي للمدلول، فالخط الفاصل يبقى قائماً، بما أن البداية في تكوين اللاوعي قائمة على الكبت البدائي، فإن الدّال الأول ينطلق من هذا الكبت البدائي المتمحور حول الفالوس، موضوع التّماهي الأولي في رغبة الأم، ولكن عندما يطال الفالوس الكبت يصبح في خانة النّقصان الاستحالة، لكي يحل ما يمثله دال رقم واحد (حب الله، المرجع السابق: 300).

22– دوغما / عقيدة، معتقد (Dogma): هي المبدأ الذي يتمسك به صاحبه ويؤمن بصوابه دون الاستناد إلى دليل. يقال العقديات: Dogmatsim هو فرع من علم اللاهوت يهدف الى تفسير عقائد دين ما. واليقينية الجزمية Dogmatism Dogma مذهب من يؤمن بقدرته على إدراك الحقيقة، فيتصلب بالرأي ويقطع به دون مناقشة أو تفكير، كذلك يدل على وجهة نظر مبنية على مقدمات غير ممحصة وافية...

23- الدّيمقراطيـة (Democracy): معناهـا هـو حكومـة الشّـعب، وهـي بمدلولها العام تتسع لكل مذهب سياسي يقوم على حكم الشّعب لنفسه، باختياره الحر لحكامه، وبخاصة القائمين منهم بالتّشريع، ثم برقابتهم بعد اختيارهم، ولما كان إجماع الشّعب مستحيلاً وبخاصة في أمور السّياسة والحكم، فإن حكومة الشّعب قد أصبحت تعني عملياً حكومة الأغلبية، كنظام متميز عن نظام الحكم الفردي ونظام حكومة الأقلية (642، المرجع السابق).

24- الرغبة Wish/Désir: تمثل أحد قطبي الصّراع الدّفاعي في المفهوم الدّينامي الفرويدي؛ حيث تنزع الرغبة اللاواعية إلى أن تتحقق من خلال استرجاع الإشارات المرتبطة بتجارب الإشباع الأولي، تبعاً لقوانين العملية الأولية، والتّحليل النّفسي بين كيف تتواجد الرغبة في الأعراض على شكل تسوية على غرار نموذج الحلم (حجازي، مرجع سابق: 260).

أما "جاك لاكان" فقد أوضح أن الرّغبة تولد من البون الفاصل ما بين الحاجة والطّلب، فهي غير قابلة لأن ترد إلى الحاجة المحضة، كما أنها غير قابلة لأن ترد إلى الطّلب بمقدار ما ترمي إلى فرض ذاتها دون أن تأخذ في الحسبان لغة الآخر ولا وعيه، إنما هي تتطلب الاعتراف القاطع من قبله (المرجع السابق).

والرغبة "Wish" تشير الرغبة في التّحليل النّفسي حسب التّعريف السابق إلى أحد قطبي الصّراع الدّينامي بين الرّغبة اللاشعورية التي تنزع للتّحقق ونقيضها وبخاصة نواهي الأنا الأعلى) وترتبط الرّغبة عادة بالآثار الذّكورية وقد تجد سبيلاً لإشباع الرغبة في شكل هلوسي بديل كما هو الحال بالأحلام أو في إشباع الرّغبة على مستوى تفعيلي في الانحرافات، أو في إشباع متخيل بديل كما في الأمراض النفسية.

وقد فرق "فرويد" بين الرّغبة والحاجة إذ رأى فرويد في الحاجة حالة من التّوتر الدّاخلي يتحقق إشباعها من خلال ذلك النّشاط النوعي الذي يحقق إشباعاً ملائماً لحاجة ما من قبيل ما نراه في الحاجة للطّعام وعن رغبات شعورية كالحاجة للنوم.

أمـا لاكـان فقـد فـرق بـين (الحاجـة Need، والطلـب Demand والرغبـة Desire) من وجهة نظر "لاكان" تتجه مباشرة نحو موضوع نوعي وتجد الإشباع من خلاله. بينما اللب يتشكل ويتجه للآخرين (الأشخاص) ومع استمرار الطلب في توجهه لموضوع ما، فإن هذا الموضوع يظل غير جوهري بالنسبة للطلب، اذ هو في جوهره طلب حب. وتظهر الرغبة في ذلك الشق الذي يفصل بين الحاجة والطلب، إذ لا يمكن ردها للحاجة فهي من خلال تعريفها ليست علاقة مع موضوع واقعي مستقل عن الشخص، بل هي علاقة بالمتخيل ولا يمكن بالمثل ردها إلى الطّلب إذ أنها تبحث عن استغلاله أو فرض ذاتها من غير أن تدخل في حسبانها لغة الآخر ولا شعوره، بل هي تلح على اعتراف مطلق من جانبه، لذا فالرّغبة لديه ما هي إلّا سرابية، من كونها دالة الطّلب (فرج عبد القادر طه، المرجع السابق:572).

الرغبة كمصطلح نفسي بصورة عامّة تشير إلى ذلك الدافع الشعوري أو اللاشعوري لبلوغ هدف ما وليس من الضروري أن تكون الرغبة مصحوبة بنزوع لتحقيق هذا الهدف.

25- الرّقابة Censors: تقوم الرّقابة بدور أساسي في اللاشعور كما لا يمكن إغفال جانب شعوري لها يتمثل في الانصياع الواعي لنسق القيم السّائدة بالمجتمع والمعايير الوالدية، وما تقوم به القوانين والتقاليد والأعراف وما إليها.

والرقابة في صميمها إنّما هي هذا النّشاط الذي يقوم به الأنا الأعلى في مقام أساسي تبعاً لنضجه أو صرامته، فيقف مناهضاً للرّغبة في الهو يواجه الرّغبات اللاشعورية والتّكوينات المتصلة بها، ويفرض على الأنا مواجهتها حتى لا تلح إلى الشعور. إن اعتبار الرّقابة من وظائف الأنا الأعلى، إنما يتصل بالمرحلة التالية من صدور كتاب الأنا والهو: 1923 Id"the and Ego the وفيها غير فرويد نظرته الطّوبغرافية فلم يقف عند الشعور واللاشعور والقبشعور وهي المرحلة التي كان الأنا فيها محور الأمر كله باعتباره ممثلاً لغرائز المحافظة على الذات (غرائز الأنا) في

مقابل غرائز المحافظة على النوع (الغرائز الجنسية) ومن ثم فقد كانت الرقابة من وجهة نظر فرويد آنذاك من وظائف الأنا، لكن كيف كان على الأنا أن يراقب نفسه وهو جوهر البناء النفسي؟! وكنتيجة لتدخل الرّقابة فإن المحلل النّفسي يهتم دوماً في مستدعياته، بقدر ما يهتم بالتّحوير والثغرات الناشئة عن الرقابة باعتبارها من مكونات الأنا الأعلى في العمليات اللاشعورية لا تنفي دوراً رقابياً يقوم به الأنا في معطيات الحياة اليومية في مستوى شعوري قد يتداخل معه اللاشعوري، بل إن الأخير هو دافعه الأصلي حيث البعد الدينامي للشخصية وجود جوانب لاشعورية في الأنا الأعلى بقدر لا ينفي دور الأنا في التوفيق السوي بين الرغبة ونقيضها، بين مبدأ اللذة – اللالذة ومبدأ الواقع (فرج عبد القادر طه، المرجع السابق:573).

26– الرّمزي (symbolic symbolique): يَظهر المصطلح رمزي، مُستعملاً كصفة، في كتابات "لاكان" المُبكّرة جدّاً (Lacan، 1936). يُحيل المصطلح في هذه النصوص المُبكّرة إلى المنطق الرمزيّ ومعادلات الفيزياء الرياضية (Ec،79).

في العام 1948 يُصَرح بأنّ للأعراض "معنىً رمزياً" (E،10)، ومع العام 1950 يكتسب المصطلح صبغة أنثروبولوجية، مثلاً عندما يقوم لاكان بكيل المديح لمارسيل موس (Mauss) لأنه أظهر أنّ بُنى المجتمع هي بُنى رمزية (Ec،132) تتّحد هذه التّمايزات المختلفة في مقولة واحدة عام 1953، ليبدأ "لاكان" باستخدام مفهوم الرّمزيّ كاسم علم، وليتحوّل هذا المفهوم عندها إلى واحد من الأنظمة الثّلاثة، والتي يستمر لاكان في المحافظة على مركزيتها في أعماله منذ الآن وصاعداً. يرغب النّظام الرمزيّ من بين هذه الأنظمة الثلاثة بالدّور الحاسم في التّحليل النّفسي.

فالمحللون النفسانيون هم "مهنيون يزاولون الوظيفة الرمزية" (E،72). عندما يتحدث لاكان عن "الوظيفة الرمزية" فإنّه يُوضح بأنّ مفهومه للنظام الرمزيّ يدين بالكثير للأعمال الأنثروبولوجية لـ "ك.ل. شتراوس" (ومنها يتم تبني المصطلح "وظيفة رمزية"؛ للنظر: (Levi-Strauss 1949a 203) ويستعير "لاكان" من

شتراوس بالتّحديد فكرة أنّ الوجود الاجتماعي يتخذ بُنيته بواسطة قوانين محدّدة، تُنَظّم علاقات القُربى وتبادُل الهدايا (انظر أيضاً: 1923 Mauss). إنّ كلاً من مفهوم الهديّة، ومفهوم دائرة التّبادل هما في صلب مفهوم النّظام الرّمزيّ "للاكان" بما أنّ المظهر الأكثر أساسية للتّبادل هو التواصل في حدّ ذاته (تبادل الكلمات، هبة التكلم)، وبما أنّ مفاهيم مثل القانون والبنية لا يمكن تعقلهما من دون اللغة، فإنّ الرّمزي من حيث الجوهر هو بُعدٌ لغوي. وبالتّالي، فإنّ جميع الجوانب ذات البنية الرّمزية في الممارسة النّفس- تحليلية تخصّ النّظام الرمزي.

على أنّ "لاكان" لا يساوي النّظام الرمزي باللغة، في مساواة تبسيطية، لا بل على العكس؛ فاللغة تُشرك البعد الواقعي والبعد الخيالي إلى جانب بعدها الرمزي. البعد الرمزي للغة هو الدّالّ: لا تمتلك العناصر في هذا البعد وجوداً وضعياً (positive existence) وإنّما قيامها المحض محكومٌ بقوة الفارق المتبادل فيما بينها.

الرمزيّ هو أيضاً مجال الآخروية (Alterity) الجذرية، والتي يسميها "لاكان" الـ آخر، واللاوعي هو خطاب هذا الـ آخر، ولهذا فإنّه تابع للرمزيّ بالكامل. الرمزيّ هو مجال القانون النّاظم للرّغبة في عقدة أُوديب. إنّه مملكة الحضارة، بالضّدّ من النّظام الخيالي التابع للطّبيعة. وفي الوقت الذي يتميّز فيه الخيالي بالعلاقات الثّنائية فإنّ النظام الرمزي يتميز بالبُنى الثلاثية. إذ إنّ مفهوماً ثالثاً دائماً ما "يتوسّط" في العلاقات البين- ذاتية، ألا وهو الـ آخر الكبير. النظام الرمزيّ هو أيضاً مجال الموت والغياب والنقصان. الرمزيّ هو أيضاً مبدأ اللذة، المتحكم بمسافة البعد عن الشيء. وهو دافع الموت القادم من "ما بعد مبدأ اللذة" بوساطة التكرار، وفي الحقيقة فإنّ "دافع الموت ما هو إلا قناع للنظام الرمزيّ". يتمتع النّظام الرمزيّ باستقلال ذاتيّ مطلق، فهو ليس بالبُنية الفوقية التي تحدّدها البيولوجيا أو الوراثة. إنّ علاقته بالواقعي علاقة اعتباطية بالمطلق لا وجود لأيّ سبب بيولوجي وبالتّحديد لأيّ سبب وراثيّ لتفسير الزّواج خارج المجموعة (exogamy). وفي النّظام الإنساني، نحن أمام انبثاق كامل لوظيفة جديدة تشمل النّظام بكامله

وبالتمام لهذا، وعلى الرغم من أنّ الرمزيّ يبدو وكأنه "ينبثق من الواقعيّ" كمُعطى أوّليّ، إلّا أنّ هذا ما هو إلا محض خدعة؛ "يجب ألا نفكر بأنّ الرموز أتت حقيقةً من الواقعيّ". إنّ تأثير النظام الرمزي الشمولي والجامع للكل، يؤدّي "بـ لاكان" إلى الحديث عن الرمزي كعَالَم: "في النظام الرمزي تُدعى الشّمولية عَالمياً بأن يحصل النظام الرمزي على صفته العالمية منذ البدء. ولا يبنى رويداً رويداً، ففي اللحظة التي يظهر الرمز فيها هنالك عالم من الرموز"(S2،29). لا وجود لها هنا، إذاً، للسؤال عن انتقال تسلسلي وتدريجي من الخيالي إلى الرمزي؛ فهما مجالان غريبان كليةً الواحد عن الآخر. وفي اللحظة التي يرتفع فيها النظام الرمزيّ، فإنه يخلق المعنى الذي كان فيه دائماً إذ إننا "نجد أنه من المستحيل كلية تخمين ما كان سابقاً له، من دون اللجوء إلى الرموز". لهذا السّبب لا وجود عملياً لأية إمكانية للتّفكير حول مصدر اللغة وكل ما كان قبلها، ولهذا فإنّ قضايا التّطور هي خارج نطاق التّحليل النّفساني.

ينتقد "لاكان" التّحليل النّفسي المعاصر له، لأنّه يتجاهل النظام الرمزي ويختزل جميع الأمور إلى الخيالي. من وجهة نظر "لاكان" ليس هذا سوى خيانة لاكتشافات "فرويد" الاكثر جذريةً: "اكتشاف فرويد هو هذا الاكتشاف لحقل التّأثيرات هذه، في طبيعة الإنسان النّاتجة عن علاقاته مع الرمزي. غض النّظر عن النّظام الرّمزي يعني الحكم على هذا الاكتشاف بالنسيان".

– يتناقض مفهوم "لاكان" للرمزي مع مفهوم "الرمزية" لدى فرويد تناقضاً كاملاً، فبالنسبة لـ "فرويد" توجد العلامة ضمن علاقة ثنائية – أحادية (bi-univocal) ثابتة نسبياً بين المعنى والشكل، ويقابلها المفهوم مؤشر (index) لدى "لاكان" (Freud 1900 SE V، حول الرّمزية في الأحلام)؛ فبالنّسبة له ما يميز الرّمزي هو تحديداً هذا الغياب لأية علاقة ثابتة بين الدّال والمدلول (هشام روحانا، مفاهيم لاكانية، موقع الأوان).

27– عقدة أوديب Oedipus Complex: جملة الرّغبات اللبيدية والعدوانية

التي يشعر بها الطفل تجاه والديه وتبلغ ذروتها في الحقبة بين ثلاث وخمس سنوات، تحدث "فرويد" عن عقدة أوديب السّالبة negative عندما يحل التعلق العشقي محل تلك المشاعر العدوانية التي يستشعرها الطفل تجاه والده من نفس الجنس.

تعبير عقدة أوديب لم يظهر في كتابات "فرويد" حتى سنة 1910 في مقالته أنماط خاصة من اختيار الموضوع قام به الرجال ضمن سلسلة مقالاته المعنونة "إسهامات لسيكولوجية الحب" (فرج عبد القادر طه، مرجع سابق: 787).

28- عقدة الخصاء: "فرويد" يعتبر أنّ الطفل كان ذكراً أم أنثى، يتعرض إلى التّهديد بالخصاء عندما يبلغ المرحلة القضيبية. أي يستقطب القضيب على كل الملذات ويحتل مكانة الأفضلية عندئذ ينتاب الطفل الخوف من فقدانه.

هذا الخوف من انفصال القضيب عن جسده، يتأكد عندما يدرك أن الفتاة لا تملكه، يعزز ذلك خبراته السّابقة الفموية: انفصال الثّدي عنه، والشرجية: انفصال الغائط عن جسده في خلال علاقته مع الأم. التغيّر والتّهديد الحاصل يأتي هذه المرة من الأب، على اعتبار أنّه المُحقّ والمالك لجسد الأم.

من المحرم إذاً أن تكون موضوع رغبة جنسية عند الابن، يصبح الطفل عندئذ أمام خيارين: إما الاحتفاظ بموضوعه المحرم (الأم)، فيتعرض للتّهديد بالخصاء وفقدان قضيبه، وإما الإقلاع والامتناع عن الأم فيحفظ قضيبه، ويوجّه استعماله لامرأة أخرى في المستقبل. أي يطال وظيفة الفالوس حد في متعتها وخيارها الجنسي. هذه العملية النفسية، رغم أنّها تحمل التهديد والخوف إلّا أنّها تحضر الطّفل إلى طريق المخرج الثّاني إلى حياة جنسية سوية، تؤمن له الاستقرار والطّمأنينة من متعة محدّدة.

أما مفهوم الخصاء عند "لاكان" فيتمثل بنقل العملية على المستوى الرمزي، وقد حددها عن طريق الموقع الذي يحتله الطّفل بالنسبة لنقصان الفالوس عند الأم، ويتبين "للاكان" بأنه لا فرق بين الطفل الذّكر أو الأنثى أمام هذا الموقع الرّمزي.

فكلاهما يواجهان نفس المشكلة، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار هذا الأمر

يتعدى القضيب بمفهومه التّشريحي، لكي يتحوّل إلى الفالوس في مفهومه الرّمزي. وهذا ما يسميه بالخصاء الرمزي.

أي أن الطّفل لا يستطيع أن يتماهى بالفالوس لكي يتمم نقصان الأم، ويكون معها وحدة متكاملة وهذا لا يحصل إلّا بالذهان، إنّما يدرك أن التّماهي يبقى ناقصاً، لأن رغبة الأم تتعداه لكي تؤكد أن ما يشبعها ويعوض نقصها، هو امتلاك الأب للقضيب أو أي رجل آخر. عملية الخصاء عند لاكان، تطال موقع الطفل الوجودي بالنسبة لعلاقته بالأم، وتفرض عليه التخلي عن التماهي الفالوسي، لكي يصبح هذا المكان بحكم الخسارة، أي نقصان لوجود، موضوع ضائع ألف يؤسس رغبته في مفهوم آخر سواء بالنسبة للفتاة أو للذكر: الإقرار بنقصان الأم بفضل تدخل الأب كعامل أساسي. ولكن تجب الإشارة في هذه العملية، التمييز بين الفتى والفتاة.

الفتاة: تنطلق من حرمانها لكي تحتل مكانة في العلاقة مع الرجل أي الفتاة تتماهى بجسدها بالفالوس وليس بذاتها. وبالنّسبة للذّكر: ينطلق من امتلاكه للفالوس دون أن يحتل مكانه. تجب الإشارة إلى خصوصية المجتمع الشّرقي: المحرمات الجنسية وبصورة خاصة المحرم الأول الأم تأتي بأمر إلهي – مما ينقل عملية الخصاء والالتزام، من حقلها التشريحي إلى الحقل الديني. (حب الله، المرجع السابق:296).

29- عقدة ابراهام أو "الأب الحامي": هذه العقدة التي تشير إلى الاستسلام لقيادة مطلقة، تدعو صاحبها إلى حياة داخلية صوفية، في اللحظات التي فيها تثقل مسؤولياته، لنجده ينقاد حتماً إلى تفويض أمره إلى الإلهام أو إن شئتم القدر، ومن ناحية أخرى تسليم أمره لمرجعية، تأخذ موقع الأب السّند الحامي، ومنحه الثقة ليتصرف، ويجد تصريفاً لواقع الحال الذي هو عليه، بحيث يمنحه قيادة مطلقة لمصيره، مما يجعل هذه القيادة المطلقة، تأخذ مواقف سيكولوجية أبوية، إلى الحدّ الذي يكون فيه الأب هو الرّئيس المطلق للسّلطة، والقائد لأتباعه، ففي اللحظات

التي تصل فيها السّلطة الأبوية أوجهها هذه، في حال يأمر فيها الأب الواقعي أو رموزه، بتضحية الابن، أي بذبحه، إما لكونه ابناً عاقاً في حال خالف مشيئته ونظامه، وإما لكونه الابن البار الذي يدافع عن الأب تلقائياً بدون أدنى تفكير على مبدأ الطّاعة والبرّ، هنا ما يحصل يكون مقدماً، كقربان أو ضحية لا مثيل لها تقدم للآلهة، ليغدو حلاً للمآزم النفسية التي استفحلت (فرج عبد القادر طه، المرجع السابق).

30- قانون Loi: استعمال سلطة القانون في التّحليل النّفسي لا تتطابق مع المفهوم الشّائع كما هو الحال عند القانونيين والمشرعين حول التّأويلات انطلاقاً من القوانين المكتوبة. إنما تتخطى هذه القوانين المعروفة والمكتوبة، لتطال القانون غير المكتوب والمتعارف عليه والذي كان مصدراً لكل القوانين المعروفة والمكتوبة، إنما تتخطى هذه القوانين المعروفة والمكتوبة، لتطال القانون غير المكتوب والمتعارف عليه والذي كان مصدراً لكل القوانين المنظمة للشّؤون الاجتماعية: وهو القانون المحرم الأساسي لعلاقة الأم بالابن.

وهو القانون غير المعلن، تبقى معرفته في اللاوعي، لأنه يرأس التّنظيم البنيوي للذات، والتّوازن اللبيدي، انطلاقاً من المحرم الأول. وهو المؤسس الأول لكل القوانين التي تشرع العلاقات الاجتماعية، لذلك يتبين في العمل العيادي، أن أي انتهاك له أو لمشتقاته، الأب والأخوات ...إلخ، يعدّ إثماً يهدد الخلية الأولى للعلاقة الاجتماعية، ويترتب عليه العديد من الاضطرابات المسلكية والليبيدية.

فالإنسان منذ ولادته يرتبط بعقد دين تجاه المجتمع على غير علم منه لأن دخوله وارتهانه بحقل اللغة يقتضي ذلك، فكل إنسان مديون للغة التي كونته. (حب الله، مرجع سابق:302).

31- جدلية "السيد والرغبة / السيد والعبد" (Deser/master):

غالباً ما يحيل "لاكان" في أعماله خلال الخمسينيات إلى "جدلية السيّد والعبد" التي عرضها "هيجل" في فنومنولوجيا الروح (1807). وكما في جميع الحالات

التي يوجّه فيها "لاكان" إلى هيجل فإنّه يعتمد قراءة الكسندر كوجيف لهيجل، والتي انكشف لها كمشترك في محاضرات "كوجيف" حول فلسفة هيجل في الثلاثينيات (للنظر Kojève، 1947).

وفقاً لـ "كوجيف" فإنّ جدلية السيّد والعبد هي نتيجة محتومة لحقيقة أنّ الرغبة لدى الإنسان هي الرّغبة في اعتراف الآخر به. ولكي يتمّ للذات الاعتراف بها، فإنّها بحاجة لأن تفرض تصوّرها عن نفسها على آخر، ولهذا فإنّ الذات موجودة في علاقة تناحرية مع الآخر، يتوجّب على هذا الصراع من أجل الاعتراف أي الحصول على "الهيبة الخالصة" أن يكون "صراع حياة أو موت" (للنظر S1، 223 وأيضاً Kojève، 1947:7).

إذ إنّ من يكون مستعداً بالفعل لأن يخاطر بحياته من أجل الحصول على هذا الاعتراف، هو وحده الإنسانيّ حقّاً. ومن الوجهة العملية فإنّ على هذا الصراع ألا ينتهي بمقتل أيّ من الطرفين، بما أنّ الاعتراف لا يتم إلا من قبل الأحياء، ينتهي الصراع إذاً عندما يستسلم أحد الطرفين متخلّياً عن رغبته في أن يتمّ الاعتراف به. المستسلم هو من يقرّ للمنتصر بـ "السيادة" متحولاً إلى "عبدٍ" له. وفي الواقع، فإنّ المجتمع الإنساني يغدو ممكناً فقط في الحالة التي يوافق فيها بعض الناس على عبوديتهم عوضاً عن الصراع حتى الموت، فمجتمع الأسياد غير قابل للوجود، بعد انتصاره يقوم السّيد بجعل العبد عاملاً منتجاً له. تتأتّى ثمار عمل العبد من التغيّر الذي يحدثه في الطّبيعة، ليقوم السّيد باستهلاك هذه الثّمار والتّمتّع بها. إلّا أنّ هذا الانتصار ليس انتصاراً مطلقاً كما يبدو للوهلة الأولى، ذلك أنّ العلاقة ما بين السّيد والعبد هي علاقة جدلية بطبيعتها لأنها تنفي موقِع الطّرفين.

فمن جهة أولى لا يأتي هذا الاعتراف الحاصل للسّيد من قبل إنسان آخر وإنّما من مجرّد عبد، منظوراً إليه من قبل السّيد كحيوان أو غرض، ولهذا فـ "إنّ الإنسان الذي يتصرّف كسيّد لن يبلغ الرّضا أبداً" (Kojève، 1947:20). في

المقابل يحصل العبد من خلال عمله على تعويض ما، إذ إنّه ومن خلال عمله يرتفع بمنزلته فوق الطّبيعة محولاً إياها إلى شيء مختلف عما قد كانت عليه سابقاً، من خلال قيامه بتغيير العالم يتغيّر العبد متحولاً إلى مبدع لذاته، بينما لا يستطيع السّيد ذاك إلا بتوسّط من العبد، يغدو التّطور التاريخي في هذه المرحلة "نتاجاً لعمل العبد العامل وليس السيد المحارب" (Kojève،1947:52). تقود العملية الجدلية في النّهاية إلى نتائج مناقضة وعكسية لما هو متوقع، إذ يجد السّيد نفسه في موقف غير مُرضي، "انسداد أفق وجودي"، بينما تتأتى للعبد إمكانية تحقيق حالة رضا حقيقي بوساطة هذا "التّجاوز الجدلي" لعبوديته.

يعتمد لاكان على جدلية السيد والعبد من أجل توضيح مجال واسع من القضايا. مثالٌ على ذالك، صراع الذات من أجل حصولها على الاحترام الخالص، الأمر المتعلق بالطّبيعة البين ذاتية للرّغبة، ووفقاً لهذا فإنّ ما هو مهمّ للرّغبة هو تحصيل الاعتراف من الآخر، الصّراع حتى الموت يمثّل الطّبيعة العدوانية المنقوشة في العلاقة ما بين الذات والمثيل (E، 142). وأيضاً عندما "ينتظر العبد موت السيّد بخنوع (E، 99) فإنّه كمثيل للمصاب بالعصاب القهري، المتميّز بالتردّد وعدم الحسم (S1، 286). يستعمل لاكان جدل السيد- العبد منظّراً لخطاب السيّد. وفقاً لصياغته فإنّ السيد هو الدال (S1)، الذي يستغلّ العبد (S2) لكي ينتج قيمة إضافية (a)، ليتملّكها لنفسه. الدال سيّد يمثّل الذات أمام سائر الدوالّ، ويمثّل خطاب السّيد إذاً محاولة للتّعميم، لهذا فإنّ "لاكان" يربط خطاب السّيد بالفلسفة والأنطولوجيا متلاعباً على التّناظر السماعي لـ (maître) و(m’être) "سيّد" و"أن يكون لي"، S20، 33).

لكنّ الفشل هو مصير هذه المحاولة، إذ إنّ الدال سيّد ليس بمقدوره أبداً أن يشمل الذات كاملة، هنالك دائماً فائضٌ يَفِرُّ دون أن يتمثل بالكامل. (هشام روحانا، مفاهيم لاكانية، موقع الأوان: 2010).

32- الصّورة الذات Self-Image: تمثّل تصوّر الفرد لذاته وإمكانياته

وخصائصه وسماته واستعداداته، ومجمل ما على شخصيته، وكلما كانت صورة الفرد عن ذاته قريبة من الواقع توقعنا له النجاح والتوفيق والتوافق (طه، 699).

33- صراع نفسي / مأزم نفسي Psychical Confict: يتم الحديث عن الصّراع النّفسي في التّحليل النّفسي حين تتجابه عند شخص ما متطلبات داخلية متعارضة، وقد يكون الصّراع صريحاً بين رغبة ومطلب أخلاقي مثلاً، أو بين شعورين متناقضين أو شعور كامن، حيث يمكن أن يظهر في تكوين الأعراض وفي اضطرابات السّلوك واضطرابات الطبع ...إلخ. والتّحليل النّفسي يعتبر أن الصّراع هو من شروط تكوّن الإنسان وذلك من منظورات متعددة: صراع بين الرّغبة والدّفاع صراع بين الأنظمة والأركان صراع بين النّزوات، وأخيراً الصّراع الأوديبي حيث لا تتجابه الرّغبات المتعارضة فيما بينها فقط، إنّما تجابه التّحريم أيضاً (المرجع السابق: ص304).

34- الطّوطم (Totem): حيوان أو نبات أو جسم محسوس ينظر إليه الرّجل البدائي في احترام وخشوع دون أن يكون هناك سبب معقول يدفعه لذلك، ويعتقد الناس في القبائل الطّوطمية أنهم ينحدرون من ذلك الطّوطم، كما تسمى القبيلة باسمه، أي أن الطّوطم عندهم هو رمز للأب أو الجد وبديل عنه.

35- الكف (Inhibition): الكف هو التّعطيل وفق المعنى اللغوي، أو الإيقاف والانصراف عن الشيء، وهو في الإنسان كف لنشاط حركي أو افرازي، أو انفعالي أو ذهني. وقد يكون شعورياً لدافع غريزي بعينه فهو آنذاك قمع أو هو كف لاشعوري يفرق "فرويد" بينه وبين العرض، إذ قد توجد كفوف بلا أعراض، وكأنه يقصر مصطلح الكف على الوظيفة دون أن يكون بالضّرورة شيئاً مرضياً، فهو والحالة هذه تقييد وظيفي للأنا، ذلك التّقييد الذي يعود لأسباب عديدة منها أن يكون تجنباً للصراع مع الهو، وقد يرجع الكف إلى أنه تقييد وظيفي للأنا. ونقول قد يرجع للمصالحة مع الأنا الأعلى تجنباً للصّراع معه، عندما يكون الأنا الأعلى شديد الصرامة (التّحليل النّفسي ماضيه ومستقبله، 648).

36- لبيدو Libido: في اللاتينية يعني المصطلح الشهوة أو الرغبة، ويصرح فرويد بأنه قد أخذه عن "أ. مول"، وقد افترض فرويد أن هذه الطاقة أساس لتحولات النزوة الجنسية من حيث الموضوع (إزاحة التّوظيفات) ومن حيث الهدف كالتّسامي مثلاً، ومن حيث مصدر الإثارة الجنسيّة / تنوّع المناطق المولّدة للغلمة، أما عند يونغ فاتسعت فكرة اللبيدو كبديل عن الطّاقة النفسيّة عموماً والماثلة في كل ما هو (نزعة نحو، أو شهوة) لشيء ما. (حجازي، قاموس المصطلحات: 428).

37- اللاشعور Unconsious: هو دلالة مميزة لنظرية التّحليل النّفسي، أثبت فرويد وجود العمليات اللاشعورية التي تقوم بدور أساسي في الحياة النفسية وتتصل اتصالاً وثيقاً بالحياة النفسية الشعورية. ولقد فرق فرويد بين القبشعور والذي يسهل استدعاؤه، واللاشعور المتصل بعالم المكبوت، حيث إن جوهر عملية الكبت لا تتمثل في إلغاء أو تدمير التمثل الفكري للدافع الغريزي، وإنما منعه من أن يصبح شعورياً.

وبذلك أصبح اللاشعور في ضوء نظرية الغرائز قاسماً مشتركاً في الأجهزة النفسية كافة، فهو كله لاشعوري والأنا الأعلى جله لاشعوري، بينما الأنا في جانب منه لاشعوري، وهو ذلك الجانب الذي يقوم بالتحريف والدفاعات. (التحليل النفسي ماضيه ومستقبله، 646).

38- مثال الأنا "الأنا المثالي" (Ideal ego): هو تكوين نفسي داخلي يفرقّه بعض الكتاب عن المثال الأعلى للأنا، ويعرفونه كمثل أعلى للجبروت النرجسي المبني على غرار النرجسية الطفلية. فقد أكد "دانيال لاجاش" على أهمية التمييز ما بين قطب التماهيات التي يمثلها الأنا المثالي، وبين الثنائي المكوّن من المثل الأعلى للأنا – والأنا الأعلى. يتعلق الأمر بالنسبة إلى "لاجاش" بتكوين نرجسي لا واع، إنما لا يتطابق مفهوم "لاجاش" مع مفهوم "نانبرج" حول هذه المسألة: لا يتلخص الأنا المثالي باعتباره مثلاً أعلى للجبروت النرجسي بمجرد اتحاد الأنا مع الهو، بل هو يتضمن تماهياً أولياً مع كائن آخر يحاط بالجبروت، أي مع الأم.

ويقوم الأنا المثالي بدور السّند لما وضعه "دانيال لاجاش" تحت اسم "التّماهي البطولي" أي التّماهي بأشخاص خارقين وذوي شهرة عريضة وتبعاً لـ "دانيال لاجاش" أيضاً، فإن الأنا المثالي يتجلى من خلال الإعجاب المتطرف بعظماء الشّخصيات التاريخية أو المعاصرة التي تتميز باستقلاليتها، وكبريائها وسطوتها.

وتبدأ ملامح الأنا المثالي بالارتسام والظهور مع تقدم العلاج، باعتباره تكويناً متمايزاً على المثل الأعلى للأنا، ويحمل تكوين الأنا المثالي، بالنسبة إلى "لاجاش"، مضامين سادو مازوشية، وخصوصاً تلك التي تلغي الآخر، إلغاء يتلازم مع توكيد الذات. "جاك لاكان" يؤكد على أن: الأنا المثالي يشكل تكويناً نرجسياً أساسياً، يجد أصله في مرحلة المرآة، وينتمي إلى السّجل الخيالي.

39- الموضوعية Objectiveness: هي إدراك الأشياء على ماهي عليه دون أن يشوهها نظرة ضعيفة أو أهواء أو ميول أو مصالح أو تحيزات أو حب أو كره.. وهي الإيمان بأن لموضوعات المعرفة وجوداً مادياً خارجياً في الواقع، وبأن الحقائق يجب أن تظل مستقلة عن قائليها ومدركيها، وبأن ثمة حقائق عامة يمكن التأكد من صدقها او كذبها، وان الذهن يستطيع أن يصل إلى ادراك الحقيقة الواقعية القائمة بذاتها مستقلة عن قائليها ومدركيها، وبأن ثمة حقائق عامة يمكن التأكد من صدقها أو كذبها، وأن الذهن يستطيع أن يصل إلى إدراك الحقيقة الواقعية القائمة بذاتها مستقلة عن النفس المدركة إدراكاً كاملاً، وأن بوسعه أن يحيط بها بشكل شامل، هذا إن واجه الواقع بدون فرضيات فلسفية أو أهواء مسبقة، فهو بهذه الطّريقة يستطيع أن يصل إلى تصور موضوعي دقيق للواقع يكاد يكون فوتوغرافياً (التّحليل النفسي، ماضيه ومستقبله، 648).

40- النّرجسيّة Narcissism: إنها الحب الموجه إلى الذات استناداً إلى أسطورة نرسيس اليونانية، استخدمها "فرويد" أول مرة عام 1910 لبيان اختبار الموضوع عند الجنسيين المثليين، يتخذون من أنفسهم موضوعاً جنسياً ينطلقون من النّرجسية، ويبحثون عن غلمان يشبهونهم كي يتمكنوا من حبهم كما سبق لأمهاتهم

أن أحبتهم هم أنفسهم، هذا الاكتشاف أدى بـ "فرويد" إلى طرح وجود مرحلة وسيطة من التّطور الجنسي ما بين الغلمة الذاتية وبين محنة الموضوع، كما في حالة "شرايبر " 1911، حيث يتخذ الشّخص من ذاته نفسه ومن جسده الخاص موضوعاً لحبه، مما يتيح توحيد أول للنزوات الجنسية وتبرز وجهات النظر نفسها هذه في كتاب الطّوطم والمقدس عام 1913 وهناك حالات للنّرجسية منها:

41- النّرجسية الأولية: تتصف بالغياب الكلي للعلاقة مع المحيط، وبحالة من اللاتمايز التام بين الأنا والهو وتجد هذه الحالة نموذجها الأول في الحياة الرحمية والتي يمثل النوم استعادة لها تتفاوت في درجة كمالها، وهناك النّرجسية الثانوية المسحوبة من الموضوعات (حجازي، قاموس المصطلحات : ص513).

42- النّفي Negation: يمثل أحد وسائل الدفاع التي يدافع بها الشّخص عندما تبين إحدى الرغبات أو الأفكار أو المشاعر التي لا تزال مكبوتة حتى لحظة البوح بها، ولكنه يواصل إنكاره لها ونفيه إياها من قبيل أن يقول مريض نفسي مثلاً دون مناسبة أو في غير سياق مستدعياته قوله: إني أكره أمي ثم يستدرك قائلاً لا، لا أنا لا أكرهها... وهكذا فإن مشاعره التي باح بها في هفوته والتي تحمل معنى دلالة سرعان ما ينفيها (فرج عبد القادر طه، قاموس المصطلحات: ص129).

43- نضج انفعالي Emotionl: هو ارتقاء الفرد بضبط انفعالاته وتناسبها مع مستوى عمره الزمني وخبراته وطبيعة المواقف المتغيرة بحيث تتفق استجاباته الانفعالية مع ما هو متوقع من طاقة محددة ومتناسبة مع الموقف، وهذا يعني أن يكون الفرد متميزاً بالثبات والمثابرة والصبر والواقعية والقدرة على الاحتفاظ باتزانه وهدوئه في مختلف المواقف والظروف للوصول إلى حلول واستجابات مناسبة للموقف (المرجع السابق، ص1276).

44- نظام (order/ordre): على الرغم من أنّ "لاكان" كان قد بدأ باستعمال المصطلحات "رمزيّ" و"خياليّ" و"واقعيّ" في مرحلة مبكرة من حياته العملية، إلّا أنه وفقط في العام 1953، يبدأ بالحديث عنها كثلاثة "أنظمة" أو ثلاثة

"مستويات". منذ ذلك الحين وصاعداً تتحوّل هذه المصطلحات إلى منظومة التّشخيص الرّئيسة، التي تدور حولها تنظيراته بمجملها (روحانا، 2010).

45- هذيان / هلوسة (Hallucination): تمثّل مدركات حسية لا وجود لها في الواقع الخارجي، ففي حالة الهلوسة يحس الفرد أحاسيس ليس لها مقابل حقيقي في العالم الخارجي، أي ليست واردة من منبهات حقيقية، كأن يحس المريض بأن شخصاً معيناً يناديه أو يحادثه، وهو في هذه الحالة يراه ويسمع صوته ويتلقى عنه وينقل اليه. ويكون المريض في مثل هذه الحالات مصدقاً لكل ما يحس به. ولهذا تعتبر الهلوسة من الأعراض المرضية الخطيرة شأنها شأن الهذار، يغلب أن يميز معاً مريض الذهان (حسين عبد القادر، محمد النابلسي، التّحليل النّفسي ماضيه ومستقبله: 650).

عندما لا تكون هنالك إمكانية لضم أمر ما إلى النّظام الرّمزي، كما في الذّهان فإنه قد يعود في الواقعي على صورة هذيان (S3،321). تحاول هذه الملاحظات تقصي جزءً من استعمالات "لاكان" الأساسية لمقولة الواقعي، لكنها أبعد من أن تحيط بكل تعقيدات هذا المصطلح، يدأب "لاكان" عملياً على محاولة الحفاظ على الواقعي، كنظام غامض وغير قابل للإحاطة من بين أنظمته الثّلاثة، إنه يتحدث عنه أقلّ بكثير ممّا يتحدّث عن النّظامين الآخرين، فيجعله موقعاً للاتحديد الأقصى (Indeterminacy). لهذا فمن غير الواضح أبداً، فيما إذا كان الواقعي خارجياً أم داخلياً، أو فيما إذا كان قابلاً للإدراك أو عرضة للنقد. (هشام روحانا، المرجع السّابق).

46- هوام Fantasme: سيناريو خيالي يكون الشّخص حاضراً فيه، وهو بطريقة تتفاوت في درجة تحويرها بفعل العمليات الدّفاعية، تحقيق رغبة ما، وتكون هذه الرغبة لاواعية في نهاية المطاف.

يظهر الهوام بوجوه مختلفة: فقد يكون هوامات واعية، أو أحلام يقظة، أو هو يكون هوامات لاواعية يكشف عنها التحليل كبنى كامنة خلف محتوى ظاهر، أو قد يكون هوامات أصيلة (حجازي: معجم مصطلحات التحليل النفسي:573).

تكونت فكرة الهوام عند "فرويد" بعد تأكده من فشل نظرية النيروتيكا أي الإغواء، فقد اعتبر انطلاقاً من هذا الاكتشاف، أن مصدر العصاب لا يحصل من أثر الأحداث في الطّفولة، صحيحة كانت أم وهماً، إنما من الهوام المتكون وهو كناية عن سيناريو بقي محفوظاً في المخيال، يطاله الكبت ولكن يبقى فاعلاً وناشطاً في سلك الشخص وفي إنتاج عوارضه العصابية، وهذه الحيوية المميزة تعود إلى محرك الرّغبة الذي يحتوي الهوام موضوعها. الهوام يتحرك انطلاقاً من أحلام اليقظة الواعية لكي يطال التّمثلات اللاواعية التي تنظم حياتنا النفسية.

حيث يأتي كشف النّقاب عن هذه الهوامات من الأهداف الجلية للعمل النّفسي التّحليلي. لكي يخرجها من حيز اللاوعي حيث لا سلطة للمتحلل عليها، إلى حيز الوعي كي يتمكن من السّيطرة عليها، بعد أن يتبين له أن اكتشاف الذات القابعة وراء سيناريو الهوام، فقد اعتبر فرويد أن طبيعة الهوام هي في الأصل لغوية وهذا ما يؤكده العمل العيادي: إذ جملة تأتي في سياق الكلام لكي تعبر بوضوح عن الهوام يرمز "لاكان" بالتالي: (a < > $). الفاصل بين التّقارب والتّباعد.

إضافة الى ذلك ذهب "لاكان" إلى التأكيد بأن هنالك هوامات عديدة، ولكن تؤدي في النّهاية إلى "هوام أساسي" حيث تقبع الذات اللاواعية متخفية. والهوام الأساسي هو بمنزلة النّواة المرضية عند "فرويد" وهو في نظر "لاكان" يشكل بالنّسبة للذّات النّافذة التي يرى من خلالها العالم الخارجي.

ومن هنا تأتي أهمية كونه المستهدف في كل عمل تحليلي، حيث الغاية ليست إزالته لأنه تأسيس لا يزول، إنما التعامل معه على بنية من أمره، تخفيف أو توقيف الانزلاق به أو تهميشه (حب الله، المرجع السابق:306).

47- الهو / الهي Id: الجهاز الذي يمثل الشخصية عند ولادتها قبل أن تحدث لها أية تحويرات أو تعديلات نتيجة لاحتكاكها بالبيئة ولتراكم خبراتها وتجاربها مع الواقع.. مصطلح الهو ينشأ ويتبلور في نظرية التّحليل النّفسي أساساً والهو مستودع الطاقة والغرائز، ويعمل وفق مبدأ اللذة طلب اللذة العاجلة بأية وسيلة

دون اعتبار لواقع أو تفكير في عواقب وتمثل فيه الغرائز والدّوافع اللاشعورية، الأهمية والوزن الأساسيين.

الهو في نهاية الأمر يمثل الجانب التاريخي القديم في الشخصية وهو يصاحب الشخصية كجزء منها أو الجهاز فيها طالما ظلت حيّة، وهو لا يقيم وزناً للمنظر أو التفكير العقلاني أو الظّروف الواقعية، بل يتسم بمنطق فج بدائي لا يعترف بواقع أو عقلانية ويتساوى أن نعامل المصطلح كمذكر أو كمؤنث في كتابتنا ونطقنا (فرج عبد القادر طه، 1318).

48- واقعي (réel/real): يظهر المصطلح "واقعي" لأول مرّة كاسم علم لدى "لاكان" في مقالة له نشرت عام 1936.

لقد كان هذا المصطلح شائعَ الاستعمال لدى بعض الفلاسفة المعاصرين له، وشكل لبّ مقالة ألفها "إميل مايرسون" (والذي يشير إليها "لاكان" في مقالته من عام 1936،Ec،86). يُعرف مايرسون الواقعي على أنه "المطلق الوجودي، الوجود الحقيقي في ذاته" (Meyerson 1925، 79، مذكور في Roustang 1986،61). يذهب "لاكان" في نقاشاته حول الواقعي إذاً في أعقاب تقليد متعارف عليه لدى تيار فلسفيّ محدد، مطلع القرن العشرين. إلا أنّه وبينما كانت هذه هي ربما نقطة انطلاق، فإن المصطلح يمرّ، خلال سنوات إنتاجه، بتغيرات عديدة في معانيه واستخداماته (هشام روحانا، المرجع السابق).

ويتميز الواقع عن الواقعي (réel) وحسب المفهوم "الفرويدي" هنالك الواقع النّفسي الذي من خلاله نرى الواقع الخارجي، والاثنان يتداخلان معاً حيث تلعب الأنا دور الوسيط.

أما بالنّسبة إلى "لاكان": فإنّ هذا الواقع لا نستطيع أن نطاله إلّا عبر الواقعي عن طريق تخيله (حب الله: مرجع سابق:307).

المراجع العربية والأجنبية

1- أبيض، ملكة (1984): الثّقافة وقيم الشّباب، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السّورية.

2- أبو لطيف، ديب (1986): الوعي والانتماء، ديب أبو لطيف، مطبعة الصباح، ط1، دمشق .

3- أحمد شحاتة، منال (2000): الأبوة وعلاقتها بتعاطي الأبناء للمخدرات، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة عين شمس.

4- أحمد عدس، عبد الرحمن (1997): دور العاطفة في حياة الإنسان، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، عمان.

5- أسعد، وجيه (1992): مدارس التّحليل النّفسي مجموعة مؤلفين، ترجمة: وجيه أسعد. وزارة الثّقافة والإرشاد القومي، دمشق.

6- البعداني، فؤاد عدد (2011): الحوار تربية وثقافة. 22 يناير – فبراير صنعاء، الصحوة نت – متابعات.

7- إبراهيم، عبد الستار (1985): العلاج النفسي (تدريب الثقة وتأكيد حرية التعبير عن المشاعر). WWW.hayatnafs.com

8- الجابري، محمد عابد (1994): نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، الطّبعة الثّانية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

9- الدمرداش، عادل (1982): الإدمان مظاهره وعلاجه: عالم المعرفة، العدد ستة وخمسين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

10- السّامرائي، صادق (2013): القانون والسّلوك. (الشّبكة العربية للعلوم النفسية www.arabpsynet.com).

11-العروي، عبد الله (1983): مفهوم الأيديولوجيا، المركز الثّقافي العربي، الدار البيضاء.

12- الفقي، إبراهيم (2008): البرمجة اللغوية العصبية وفن الاتصال اللامحدود، ط1، إبداع للإعلام والنشر، جمهورية مصر العربية، القاهرة.

13- باريخ، بينجو (2007): التنموع الثقافي والنظرية السياسية، ترجمة: مجاب الإمام، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق.

14- بيضون، عزة شرارة (1998): صحة النّساء النفسية بين أهل العلم وأهل الدين، دار الجديد، ط1.

15- تمبل، كرستين (2000): المخ البشري، مدخل إلى دراسة السّيكولوجيا والسّلوك. ترجمة: د. عاطف أحمد. سلسلة عالم المعرفة، عدد (287) شهر تشرين ثاني.

16- توماس، بلاس (1990): العنف والإنسان. ترجمة: عبد الهادي عبد الرحمن. دار الطّليعة، بيروت.

17- حب الله، عدنان (1996): جرثومة العنف، دار الطّليعة، بيروت.

18- حب الله، عدنان (2003): العنف الأهلي: دار العلم، ط1.

19- حب الله، عدنان (2004): التّحليل النّفسي للرجولة والأنوثة من "فرويد إلى لاكان". ط1. بإشراف المركز العربي للأبحاث النفسية والتّحليلية. دار الفارابي.

20- حب الله، عدنان، وصفوان، مصطفى الله، تقديم أدونيس، (2008): إشكاليات المجتمع العربي "قراءة من منظور التّحليل النفسي" المركز الثّقافي العربي الدار البيضاء – المغرب.

21- حب الله، عدنان (2009) أيار: خلاصة إحدى سيمنارات المركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية حول: الرغبة واللذة والمتعة.

22- حب الله، عدنان (2009): النرجسية القاتلة، بحث مقدم إلى مؤتمر مركز الأوائل للتأهيل النفسي التربوي سوريا – دمشق.

23- حجازي، مصطفى وآخرون (1990): ثقافة الطفل بين التغريب والأصالة، ط1، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط.

24- حجازي، مصطفى (2000): الصحة النفسية منظور دينامیكي تكاملي للنمو في البیت والمدرسة. المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى.

25- حجازي، مصطفى (2005): الإنسان المهدور. ط1. دراسة تحلیلیة نفسیة اجتماعیة. المركز الثقافي العربي. بیروت.

26- حريقة، بُولا (2001): موسوعة الأسرة الحدیثة: اجتماعیة من الحمل حتى البلوغ. دار نوبلیس. ط1.

27- حمید، حشلافي (2009): التحرش النفسي في الوسط المهني، دار الغرب للنشر والتوزیع.

28- حواشین، مفید نجیب (1991): النمو الانفعالي عند الطفل. دار صفاء للنشر والتوزیع، عمان.

29- جبران، محمد مرعي (2013): أولویة مهارة الإصغاء على مهارة الحوار موقع سیكوجیا كلینیك..

30- جواد، خزعل (1986): ملاحظات حول مسیرة الدّیمقراطیة في الوطن العربي. مجلة الوحدة، مجلة فكریة ثقافیة شهریة تصدر عن المجلس القومي للثقافة العربیة، السنة الثانیة العدد 18 آذار.

31- جیه كوینج، دلاري (2007): التربیة الذّكیة. ط3 حقوق التّرجمة والنّشر والتّوزیع محفوظة لمكتبة جریر.

32- دوتش، هیلین (2007): ترجمة: اسكندر جرجي معصب. علم نفس المرأة، مؤسسة مجد للنشر، بیروت، ط1.

33- دولوز، جیل (1998): نیتشه: ترجمة: أسامة الحاج المؤسسة الجامعیة للدراسات بیروت.

34- روحانا، هشام (2013): مترجم عن كتاب:

An Intrudicionary Dictionary of Lacanian Psychoanalysis

لمؤلفه Dylan Evans. تحت المجهر، قدیتا للنشر والإنتاج، عكا.

35- روحانا، هشام (2010): مفاهيم أساسية في نظرية / لاكان للتحليل النفسي. موقع الأوان.

36- ساتر، فرجينا (2009)، المهارات ما بين الأشخاص، إعداد "محمد هشام أبو القمبز، دار المعرفة - تاريخ تطور الوظائف النفسية العليا، تأليف: فيغوتسكي، ترجمة: د. بدر الدّين عامود، وزارة الثقافة السّورية، الهيئة العامة للكتاب، دمشق.

37- سارتر، جان بول (1960): نظرية في الانفعالات، تأليف: جان بول سارتر، ترجمة: سامي محمود على، دار المعارف القاهرة.

38- سعيد، ادوارد (1999): السيف والقلم: د. ادوارد سعيد، حوارات مع دافيد بارساميان، ترجمة توفيق الأسدي، دار كنعان، دمشق.

39- سكينر، ب، ف (1980): تكنولوجيا السلوك الإنساني، ترجمة: د. عبد القادر يوسف، مراجعة، د. محمد رجا الريني، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، عدد 32.

40- شريم، رغدة (1999): نظرية أريكسون في النمو النفسي الاجتماعي وتطبيقاتها في العمل النفسي. كلية العلوم التربوية، الجامعة الأردنية، دورة الإرشاد النفسي في كلية التربية جامعة دمشق.

41- شلتر، داون (1983): نظريات الشخصية. ترجمة: حمد دلي الكربولي وآخرون. جامعة بيروت.

42- شيدلنجر، سول (1970): التّحليل النّفسي والسّلوك الجماعي، ترجمة سامي محمود على، دار المعارف، القاهرة، ط2.

43- صفوان، مصطفى (2008): شخصية الجانح في ضوء نظرية التحليل النفسي، أوراق فلسفية، عدد خاص، حول "لاكان".

44- طه، فرج عبد القادر (2009): موسوعة علم النفس والتّحليل النّفسي، تأليف: د. فرج عبد القادر طه، د. شاكر عطية قنديل، د. حسين عبد القادر محمد، العميد مصطفى كامل عبد الفتاح. مكتبة الأنجلو المصرية. ط1. القاهرة.

45- طه النعمة، طه (2009): استشاري الطّب النّفسي في مفوضية اللاجئين للعراقيين في سوريا، محاضرة في لقاء علمي في دمشق حول النّرجسية.

46- ضومط، ريما (2006): أهمية التواصل والحوار في علاج آثار العنف، مجلة الجيش اللبناني عدد 254.

47- عباس، فيصل (2004): الإنسان المعاصر في التحليل النفسي الفرويدي.

48- عباس، فيصل (2009): الموسوعة الكبرى لعلم النّفس والتربية، الجزء الرابع عشر، سيكولوجية العنف (القوة والعنف المعاصر) الجزء الرابع عشر. ط1، مركز الشّرق الأوسط الثّقافي.

49- عبد الدايم، عبد الله (1991): نحو فلسفة تربوية عربية، د. عبد الله عبد الدّايم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

50- عبد القادر، حسين، النابلسي، محمد (2002): التحليل النفسي ماضيه ومستقبله. ط1. دار الفكر المعاصر، بيروت.

51- عسكر، عبد الله (1988): الاكتئاب، الاكتئاب النفسي بين النظرية والتطبيق، مكتبة الأنجلو المصرية.

52- علواني، عبد الواحد (1997): تنشئة الأطفال وثقافة التنشئة. دار الفكر المعاصر.

53- علي، نبيل (2009): العقل العربي ومجتمع المعرفة "مظاهر الأزمة واقتراحات بالحلول / الجزء الاول، عالم المعرفة 369. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت.

54- فرانسواز، كولان (2006-2007): "صيرورة المؤنث" في الذكورة تبعاً للفلسفة المعاصرة. كتاب باحثات، الكتاب الثاني عشر عنوان الكتاب: تفكيك مفهوم الذكورة المهيمنة.

55- فرج، فرج أحمد (2007): التحليل النفسي وقضايا العالم الثالث. ط1. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة.

56- فرويد، آنا (1972): الأنا وميكانيزمات الدفاع، تأليف: آنا فرويد، ترجمة: صلاح مخيمر وعبده رزق، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

57- فروم، إيريك (2003): الإنسان المستلب وآفاق تحرره، ترجمة وتعليق حميد لشهب. الرباط.

58- فرويد، سيغموند (1917): الحداد والسّوداوية في أفكار لأزمنة الحرب والموت، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1986م.

59- فوكوياما، (1993) نهاية التاريخ والإنسان الأخير: ترجمة فؤاد شاهين، مركز الإنماء القومي، بيروت.

60- قرم، جورج (2007): المسألة الدّينية في القرن الواحد والعشرين "دار الفارابي، بيروت، لبنان ط1، 2007 م.

61- لابلانش، جان، بونتاليس، ج. ب (1985). معجم مصطلحات التحليل النفسي. ترجمة مصطفى حجازي. ط1. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان.

62- لابوسيه، اتين دي (2002): العبودية المختارة. ترجمة: مصطفى صفوان، ط1. المركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية، تقديم: بروفسور عدنان حب الله.

63- لوبون، غوستاف (1997): سيكولوجية الجماهير، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي، ط2، بيروت، لبنان.

64- مبيض، مأمون (2003): الذّكاء العاطفي والصّحة العاطفية: المكتب الإسلامي، بلفاست - المملكة المتحدة.

65- محمد، فتحي محمد (2011): إدمان المخدرات والمسكرات بين الواقع والخيالي من منظور التّحليل النّفسي اللاكاني، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

66- مخيمر، صلاح (1969): نظرية التّحليل النّفسي في العصاب، ترجمة صلاح مخيمر، عبدة ميخائيل، الجزء الأول، الأنجلو المصرية، القاهرة.

67- مخيمر، صلاح (1981): عن الذاتية والموضوعية في علم النفس، تأليف: صلاح مخيمر، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة.

68- مكي، عباس (2007): ديناميــة الأسـرة فـي عصـر العولمـة، ط1. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

69- مـــور، بـــارنغتون (1973): الجـــذور الاجتماعيـــة للديمقراطيـــة والديكتاتورية. ترجمة جورج جحا. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت.

70- موقـع منتـدى الـدّين والحيـاة (2012): الهويـة والانتمـاء إلـى الـدين والوطن.

71- مجموعـة من المؤلفين (1990): مسؤولية المفكر العربـي إزاء قضـية الطّفولة، معهد الإنماء العربي، بيروت.

72- ندا، عادل (2009): الآثار النفسية للتعذيب الكامن من خلف سلوك التعذيب دراسة تحليلية. موقع الحوار المتمدن العدد 2536، 2009م.

73- نيتشه (1995): ترجمة: جيزيلا حجار. ما وراء الخير والشر، غروب في، بيروت.

74- هلسا، حنان (2009): الشخصية النّرجسية دراسة تحليلية في نظرية التّعلم الاجتماعي المعرفي والمدرسة، مؤتمر مركز الأوائل للتّأهيل النّفسي التّربوي. دمشق.

75- يوسف محمود، عماد الدّين (2013): ما هو "التفكير العلمي" وما هي سماته وخصائصه، محاضرة خاصة على صفحات الفيس بوك.

76- Depressive Disorders (1973): Towar A Unitfied hypothesis Science, Akiskal, H.S, & Mckinney W.T.

77- Wnener,A.E., & RehmL. P., (1973): Depressiveaffec: Atest of Behavioual Hypotheses. J. of Abnormal Psychology.

78- Leymann H, G Ustafsson. A. Mobbing at Work and - the Development of Post - Traccmatic Stress Disordess. European Journal of Work and Organizational Psychology.

79- Being, Thinking, Creating, Wher attacks the setting andr tretransfenae – counter - attacks the internatational of psychoanalysis volume (ممارسة التّحليل النفسي في ظروف الحرب عندما يلتقي واقع المحلل مع واقع المتحلل، ماري تريز خير بدوي).

80- Damon, William (1999) The Moval Development of Children, Avenve, Newyork.

81- Zautra, A (2003) Emotion, Stress, and Health Oxford University. K University press. your three year old, Susan D. Gottlieb.

الفهرس

تقديم الكتاب.. 5

مقدمة الكتاب بقلم المؤلفة................................. 9

فصل تمهيدي للدّراسة 13

1- نحو أفكار نفسيّة إيجابية لزمن عصيب........................ 13

2- الأنا المثالي (الشّفقة والنظرة الدّونية للآخر) 17

الفصل الأول: تأملات حول الحريّة والدّيمقراطية.................... 31

الانعكاسات النفسيّة للحريّة والدّيمقراطية............................. 31

الخوف من التغيير... 33

ظاهرة المعايشة التجاوزية... 46

الفصل الثّاني: مفهوم الهويّة وإشكاليات الانتماء والمواطنة 53

تمهيد 53

بوصلة الانتماء.. 54

توضيح الأبعاد للمفاهيم موضوع الدّراسة................................ 55

سلوك الخواء كأحد ملامح تفكك الهويّة............................. 66

اللغة ومفهوم بعد الهويّة.. 78

أبعاد أخرى في النظر للهويّة........................... 81
مفهوم الهويّة والمواطنة 85
الفصل الثّالث: ما بين خطابي العلم والدّين "مقاربة نظرية"............ 89
مقدمة حول المنظورين العلمي والدّيني..................... 89
التّباين ما بين المعرفة والحقيقة.......................... 94
الخطاب العلمي للواقع اليوم وصلته بالخطاب الدّيني 97
التّفكير العلمي وتقاطعاته مع التّفكير الدّيني..................104
الحتمية السّببية ومفهوم القدر..............................108
الضّرورات اللازمة لتقريب الخطابين العلمي والدّيني...............114
الفصل الرابع: التّكوين الثّقافي لبلادنا 123
مقدمة وتمهيد...123
ملابسات حول مفهومي الحريّة والدّيمقراطية.......................125
التّحليل النّفسي والنّظر للحريّة ومقاربة المفهوم على واقع مجتمعنا.........133
هل ثقافة التّحليل النّفسي تصلح كمنهج لحل مشاكلنا الاجتماعية؟ 139
هل لحرية التعبير حدود في ظل ديمقراطية الثّقافة؟...................142
حول الدّور المنتظر للثّقافة في بلادنا...............................147
الفصل الخامس: العنف السياسي وآثاره النفسية والاجتماعية 151
تعاريف ومصطلحات...151
الآثار النفسية للعنف السياسي......................................156
الاعتقال والتعذيب من أهم مظاهر العنف السياسي.......................157
أفكار نفسية علاجية ممكن العمل عليها مع المعتقلين السياسيين..........159

الفصل السّادس: تكون العقد النفسية عبر الولاء "عقدة ابراهام نموذجاً"........161
تمهيد 161
العنف توظيف في خدمة الأنا المثالي لكل منّا 166
الفصل السّابع: الإحباط السياسي والاجتماعي وآليات مقاومته 175
تمهيد 175
آليات مقاومة الإحباط وهدر الطاقة.....................183
الكدر والغضب والعنف مآل لكل إحباط.......................190
الفصل الثامن: التّعاطي السّياسي ما بين المعرفة والانفعال 193
تمهيد 193
التّعريف بالمعرفة الواعية والمعرفة المؤدلجة..................194
الفصل التاسع: الإدمان كظاهرة اجتماعية وكانحراف في السّلوك..........199
مقدمة..199
دواعي العمل على هذا الموضوع........................200
سيكولوجية الإدمان 201
العوامل المسببة للإدمان 203
المراحل الثّلاث التي يمر بها المدمن 205
الإدمان بين التّورط والصّدفة والخلل في البناء النّفسي 206
العلاقة بين الإدمان وحالات الهوس الاكتئابي....................210
حالات عيادية....................................212
الخطوات الأساسية لعلاج الإدمان...........................217
الفصل العاشر: مهارات التواصل الفعال والتربية على قبول الآخر 223

تمهيد 223
خطابات التحليل النفسي 226
سمات الاتصال الفعال.. 228
أخطاء الحوار 229
النقاط المؤثرة التي تسهم في إنجاح الحوار.. 231
معيقات التواصل 232
الفصل الحادي عشر: فعالية حضور المرأة وإشكالياته 235
مقدمة حول الذّكورة والأنوثة.. 235
إشكالات التربية الأسرية الحديثة.. 240
العنف واضطرابات العلاقة بين الجنسين.. 241
العنف ومعاناة المرأة المتواصلة.. 250
التّحليل النّفسي، للرّغبة والحب عند الجنسين.. 260
إشكالات التربية الأسرية كعائق للدّيمقراطية.. 264
مشاكل الأسرة المعاصرة 265
الآثار النفسية المختلفة من جراء تعرض المرأة للعنف.. 271
الفصل الثاني عشر: الذّكاء العاطفي والتربية على الدّيمقراطية 283
تمهيد 283
المقصود بالذّكاء العاطفي.. 283
وظائف العواطف.. 285
الأبعاد التي تتصل بالذّكاء 287
الشخصية النرجسية كعائق للعيش الدّيمقراطي.. 290

مقدمة حول حب الذات تبعاً لفرويد وجاك لاكان........................ 291
كيفية تكون الأنا 295
تشكل الشخصية النّرجسية.. 296
عالم النّفس "كيرنبرك" يحدد صفات الشّخص النّرجسي 297
النّرجسية عند المرأة.. 299
الشخصية النّرجسية المرضية... 300
الفصل الختامي: البعد عن ثقافة الاعتذار كعائق لعيش الدّيمقراطية 309
من الأمور المعيقة للاعتذار 310
العلاقة بين المقدرة على الاعتذار ومهارة الحوار 312
ما هي الحدود المنطقية لكي يعتذر المسؤول؟............................ 312
قائمة تعريف وشرح للمفردات والمصطلحات النفسية التّحليلية 319
المراجع العربية والأجنبية.. 347